العقيدة السلفية

في مسيرتها التاريخية
وقدرتها على مواجهة التحديات

تأليف

محمد بن عبد الرحمن المغراوي

القسم الخامس

قسم مواقف السلف

السنة السابعة والثلاثون بعد الخمسمائة
الأسباب الحقيقية لحرق إحياء علوم الدين
بأمر خليفة المسلمين ابن تاشفين .

دار المنار

الفهرس



التنضيد والمونتاج
دار الحسن للنشر والتوزيع
عمان: هاتف/فاكس (٦٤٨٩٧٥) ص.ب (١٨٢٧٤٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

العَقِيدَةُ السَّلَفِيَّة



الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ

تطلب جميع منشورات دار المنار من الإدارة
الرياض : ١١٤٤٨ ـ ص.ب : ٣٣٢١٢ ـ هاتف : ٤٢٥١٢٩٨
الخرج : ١١٩٤٢ ـ ص.ب : ١٣٨١ ـ هاتف : ٥٤٤١٩٧٣
بخصم من ٣٠ ـ ٣٥٪ وبخصم خاص ٤٠٪ للجمعيات الخيرية

دار المنار
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الرياض ١١٤٤٨ ـ ص.ب : ٣٣٢١٢
هاتف : ٤٢٥١٢٩٨

خطبة الكتاب

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَموتُنَّ إلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمونَ﴾.

﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثيراً ونِساءً واتَّقوا اللهَ الَّذي تَساءَلونَ بِهِ والأَرْحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكُمْ رَقيباً﴾.

﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقوا اللهَ وَقولوا قَوْلاً سَديداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنوبَكُمْ ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظيماً﴾.

وبعد؛ فنحمد الله تعالى إذ وفقنا لنتابع إخراج سلسلة «العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات».

وقد قسمت هٰذه السلسلة إلى خمسة أقسام كما سبق في الجزء الأول من القسم الخامس:

القسم الأول: التعريف بالعقيدة السلفية.

القسم الثاني: التعريف بأصول العقيدة السلفية.

القسم الثالث: دراسة تفصيلية للعقيدة السلفية مقرونة بأدلتها التفصيلية من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح رضي الله عنهم.

القسم الرابع: قسم التحديات وخطرها على الأمة الإسلامية.

القسم الخامس: قسم مواقف السلف، وهو الجزء الكبير من السلسلة؛ لأنه يبتدىء بالأنبياء ثم صحابتهم وأتباعهم حتى العصر الحاضر.

وهٰذا الجزء الذي نخرجه للقراء الكرام هو الجزء الثاني من القسم الخامس؛ فإنني أخرج كل جزء حسب الحاجة وما ييسره الله من إمكانيات تشجع على ذٰلك.

فإن إخراج هٰذا الجزء الذي سميته «الأسباب الحقيقية لحرق إحياء علوم الدين للغزالي» وكل كتاب بدعة على منواله له أهميته، وينبغي أن يعجَّل بإخراجه؛ لالتباسه على كثير من الناس، ولأنه قلما تجد بيتاً إلا وفيه نسخة من «إحياء علوم الدين» للغزالي، وربما لا يوجد في البيت إلا هٰذا الكتاب، فضلاً عن المكتبات الإسلامية العامة والخاصة، وأما الدعايات في المجلات وفي المحاضرات والدورس؛ فلا تسأل عن عددها وكيفيتها.

هٰذا بالنسبة للذين لا ينتمون إلى نِحلة التصوف، وأما المنتسبون إلى التصوف؛ فهو إنجيلهم وزبورهم المنزَّل، فلا تسأل عن مدحهم له، وعن حث الناشئة عليه، وعن تقريره منهاجاً لدروسهم وحلقاتهم.

وهٰذا الأمر ليس بالجديد، بل هناك دعاية حتى بما يخالف المعلوم عند المسلمين من الدين بالضرورة في قرآنهم وفي سنة نبيهم، وقد ألفوا في ذٰلك الكتب، كما ألف عبد القادر ابن شيخ بن عبد الله العيدروس كتابه المسمى «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء».

● **الكذب لترويج الخرافات:**

وهاك قصة من هٰذا الكتاب حتى تعلم جرأتهم ووقاحتهم على الله ورسوله والسلف الصالح؛ قال:

«وذكر اليافعي أيضاً أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن علي بن حرزهم الفقيه المشهور المغربي كان بالغ في الإنكار على كتاب «إحياء علوم الدين»، وكان مطاعاً مسموع الكلمة، فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ «الإحياء»، وهمَّ بإحراقها في الجامع يوم الجمعة، فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع، فإذا هو بالنبي ﷺ فيه ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي ﷺ، فلما أقبل ابن حرزهم؛ قال الغزالي: هٰذا خصمي يا رسول الله! فإن كان الأمر كما زعم؛ تبت إلى الله، وإن كان شيئاً حصل لي من بركتك واتباع سنتك؛ فخذ لي حقي من خصمي، ثم ناول النبي ﷺ كتاب «الإحياء»، فتصفحه النبي ﷺ ورقة ورقة من أوله إلى آخره، ثم قال: والله إن هٰذا لشيءٌ حسن! ثم ناوله الصديق رضي الله عنه، فنظر فيه، فاستجاده، ثم قال: نعم؛ والذي بعثك بالحق؛ إنه لشيء حسن! ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه، فنظر فيه، وأثنى عليه كما قال الصديق، فأمر النبي ﷺ بتجريد الفقيه علي بن حرزهم عن القميص، وأن يُضرب ويحدَّ حدَّ المفتري، فجُرِّد وضُرِب، فلما ضرب خمسة أسواط؛ تشفع فيه الصديق رضي الله عنه، وقال: يا رسول الله! لعله ظن فيه

خلاف سنتك فأخطأ في ظنه. فرضي الإمام الغزالي، وقبل شفاعة الصديق، ثم استيقظ ابن حرزهم وأثر السياط في ظهره، وأعلم أصحابه، وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالي، واستغفر، ولكنه بقي مدة طويلة متألماً من آثار السياط، وهو يتضرع إلى الله تعالى ويتشفع برسول الله ﷺ، إلى أن رأى النبي ﷺ دخل عليه، ومسح بيده الكريمة على ظهره، فعوفي وشفي بإذن الله تعالى، ثم لازم مطالعة «إحياء علوم الدين»، ففتح الله عليه فيه، ونال المعرفة بالله، وصار من أكابر المشايخ أهل العلم الباطن والظاهر رحمه الله تعالى»(١).

التعليق على هذه القصة الباطلة:

من قرأ هذه القصة، وقرأ الناقلين لها في كتبهم، والمصادر التي تنقلها؛ علم المخطط الكبير الذي خُطِّط لضرب الإسلام والمسلمين.

فكيف ينقل هذا في كتب المسلمين وهو مخالف للمعلوم عند المسلمين من الدين بالضرورة؟!

فمتى كان النبي ﷺ يقرأ ويكتب، والأمية من معجزاته، والله تبارك وتعالى أثبت ذلك في كتابه، فقال: **﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾**(٢).

قال الحافظ ابن كثير عند هذه الآية:

«أي: قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً؛ لا تقرأ كتاباً، ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة؛ كما قال

(١) (ص ٤ ـ الملحق). (٢) العنكبوت: ٤٨.

تعالى: ﴿الذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الذي يَجِدُونَهُ مَكتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوراةِ والإنجِيلِ يأمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ ويَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ﴾.

وهٰكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين؛ لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده، بل كان له كتَّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم.

ومَن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية: «هٰذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله...»؛ فإنما حمله على ذٰلك رواية في «صحيح البخاري»: «ثم أخذ فكتب»، وهٰذه محمولة على الرواية الأخرى: «ثم أمر فكتب»، ولهٰذا اشتدَّ النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا منه، وأنشدوا في ذٰلك أقوالاً، وخطبوا به في محافلهم، وإنما أراد الرجل ـ أعني: الباجي ـ فيما يظهر عنه: أنه كتب ذٰلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يحسن الكتابة؛ كما قال رسول الله ﷺ إخباراً عن الدجال: «مكتوب بين عينيه (ك ف ر)، يقرأها كل مؤمن».

وما أورده بعضهم من الحديث: أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة؛ فضعيف لا أصل له»[1] انتهى.

وعلى فرض ـ وهو من فرض المستحيل ـ أن النبي ﷺ كان يقرأ ويكتب، وعرض عليه «الإحياء» وهو في حياته قائم بذاته ﷺ، وقرأ الكتاب من أوله إلى آخره، ولم يجد فيه ولا خطأً واحداً؛ فلا شك أن هٰذا الكتاب ملحق بالقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وملحق بكلام

---

(1) (٣ / ٤١٧).

النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ولا يخرج من شفتيه إلا الحق؛ فإذن هو الوحي الثالث، وأعوذ بالله من قصة كانت هٰذه نتيجتها؛ أي: ادعاء النبوة.

فالرسول ﷺ كان أصحابه الكرام يعرضون عليه كثيراً من أعمالهم وأقوالهم، فكان يخطِّىء بعضاً ويصوِّب البعض الآخر؛ كما وقع في تأويل الرؤيا التي تأولها أبو بكر؛ كما في «الصحيح» للإمام أبي عبد الله البخاري؛ قال رحمه الله: حدثنا يحيى بن بكير: حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يحدث: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ، فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظلة تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكفَّفون منها، فالمستكثر والمستقل، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع ثم وصل. فقال أبو بكر: يارسول الله! بأبي أنت، والله؛ لتدعَنِّي فأعبرها. فقال النبي ﷺ له: «اعبرها». قال: أما الظلة؛ فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن؛ فالقرآن حلاوته تنطف، فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض؛ فالحق الذي أنت عليه؛ تأخذ به فيعليك الله، ثم يأخذ به رجل فيعلو به، ثم يأخذ رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ به رجل فينقطع به ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبت أم أخطأت؟ قال النبي ﷺ: «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً». فقال: فوالله يا رسول الله؛ لتحدثني بالذي أخطأت. قال: «لا تقسم»[1].

وغير هٰذا من الأمثلة كثير في تخطئته ﷺ لأصحابه البررة، ولكن عقيدة

(١) «فتح الباري» (١٢ / ٤٣١).

الصوفية أن الولاية فوق النبوة؛ كما قرر ذلك إمامهم ابن عربي وغيره من أئمة الضلالة.

وهل قرأ النبي ﷺ ما في «الإحياء» من الأحاديث التي لا أصل لها، وعددها كثير، وصل إلى تسع مئة وبضعة وأربعين، وأما الموضوعة؛ فهي التي تملأ الحيز الكبير من «الإحياء»، وأما الضعيفة؛ فهي السياج الذي يغطي «الإحياء»، وأما الكذب على السلف من صحابة وغيرهم؛ فلا تسأل عن مقداره؛ فـ «الإحياء» مخبأة لكل كذب على السلف؟!

فأين ما تواتر عنه ﷺ: «من كذب علي متعمداً؛ فليتبوأ مقعده من النار»؟! فهل تراجع رسول الله ﷺ عن هذا الحديث أم ماذا؟! فليجبنا الصوفية ومحبوهم.

وهل اطلع ﷺ على الطامات الكبرى والبلايا العظمى التي شبك بها الغزالي «إحياءه» من أوله إلى آخره؟!

فلو أقره رسول الله ﷺ كما يزعم هؤلاء الكذبة؛ لبطلت نبوته ورسالته، وكان كاذباً في كل ما دعا إليه من إخلاص التوحيد لله تعالى وتعظيمه وتقديره حق قدره، وأعوذ بالله من كلام تكون نتيجته هكذا!

ومن كذب فيما ذكرت؛ فليطالع هذا البحث المبارك من أوله إلى آخره، وليرجع بنفسه إلى كتاب «الإحياء»، وليقرأه بتدبُّر وتمعُّن؛ متجرداً من الأهواء السابقة واللاحقة، ومتخلياً عن كل الحبال الشيطانية، التي هي منطلق كل صوفي ومتعاطف مع الصوفية بغير حجة وبرهان ودليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولو تتبعنا ما كتبه المخرفون في مدح «الإحياء»؛ لسوَّدنا صحائف

كثيرة، وما في ذٰلك إلا الإثقال ومضيعة الوقت للقراء؛ لأن الباطل كثير، والمقبلون عليه أكثر، ولو ميز الناس بين الحق والباطل؛ ما أقبل الناس على كتب البدع والضلالات التي لها الرواج الكبير في جميع أنحاء العالم الإسلامي، بل معظم الكتاب المعاصرين يستقون معلوماتهم من مثل هٰذه الكتب، ويظنون أنهم يحسنون صنعاً.

ولهٰذا نجد الكثير من الكتاب المعاصرين، لو سئل أحدهم عن «الإحياء» ومثله؛ لأثنى وعظم وقال: مثلي يسأل عن «الإحياء»؟! هٰذا إن كان بعيداً عن التيار الصوفي، أما إن كان منهم؛ فكما قدمت.

كل هٰذا دعاني إلى إخراج هٰذا الجزء اليسير؛ ليطلع عليه القراء الكرام، ويزنوه بالميزان العلمي النزيه، الذي لا جور فيه ولا ظلم، وما قلت شيئاً من عندي، وإنما أنا مقتدٍ بمن ذكرت من شهادة العلماء.

على أن أبا حامد رحمه الله قد رجع عن كل ما كتبه، وكره ذٰلك، وأقبل على قراءة «صحيح البخاري» وبقية كتب الحديث، وحسن حاله.

فلهٰذا حديثنا عن «الإحياء» وصاحبه الغزالي؛ أقصد به الغزالي قبل توبته ورجوعه وهو متلبس بصوفيته، أمَّا الغزالي الذي أقبل على «صحيح البخاري» و«سنن أبي داود» وغيرها؛ فهٰذا نترحم عليه، وندعو له ولسائر المسلمين الأحياء منهم والأموات بالرحمة والمغفرة.

وللتأكد مما ذكرت أنقل ما نقله الخبراء في كراهية أبي حامد لكل ما كتبه في كتبه.

● **أبو حامد الغزالي وكراهيته لكل ما كتب:**

قال الحافظ الإمام أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية في «شرح العقيدة الأصفهانية»:

«وقد وقع في كلام أبي حامد وغيره نحوٌ من هٰذا في مواضع أخر، حتى ذكر فيما يتأول وما لا يتأول أن ذٰلك لا يعلم إلا بتوفيق إلهي يشاهد به الحقائق على ما هي عليه، ثم ينظر في السمع والألفاظ الواردة فيه، فما وافق مشهوده؛ أقره، وما خالفه؛ تأوله، وذكر في موضع آخر أن الواحد من الأولياء قد يسمع كلام الله سبحانه كما سمعه موسى بن عمران، وأمثال هٰذه الأمور، ولهٰذا تبين له في آخر عمره أن طريق الصوفيَّة لا تحصل مقصوده، فطلب الهدى من طريق الآثار النبويَّة، وأخذ يشتغل بالبخاري ومسلم، ومات في أثناء ذٰلك على أحسن أحـواله، وكان كارهاً ما وقع في كتبه من نحو هٰذه الأمور ممَّا أنكره الناس عليه»(١).

* **التعليق:**

أقول: وقد ثبتَ هٰذا عن غير واحد من المؤرخين للغزالي، وأنَّه أقبل على «الصحيحين» وبقية كتب الحديث؛ فلماذا ينصح المعاصرون بقراءة كتب الغـزالي وقد نسخها بما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره بالإقبال على «صحيح» البخاري ومسلم؟! فلماذا لا يكونون مثلهُ، فينصحون الناس بقراءة البخاري ومسلم وبقية كتب الحديث والتفسير السلفي والعقيدة السلفية وكل ما له صلة بذٰلـك من علم نافع، ويحذرونهم من كتب الدجل والخُرافات والفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وكل ما فيه مضيعة لدينهم ودنياهم، حتى يحفظوا عليهم دينهم، وتُستغلّ أعمارهم وأوقاتهم، لا كما وقع للغزالي، حتى ملأ الأمة ضلالاً، ثم رجع عن ذٰلك؟!

فينبغي للمعتبر أن يعتبر بالغزالي وأمثاله ممَّن قضوا حياة طويلة؛ كما وقع لبني إسرائيل الذين تاهوا أربعين سنة عقاباً من الله؛ لأنهم تمردوا على

(١) (ص ١٧٣).

النبوة وعلى علمها؛ فكذٰلك النشأة والعلماء إذا لم يتمسكوا بعلم النبوة؛ تاهوا بِمثل ما تاه به الغزالي، ولو لم يتداركه الله بلطفه الخفي؛ لاستمرَّ على ذٰلك إلى الممات، ولعل حُسن قصده وحُسن نيته كان سبباً له في الخير، فتداركه الله بلطفه، فتاب ورجع وكره ما كتبه من ضلال.

ومعظم المسلمين لا ينتبهون لهٰذا؛ فهم متعصبون ومستميتون على هٰذه الكتب، يدافعون عمَّا فيها من الأخطاء، ويتأوَّلون ما فيها من الكفريَّات والضَّلالات، ويعتذرون للمؤلفين بأعذار لا مبرر لها ولا قبول عند من له خبرة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبالمنهاج السلفي الصحيح.

وأضيف: من الأشياء التي دفعتني إلى إخراج هٰذا الجزء من العقيدة السلفية ما هو شائع في الكتب وعلى ألسنة الناس أن إحراق «إحياء علوم الدين» كان لسبب سياسي لا أقل ولا أكثر، ومن قراءة ما كتبته تتبين تفاهة هٰذه الفكرة التي هي من وضع المخرفين والمستشرقين وأذنابهم الذين يحرصون على بقاء المسلمين في غفلتهم وضلالهم.

والأسباب الحقيقة لحرق «إحياء علوم الدين» وكل كتاب ضلالة مثله أربعة أسباب:

السبب الأول: الكذب على النبي ﷺ والصحابة والتابعين بإحسان.

السبب الثاني: كتاب «إحياء علوم الدين» هو الأصل الكبير لكل بدعة منتشرة في الصوفية وفي غيرهم.

السبب الثالث: ما في الكتاب من طامات وضلالات عقدية.

السبب الرابع: شهادة علماء الكتاب والسنة في «الإحياء» وأنّه كتاب ضلالة يجب إحراقه وإبعاده عن المسلمين حتى لا يضلوا بضلاله.

تمهيـــــد

هٰذا التيار الجديد الذي دخل على الإسلام، والذي كان الغرض منه هو هدم الكيان الإســلامي، وتشتيت شمله، وتمـزيق وحـدتـه، وتشـويه شخصيّته وثقافته، وإدخال أهله في متاهة لا يمكن أن يخرجوا منها، وقلب حقائق الخلق والخليقة، ومسخ العقول البشرية، ورفع ستار الفكر والتفكير، وإذهاب العقل والعقلاء، وفتح الباب لكل رافد من روافد الشر دون توقف طيلة العصور الإسلامية، وهو لعمر الله حيلة وكيد ومكر وخداع لا يمكن أن يعرفه إلا من قرأ تاريخه ومبادئه.

وأرى من المنـاسب قبل الكلام على «إحياء» أبي حامد الغزالي أن أصدر البحث ببعض المسائل ذات الأهمية للتعرف على هٰذه النحلة الخبيثة الباطلة.

● المسألة الأولى:

هٰذه التسمية ـ أي: الصوفيّة ـ غريبة على اللغة العربية وعلى الشريعة الإسلامية، واختلف الأقدمون والمتأخرون في أصلها، وبعد قراءتي لأقوال المختلفين، لا أستـطيع أن أخرج بنتيجة للتسمية؛ لأنَّني لا أجد ميزاناً لغوياً أو

عقلياً أو شرعياً أستطيع أن أرجح به. هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرى: اختلف أيضاً متى بدأ زمانه، فذكر ابن تيمية وسبقه ابن الجوزي وابن خلدون في هٰذا: أن لفظ الصوفية لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة الأولى، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ؛ كالإمام أحمد، وأبي سليمان الداراني... وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنّه تكلم به، وبعضهم يذكر ذٰلك عن الحسن البصري[1].

وقال السراج الطوسي في الباب الذي خصصه للرد على من قال: «لم نسمع بذكر الصوفيّة في القديم، وهو اسم مستحدث»؛ يقول في هٰذا الباب:

«إن سأل سائل فقال: لم نسمع بذكر الصوفيّة في أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين ولا في من كان بعدهم، ولا نعرف إلا العباد، والزهاد، والسياحين، والفقراء، وما قيل لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ صوفيّ.

فنقول وبالله التوفيق: الصحبة مع رسول الله ﷺ لها حرمة وتخصيص، من شمله ذٰلك؛ فلا يجوز أنْ يعلق عليه اسم على أنّه أشرف من الصحبة، وذٰلك مرتبة لشرف رسول الله ﷺ وحرمته، ألا ترى أنّهم أئمة الزُهَّاد والعُبَّاد والمتوكلين والفقراء الراضين والصابرين والمخبتين وغير ذٰلك، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله ﷺ، فلما نسبوا إلى الصحبة، والتي هي أجل الأحوال؛ استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجل الأحوال. وبالله التوفيق.

---

(١) «الصوفية والفقراء» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٥)، و«مقدمة ابن خلدون» (ص ٤٦٧)، و«تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص ١٥٧).

وأما قولُ القائل: «إنّه اسم محدث، أحدثه البغداديون»؛ فمحال؛ لأن في وقت الحسن البصري رحمه الله كان يُعرف هٰذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وقد روي عنه أنه قال: «رأيت صوفياً في الطواف، فأعطيته شيئاً، فلم يأخذه، وقال: معي أربعة دوانيق، يكفيني ما معي».

وروي عن سفيان الثوري رحمه الله أنّه قال: «لولا أبو هاشم الصوفيّ؛ ما عرفت دقيق الرياء».

وقد ذكر في الكتاب الذي جمع فيه أخبار مكة عن محمد بن إسحاق ابن يسار وعن غيره يذكر فيه حديثاً أنّه قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفيّ، فيطوف بالبيت وينصرف، فإن صح ذٰلك؛ فإنّه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هٰذا الاسم، وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح، والله أعلم»(1).

قلت: كل هٰذا لا يُستفادُ منه أنّ هٰذا الاسم كان معروفاً في الصدر الأول، فما ظهر حتى تمكن وتركز الدخلاء في الإسلام، ومن رجع إلى تراجم الرجال في الجرح والتعديل ـ وهي العمدة ـ والذي يمكن أن يقال فيه: إنّه استقراء للأسماء الطيبة والقبيحة؛ فلا نجدهم عَدَّلوا أو جَرَّحُوا بهٰذا الاسم.

● **المسألة الثانية:**

الذي ينبغي أن يعلم أن التصوف مادته ومصدره مأخوذة من الديانات

---

(1) «اللمع» للطوسي (ص ٤٢ ـ ٤٣).

المحرفة السابقة، ومن المذاهب الهدامة القديمة، وسنتبين ذٰلك إنْ شاء الله عند أخذ نماذج من كتاب «إحياء علوم الدين» وغيره، فنبيّن مصادره وبلاياه وترهاته التي ملأ بها كتابه: فالمسيحية وضلالها جليّة جدّاً في التصوف، واليهوديّة المحرفة واضحة في التصوف، والبوذيّة الهالكة الساقطة لا تخفى على من له علمٌ بها في التصوف، والأفلوطينية الحديثة جليَّة وواضحة لا تخفى، وأما التشيع؛ فهو العمود الفقري والسائل الدموي للتصوف، فمن قرأ التصوف وأمعن النظر؛ يجد أن أصول التشيع قد امتدّت فروعها، ومثلها المتصوفة أحسن تمثيل، وسيتضح لنا ذٰلك إنْ شاء الله في حينه بالأمثلة.

لأن الإسلام الذي هو الكتاب والسنة لا يحتاج إلى إضافة من هٰذه الروافد؛ لأنّها تخالف المنهاج الصحيح الذي جاء به، فمن درس الإسلام واستوعبه، ودرس سيرة رسول الله ﷺ العمليّة وسيرة أصحابه والسلف الصالح بعدهم؛ فلا يحتاج مع هٰذا إلى هٰذه التخبطات المزرية الباردة.

● **المسألة الثالثة:**

إنّ التصوف كان نقمة على المسلمين طيلة تاريخه؛ فبالإضافة إلى أنَّه شتت شملهم، وبدّد وحدتهم، وشوّه سمعتهم؛ فإنّه أقعدهم عن أهم فريضة جاء بها الإسلام، ألا وهي فريضة الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاستعداد الكامل بجميع القوى التي يمكن أنْ يكتسبها المسلمون، فأمرهم بالانزواء والخلوات والأذكار الكاذبة، وجعل من أسس منهاجه الجوع والعطش، والهيام في البراري والقفار، والذهاب إلى الخراب، وستأتي على ذٰلك أمثلة إنْ شاء الله، وجعلهم يعيشون على الأماني والأكاذيب التي لا أصل لها لا في عقل ولا دين، وأصبح المتصوف همّه الوحيد أنْ تُكشف له الحجب، وأنْ تشرق له الأنوار، وأنْ يسمع الأحاديث

من وراء حجاب، وأن يصل إلى ما وصل إليه شيخه من الأسرار الباطنية، بل يتمنى أن يصل إلى مرتبة رفع التكاليف الشرعية؛ فلا صلاة، ولا صيام، ولا حلال، ولا حرام!

● **المسألة الرابعة:**

كتب الكثيرون عن الغــزالي وشخصيّتـه ومؤلفـاتـه، المستشـرقـون والمسلمون، وكل واحد درس الغزالي على حسب تكوينه وعقيدته، فمنهم من حلله ودرسه من المنظار الفلسفي، ومنهم من درسه من المنظار الكلامي، ومنهم من درسه من المنظار الصوفي، وأنّه شيخ الصوفيَّة الذي قعَّد مذهبهم.

وأما الدراسة من المنظار السلفي؛ فلم أر فيها إلا مواقف القدامى، ومنهم الذهبي، الذي سننقل كلامه فيما بعد إنْ شاء الله، ودراسة جادة بعنوان «أبو حامد الغزالي والتصوف» للأستاذ عبد الرحمٰن دمشقية، وقد طبع الكتاب في دار طيبة للنشر، وهو كتاب مفيد جدّاً، وقد استفدتُ منه الكثير؛ غير أني كان لي بحث سبقته به ضمنته «العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات»، وهو الذي نخرجه للقراء، حتى إنّه كانت لي نية في تخصيص أطروحة الدكتوراه للغزالي وكتابه «الإحياء»، ويشاء الله أنْ آخذ هٰذا الموضوع الواسع، ويكون الغزالي وكتابه «الإحياء» ضمن هٰذه السلسلة المباركة التي نخرجها للقراء. هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرى؛ فإن الدراسة لكتب الغزالي وبيان ما فيها من الأخطار العقدية على المسلمين فرض على من تأهل لذٰلك، وإلا يكون داخلاً في كتمان ما أوجب الله بيانه:

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ

﴿بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[1].

وقد صح عن رسول الله ﷺ ـ كما في «السنن» و «المسند» ـ من طريق ابن عباس وابن عمرو: «من كتم علماً عن أهله؛ ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

وكما جاء في «البخاري» ترجمة، ورواه الدرامي في «مسنده» ـ كما ذكر الحافظ في «الفتح» ـ من طريق الأوزاعي: حدثني أبو كثير ـ يعني: مالك بن مرثد ـ عن أبيه؛ قال: «أتيت أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطى وقد اجتمع عليه الناس يستفتونه، فأتاه رجل، فوقف عليه، ثم قال: ألم تنه عن الفتيا؟ فرفع رأسه إليه، فقال: أرقيب أنت علي؟! ولو وضعتم الصمصامة على هٰذه ـ وأشار إلى قفاه ـ، ثم ظننتُ أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي ﷺ قبل أن تجيزوا علي؛ لأنفذتها»[2].

هٰكذا كان السلف مثالاً في بيان الحق مهما كلفت الظروف، ولو بوضع السيف على القفا وأخذ الرأس برمته؛ فيجب علينا أن نقتدي بهم، وأنْ نأخذ مواقفهم درساً لنا؛ فلا نسكت على باطلٍ مكتوب، أو مقروء، أو مسموع، أو مرئي.

وقد ضرب الإمام ابن تيمية رحمه الله بسهم كبير وافر في بيان ما في مؤلفات الغزالي من ضلال وباطل، وأنقل من ذٰلك على سبيل المثال لا الحصر:

جاء في «درء تعارض العقل والنقل» في الكلام على كتاب الغزالي

---

(١) البقرة: ١٥٩.

(٢) «فتح الباري» (١ / ١٦٠ ـ ١٦١).

«مشكاة الأنوار» ـ وهو كتاب مطبوع صغير متداول عند الناس ـ؛ قال رحمه الله في معرض الكلام على العقول العشرة:

«والكلام على فساد هٰذا يطول، ليس هٰذا موضعه، ولولا أنَّ هٰذا وأمثاله هو مِنْ أسباب ضلال كثير مِنَ الداخلين في العلم والعبادة، إذ صاحب كتاب «مشكاة الأنوار» إنما بنى كلامه على أصول هٰؤلاء الملاحدة، وجعل ما يفيض على النفوس من المعارف من جنس خطاب الله عزَّ وجلَّ لموسى بن عمران النبي ﷺ؛ كما تقوله القرامطة عن الباطنية ونحوهم من المتفلسفة[(١)].

ويقول: «إنَّ خاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول»، وهٰذا على أصل هٰؤلاء الفلاسفة الملاحدة الذين يجعلون الملائكة ما يتمثل في نفس النبي من الصور الخيالية النورانية، وكلام الله ما يحصل في نفسه من ذٰلك؛ فالنبي عندهم يأخذ عن هٰذه الأمثلة الخيالية في نفسه الدالة على العلم العقلي، والولي يأخذ العلم العقلي المجرد، ولهٰذا يجعلون تكليم الله لأحدهم أفضل من تكليمه لموسى ابن عمران؛ لأن موسى كلِّم عندهم بحجاب الحرف والصوت؛ أي: بخطاب كان في نفسه، ليس خارجاً عن نفسِهِ، ويقول بعضهم: «كُلِّم من سماء عقله»، وأحدهم يُكلّم بدون هٰذا الحجاب، وهو إلهامه المعاني المجردة في نفسهِ[(٢)].

وصاحب «خلع النعلين»[(٣)] وأمثاله يسلكون هٰذا المسلك.

---

(١) (٣ / ٣١٧).

(٢) انظر ما ورد في هٰذا الكتاب من قبل (٥ / ٢٢) وانظر تعليقي (٥ / ٢٣ / ت١).

(٣) وهو ابن قسي.

وهٰؤلاء أخـذوا من «مشكاة الأنوار»[1] التي بناها ووضعها على قانون الفلاسفة، وجعل تكليم الله لموسى من جنس ما يلهمه النفوس من العلوم».

وقال رحمه الله في معرض الرد على ابن رشد: «فيقال: هٰذا الرجل يرى رأي ابن سينا ونحوه من المتفلسفة والباطنية الذين يقولون: إنَّ الرسل أظهـرت للناس في الإيمان بالله واليوم الآخر خلاف ما هو الأمر عليه في نفسه؛ لينتفع الجمهور بذٰلك؛ إذ كانت الحقيقة لو أظهرت لهم؛ لما فُهم منها إلا التعطيل، فخيَّلوا ومثَّلوا لهم ما يناسب الحقيقة نوع مناسبة على وجه ينتفعون به، وأبو حامد في مواضع يرى هٰذا الرأي، ونهيه عن التأويل في «إلجام العوام» و «التفرقة بين الإيمان والزندقة» مبني على هٰذا الأصل، وهٰؤلاء يرون إقرار النصوص على ظواهرها هو المصلحة التي يجب حمل الناس عليها، مع اعتقادهم أنَّ الأنبياء لم يبيّنوا الحق، ولم يورّثوا علماً ينبغي للعلماء معرفته، وإنَّما المورِّث عندهم للعلم الحقيقي هم الجهمية والدهرية ونحوهم من حزب التعطيل والجحود.

وما ذكره هٰذا في النور أخذه من «مشكاة» أبي حامد[2].

وقد دخل معهم في هٰذا طوائف ممَّن راج عليهم هٰذا الإلحاد في أسماء الله وآياته من أعيان الفقهاء والعبَّاد.

وكل من اعتقد نفي ما أثبته الرسول؛ حصل في نوع من الإلحاد بحسب ذٰلك، وهٰؤلاء كثيرون في المتأخرين، قليلون في السلف، ومن تدبر كلام كثير من مفسِّري القرآن وشارحي الحديث ومصنِّفي العقائد النافية والكلام؛ وجد فيه من هٰذا ما يتبيَّن له به حقيقة الأمر».

---

(١) وهي رسالة لأبي حامد الغزالي.

(٢) أي: كتاب «مشكاة الأنوار».

وقال في موضع آخر:

«وقوله في النور: «إنَّه محسوس تعجز الأبصار عن إدراكه وكذلك الباطن»: ليس كذلك، بل موصوف بالسلوب التي لا يحصل منها إلا الجهل والحيرة والضلالة، ومنتهاهم أن يثبتوا وجوداً مطلقاً لا حقيقة له إلا في الذهن لا في الخارج، وهذا منتهى هؤلاء المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من المتصوفة أهل الوحدة والحلول والاتحاد ومن ضاهاهم من أصناف أهل الالحاد.

وأصل ضلال هؤلاء أنَّهم لم يُثبتوا وجوداً للرب مبايناً للمخلوقات متميزاً عنها، بل اعتقدوا أن هذا منتفٍ؛ لكونه يقتضي ما هو منتف عندهم من التحيز والجهة.

قال [1]: «وأيضاً؛ فإن الله تبارك وتعالى [2] لما كان سبب الموجودات وسبب إدراكنا لها، وكان النور مع الألوان هذه صفته؛ أعني: أنه سبب وجود الألوان [بالفعل] [3] وسبب رؤيتنا لها؛ فبالحق [4] ما سمَّى الله [5] نفسه نوراً، وإذا قيل: إنه نور؛ لم يعرض شك في الرؤية التي جاءت في المعاد» [6].

قلت: هذا الرجل سلك مسلك صاحب «مشكاة الأنوار»؛ فإن ذلك الكتاب موضوع على قواعد هؤلاء المتفلسفة، وابن رشد هذا يمدح كلامه في

(١) بعد كلامه السابق مباشرة (ص ١٧٥).

(٢) مناهج الأدلة: «سبحانه تعالى».

(٣) (بالفعل): ساقطة من الأصل، وأثبتها من «مناهج الأدلة».

(٤) في الأصل: «فالحق»، والمثبت من «مناهج الأدلة».

(٥) «مناهج الأدلة»: «الله تبارك وتعالى».

(٦) «مناهج الأدلة»: «الميعاد».

«مشكاة الأنوار» وما كان مثله مما وافق فيه الفلاسفة، والمسلمون يقدحون في كلامه الذي وافق فيه الفلاسفة، ويمدحون من كلامه ما وافق فيه المسلمين وناقض به الفلاسفة؛ فما يمدحه به أهل العلم والإيمان، يذمه به هٰذا وأمثاله، وينشد [1] :

يومــاً يَمــانٍ إذا ما جِئْــتُ ذا يَمَــنٍ
وإنْ لَقِــيتُ مَعَــدِّيّاً فَعَــدْنَــان [2]

وما يمدحه به أهل العلم والإيمان يذمه به هٰؤلاء.

وقد ذكر في «مشكاة الأنوار» ما يناسب ما ذكره هٰذا في النور، ومن هنا دخل الملحدون من الاتحادية الذين قالوا بوحدة الوجود، وقالوا: إن الخلق مجالٍ [3] ومظاهر؛ لأنَّ وجود الحق ظهر فيها وتجلى، فجعلوا نفس وجوده هو نفس ظهوره وتجليه.

ومن المعلوم أنَّ الشيء يكون موجوداً في نفسه، ثمَّ يظهر ويتجلى تارةً ويحتجب أخرى، سواء كان تجليه لوجود سبب الرؤية في الرائي ـ كالأعمى إذا صار بصيراً ـ أو لزوال المانع في الظاهر ـ كالحُجُب المانعة ـ أو لهما جميعاً.

وهٰؤلاء جعلوا وجود الحق في المخلوقات هو نفس ظهوره وتجليه فيها وسموها مجالِيَ ومظاهر، وذٰلك لأن حقيقة قولهم أنه ليس موجوداً في الخارج، ولكنهم يظنون أنهم يعتقدونه موجوداً في الخارج، فإذا شاهدوا

---

(١) أي: وينشد ابن رشد في الغزالي.

(٢) البيت لعمران بن حطان الخارجي، كتبه لعبد الملك بن مروان، وذكره المبرد في «الكامل» (٢ / ١١٠ ـ ط. التجارية ١٣٦٥ هـ) وفيه: «إذا لاقيت»، والبيت من بحر البسيط.

(٣) في الأصل: «مجالي».

الـوجـود السـاري في الكائنات؛ ظهر لهم هٰذا الوجود، وهم يظنونه الله، فسمّوها مظاهر ومجالي؛ لأنها أظهرت لهم ما ظنوا أنَّه الله.

ولـو أنَّهم جعلوهـا آياتٍ أظهرت لهم وبيَّنت ما دلت عليه من وجوده وعلمه وقدرته ورحمته وحكمته، مع علمهم بأن وجوده مباين لوجودها؛ لكانوا مهتدين.

وما ذكره هٰذا الرجل موافقاً فيه لصاحب «المشكاة» أن النور سبب وجود الألوان وسبب إدراكنا لها كما أن الله سبب وجود الموجودات وسبب معرفتنا بهـا؛ ليس بمستقيم؛ فإن الألوان موجودة في نفسها، سواء أدركناها أو لم ندركها[1]، وهي في نفسها مستغنية عن النور، ولكن النور شرط في إدراكنا لها لا في وجودها.

وليس المخلوق مع الخـالق كذٰلـك، بل الخالق هو المبدع لأعيان المـوجودات، وليس هو معها كالشرط مع المشروط ونحو ذٰلك ممَّا يقتضيه كلام هٰذا الـرجـل في «تهافت التهافت» وكلام أمثاله من هٰؤلاء المتفلسفة الاتحـادية وغيرهم، الـذين يجعلونـه مع المـوجـودات كالمادة مع الصورة وكالصورة مع المادة، كالكلي مع الجزئي، كالجنس مع النوع أو النوع مع الشخص... ونحـو ذٰلـك من التمثلات التي يقتضى أنه مفتقر إليها وهي مفتقرة إليه، وكل منهما مع الآخر كالشرط مع المشروط؛ كما قد بين ذٰلك صاحب «الفصوص» وغيره».

وجـاء في «درء التعـارض» في الكلام على كتاب الغزالي المسمى بـ «المضنون به على غير أهله» قول ابن تيمية رحمه الله:

---

(١) في الأصل: «نذكرها»، وهو تحريف.

«ثمَّ أعجب من هٰذا كله أنكم تقولون: «الفلسفة هي التشبه بالإلٰه على قدر الطاقة»، ومن هنا دخل من وافقكم في إثبات تشبه العبد بالرب في الذات والصفات والأفعال؛ كصاحب الكتب المضنون بها على غير أهلها، ومن مشى خلفه من القائلين بالوحدة المطلقة والاتحاد، وقالوا: إن الإنسان مثل الله، وإنَّ قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ المراد أنَّه ليس كالإنسان الذي هو مثل الله شيء. ويقولون: إنَّ الفلك يتحرك تشبهاً بما فوقه، فيجعلون العبد قادراً على أن يتشبه بالله أو يتشبه بالعقل المشبه لله»[1].

وجاء في معرض آخر قوله رحمه الله:

«ولهٰذا وقع في كلام صاحب الكتب المضنون بها على غير أهلها وصاحب «نهاية الإقدام» ونحوهما من كلام هٰؤلاء الذين يجعلون الفرق بين الغيب والشهادة هو الفرق بين المحسوس وبين المعقول: أنواع من جنس كلام الملاحدة الباطنية أو ملاحدة الشيعة كما يوجد في كلام صاحب «الملل والنحل» و«نهاية الإقدام»، وقد قيل: إنَّه صنَّف تفسيره سورة يوسف على مذهب الإسماعيلية ملاحدة الشيعة، وإما ملاحدة الباطنية المنسوبين إلى الصوفيَّة.

ومن هنا دخل أهل وحدة الوجود وأمثالهم من ملاحدة النسَّاك المنتسبين إلى التصوف، وكل من هٰؤلاء وهٰؤلاء يؤول به الأمر إلى مخالفة صريح العقل والنقل.

لكن هٰذا يحيل على علم الإمام المعصوم، وهٰذا يحيل على معرفة الشيخ المحفوظ، حتى يدَّعي كل منهما فيمن يحيل عليه ما هو أعظم من

---

(١) (٥ / ٨٢ - ٨٣).

مقام الأنبياء، مع أنَّ الذي يحيل عليه لا بدَّ أن يكون فيه من الكذب والجهل والظلم ما لا يعلمه إلا الله، وأحسن أحواله أنْ يكون كثير من كذبه جهلاً منه وضلالاً لم يتعمد فيه خلاف ما يعلمه من الحق؛ كضلال كثير من النصارى أهل الأهواء.

والمقصود أنَّه بهٰذا يتبيَّن أنَّ خطأهم في العقل وما يسمونه معقولات ودعواهم وجود أمور معقولات خارجة عن العاقل».

وأنت إذا قرأت هٰذه الأقوال من هٰذه الكتب المطبوعة المنتشرة في العالم الإسلامي؛ علمت عقيدة أبي حامد وفكره ومنهاجه، وما كان عليه من علم، ولو تتبعت ما كتبه ابن تيمية في سائر كتبه على الغزالي لبلغ ذٰلك مجلدات وأكتفي بالأمثلة؛ لأن الذي يهمني هو معرفة حال كتب الغزالي.

على أنَّ الغزالي نفسه قد تراجع عن كل ما كتبه، وندم على ذٰلك، وأقبل على «الصحيحين» و«سنن أبي داود»؛ كما أثبت ذٰلك شيخ الإسلام ابن تيمية؛ كما سيأتي ذٰلك إنْ شاء الله في الكلام على «إحياء علوم الدين» للغزالي.

وكثير من الناس لا يفهمون مقاصدنا أو يفهمون ويغلطون الناس وينسبوننا إلى الكلام في هٰؤلاء، وقد ذكرت في مقدمة كتابي «المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات» أن أمر الأموات لا يعنينا، لا في قليل ولا في كثير، والذي يهمنا ما خلفوه من مؤلفات وما فيها من باطل وضلال، فيجب تبيانه، وإلا كنَّا من الغاشين لله ولكتابه ولنبيه ولسنته ولصحابته ولبقية السلف الصالح وعامتهم.



الأسْبابُ الحَقيقِيَّةُ لِحَرْقِ

إِحْياءِ عُلومِ الدِّينِ

مدخـــــل

أمَّـا كتاب الغزالي المسمى بـ «إحياء علوم الدين»؛ فأحب أن أنقل عملاً تاريخيّاً مباركاً قام به خليفة صادق من خلفاء المسلمين وإمامهم في وقتـه، ويكـون هو العنوان للكلام على كتاب «إحياء علوم الدين»، سميته بـ «الأسبـاب الحقيقية لحـرق إحياء علوم الدين من قبل أمير المؤمنين ابن تاشفين أدخله الله جنة النعيم».

وأقصد بذلك الرد على ما يُذكر في كتب التاريخ وما يروجه الخرافيون والمستشرقون وأذنابهم من الذين يحبون الخرافات من أن حرق «إحياء علوم الدين» كان لسبب سياسي.

ومن تتبع الأسباب التي ذكرتها في هذا البحث المبارك، وكان من أهل الفهم، والعقل، والعقيدة الصحيحة، والتقدير لله ولدينه ولسنة رسوله ﷺ، وتجرد عن نزوات الخرافات والباطل؛ علم كذب المستشرقين والخرافيين وأشباههم.



السبب الأول
فتاوى علماء السنة وموقفهم من الكتاب

● فتوى علماء المرابطين:

بهٰؤلاء العلماء وبغيرهم من علماء أهل السنة والجماعة في كل العصور قام أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو من أهم الأصول ومن أعظمها، والذي إذا قام في الأمة أصلح الله شأنها وحالها، واستقام حكامها وشعوبها، واستقام دينها وعقيدتها، وبضياع هٰذا الأصل وبفقدان علماء الكتاب والسنة يدخل على الأمة كل دخيل.

ويستبعد أن يجتمع علماء الكتاب والسنة في عهد المرابطين على ضلالة، وما في داخل «الإحياء» هو الذي يفسر فتواهم، وما في داخل «الإحياء» لا يهددهم بنزع أية مصلحة لهم؛ ففتواهم رضي الله عنهم كانت نصيحة لله ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

ولهٰذا؛ ما يبهرج به المبتدعة ويذكرونه من دعاية في أنَّ السبب كان سياسيّاً؛ فهذا إنْ دل على شيء؛ فإنَّما يدل على تدجيل المبتدعة وقلبهم لحقائق الأمور، وما ذٰلك بغريب منهم؛ فدينهم ودعوتهم كلها في قلب الحقائق رأساً على عقب.

جاء في «السير» في ترجمة ابن تاشفين:

قال الذهبي: «وكان شجاعاً، مجاهداً، عدلاً، ديناً، ورعاً، صالحاً، معظماً للعلماء، ومشاوراً لهم، ونفق في زمانه الفقه والكتب والفروع حتى تكاسلوا عن الحديث والآثار، وأهينت الفلسفة، ومج الكلام، واستحكم في ذهنه على أن الكلام بدعة ما عرفه السلف، فأسرف في ذٰلك، وكتب يتهدد ويأمر بإحراق الكتب، وكتب يأمر بإحراق تواليف الشيخ أبي حامد، وتوعد بالقتل من كتمها، واعتنى بعلم الرسائل والإنشاد، وعمر» (١).

* التعليق:

هٰذا النص العظيم فيه بيان لمنهاج إمام من أئمة المسلمين، وهو القضاء على كتب البدع مهما كان اتجاهها ومهما كان تشعبها، وسواء كانت كلاماً أو فلسفةً أو تصوفاً بغيضاً.

فماذا يقول المروجون للبدع في هٰذا الإمام؟!

هل هٰذه الكتب كانت خطراً على ملكه، وأن دراستها ستسبب انقلاباً في مملكته؟!

لا والله؛ بل عليها اعتمد كل من ثبت ملكه وإمارته، ومن قرأ التواريخ الماضية؛ وجد مصداق ذٰلك شاهداً، ونظرة وجيزة إلى كتاب «الخطط» للمقريزي؛ نجد أن الأمراء الذين أرادوا تثبيت ملكهم ركزوا على تثبيت هٰذه المناهج الباطلة والاشتغال بهٰذه البدع؛ لأن في ذٰلك تشتيتاً للجهود والأذهان، وإشغالها بما لا يمكن أن تنتبه معه لعظائم وبلايا الحكام.

---

(١) (٢٠ / ١٢٤).

فالروافض الفاطميون والبويهيون وأضرابهم من دعاة الباطنية والضلال ما ثبَّتوا ملكهم إلا بهٰذه البدع .

ولهٰذا كل ما يُشاع ويُكتب من أن حرق كتب البدع عامة و «الإحياء» خاصة ؛ إنما كان لهدف سياسي ؛ فهو تجهيل وتضليل . هٰذا من جهة .

ومن جهة أخرى يزعمون أن الغزالي دعا على المرابطين فسقطت مملكتهم ، وهٰذا إن دل على شيء ؛ فإنَّما يدل على الترويج للخرافات والجهالات بكل أنواعها ؛ فمتى كان الله تعالى يرضى لعباده أن يكونوا على مثل هٰذه الأحوال ؛ فهو تعالى يأمر بالعدل :

كما قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحسانِ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَإِذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ على اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ .

وسترى ما في كتاب الغزالي من الفحشاء والمنكر والزور والبهتان والكذب على النبي ﷺ وعلى صحبه الكرام وعلى السلف الصالح عليهم الرضوان والغفران .

وجاء في «الفكر السامي» :

«وكان علي بن يوسف واقفاً كأبيه عند إشارة الفقهاء وأهل العلم ، قد رد جميع الأحكام إليهم ، فلما أفتوه بإحراق كتاب «الإحياء» ، وكتب إلى أهل مملكته في سائر الأمصار والأقطار بأنْ يبحث عن نسخ «الإحياء» بحثاً أكيداً ، ويحرق ما عثر عليه منها ، فجمع من نسخها عدداً كثيراً ببلاد الأندلس ، ووضعت بصحن جامع قرطبة ، وصبَّ عليها الزيت ، ثمَّ أوقد عليها النار ، وكذا فعل بما ألفى من نسخ بمراكش ، وتوالى الإحراق عليها في سائر بلاد

المغرب»[1] .

وجاء في «السير» :

قال الذهبي : «ومن «معجم أبي علي الصدفي تأليف القاضي عياض له» قال : والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة والتصانيف العظيمة، غلا في طريقـة التصوف، وتجرد لنصر مذهبهم، وصار داعية في ذلك، وألف فيه تواليفه المشهورة، أخذ عليه فيها مواضع، وساءت به ظنون الأمة، والله أعلم بسره، ونفذ أمر السلطان عندنا بالمغرب وفتوى الفقهاء بإحراقها والبعد عنها، فامتثل ذلك»[2] .

● موقف طلبة أهل السنة والجماعة من الكتاب :

جاء في «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب» :

«وسئل القباب عن جماعة من الطلبة يطعنون في كتاب الشيخ الإمام أبي حامد الغزالي رضي الله عنه المشهور بـ «الإحياء» ويشدّدون في الإنكار على من أراد قراءته، وبالغ بعضهم في ذلك إلى أن قال : ليس ذلك بـ «إحياء علوم الدين»، إنما هو إماتة علوم الدين»[3] .

* التعليق :

قلت : الحمد لله، أن هناك منذ قديم الزمان من تنبه للخطر المحدق بالأمة الإسلامية من طرف ما يؤلف لها من كتب تضيِّع عقيدتها وتلقي بها في

(1) (٢ / ٧٥).
(2) (١٩ / ٣٢٧).
(3) (١٢ / ١٨٤).

متاهة لا تستطيع الخروج منها، وقد كان ما توقعه هٰؤلاء الطلبة جزاهم الله عن المسلمين خيراً، فكم من مسلم وجماعة ضلت بسبب هٰذا الكتاب المشؤوم، نسأل الله السلامة والعافية.

● **فتوى الإمام الطرطوشي من كبار المالكية:**

جاء في «المعيار المعرب» ما لفظه:

«وممَّا كتب به الأستاذ أبو عبد الله محمد بن الوليد الطرطوشي إلى عبد الله بن المظفر: أمَّا ما ذكرت من أمر الغزالي؛ فرأيت الرجل وكلمته؛ فوجدته رجلاً جليلاً من أهل العلم، قد نهضت به فضائله، واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول عمره، وكان على ذٰلك معظم زمانه، ثم عدل عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمال، ثمَّ تصرف بمحير العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان، ثمَّ شابه برأي الفلاسفة ورموز الحلاج، وجعل ينعى على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين، فلما عمل كتابه؛ سماه «إحياء علوم الدين»؛ عمد يتكلم في علوم الأحوال ومراقي الصوفيَّة، وكان غير دري بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، فلا في علماء المسلمين قر، ولا في أحوال الزاهدين استقر، شحن كتابه بالكذب على رسول الله ﷺ، فلا أعلم كتاباً على بسيط الأرض في مبلغ علمي أكثر كذباً على رسول الله ﷺ منه، شبكه بمذاهب الفلاسفة ومعاني «رسائل إخوان الصفاء»، وهم قوم يرون النبوة اكتساباً، وليس النبي في زعمهم أكثر من شخص فاضل تخلق بمحاسن الأخلاق وجانب سفاسفها وساس نفسه حتى ملك قيادها، فلا تغلبه شهواته، ولا يقهره سوء أخلاقه، ثمَّ ساس الخلق بتلك الأخلاق، وأنكروا أن يكون الله تعالى ـ من أقر منهم بالصانع ـ يبعث إلى الخلق رسولاً، ويؤيده بالمعجزات حيلاً ومخاريق.

ولقـد شرف الله الإسلام، وأوضح حجته، وأقام برهانه، وقطع عذر الخلائق بحججه الواضحة وأدلته القاطعة الدامغة، وما من ينصر دين الإسلام بمذاهب الفلاسفة وآراء المنطقيين؛ إلا كمن يغسل الماء بالبول، ثمَّ يسوق الكلام سوقاً يرعد فيه ويبرق، ويمني ويشوق، حتى إذا تشوفت له النفوس؛ قال: هٰذا من علم المعـاملة، وما وراءه من علم المكاشفة، ولا يجوز تسطيره في الكتاب، أو يقول: وهٰذا من سر القدر الذي نهينا عن إفشائه. وهٰذا فعل الباطنية وأهل الدغل والدخل في دين الله، تسطيره الموجود، ويكلف النفوس بالمفقود، فهو تشويش لعقائد القلوب، وتوهين لما عليه كلمة الجماعة، فإن كان الرجل يعتقد ما سطره في كتابه؛ لم يبعد تكفيره، وإن كان لا يعتقده؛ فما أقرب تضليله.

وأمَّا ما ذكرت من إحراق الكتاب بالنار؛ فإنَّه إن ترك انتشر بين ظهور الخلق ومن لا معرفة له بسمومه القاتلة، وخيف عليهم أن يعتقدوا صحة ما سطر فيه ممَّا هو ضلال، فيحرق قياساً على ما أحرقته الصحابة رضي الله عنهم من صحائف المصحف التي فيها اختلاف ألفاظ ونقص آي، ألا ترى أنَّهم لو لم يحرقوا تلك الصحائف، وانتشرت في الخلق؛ لحفظ كلٌّ ما وقع منها إليه، وأوشك أن يختلفوا فيتقاتلوا ويتقاطعوا، وإني لعلى عزم أن أنفرد له، فأستخرج جميع هفواته، وأوضح سقطاته، وأبينها حرفاً حرفاً، وفي دونه من الكتب غنية وكفاية لإخواننا المسلمين وطبقات الصالحين.

ومعظم من وقع في عشق هٰذا الكتاب رجال صالحون، لا معرفة لهم بما يلزم العقل وأصول الديانات، ولا يفهمون الإلٰهيات، ولا يعلمون حقائق الصفات، ولا يخبرون شياطين الإنس الذين انتدبوا للطعن في الدين وتوهين عمود الإسلام وتعطيل الصانع وإفساد المعجزات، فمن لم يكن عنده تمييز

لهٰذه الأبواب من الذب عن دين الله تعالى ونصرة شريعته؛ لم ينبغ له أن يقفو ما ليس له به علم؛ يمدح على غير علم، ويذم على غير علم، والسلام»[1].

* التعليق:

رحمة الله على هٰذا الإمام؛ إذ أعطانا تصوراً واضحاً عن الغزالي وكتابه «الإحياء»، وبيَّن لنا موارد الكتاب ومصادره، وبيَّن البديل عنه، وبين أنَّ كل من يمدحه أو يدافع عنه؛ فمعناه أنه لا يفهم العقيدة، ولا له خبرة بكتب الحديث، أو أنَّه عاطفي سمع بمدح الكتاب ووثق به ولم يقرأ ما فيه من الخبايا والبلايا.

وإن الطرطوشي يرى وجوب إحراق هٰذا الكتاب؛ لما له من خطر على الجماعة الإسلامية في وقته وبعدها، وشرح هٰذه الفتوى يحتاج إلى مجلدات، وسيتضح بعضها بإذن الله من الأمثلة التي سنسوقها من «الإحياء» مباشرة.

● فتوى الإمام المازري:

جاء في «السير»:

«وقد رأيت كتاب «الكشف والإنباء عن كتاب الإحياء» للمازري، أوله: الحمد لله الذي أنار الحق وأدال له، وأبار الباطل وأزاله. ثمَّ أورد المازري أشياء ممَّا نقده على أبي حامد؛ يقول: ولقد أعجب من قوم مالكية يرون مالكاً الإمام يهرب من التحديث، ويجانب أن يرسم رسماً، وإن كان فيه أثر ما أو قياس ما؛ تورعاً، تحفظاً من الفتوى فيما يحمل الناس عليه، ثمَّ يستحسنون من رجل فتاوى مبناها على ما لا حقيقة له، فيه كثير من الآثار عن

(١) (١٢ / ١٨٧).

النبي ﷺ، لفق الثابت بغير الثابت، وكذا ما أورد عن السلف لا يمكن ثبوته كله، وأورد من نزغات الأولياء ونفثات الأصفياء ما يحل موقعه، لكن مزج فيه النافع بالضار؛ كإطلاقات يحكيها عن بعضهم، لا يجوز إطلاقها لشناعتها، وإن أخذت معانيها على ظواهرها؛ كانت كالرموز إلى قدح الملحدين، ولا تنصرف معانيها إلى الحق؛ إلا بتعسف على اللفظ»[1] .

● فتوى قاضي الجماعة الإمام القرطبي:

جاء في «السير»:

«وقال قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن حمدين القرطبي: إن بعض من يعظ ممَّن كان ينتحل رسم الفقه ثمَّ تبرأ منه شغفاً بالشرعة الغزاليَّة والنحلة الصوفيَّة، أنشأ كراسة تشتمل على معنى التعصب لكتاب أبي حامد إمام بدعتهم؛ فأين هو من شنع مناكيره ومضاليل أساطيره المباينة للدين؟! وزعم أنَّ هٰذا من علم المعاملة المفضي إلى علم المكاشفة الواقع بهم على سر الربوبيَّة الذي لا يسفر عن قناعه ولا يفوز باطلاعه إلا من تمطى إليه ثبج ضلالته التي رفع لهم أعلامها وشرع أحكامها. قال أبو حامد: وأدنى النصيب من هٰذا العلم التصديقِ به، وأقل عقوبته ألا يرزق المنكر منه شيئاً. فأعرض قوله على قوله، ولا يشتغل بقراءة قرآن ولا بكتب حديث؛ لأن ذٰلك يقطعه عن الوصول إلى إدخال رأسه في كم جبته والتدثر بكسائه، فيسمع نداء الحق، فهو يقول: ذروا ما كان السلف عليه، وبادروا ما آمركم به، وصدور الأحرار قبور الأسرار، ومن أفشى سرَّ الربوبية كفر، رأى قتل مثل الحلاج خيراً من إحياء عشرة؛ لإطلاقه ألفاظاً، ونقل عن بعضهم قال: مللربوبية سر لو ظهر

---

(١) (١٩ / ٣٣٠).

لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلم سر لو كشف بطلت الأحكام.

قلت: سرّاً لعلم قد كشف لصوفيَّة أشقياء، فحلوا النظام، وبطل لديهم الحلال والحرام.

قال ابن حمدين: ثمَّ قال الغزالي والقائل بهٰذا إن لم يرد إبطال النبوة في حق الضعفاء، فما قال ليس بحق، فإن الصحيح لا يتناقض، وإن الكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه.

وقال الغزالي في العارف: تتجلى له أنوار الحق، تنكشف له العلوم المرموزة المحجوبة عن الخلق، فيعرف معنى النبوة وجميع ما وردت به ألفاظ الشريعة التي نحن منها على ظاهر لا على حقيقة.

وقال: بعضهم إذا رأيته في البداية؛ قلت: صديقاً، وإذا رأيته في النهاية؛ قلت: زنديقاً.

ثمَّ فسره الغزالي، فقال: إذ اسم الزنديق لا يلصق إلا بمعطل الفرائض لا بمعطل النوافل.

وقال: وذهبت الصوفيَّة إلى العلوم الإلهاميَّة دون التعليمية، فيجلس فارغ القلب مجموع الهم، يقول: الله، الله، الله، على الدوام، فيفرغ قلبه، ولا يشتغل بتلاوة ولا كتب حديث.

قال: فإذا بلغ هٰذا الحد؛ التزم الخلوة في بيت مظلم، وتدثر بكسائه، فحينئذ يسمع نداء الحق: يا أيُّها المدثر، يا أيُّها المزمل.

قلت: سيد الخلق إنَّما سمع يا أيها المدثر من جبريل عن الله، وهٰذا الأحمق لم يسمع نداء الحق أبداً، بل سمع شيطاناً، أو سمع شيئاً لا حقيقة

له من طيش دماغه، والتوفيق في الاعتصام بالسنة والإجماع»[1].

* **التعليق:**

قلت: هٰذا الكلام من هٰذا الإمام العارف بالغزالي و«إحيائه» نقل لنا جملة أمثلة ممَّا هو في داخل «الإحياء»، لو قرأها المسلم وأنصف نفسه؛ لعلم حقيقة «الإحياء»، وأنَّها من الكتب التي تآمرت على الإسلام والمسلمين، سواء كان المؤلف على حسن نية أو على سوئها، فأمره إلى الله.

فلا أدري إن كان المعاصرون الذين يمدحون «الإحياء» وينصحون الشباب بقراءته ويدافعون عنه؛ هل يقرؤون مثل هٰذه الفتاوى؟ أو لهم أغراض أخرى في تضليل أمة محمد وإبقائها على ما هي عليه من الضلال والدجل والانحراف العقدي وفي العبادات والخلق ممَّا أشار إليه هٰؤلاء العلماء في فتاواهم التي سجلت في عصر مبكر عند ظهور هٰذا الكتاب؛ أي: «الإحياء».

● **فتوى الإمام ابن الجوزي:**

في «تلبيس إبليس»؛ قال:

«صنف أبو حامد «الإحياء»، وملأه بالأحاديث الباطلة، ولم يعلم بطلانها، وتكلم على الكشف، وخرج عن قانون الفقه، وقال: إن المراد بالكواكب والقمر والشمس اللواتي رآهنَّ إبراهيم أنوار هي حجب الله عزَّ وجلَّ، ولم ير هٰذه المعروفات، وهٰذا من جنس كلام الباطنية».

وقد ردَّ ابن الجوزي على أبي حامد في كتاب «الإحياء»، وبين خطأه

---

(١) (١٩ / ٣٣٤).

في مجلدات سماه «كتاب الإحياء».

وقال ـ أي: الغزالي ـ في كتابه «المفصح بالأحوال»: «إن الصوفيَّة في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد، ثمَّ يترقى الحال من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق» [1].

* **التعليق:**

من أراد أن يعرف أصول الباطل؛ فليقرأ فتاوى هٰؤلاء العلماء، وبيانهم لهٰذا الضلال البعيد، الذي قراءته تكفي عن التعليق عليه والتحذير منه، ولهٰذا يقال في المثل الشائع: «شر البلايا ما يضحك»، فأحيانا ينقلب البكاء ضحكاً لكثرة التعجب والعجب.

هل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر يستطيع النطق بهٰذه العظائم التي مفادها الخروج عن المنهاج القرآني والنبوي والدخول في منهاج الزنادقة من باطنيَّة وحلاجيَّة وغيرهم؟!

نسأل الله العافية.

● **فتوى الإمام أبي الحسن بن سكر:**

جاء في «السير»:

«ولأبي الحسن بن سكر رد على الغزالي في مجلد سماه «إحياء ميت الأحياء في الرد على كتاب الإحياء»» [2].

---

(١) (ص ١٦٦).

(٢) (١٩ / ٣٤٢).

● **فتوى الإمام أبي بكر بن العربي:**

جاء في «السير»:

قال أبو بكر بن العربي في «شرح الأسماء الحسنى»:

«قال شيخنا أبو حامد قولاً عظيماً، انتقده عليه العلماء، فقال: وليس في قدرة الله أبدع من هٰذا العالم في الإتقان والحكمة، ولو كان في القدرة أبدع أو أحكم منه ولم يفعله؛ لكان ذٰلك منه قضاء مناقضاً للجود، وذٰلك محال». ثمَّ قال: «والجواب أنَّه باعد في اعتقاد عموم القدرة، وقضى النهاية عن تقدير المقدورات المتعلقة بها، ولكن في تفاصيل هٰذا العالم المخلوف لا في سواه، وهٰذا رأي فلسفي قصدت به الفلاسفة قلب الحقائق، ونسبة الإتقان إلى الحياة مثلاً، والجودة إلى السمع والبصر، حتى لا يبقى في القلوب سبيل إلى الصواب، وأجمعت الأمة على خلاف هٰذا الاعتقاد، وقالت عن بكرة أبيها: إن المقدورات لا نهاية لها، لكل مقدر الوجود، لا لكل حاصل الوجود، إذ القدرة صالحة». ثمَّ قال: «وهٰذه وهلة لا معنى لها، ومنزلة لا تماسك فيها، ونحن وإن كنا نقطة من بحره؛ فإننا لا نرد عليه إلا بقوله».

قلت: يشير أبو بكر بن العربي إلى ما جاء في «الإحياء» في بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل، قال ما نصه:

«وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية؛ فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه، ولا أتم منه ولا أكمل، ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله؛ لكان بخلاً

يناقض الجود، وظلماً يناقض العدل» [1].

وجاء في «درء تعارض العقل والنقل» ما نصه:

«وخالفه - أي: الغزالي - القاضي أبو بكر في كثير من تلك الأجوبة، وكان يقول: شيخنا أبو حامد دخل في بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر» [2].

* **التعليق:**

وهل أصدق من هٰذا؟! فأبو بكر تلميذه المخلص، ومع ذٰلك يصف الغزالي بما ترى، ويرى أنَّه سكن في بطون الفلاسفة، فمعظم آرائه التي تصدر منه هي من ذٰلك الأصل ومن ذٰلك المنبع؛ فبئس الآخذ والمأخوذ منه.

ومن أراد أن يتعرف على حال الفلاسفة؛ فليقرأ كتاب «درء تعارض العقل والنقل»؛ فإنه كشف عن أغوارهم، وبين حالهم.

وأيّاً ما كان؛ فأبو بكر بن العربي يرى أن شيخه خالف بقولته هٰذه عقيدة المسلمين، ووصف الله تبارك وتعالى بما لا يجوز له ولا يجوز في حقه؛ فمن يحدد صفاته وأسماءه؛ فذاك هو الإلحاد فيها؛ فقدرة الله لا نهاية لها ولا حصر، والله تعالى له الحكمة في خلقه؛ يرحمهم برحمته، ويوجدهم بقدرته حسبما تقتضيه حكمته، فما عليهم إلا الإيمان والتسليم والتحدث بنعمه وآلائه، وأمَّا اعتراضه تعالى ومناقشته والحكم عليه؛ فهٰذا ما قدر الله حق قدره، فعلم يجري بصاحبه في هٰذه المتاهات وهٰذه الضلالات؛ فلا خير فيه ولا بركة فيه.

---

(١) (٤ / ٢٥٨).

(٢) (١ / ٥).

● **فتوى الإمام الذهبي:**

جاء في «السير»: قال الذهبي:

«قلت: أمَّـا «الإحياء»؛ ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير، لولا ما فيه من آداب ورسـوم وزهـد من طرائف الحكمـاء ومنحـرفي الصوفيَّة، نسأل الله علماً نافعاً، تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن، وفسره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأت نهي عنه.

قال عليه السلام: «من رغب عن سنتي؛ فليس مني»(1).

فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله، وبإدمان النظر في «الصحيحين» و «سنن النسـائي» و«رياض النووي» و«أذكاره»؛ تفلح وتنجح، وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضات، وجوع الرهبان، وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات؛ فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فوا غوثاه بالله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم»(2).

* **التعليق:**

لقد أبان الذهبي عن رأيه في «الإحياء»، وبين ما في «الإحياء» من الطامات، ومن أكبرها شحنه بالأحاديث الباطلة، وهٰذه كبيرة كبرى عند أئمة الحديث وعند كل مسلم له غيرة على سنة رسول الله ﷺ، وذكر ما فيه من طامات الصوفيَّة ومن بلايا الفلاسفة وانحرافات الزهاد وما أشبههم، ثمَّ ضرب عن ذٰلـك صفحـاً، وأرشـد إلى الطريق النافع، الذي ينفع المسلمين دنيا

---

(1) البخـاري (رقم ٥٠٦٣) في النكـاح، ومسلم (رقم ١٤٠١)، والنسائي (٦ / ٦٠)، وأحمد (٣ / ٢٤١).

(2) (١٩ / ٣١٤).

وأخرى، وهو العناية بتدبر كتاب الله ودراسته، والعناية بـ «الصحيحين» وبقية كتب الحديث، ثمَّ ختم كلامه بتجديد التحذير من كتاب الغزالي، وقال:

«وإياك وآراء عباد الفلاسفة ووظائف أهل الرياضات وجوع الرهبان وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات، وهٰذه هي مادة أبي حامد في «الإحياء»، فلو طرحت من «الإحياء» الأحاديث الباطلة وآراء الفلاسفة ووظائف أهل الرياضات وجوع الرهبان وخطاب رؤوس أصحاب الخلوات؛ بقي الكتاب بياضاً لا سواد فيه».

وقال في موضع آخر من «السير»:

«وممَّا أخذ عليه: قال: إن للقدر سرّاً نهينا عن إفشائه. فأي سر للقدر؟! فإن كان مدركاً بالنظر؛ وصل إليه ولا بد، وإن كان مدركاً بالخبر؛ فما ثبت فيه شيء، وإن كان يدرك بالحال والعرفان؛ فهٰذه دعوى محضة، فلعله عنى بإفشائه أن نعمق في القدر ونبحث فيه»[1].

وقال في موضع آخر أيضاً:

«قد ألف الرجل في ذم الفلاسفة كتاب «التهافت»، وكشف عوارهم، ووافقهم في مواضع، ظنّاً منه أن ذٰلك حق أو موافق للملة، ولم يكن له علم بالآثار، ولا خبرة بالسنن النبوية القاضية على العقل، وحبب إليه إدمان النظر في كتاب «رسائل إخوان الصفا»، وهو داء عضال، وجرب مرد، وسم قتال، لولا أن أبا حامد من كبار الأذكياء وخيار المخلصين؛ لتلف، فالحذار الحذار من هٰذه الكتب، واهربوا بدينكم من شبه الأوائل، وإلا وقعتم في الحيرة، فمن رام النجاة والفوز؛ فليلزم العبودية، وليدمن الاستغاثة بالله، وليبتهل إلى

---

(١) (١٩ / ٣٣٨).

مولاه في الثبات على الإسلام، وأن يتوفى على إيمان الصحابة وسادات التابعين، والله الموفق، فبحسن قصد العالم يغفر له وينجو إن شاء الله»[1].

قلت: ما ذكره الذهبي في هذه الكلمة من وصف لكتب «رسائل إخوان الصفا» من أنها داء عضال وجرب مردٍ وسم قتال، هي من المواد الأساسية المنصبة في «الإحياء»، كما يعرف ذلك بمقارنتها بما في «الإحياء» من مادتها الكثيرة، نسأل الله العافية.

فأي خير سيكون في «الإحياء» إذا كان فيه الداء العضال والجرب المردي والسم القتال؟!

ولهذا نلاحظ أن الذهبي في كلمته السابقة لما قال في «الإحياء»: «فيه خير»؛ أضرب عن ذلك في حينه، وأرشد إلى ما فيه الخير حقاً، فجزاه الله خيراً.

وقال في موضع آخر من «السير» بعد نقله لكلام عبد الغافر:

«ومِمَّا نقم عليه ـ أي: الغزالي ـ ما ذكر من الألفاظ المستبشعة بالفارسية في كتاب «كيمياء السعادة والعلوم»، وشرح بعض الصور والمسائل، بحيث لا توافق مراسم الشرع وظواهر ما عليه قواعد الملة، وكان الأولى به ـ والحق أحق ما يقال ـ ترك ذلك التصنيف والإعراض عن الشرح له. . .

قلت ـ أي: الذهبي ـ: ما نقمه عبد الغافر على أبي حامد في «الكيمياء»؛ فله مثله في غضون تواليفه، حتى قال أبو بكر بن العربي: شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، أراد أن يتقيأهم، فما استطاع.

قلت: ومن التآليف كتاب «الإحياء»، الذي فتنت به الأمة شرقاً

(١) (١٩ / ٣٢٩).

وغرباً»(١) .

● **فتوى الإمام ابن الصلاح:**

جاء في «السير»:

«وقال أبو عمرو بن الصلاح: فصل لبيان أشياء مهمة أنكرت على أبي حامد: ففي تواليفه أشياء لم يرتضها أهل مذهبه من الشُّذوذ، منها قوله في المنطق: هو مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط به؛ فلا ثقة له بمعلوم أصلاً. قال: فهٰذا مردود؛ إذ كل صحيح الذهن منطقي بالطبع، وكم من إمام ما رفع بالمنطق رأساً»(٢) .

قلت: وكتاب «الإحياء» مادته كلها شاذة عن الكتاب والسنة، وما فيه من نصوص صحيحة؛ فهي في الكتاب والسنة، فنعوذ بالله من الشذوذ وأهله ومن يحبه.

● **فتوى أبي عامر العبدري:**

وجاء في «السير»:

«وقال أبو عامر العبدري: سمعت أبا نصر أحمد بن محمد بن عبد القادر الطوسي يحلف بالله أنَّه أبصر في نومه كأنَّه ينظر في كتب الغزالي رحمه الله؛ فإذا هي كلها تصاوير»(٣) .

● **فتوى أبي المظفر سبط ابن الجوزي:**

رأي خطير في صحابة رسول الله ﷺ للغزالي ذكره أبو المظفر يوسف

---

(١) (١٩ / ٣٢٧).

(٢) (١٩ / ٣٢٩).

(٣) (١٩ / ٣٣٩).

سبط ابن الجوزي.

جاء في «السير»:

«ولأبي المظفر يوسف سبط ابن الجوزي في كتاب «رياض الأفهام في مناقب أهل البيت»؛ قال: ذكر أبو حامد في كتابه «سر العالمين وكشف ما في الدارين»، فقال في حديث: «من كنت مولاه؛ فعلي مولاه»[1]: إن عمر قال لعلي: بخ بخ، أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة. قال أبو حامد: وهٰذا تسليم رضىً، ثمَّ بعد هذا غلب عليه الهواء حُبّاً للرياسة عقد البنود وأمر الخلافة ونهيها، فحملهم على الخلاف، فنبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، فبئس ما يشترون... وسرد كثيراً من هذا الكلام الفسل الذي تزعم الإمامية، وما أدري ما عذره في هذا، والظاهر أنَّه رجع عنه وتبع الحق؛ فإن الرجل من بحور العلم، والله أعلم.

إن لم يكن هذا وضع، وما ذاك ببعيد؛ ففي هٰذا التأليف بلايا لا تتطبب، وقال في أول: إنه قرأه عليه محمد بن تومرت المغربي سرّاً بالنظامية. قال: وتوسمت فيه الملك»[2].

قلت: حسن ظن كثير من العلماء إذا وجدوا مثل هذه البلايا حاولوا دفعها، ولكن وكيف؟! وقد قيل: والمهم التوبة الخالصة، فإن تاب وقُبلت

---

(١) حديث صحيح رواه عن النبي ﷺ زيد بن أرقم والبراء بن عازب وبريدة وسعد بن أبي وقاص وعلي وأبو أيوب وابن عباس. انظر: «المسند» (١ / ٨٤، ٤ / ٢٨١، ٥ / ٣٤٧)، الترمذي (٣ / ٧١٣)، ابن ماجه (١١٦)، وابن حبان (٢٢٠٤)، الحاكم (٣ / ١٠٩).

(٢) (١٩ / ٣٢٨).

توبته؛ ففضل الله واسع، والمهم أن التأليف إمَّا من الصدقات الجارية، وإمَّا من اللعنات المتتالية، وهل يُظن بأمير المؤمنين هٰذا الظن، ويقال فيه هٰذا القول؟! فقبح الله قائله كان من كان.

فقصدي: إن ثبت هٰذا عن الغزالي؛ فهو رافضي خبيث، ولا شك أن الرافضية في كتاب «الإحياء» مادتها كبيرة؛ لأن الصوفيَّة هي ربيبة الرافضة ونسجها ولحمتها وسداها، فلا تنفصل عنها، إلا أنها أظهرت نفسها باسم جديد يسمى بالصوفيَّة.

● **فتوى كمال الدين بن أبي الشريف:**

جاء في «الإبريز»:

وقال كمال الدين بن أبي الشريف في «شرح المسايرة» بعد أن ذكر أن في مقدورات الله تعالى ما هو أبدع من هٰذا العالم ما نصه:

«ثمَّ إن ما في بعض كتب «الإحياء» ـ ككتاب التوكل ـ ما يدل على خلاف ذٰلك والله أعلم، صدر عن ذهول ابتنائه على طريق الفلاسفة، وقد أنكره الأئمة في عصر حجة الإسلام وبعده» (١).

● **فتوى بدر الدين الزركشي:**

جاء في «الإبريز»:

وقال بدر الدين الزركشي: «قال الغزالي: ليس في الإمكان أبدع من صورة هٰذا العالم، ولو كان ممكناً، ولم يفعله؛ لكان بخلاً يناقض الجود أو عجزاً يناقض القدرة، وهٰذا من الكلمات العقم التي لا ينبغي إطلاق مثلها في

---

(١) (ص ٤٧٤).

حق الصانع»[1].

● **فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية:**

جاء في «الفتاوى»:

سئل عن «إحياء علوم الدين» و«قوت القلوب»، فأجاب: أمَّا كتاب «قوت القلوب» وكتاب «الإحياء» تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب مثل الصبر والشكر والحب والتوكل والتوحيد ونحو ذٰلك، وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفيَّة وغيرهم من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسد وأجود تحقيقاً وأبعد عن البدعة، مع أن في «قوت القلوب» أحاديث ضعيفة وموضوعة وأشياء كثيرة مردودة.

وأما ما في «الإحياء» من الكلام في المهلكات مثل: الكلام على الكبر، والعجب، والرياء، والحمد، ونحو ذٰلك؛ فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في «الرعاية»، ومنه ما هو مقبول، ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه.

و«الإحياء» فيه فوائد كثيرة، لكن فيه مواد مذمومة، فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة، تتعلق بالتوحيد، والنبوة، والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفيَّة؛ كان بمنزلة من أخذ عدواً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين.

وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هٰذا في كتابه وقال: مرضه «الشفاء»؛ يعني: شفاء ابن سيناء في الفلسفة.

وفيه أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفيَّة وترهاتهم، وفيه مع ذٰلك من كلام المشايخ الصوفيَّة العارفين

(١) (ص ٤٧٤).

المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذٰلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة، ما هو أكثر ممَّا يرد منه، فلهٰذا اختلف فيه اجتهاد الناس، وتنازعوا فيه»[1].

قلت: هٰذه كلمة خبير بعلوم الأوائل وعلوم الكتاب والسنة، وقد وافقه غيره ممَّن ذكرنا كلامهم فيما سبق، والذي يلفت النظر قولته: «كان بمنزلة من أخذ عدوّاً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين»، وكان ذٰلك كذٰلك فالباطل لا يروج إلا بهٰذه الطريقة، فعنوان الكتاب لا يشك من يسمع به أو يراه أنَّه إحياء للكتاب والسنة، وأنَّه جمع بين دفتيه علوم القرآن وعلوم السنة والآثار السلفية الصحيحة، وأبوابه وكتبه معظمها كذٰلك، ولكن في المادة ما قاله الذهبي سابقاً: أنَّه جرب مرد، وسم قتال، وداء عضال.

وإمامنا هٰذا قال هٰذه القوله: «كان بمنزلة من أخذ عدوّاً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين»، وما ذكره من بيان مواد «الإحياء»، فتقدمت غيرما مرة، وسنذكرها عمليّاً بإذن الله.

وجاء في «درء تعارض العقل والنقل»:

«ذكر أبو حامد في كتاب «الإحياء» كلاماً طويلاً في علم الظاهر والباطن.

قال: وذهبت طائفة إلى التأويل فيما يتعلق بصفات الله تعالى، وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها، ومنعوا التأويل، وهم الأشعرية ـ أي: متأخروهم ـ الموافقون لصاحب «الإرشاد».

قال: وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا كونه سميعاً بصيراً، والرؤية،

---

(١) (١٠ / ٥٥٢).

والمعراج، وأنه لم يكن بالجسد، وأولوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة، ولكن أقروا بحشر الأجساد، وبالجنة واشتمالها على المأكولات.

قلت: تأويل الميزان والصراط وعذاب القبر والسمع والبصر إنَّما هو قول البغداديين من المعتزلة دون البصرية.

قال أبو حامد: وبترقيهم إلى هٰذا الحد زاد الفلاسفة، فأولوا كل ما ورد في الآخرة إلى أمور عقلية روحانية ولذات عقلية.

إلى أن قال: وهٰؤلاء هم المسرفون في التأويل.

وحد الاقتصاد بين هٰذا وهٰذا دقيق غامض، لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلٰهي، لا بالسماع، ثمَّ إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هم عليه، ونظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فيه، فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه، وما خالف أولوه، فأما من يأخذ هٰذه الأمور كلها من السمع فلا يستقر له قدم.

قلت: هٰذا الكلام مضمونه أنَّه لا يُستفاد من خبر الرسول ﷺ شيء من الأمور العلمية، بل إنَّما يدرك ذٰلك كل إنسان بما حصل له من المشاهدة والنور والمكاشفة، وهٰذان أصلان للإلحاد، فإن كل ذي مكاشفة إن لم يزنها بالكتاب والسنة، وإلا دخل في الضلالات»[1].

وأفضل أولياء الله من هٰذه الأمة أبو بكر وعمر رضي عنهما، وأفضل من كان محدَّثاً من هٰذه الأمة عمر؛ للحديث، وللحديث الآخر: «إن الله ضرب

(١) (٥ / ٣٤٨).

الحق على لسان عمر وقلبه»[1] ، ومع هٰذا فالصدِّيق أفضل منه ؛ لأن الصدِّيق إنَّما يأخذ من مشكاة الرسالة لا من مكاشفته ومخاطبته ، وما جاء به الرسول معصوم لا يستقر فيه الخطأ ، وأمَّا ما يقع لأهل القلوب من جنس المخاطبة والمشاهدة ؛ ففيه صواب وخطأ ، وإنَّما يُفرَّق بين صوابه وخطئه بنور النبوة ؛ كما كان عمر يزن ما يرد عليه بالرسالة ، فما وافق ذٰلك قبله ، وما خالفه ردّه .

قال بعض الشيوخ ما معناه : «قد ضُمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة ، ولم تُضمن لنا العصمة في الكشوف» .

وقال أبو سلمان الداراني : «إنَّه لتمر بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين اثنين : الكتاب والسنة» .

وقال أبو عمرو إسماعيل بن نجيد : «كل ذوق أو كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل» .

وقال الجنيد بن محمد : «علمنا هٰذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا» .

وقال سهل أيضاً : «يا معشر المريدين لا تفارقوا السواد على البياض ، فما فارق أحد السواد على البياض إلا تزندق» .

---

(١) جاء الحديث بلفظ : «إن الله جعل الحق» ، وبلفظ : «. . . وضع الحق» ، وبلفظ : «. . . ضرب الحق» عن ابن عمر وأبي ذر وأبي هريرة وعمر بن عبد العزيز في : «سنن أبي داود» (٣ / ١٩١ ـ ١٩٢) (كتاب الخراج والإمارة والفيء ، باب في تدوين العطاء) ، «سنن الترمذي» (ط . المكتبة السلفية ، ٥ / ٢٨٠ ، كتاب المناقب ، باب مناقب أبي حفص عمر) ، وقال الترمذي : «هذا حديث حسن صحيح غريب من هٰذا الوجه» ، «سنن ابن ماجه» (١ / ٤٠ ، المقدمة ، في باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ) ، «المسند» (ط . المعارف ، ٧ / ١٥٥) (ط . الحلبي ، ٢ / ٤٠١ ، ٥ / ١٤٥ و١٦٥ و١٧٧) .

وهٰذا وأمثاله كثير في كلام الشيوخ العارفين، يعلمون أنَّه لا تحصل لهم حقيقة التوحيد والمعرفة واليقين إلا بمتابعة المرسلين، وقد يحصل لهم من الدلائل العقلية القياسية البرهانية ومن المخاطبات والمكاشفات العيانية ما يصدِّق ما أخبر به الرسول ﷺ.

كما قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفِي أَنْفُسِهِمْ حتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتوا العِلْمَ الَّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إلى صِرَاط**﴾ [سبأ: ٦].

وقال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى**﴾ [الرعد: ١٩].

وتجد كثيراً من السالكين طريق العلم والنظر والاستدلال، الذين اشتبهت عليهم الأمور، وتعارضت عندهم الأدلة والأقيسة، يحسنون الظن بطريق أهل الإرادة والعبادة والمجاهدة، ظانين أنَّه ينكشف بها الحقائق.

وكثير من السالكين طريق العبادة والإرادة والزهد والرياضة، الذين اشتبهت عليهم الأمور، وتعارضت عندهم الأذواق والمواجيد، يحسنون الظن بطريق أهل العلم والنظر والاستدلال، ظانين أنَّه ينكشف به لهم الحقائق.

وحقيقة الأمر أنه لابد من الأمرين، فلا بد من العلم والقصد، ولا بد من العلم والعمل به، ومن علم بما يعلم ورَّثه الله علم ما لم يعلم.

والعبد عليه واجبات في هٰذا وهٰذا، فلا بد من أداء الواجبات، ولا بد أن يكون كل منهما موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ.

فمن أقبل على طريقة النظر والعلم، من غير متابعة للسنة، ولا عمل

بالعلم؛ كان ضالاً في علمه، غاوياً في عمله. ومن سلك طريق الإرادة، والعبادة، والزهد، والرياضة، من غير متابعة للسنة، ولا علم ينبني العمل عليه؛ كان ضالاً غاوياً. ومن كان معه علم صحيح مطابق لما جاء به الرسول ﷺ بلا عمل به؛ كان غاوياً. ومن كان معه عمل موافق للسنة بدون العلم المأمور به؛ كان ضالاً.

فمن خرج عن موجب الكتاب والسنة من هٰؤلاء وهٰؤلاء كان ضالاً، وإذا لم يعمل بعلمه، أو عمل بغير علمٍ؛ كان ذاك فساداً ثانياً.

والذين لم يعتصموا بالكتاب والسنة من أهل الأحوال والعبادات والرياضات والمجاهدات، ضلالهم أعظم من ضلال من لم يعتصم بالكتاب والسنة من أهل الأقوال والعلم، وإن كان قد يكون في هٰؤلاء من الغي ما ليس فيهم، فإنهم يدخلون في أنواع من الخيالات الفاسدة والأحوال الشيطانية المناسبة لطريقتهم؛ كما قال تعالى:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطينُ . تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أثيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢٢].

والإنسان همَّام حارث، فمن لم يكن همُّه وعمله ما يحبه الله ورسوله ﷺ؛ كان همه وعمله ممَّا لا يحبه الله ورسوله ﷺ.

والأحوال نتائج الأعمال، فيكون ما يحصل لهم بحسب ذٰلك العمل، وكثيراً ما تتخيل له أمور يظنها موجودة في الخارج، ولا تكون إلا في نفسه، فيسمع خطاباً يكون من الشيطان أو من نفسه، يظنه من الله تعالى، حتى إن أحدهم يظن أنَّه يرى الله بعينه، وأنَّه يسمع كلامه بأذنه من خارج، كما سمعه موسى بن عمران، ومنهم من يكون ما يراه شياطين، وما يسمعه كلامهم، وهو

يظنه من كرامات الأولياء، وهٰذا باب واسع بسطه في موضع آخر.

ولهٰذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا ممَّا يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في المنام» (١).

وكثيراً ما يرى الإنسان صورة اعتقاده، فيكون ما يحصل له بمكاشفته ومشاهدته هو ما اعتقده من الضلال، حتى إن النصراني يرى في كشفه التثليث الذي اعتقده، وليس أحد من الخلق معصوماً أن يقر على خطأ إلا الأنبياء، فمن أين يحصل لغير الأنبياء نور إلٰهي تدرك به حقائق الغيب، وينكشف له أسرار هٰذه الأمور على ما هي عليه، بحيث يصير بنفسه مدركاً لصفات الرب وملائكته، وما أعده الله في الجنة والنار لأوليائه وأعدائه؟!

وهٰذا الكلام أصله من مادة المتفلسفة والقرامطة الباطنية، الذين يجعلون النبوة فيضاً يفيض من العقل الفعَّال على نفس النبي، ويجعلون ما يقع في نفسه من الصور هي ملائكة الله، وما يسمعه في نفسه من الأصوات هو كلام الله، ولهٰذا يجعلون النبوة مكتسبة، فإذا استعد الإنسان بالرياضة

---

(١) هٰذا جزء من حديث عن أبي هريرة (وفي رواية عن عوف بن مالك) في «مسلم» (٤ / ١٧٧٣، كتاب الرؤيا)، «الترمذي» (بشرح ابن العربي، ٩ / ١٢٣ - ١٢٤، كتاب الرؤيا، باب أن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)، «سنن ابن ماجه» (٢ / ١٢٨٥، كتاب تعبير الرؤيا، باب الرؤيا ثلاث)، «سنن أبي داود» (٤ / ٤١٦ - ٤١٧، كتاب الأدب، باب ما جاء في الرؤيا)، «المسند» (ط. المعارف، ١٤ / ٦٠ - ٦١).

واختلفت ألفاظ هٰذا الحديث، والرواية عن أبي هريرة في «مسلم» أولها: «إذا اقترب الزمان؛ لم تكد رؤيا المسلم تكذب. . .» الحديث، وفيه: «الرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة. . .»، وفي «سنن أبي داود»: «فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه».

والتصفية، فاض عليه ما فاض على نفوس الأنبياء، وعندهم هٰذا الكلام باطل باتفاق المسلمين واليهود والنصارى.

ومع هٰذا؛ فإن هٰؤلاء لا يقولون: إن كل أحد يمكنه أن يدرك بالرياضة ما أدركه من هو أكمل منه. فلا يتصور على هٰذا الأصل أن يدرك عامة الخلق ما أدركه النبي ﷺ، ولو فعلوا ما فعلوا، فإن كان العلم بما أخبر به لا يعلم إلا بهٰذا الطريق؛ لم يمكن معرفته بحال.

ثمَّ من المعلوم أن هٰذا لو كان ممكناً لكان السابقون الأولون أحق الناس بهٰذا، ومع هٰذا فما منهم من ادعى أنَّه أدرك بنفسه ما أخبر به الرسول ﷺ.

ومن المعلوم أن الله فضل بعض الرسل على بعض، وفضل بعض النَّبيين على بعض.

كما قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ**﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ على بَعْضٍ**﴾ [الإسراء: ٥٥].

كما خص موسى بالتكليم، فلا يمكن عامة الأنبياء والرسل أن يسمع كلام الله كما سمعه موسى، ولا يمكن غير محمد أن يدرك بنفسه ما أراه الله محمداً ﷺ ليلة المعراج وغير ليلة المعراج.

فإذا كان إدراك مثل ذٰلك لا يحصل للرسل والأنبياء؛ فكيف يحصل لغيرهم؟!

ولكن الذي قال هٰذا يظن أن تكليم الله لموسى من جنس الإلهامات التي تقع لآحاد الناس، ولهٰذا ادعوا أن الواحد من هٰؤلاء قد يسمع كلام الله

كما سمعه موسى بن عمران .

ولـه في كتاب «مشكاة الأنوار» من الكلام المبني على أصول هؤلاء المتفلسفة ما لا يرضاه لا اليهود ولا النصارى، ومن هناك مرق صاحب «خلع النعلين» وأمثاله .

* التعليق :

انـظر هداك الله إلى هذه الطامات التي في داخل «الإحياء»، التي مفادها هو نبذ الكتاب والسنة، والاعتماد على المكاشفات التي لا ضبط لها ولا انضبـاط، ولا يمكن أن يعتمـد فيهـا على مقياس، وهي دعوى طويلة عريضة يمكن لأي أن يدعيها، ومع ذلك جعلت هي الحكم على الكتاب والسنة، فيجب عرض الكتاب والسنة عليها، فإن صدقته وإلا ردّا .

وهنا يجب أن نسأل سؤالاً : ما هو تعريف الكشف؟ ومن الذي يوثق بكشفه ومن لا يوثق؟ وهل ثبت عن السلف أنَّهم كانوا يعتمدون الكشف؟ وإذا كانوا يعتمدونه؟ فلماذا وقعوا في كثير من الأخطاء؟ ولماذا تحيروا في كثير من المسائل التي لم يجدوا فيها نصّاً من الكتاب والسنة؟

فلذا الـذي ينـظر إلى هذا الأصـل الشيطاني بالعلم والعمل والواقع المـاضي والحاضر يجد أنَّ هذا الأصل لا يتعدى إنْ كان له وجود وساوس إبليس، فلو ظفـر الفقهـاء والمحدثون بهذا الأصل؛ ما أتعبوا أنفسهم في البحث والتنقيب، والبحث والتقعيد، ويكون هذا الأصل الأول عندهم قبل الكتاب والسنة، وما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على الغزالي في هذا الأصل الباطل مع تنزل كثير فيه كفاية .

وقال في موضع آخر من «التعارض» :

«وأبو حامد ليس له من الخبرة بالآثار النبوية والسلفية ما لأهل المعرفة بذلك، الذين يميزون بين صحيحه وسقيمه، ولهذا يذكر في كتبه من الأحاديث والآثار الموضوعة والمكذوبة ما لو علم أنَّها موضوعة لم يذكرها»[1].

*** التعليق:**

وهل من خوف الله تبارك وتعالى الإقدام على التصنيف والتأليف للمسلمين ما لم يكن المسلم أهلاً لذلك، والأهلية تتجلى في الخبرة بالكتاب والسنة، ومن لا خبرة له بالكتاب والسنة؛ فلا يجوز له أن يؤلف في العلوم الشرعية؛ لأن العلوم الشرعية عمدتها على الكتاب والسنة والآثار السلفية، وإلا دخل في الآيات الكثيرات والأحاديث المتواترة التي نهت المسلم أن يقول على الله بغير علم.

قال الله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وما بَطَنَ والإِثْمَ والبَغْيَ بِغَيرِ الحَقِّ وأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وأَنْ تقولوا على اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾**.

سنرجع إن شاء الله إلى هذا الموضوع في حينه.

وقال في موضع آخر ـ أي: ابن تيمية ـ:

«وأما احتجاجه على إثبات علم الرب بالجزئيات بالإنذارات والمنامات؛ فاستدلال ضعيف؛ فإن ابن سينا وأمثاله يدعون أن ما يحصل للنفوس البشرية من العلم والإنذارات والمنامات إنَّما هو من فيض العقل الفعال والنفس الفلكية، وإذا أرادوا أن يجمعوا بين الشريعة والفلسفة؛ قالوا:

---

(١) (٧ / ١٤٩).

إن النفس الفلكية هي اللوح المحفوظ؛ كما يوجد مثل ذٰلك في كلام أبي حامد في كتاب «الإحياء» و«المضنون» وغير ذٰلك من كتبه، وكما يوجد في كلام من سلك سبيله من الشيوخ المتفلسفة المتصوفة، يذكرون اللوح المحفوظ، ومرادهم به النفس الفلكية، ويدعون أن العارف قد يقرأ ما في اللوح المحفوظ ويعلم ما فيه.

ومن علم دين الإسلام الذي بعث الله به رسله؛ علم أن هٰذا من أبعد الأمور عن دين الإسلام؛ كما قد بسط في موضع آخر»[1].

وقال في «شرح العقيدة الأصفهانية»:

«قلت فهذه الطريق التي ذكرها أبو حامد وغيره تفضي أيضاً إلى العلم من النبوة والتصديق منها بأكثر من القدر الذي تقر به المتفلسفة، وما ذكره من المشاهدات والكشوفات التي تحصل للصوفيَّة، وأنَّهم يشهدون تحقيق ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام، ونفع ما أمر به، فهٰذا أيضاً حق في كثير مما أخبر به وأمر به، ثمَّ إذا علم ذٰلك صار حجة على صدقه فيما لم يعلمه، كمن سلك طريقاً من العلم بفن من الفنون، إذا رأى كلام متكلم في ذٰلك العلم ورآه يحقق ما عنده ويأتي بزيادات لا يستطيعها، فإنه يعلم بما رآه من مزيد تحقيقه لما شاركه في أصل معرفته: أنَّه أعلم منه بما وراء ذٰلك كمن نظر في الطب إذا رأى كلام بقراط ومن نظر في النحو إذا رأى كلام الخليل وسيبويه، ومن نظر في العلوم الدينية إذا رأى كلام أئمة السلف، وكذٰلك من سلك مسلك الزهد والعبادة إذا بلغه سير زهاد السلف وعبادتهم، ومن ولي الناس وساسهم إذا رأى سيرة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وعمر بن عبد

---

(١) (٩ / ٣٩٨).

العزيز ونحوهما.

فهٰذا كله مما يبين له عظمة قدر هٰؤلاء، وأنَّهم كانوا أئمة في هٰذه الأمور وفيما يصلح ويجب من ذٰلك، ويعلم كل أحد الفرق بين سيرة العمرين وسيرة الحجاج والمختار بن أبي عبيد ونحوهما، بل يعلم الفرق بين سيرة بني أمية وبني العباس، وبين سيرة بني بويه وبني عبيد وأمثال ذٰلك، كذٰلك يعلم الفرق بين نبينا محمد وموسى وعيسى عليهم السلام وبين مسيلمة والأسود العنسي وأمثالهما بأدنى تأمل.

وهٰذه الطريق ينقسم الناس فيها إلى عام وخاص بسبب علمهم بالخير والشر والصدق والكذب ونحو ذٰلك، وهٰذه تفيد العلم القطعي بأن الأنبياء أكمل الخلق وأفضلهم، وأنَّه لا يصلح لأحد أن يعارضهم برأيه ولا يخالفهم بهواه، لكن لا يفيد العلم بحقيقة النبوة؛ إلا أن يعترف أن النبي أعلم منه، فلا يمكنه أن يقول هو أعلم منه، فكل من حصل له من المخاطبات والمشاهدات ما يحصل للأولياء، فإنه يعلم أن الذي للأنبياء فوق الذي له من ذٰلك، كعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

فإنَّه قد ثبت في «الصحيح» أنه ﷺ قال: «إنَّه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر».

وقال ﷺ: «إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه».

وفي الترمذي عنه ﷺ أنَّه قال: «لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر».

وكان عمر بهٰذا يعلم أن ما يأتي النبي ﷺ من الوحي والملائكة وما يخبر به الغيب وما يأمر به وينهى عنه أمر زائد على قدره ومجاوز لطاقته، بل يجد بينه وبين ذٰلك من التفاوت ما يعجز القلب واللسان عن معرفته وتبيانه، بل كان

عمر بما حصل له من المكاشفة والمخاطبة يعلم أن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما أكمل منه معرفة ويقيناً، وأتم صدقاً وأخلاقاً، وأعلم منه بقدر الرسول ﷺ، فكان خضوع عمر هٰذا الذي هو أفضل الأولياء المحدثين الملهمين الخاطبين لأبي بكر الصديق كخضوع من رأى غيره من مشاركيه في فنه أكمل منه، كخضوع الأخفش لسيبويه، وزفر لأبي حنيفة، وابن وهب لمالك، ونحو ذٰلك، أو خضوع فقهاء المدينة لسعيد بن المسيب، وعلماء البصرة للحسن البصري، وفقهاء مكة لعطاء بن أبي رباح.

وإذا كان هٰذا مثل عمر مع أبي بكر؛ لأن أبا بكر صديق يأخذ ما يأخذه عن الرسول المعصوم ﷺ والذي قد عصم أن يستقر فيما جاء به خطأ، فهو لخبرته بحال صديق النبي بهٰذه المثابة، وكل من كان عالماً بالصحابة يعلم أن عمر رضي الله تعالى عنه؛ كان متأدباً معظماً بقلبه لأبي بكر رضي الله عنه، مشاهداً أنَّه أعلى منه إيماناً ويقيناً، فكيف يكون حال عمر وغيره مع النبي ﷺ؟!

وإذا كان هٰذا حال أفضل المحدّثين المخاطبين؛ فكيف حال سائرهم؟!

ولا ريب أن الرجل كلما عظمت ولايته وعظم نصيبه من انكشاف الحقائق له؛ كان تعظيمه للنبوة أعظم، والناس في هٰذه الطريق متفاوتون بحسب درجاتهم.

لكن طريق الصوفيَّة لا ينهض بانكشاف جميع ما جاء به الرسول ﷺ، بل ولا بأكثره، بل عامة ما يخبر به الرسول ﷺ لا يمكن أبو بكر وعمر فضلاً عن غيرهما أن يعلمه بدون خبره وإن كان عند المخبرين علم بجمل ذٰلك أو

أصله، لكن ما يخبر به من التفصيل لا يعلم بدون خبره أصلاً.

وما يوجد في كلام أبي حامد وغيره من أن الكشف يحصل ذٰلك، وقول القائل: «إن الأولياء شاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع»، ليس بسديد، بل لا يزال الأولياء مع الأنبياء في إيمان بالغيب، ولا يتصور أن الولي يعطى ما أعطيه النبي من المشاهدة والمخاطبة، وأفضل الأولياء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم.

وليس في هٰؤلاء من شاهد ما شاهده النبي ﷺ ليلة المعراج، ولا شاهد الملائكة الذين كانوا ينزلون بالوحي على النبي ﷺ، ولا سمع أحد منهم كلام الله الذي كلم به نبيه ليلة المعراج، ولا سمع عامة الأنبياء، فضلاً عن الأوْلياء كلام الله كما سمعه موسى بن عمران، ولا كلم الله تكليماً لدواد وسليمان، بل ولا إبراهيم ولا عيسى، فضلاً عن أن يكون ذٰلك يحصل لأحد من الأولياء.

والإيمان بكل ما جاء به الأنبياء واجب؛ فإنهم معصومون، ولا يجب الإيمان بكل ما يقوله الولي، بل ولا يجوز، فإنَّه ما من أحد من الناس إلا يؤخذ من كلامه ويترك، إلا رسول الله ﷺ، ومن سب نبيّاً من الأنبياء قتل وكان كافراً مرتدّاً بخلاف الولي.

قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وإِسحاقَ ويَعقوبَ والأَسْبَاطِ ومَا أُوتِيَ مُوسَى وعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسلِمُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ والمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَما أَرسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رسُولٍ ولا نَبِيٍّ إلا إذا تَمَنَّى أَلقَى الشَّيطانُ في أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلقي الشَّيطانُ ثمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

فإن قيل: ففي قراءة ابن عباس: «ولا محدث»؛ قيل: هٰذه القراءة ليست متواترة، ولا معلومة الصحة، ولا يجوز الاحتجاج بها في أصول الدين، وإن كانت صحيحة؛ فالمعنى: أن المحدث كان فيمن كان قبلنا، وكانوا يحتاجون إليه، وكان ينسخ ما يلقيه الشيطان إليه كذٰلك، وأمة محمد ﷺ لا تحتاج إلى غير محمد ﷺ، ولهٰذا كانت الأمَم قبلنا لا يكفيهم نبي واحد، بل يحيلهم هٰذا النبي في بعض الأمور على النبي الآخر، وكانوا يحتاجون إلى عدد من الأنبياء، ويحتاجون إلى المحدث، وأمة محمد أغناهم الله بمحمد ﷺ عن غيره من الأنبياء والرسل؛ فكيف لا يغنيهم عن المحدث؟!

ولهٰذا قال ﷺ: «إنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد؛ فعمر»، فعلق ذٰلك بـ (إن)، ولم يجزم به؛ لأنَّه علم استغناء أمته عن محدث، كما استغنت عن غيره من الأنبياء، سواء كان فيها محدث أو لا، وكان ذٰلك لكمالها برسولها الذي هو أكمل الرسل وأجملهم، وهٰؤلاء كبعض في أمته عن الأمم قبلهم.

وقد وقع في كلام أبي حامد وغيره نحو من هٰذا في مواضع أخر، حتى ذكر فيما يتأول وما لا يتأول: أن ذٰلك لا يعلم إلا بتوفيق إلٰهي يشاهد به الحقائق على ما هي عليه، ثمَّ ينظر في السمع والألفاظ الواردة فيه، فما وافق مشهوده أقره، وما خالفه تأوله.

وذكر في موضع آخر: أن الواحد من الأولياء قد يسمع كلام الله سبحانه

كما سمعه موسى بن عمران، وأمثال هٰذه الأمور.

ولهٰـذا تبيَّن له في آخر عمره أن طريق الصوفيَّة لا تحصل مقصوده، فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية، وأخذ يشتغل بالبخاري ومسلم، ومات في أثناء ذٰلك على أحسن أحواله، وكان كارهاً ما وقع في كتبه من نحو هٰذه الأمور، ممَّا أنكره الناس عليه، حتى قال المازري وغيره ما معناه: إن كلامه يؤثر في الإيمان بالنبوة، فينقص قدرها، أو نحو هٰذا، وكذٰلك ما ذكره من أن النبوة انفتاح قوة أخرى فوق العقل.

ولا ريب أن هٰذا ممَّا يكون للنبي، وليست النبوة قوة تدرك بها الأمور، وإنَّما يشبه هٰذا أصول الفلاسفة الذين يزعمون أن الفيض دائم من العقل الفعال، وإنَّما يحصل في القلوب بسبب استعداد الأشخاص، فأي عبد كان استعداده أتم، كان الفيض عليه أتم من غيره أن يكون من الملأ، إلا على سبب يخص شخصاً دون شخص بالخطاب والتكليم.

وليس هٰذا مذهب المسلمين، بل ولا اليهود، ولا النصارى، بل هٰؤلاء كلهم إلا من ألحد منهم متفقون على أن الله سبحانه خصص موسى بالتكليم دون هارون وغيره، وأنَّـه يخص بالنبـوة من يشـاء من عباده، لا أنَّه بمجرد استعداده يفيض عليه العلوم من غير تخصيص إلٰهي».

وقال في موضع آخر:

«ومعلوم أن طريقـة أئمة الصوفيَّة وأئمة الفقهاء أكمل من طريقة أبي القاسم القشيري ومن طريقة أبي طالب والحارث ومن طريقة أبي المعالي وأمثاله، وأولٰئك الأئمة كانوا أعلم بطريقة الصحابة وأتبع لها من أتباعهم، فالقـاضي أبو بكر الباقلاني وأمثاله أعلم بالأصول والسنة وأتبع لها من أبي

المعالي وأمثاله، والأشعري والقلانسي ونحوهما أعلى طبقة في ذلك من القاضي أبي بكر، وعبد الله بن سعيد بن كلاب والحارث المحاسبي أعلى طبقة في ذلك من هؤلاء، ومالك والأوزاعي وحماد بن زيد والليث بن سعد وأمثالهم أعلى طبقة من هؤلاء والتابعون أعلى من هؤلاء والصحابة أعلى من التابعين.

وكذلك أبو طالب المكي يأخذ عن شيخه ابن سالم، وابن سالم يأخذ عن سهل بن عبد الله التستري، وسهل أعلى درجة عند الله من أبي طالب، ثم الفضل وأبو سليمان وأمثالهم أعلى درجة من سهل وأمثاله، وأيوب السختياني وعبد الله بن عون ويونس بن عبيد وغيرهم من أصحاب الحسن أعلى طبقة من هؤلاء، وأويس القرني وعامر بن عبد قيس وأبو مسلم الخولاني وأمثالهم أعلى طبقة من هؤلاء، وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي وأبو الدرداء وأمثالهم أعلى طبقة من هؤلاء.

ومعلوم أن كل من سلك إلى الله جل وعز علماً وعملاً بطريق ليست مشروعة موافقة للكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها؛ فلا بد أن يقع في بدعة قولية أو عملية؛ فإن السائر إذا سار على غير الطريق المهيع؛ فلا بد أن يسلك بنيات الطريق، وإن كان ما يفعله الرجل من ذلك قد يكون مجتهداً فيه مخطئاً مغفوراً له خطؤه وقد يكون ذنباً وقد يكون فسقاً وقد يكون كفراً؛ بخلاف الطريقة المشروعة في العلم والعمل؛ فإنها أقوم الطرق، ليس فيها عوج:

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

وقال عبد الله بن مسعود: خط رسول الله ﷺ خطّاً، وخط خطوطاً عن

يمينه وشماله، ثم قال: «هٰذا سبيل الله، وهٰذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وأَنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾.

وقال الزهري: «كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة».

ولهٰذا قيل: «مثل السنة مثل سفينة نوح، من ركبها؛ نجا، ومن تخلف عنها؛ غرق»، وهو يروى عن مالك.

ومن سلك الطريق الشرعية النبوية لم يحتج في إثباتها إلى أن يشك في إيمانه الذي كان عليه قبل البلوغ، ثمَّ يحدث نظراً يعلم به وجود الصانع، ولم يحتج إلى أن يبقى شاكّاً مرتاباً في كل شيء، إنَّما كان مثل هٰذا يعرض لمثل الجهم بن صفوان وأمثاله، فإنَّهم ذكروا أنَّه بقي أربعين يوماً لا يصلي حتى يثبت أن له ربّاً يعبده؛ فهٰذه الحالة كثيراً ما تعرض للجهمية وأهل الكلام الذين ذمهم السلف والأئمة، وأما المؤمن المحض؛ فيعرض له الوسواس، فتعرض له الشكوك والشبهات، وهو يدفعها عن قلبه؛ فإن هٰذا لا بد منه.

كما ثبت في «الصحيح» أن الصحابة قالوا: يا رسول الله! إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممه أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به. فقال: «أفقد وجدتموه؟». قالوا: نعم. قال: «ذٰلك صريح الإيمان».

وفي «السنن» من وجه آخر: أنهم قالوا: إن أحدنا ليجد في نفسه ما يتعاظم أن يتكلم به. فقال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة».

قال غير واحد من العلماء: معناه: أن ما تجدونه في قلوبكم من كراهة

الوساوس والنفرة عنه وبغضه ودفعه هو صريح الإيمان.

وهٰذا من الزبد الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾.

وهٰذا مذكور في غير هٰذا الموضع، وكلام السلف والأئمة فيما أحدث من الكلام وما أحدث من الزهد مبسوط في غير هٰذا الموضع.

والمقصود هنا: أن يعرف مراتب الناس في العلم بالنبوة ومعرفة قدرها وتعدد الطرق في ذٰلك، وأن عامة الطرق التي سلكها الناس في ذٰلك هي طرق مفيدة نافعة، لكن تختلف مقادير فوائدها ومنافعها، وفيها ما يضر من وجه كما ينفع من وجه، وفيها ما ينتفع به من كان عديم الإيمان أو ضعيف الإيمان فيحصل به له بعض الإيمان أو يقوى إيمانه، وإن كان ذٰلك يضر من كان قوي الإيمان ويكون رجوعه إليه ردة في حقه بمنزلة».

وقال في موضع آخر:

«ولهٰـذا كان أبو حامد مع ما يوجد في كلامه من الرد على الفلاسفة وتكفيره لهم وتعظيم النبوة وغير ذٰلك، ومع ما يوجد فيه أشياء صحيحة حسنة، بل عظيمة القدر نافعة، يوجد في بعض كلامه مادة فلسفية وأمور أضيفت إليه توافق أصول الفلاسفة الفاسدة المخالفة للنبوة، بل المخالفة لصريح العقل، حتى تكلم فيه جماعات من علماء خراسان والعراق والمغرب، كرفيقه أبي إسحاق المرغيناني، وأبي الوفاء بن عقيل، والقشيري، والطرطوشي، وابن رشد، والمازري، وجماعات من الأولين، حتى ذكر ذٰلك الشيخ أبو عمرو بن الصلاح فيما جمعه من طبقات أصحاب الشافعي، وقرره الشيخ أبو زكريا النووي.

قال في هٰذا الكتاب: فصل في بيان أشياء مهمة أنكرت على الإمام الغزالي في مصنفاته ولم يرتضها أهل مذهبه وغيرهم من الشذوذ في تصرفاته.

منها قوله في مقدمة المنطق في أول «المستصفى»: هٰذه مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها؛ فلا ثقة له بعلومه أصلاً.

قال الشيخ أبو عمرو: وسمعت الشيخ العماد بن يونس يحكي عن يوسف الدمشقي مدّرس النظامية ببغداد ـ وكان من النظار المعروفين ـ أنَّه كان ينكر هٰذا الكلام ويقول: فأبو بكر وعمر وفلان وفلان ـ يعني: أولئك السادة ـ عظمت حظوظهم من الثلج واليقين ولم يحيطوا بهٰذه المقدمة وأسبابها.

قال الشيخ أبو عمرو: قد ذكرت بهٰذا ما حكى صاحب كتاب «الإمتاع والمؤانسة» ـ يعني: أبا حيان التوحيدي ـ أن الوزير ابن الفرات احتفل مجلسه ببغداد بأصناف من الفضلاء من المتكلمين وغيرهم، وفي المجلس متَّى الفيلسوف النصراني، فقال الوزير: أريد أن ينتدب منكم إنسان لمناظرة متى في قوله: إنَّه لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والحجة من الشبهة والشك من اليقين إلا بما حويناه من المنطق واستفدناه من واضعه على مراتبه، فانتدب له أبو سعيد السيرافي، وكان فاضلاً في علوم غير النجوم، وكلمه في ذٰلك حتى أفحمه وفضحه.

قال أبو محمد: وليس هٰذا موضع التطويل بذكره.

قال الشيخ أبو عمرو: وغير خاف استغناء العقلاء والعلماء قبل واضع المنطق أرسطاطاليس وبعده مع معارفهم الجمة عن تعلم المنطق، وإنَّما المنطق عندهم بزعمهم آلة قانونية صناعية تعصم الذهن من الخطأ، وكل ذي ذهنٍ صحيح منطقي بالطبع.

قال: فكيف غفل الغزالي عن حال شيخه إمام الحرمين ومن قبله من كل إمام هو له مقدم، ولمحله في تحقيق الحقائق رافع ومعظم، ثمَّ لم يرفع أحد منهم بالمنطق رأساً، ولا بنى عليه في شيء من تصرفاته أسّاً.

ولقد أتى بخلطه المنطق بأصول الفقه بدعة عظم شؤمها على المتفقهة، حتى كثر فيهم بعد ذلك المتفلسفة، والله المستعان.

قال: ولأبي عبد الله المازري الفقيه المتكلم الأصولي ـ وكان إماماً محققاً بارعاً في مذهبي مالك والأشعري، وله تصانيف في فنون؛ منها: «شرح الإرشاد»، و«البرهان» ـ لإمام الحرمين رسالة يذكر فيها حال الغزالي، وحال كتابه «الإحياء»، أصدرها في حال حياة الغزالي جواباً لما كوتب به من الغرب والشرق في سؤاله عن ذلك عند اختلافهم في ذلك، فذكر فيها ما اختصاره: أن الغزالي كان قد خاض في علوم، وصنف فيها، واشتهر بالإمامة في إقليمه، حتى تضاءل له المنازعون، واستبحر في الفقه، وفي أصول الفقه، وهو بالفقه أعرف، وأمَّا أصول الدين؛ فليس بالمستبحر فيها، شغله عن ذلك قراءته علوم الفلسفة، وأكسبته قراءة الفلسفة جراءة على المعاني، وتسهيلاً للهجوم على الحقائق؛ لأن الفلاسفة تمر مع خواطرها، وليس لها شرع يزعها، ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها، فلذلك خامره ضرب من الإدلال على المعاني، فاسترسل فيها استرسال من لا يبالي بغيره.

قال: وقد عرفني بعض أصحابه أنَّه كان له عكوف على قراءة «رسائل إخوان الصفا»، وهذه الرسائل هي إحدى وخمسون، كل رسالة مستقلة بنفسها، وقد ظن في مؤلفها ظنون، وفي الجملة هو ـ يعني واضع الرسائل ـ رجل فيلسوف قد خاض في علوم الشرع، فمزج ما بين العلمين وحسن الفلسفة في قلوب أهل الشرع بآيات وأحاديث يذكرها عندها.

ثمَّ إنَّه كان في هٰذا الزمان المتأخر فيلسوف يعرف بابن سينا، ملأ الدينا تآليف في علوم الفلسفة، وكان ينتمي إلى الشرع، ويتحلى بحلية المسلمين، وأداته قوته في علم الفلسفة، إلى أن تلطف جهده في رد أصول العقائد إلى علم الفلسفة، وتم له من ذٰلك ما لم يتمُّ لغيره من الفلاسفة.

قال: ووجدت هٰذا الغزالي يعول عليه في أكثر ما يشير إليه في علوم الفلسفة، حتى إنَّه في بعض الأحايين ينقل نص كلامه من غير تغيير، وأحياناً يغيره وينقله إلى الشرعيات أكثر ممَّا نقل ابن سينا، لكونه أعلم بأسرار الشرع منه، فعلى ابن سينا ومؤلف «رسائل إخوان الصفا» عول الغزالي في علم الفلسفة.

قال: وأمَّا مذهب المتصوفة؛ فلست أدري على من عول فيها، ولا من ينتسب إليه في علمها.

قال: وعندي أنَّه على أبي حيان التوحيدي الصوفي عول على مذاهب الصوفيَّة، وقد علمت أنَّ أبا حيان هٰذا ألف ديوانا عظيماً في هٰذا الفن، ولم يصل إلينا منه شيء.

ثمَّ ذكر أنَّ في «الإحياء» فتاوى مبناها على ما لا حقيقة له، مثل ما استحسن في قص الأظافر أن يبدأ بالسبابة؛ لأن لها الفضل على بقية الأصابع؛ لكونها المسبحة، ثمَّ بالوسطى؛ لأنها ناحية اليمين، ثمَّ باليسرى على هيئة دائرة، وكأن الأصابع عنده دائرة، فإذا أدار أصابعه؛ مر عليها مرور الدائرة، ثمَّ يختم بإبهام اليمنى، هٰكذا حدَّثني به من أثق به عن الكتاب.

قال: فانظر إلى هٰذا كيف أفاده قراءة الهندسة وعلم الدوائر وأحكامها أن نقله إلى الشرع، فأفتى به المسلمين.

قال: وحمل إلي بعض الأصحاب من هٰذا الإملاء الجزء الأول، فوجدته يذكر فيه: أنَّ من مات بعد بلوغه ولم يعلم أن الباري قديم؛ مات مسلماً إجماعاً.

ومن تساهل في حكاية الإجماع في مثل هٰذا الذي الأقرب أن يكون فيه الإجماع بعكس ما قال؛ فحقيق أن لا يوثق بكل ما ينقل، وأن يظن به التساهل في رواية ما لم يثبت عنده صحته.

قال: ثمَّ تكلم المازري في محاسن «الإحياء» ومذامه، ومنافعه ومضاره، بكلام طويل، ختمه بأن من لم يكن عنده من البسطة في العلم ما يعتصم به من غوائل هٰذا الكتاب؛ فإن قراءته لا تجوز له، وإن كان فيه ما ينتفع به، ومن كان عنده من العلم ما يأمن به على نفسه من غوائل هٰذا الكتاب، ويعلم ما فيه من الرموز، فيجتنب مقتضى ظواهرها، ويكل أمر مؤلفها إلى الله تعالى، وإن كانت كلها تقبل التأويل، فقراءته له سائغة، وينتفع به، اللهم إلا أن يكون قارئه ممَّن يقتدى به، ويغتر به؛ فإنه ينهى عن قراءته وعن مدحه والثناء عليه.

قال: ولولا أن علمنا أنَّ إملاءنا هٰذا إنَّما يقرؤه الخاصة ومن عنده علم يأمن به على نفسه؛ لم نتبع محاسن هٰذا الكتاب بالثناء، ولم نتعرض لذكرها، ولكنا نحن أمنَّا من التغرير، ولئلا يظن أيضاً من يتعصب للرجل أنا جانبنا الإنصاف في الكلام على كتابه، ويكون اعتقاده هٰذا فينا سبباً لئلا يقبل نصيحتنا.

قال الشيخ أبو عمرو: وهٰذا آخر ما نقلناه عن المازري.

قلت: ما ذكره المازري في مادة أبي حامد من الصوفيَّة، فهو كما قال

المـازري عن نفسـه: لم يدر على من عوَّل فيها، ولم يكن للمازري من الاعتناء بكتب الصوفيَّة وأخبارهم ومذاهبهم ما له من الاعتناء بطريقة الكلام وما يتبعه من الفلسفة ونحوها؛ فلذٰلك لم يعرف ذٰلك.

ولم تكن مادة أبي حامد من كلام أبي حيان التوحيدي وحده، بل ولا غالب كلامه منه؛ فإن أبا حيان تغلب عليه الخطابة والفصاحة، وهو مركب من فنون أدبية وفلسفية وكلاميـة وغير ذٰلك، وإن كان قد شهد عليه بالزندقة غير واحد، وقرنوه بابن الراوندي؛ كما ذكر ذٰلك ابن عقيل وغيره، وإنَّما كان غالب استمـداد أبي حامد من كتاب أبي طالب المكي الذي سماه «قوت القلوب» ومن كتب الحارث المحاسبي وغيرها ومن «رسالة القشيري»، ومن منثورات وصلت إليه من كلام المشايخ، وما نقله في «الإحياء» عن الأئمة في ذم الكلام؛ فإنَّه نقله من كتب أبي عمر بـن عبد البر في فضل العلم وأهله، وما نقله فيه من الأدعية والأذكار نقله من كتاب «الذكر» لابن خزيمة، ولهٰذا كانت أحاديث هٰذا الباب جيدة، وقد جالس من اتفق له من مشايخ الطرق، لكنه يأخذ من كلام الصوفية في الغالب ما يتعلق بالأعمال والأخلاق والزهد والرياضة والعبادة، وهي التي يسميها علوم المعاملة، وأمَّا التي يسميها علوم المكاشفة، ويرمز إليها في «الإحياء» وغيره؛ ففيها يستمد من كلام المتفلسفة وغيرهم؛ كما في «مشكاة الأنوار» و«المضنون به على غير أهله»، وغير ذٰلك.

وبسبب خلطه التصـوف بالفلسفـة كما خلط الأصول بالفلسفة صار ينسب إلى التصوف من ليس هو موافقاً للمشايخ المقبولين، الذين لهم في الأمة لسان صدق، رضي الله تعالى عنهم، بل يكون مبايناً لهم في أصول الإيمان؛ كالإيمان بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر، ويجعلون هٰذه مذاهب

الصوفيَّة، كما يذكر ذٰلك ابن الطفيل صاحب رسالة «حي بن يقظان»، وأبو الوليد ابن رشد الحفيد، وصاحب «خلع النعلين»، وابن العربي صاحب «الفتوحات» و«فصوص الحكم»، وابن سبعين، وأمثال هٰؤلاء ممَّن يتظاهر بمذاهب مشايخ الصوفيَّة وأهل الطريق، وهو في التحقيق منافق زنديق، ينتهي إلى القول بالحلول والاتحاد واتباع القرامطة أهل الإلحاد ومذهب الإباحية الدافعين للأمر والنهي والوعد والوعيد، ملاحظين لحقيقة القدر التي لا يفرق فيها بين الأنبياء والمرسلين وبين كل جبارٍ عنيد، وقائلين مع ذٰلك بنوع من الحقائق البدعية، غير عارفين بالحقائق الدينية الشرعية، ولا سالكين مسلك أولياء الله الذين هم بعد الأنبياء خير البرية؛ فهم في نهاية تحقيقهم يسقطون الأمر والنهي والطاعة والعبادة، مشاقين للرسول، متبعين غير سبيل المؤمنين، ويفارقون سبيل أولياء الله المتقين إلى سبيل أولياء الشياطين، ثمَّ يقولون بالحلول والاتحاد، وهو غاية الكفر ونهاية الإلحاد، ولهٰذا في كلام المشايخ العارفين، كأبي القاسم الجنيد وأمثاله من بيان أن التوحيد هو إفراد الحدوث عن القدم، ونحو ذٰلك، ومن بيان وجوب اتباع الأمر والنهي، ولزوم العبادة إلى الموت، ما يبين به أن أولٰئك السادة المهتدين حذروا من طريق هٰؤلاء الملحدين، ولهٰذا نجد هٰؤلاء كابن عربي وابن سبعين وأمثالهما يردون على مثل الجنيد وأمثاله من أئمة المشايخ، ويدعون أنَّهم ظفروا في التحقيق بنهاية الرسوخ، وإنَّما ظفروا بتحقيق الإلحاد، والدخول في الحلول والاتحاد، وما زال شيوخ الصوفيَّة المؤمنون يحذرون من مثل هٰؤلاء الملبسين كما حذر أئمة الفقهاء من سبيل أهل البدعة والنفاق من أهل الفلسفة والكلام ونحوهم، حتى ذكر ذٰلك أبو نعيم الحافظ في أول «حلية الأولياء» وأبو القاسم القشيري في «رسالته»، دع من هو أجل منهما وأعلم منهما بطريق الصوفيَّة

وأقل غلطاً وأبعد عن الاعتماد على المنقولات الضعيفة والمنقولات المبتدعة.

قال أبو نعيم في أول «الحلية»: أما بعد: أحسن الله تعالى توفيقك، فقد استعنت بالله عز وجل، وأجبتك إلى ما أبغيت من جمع كتاب يتضمن أسامي جماعة، وبعض أحاديثهم وكلامهم، من أعلام المحققين، من المتصوفة وأئمتهم، وترتيب طبقاتهم من النساك، ومحجتهم من قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم، ممَّن عرف الأدلة والحقائق، وباشر الأحوال والطرائق، وساكن الرياض والحدائق، وفارق العوارض والعلائق، وتبرأ من المنقطعين والمتعمقين، ومن أهل الدعاوي من المسوفين، ومن الكسالى والمثبطين، المتشبهين بهم في اللباس والمقال، والمخالفين لهم في العقيدة والأفعال، وذٰلك لما بلغك من بسط ألسنتنا وألسنة أهل الفقه في كل الأقطار والأمصار في المنتسبين إليهم من الفسقة الفجار، والمباحية والحلولية الكفار، وليس ما حل بالكذبة من الوقيعة والإنكار بقادح في منقبة البررة الأخيار، وواضع من درجة الصفوة الأطهار، بل في إظهار البراءة من الكذابين والنكير على الحشوية البطالين، نزاهة الصادقين ورفعة المحققين.

ولو لم ينكشف عن مخازي المبطلين ومساويهم ديانة، للزمنا إبانتها وإشاعتها حمية وصيانة، إذ لأسلافنا في التصوف العلم المنشور والصيت والذكر المشهور، فقد كان جدي محمد بن يوسف رحمه الله تعالى أحد من يسَّر الله تعالى به ذكر بعض المنقطعين إليه، وكيف يستجيز نقيصة أولياء الله تعالى ومؤذيهم مؤذن بمحاربة ربه، ثمَّ أسند حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري في «صحيحه» عن النبي ﷺ أنَّه قال: «إن الله تعالى قال: من آذى لي وليّاً (وفي الرواية الأخرى: من عادى لي وليّاً)؛ فقد آذنته بالحرب، وما

تقـرب إلي عبـدي بشيء أفضل من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، بي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينَّهُ، ولئن استعـاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بد له منه».

قلت: قد ذم أهـل العلم والإيمان من أئمة العلم والدين من جميع الـطوائف من خرج عمَّـا جاء به الرسول ﷺ في الأقوال والأعمال باطناً أو ظاهراً، ومدحهم هو لمن وافق ما جاء به الرسول ﷺ، ومن كان موافقاً من وجه ومخالفاً من وجه ـ كالعاصي الذي يعلم أنَّه عاص ـ؛ فهو ممدوح من جهة موافقته، مذموم من جهة مخالفته».

وقال في موضع آخر:

«وأمَّـا كتب الفلسفة؛ فالباطل غالب عليها، بل الكفر الصريح كثير فيهـا، وكتـاب «الإحياء» له حكم نظائـره؛ ففيه أحـاديث كثيرة صحيحة، وأحاديث كثيرة ضعيفة أو موضوعة، فإن مادة مصنفه في الحديث والآثار وكلام السلف وتفسيرهم للقرآن مادة ضعيفة، وأجود ما له من المواد المادة الصوفيَّة، ولو سلك فيها مسالك الصوفيَّة أهل العلم بالآثار النبوية، واحترز عن تصوف المتفلسفة الصابئين؛ لحصل مطلوبه ونال مقصوده، لكنه في آخر عمره سلك هٰذا السبيل، وأحسن ما في كتابه، أو من أحسن ما فيه، ما يأخذه من كتاب أبي طالب في مقامات العارفين ونحو ذٰلك؛ فإن أبا طالب أخبر بذوق الصوفيَّة حالاً، وأعلم بكلامهم وآثارهم سماعاً، وأكثر مباشرة لشيوخهم الأكابر».



السبب الثاني

الأحاديث الضعيفة المدسوسة في الكتاب

● **تمهيد:**

الذي ينظر ما بين دفتي كتاب «الإحياء» يرى العجب العُجَاب، وتأخذه الدهشة، والحيرة، والشك، والظن السيىء، الذي لازمه أن هٰذا الفعل تآمر على الإسلام.

فالذي يسمع التسمية ـ أي: «إحياء علوم الدين» ـ لا يشك أنَّه بعث جديد للكتاب والسنة، فإذا به يجد ما يميت الكتاب والسنة، ويجهز عليهما، ويضاد الهدف الأساسي الذي جاء من أجل تحقيقه الكتاب والسنة.

وقد سبق ما نقلناه من كلام ابن تيمية رحمة الله عليه في الجزء الخامس في تعقبه على عبارة الغزالي في عرض الكتاب والسنة على الكشف والمكاشفة، فما أقره الكشف فهو الصحيح، وما رفضه فهو الباطل؛ أي: أن نعتمد الكشف في عقيدتنا كلها، فما صححه الكشف فهو الصحيح، وما رفضه فهو الباطل، أمَّا من يعتمد في ذٰلك على الكتاب والسنة، فلا يستقر له قدم، ولهٰذا قال ابن تيمية: «وهٰذان أصلان للزندقة والإلحاد»، أو كما قال رضي الله عنه.

ولو قرأ المسلم هٰذه العبارة من «الإحياء»، لكفاه في طرحه، إن كان ممَّن يؤمن بالله واليوم الآخر.

جاء في «الإحياء» في الجزء الرابع منه في الصفحة السادسة والخمسين بعد الثلاثمائة:

«وحكي أن أبا تراب النخشبي كان معجباً ببعض المريدين، فكان يدنيه ويقوم بمصالحه، والمريد مشغول بعبادته ومواجدته، فقال له أبو تراب يوماً: لو رأيت أبا يزيد. فقال: إني عنه مشغول. فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله: لو رأيت أبا يزيد؛ هاج وجد المريد، فقال: ويحك ما أصنع بأبي يزيد، قد رأيت الله تعالى، فأغناني عن أبي يزيد. قال أبو تراب: فهاج طبعي، ولم أملك نفسي، فقلت: ويلك، تغتر بالله عز وجل، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة».

هٰذا وأمثاله ممَّا سأذكره مفصلاً إن شاء الله.

وأما من ناحية الهيكلة للكتاب؛ فنجد صاحبه ذكر كُتُباً كثيرة لو أهملها ما كان يضر ذٰلك بالمسلمين، بل كان إهمالها هو الواجب؛ كقوله: كتاب الفقر والزهد، وكتاب آداب السماع والوجد، وكتاب آداب العزلة، وكتاب رياضة النفس، وكتاب كسر الشهوتين، وفيه بيان فضيلة الجوع، وبيان فوائد الجوع.

أمَّا الأبواب التي كون منها كتبه؛ فإحصاء الباطل منها يطول، وأمَّا كتاب الجهاد؛ فهٰذا لا وجود له في كتاب «الإحياء»، مع أهميته، وتوارد الآيات القرآنية فيه والأحاديث النبوية الكثيرة، ولا تجد كتاباً من كتب المسلمين المعتبرة في السنة والفقه إلا وتجد فيها مساحة كبرى لكتاب

الجهاد؛ فهو لعمر الله الحركة الأساسية للأمة الإسلامية، فلا أمة بدون جهاد، فالجهاد هو ذروة سنام الإسلام.

فما أدري بماذا سيجيب المحبون للغزالي عن إهمال الغزالي لكتاب الجهاد في كتاب سماه «إحياء علوم الدين»؛ فلا أدري إن لم يكن الجهاد هو الذي يحييها؛ فمن يحيي علوم الدين؟!

والآن نرجع إلى المادة الفاسدة الموجودة بين دفتي «إحياء علوم الدين»، وسنكتفي بالأمثلة، دون استيعاب لكل ما في الكتاب؛ فإن هٰذا يحتاج إلى مجلدات، وأرى أن الاهتمام ببيان ذٰلك كله هو مضيعة للوقت، واللبيب ـ كما يقال ـ تكفيه الإشارة، والمنصف المجرد من الهوى تكفيه الأدلة التي يطمئن إليها، فتقوم عنده الحجة، وهٰذه سنة قرآنية؛ فإن الله تعالى لم يذكر لنا في القرآن كل الأمم وأخبارها، وإنَّما ذكر لنا ما فيه العبرة، وذكر لنا من الرسل ما تقوم به الحجة:

﴿فَمِنْهُم مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ومِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عليْكَ﴾.

● **شخصية الغزالي ومكانته من السنة:**

قبل ذكر هٰذه المادة يجدر بنا أن نبين شخصية الغزالي ومكانته من السنة، وبعد ذٰلك نبين التحذير الوارد من الرسول ﷺ في الكذب عليه، وما أعده الله للكاذبين عليه والمتعمدين للرواية عنه ذٰلك.

أما شخصيَّة الغزالي؛ فقد اعترف بنفسه أنَّه لم يكن يعرف الحديث ولا تعلمه.

ولهٰذا جاء في رسالته المسماة «قانون التأويل»: أنَّه كان يقول: «أنا

مزجي البضاعة في الحديث»[1].

وجاء في «سير أعلام النبلاء»:

. . . إلى أن قال: «وكـان خاتمـة أمره إقباله على طلب الحديث، ومجالسته أهله، ومطالعة «الصحيحين»، ولو عاش؛ لسبق الكل في ذٰلك الفن بيسير من الأيام».

قال: «ولم يتفق له أن يروي».

وجاء في «شرح العقيدة الأصفهانية»:

قال ابن تيمية: «وذكر في موضع آخر: أن الواحد من الأولياء قد يسمع كلام الله سبحانه كما يسمع موسى بن عمران، وأمثال هٰذه الأمور، ولهٰذا تبين له في آخر عمره أن طريق الصوفيَّة لا تحصل مقصوده، فطلب الهدى من طريق الآثار النبويَّة، وأخذ يشتغل بـ «البخاري» و «مسلم»، ومات في أثناء ذٰلك على أحسن أحواله، وكان كارهاً ما وقع في كتبه من نحو هٰذه الأمور ممَّا أنكره الناس عليه»[2].

* التعليق:

هٰذه اعتـرافـات الغزالي بنفسه أنَّه لم يكن له علم بالحديث، وهٰذه اعتـرافـات الذين عاصروه، وهٰذه اعترفات الخبراء بأخباره وسيرته وترجمته ومصنفاته، والكل يجمع على أن الغزالي لم يتلق الحديث ولا درسه إلا بعد أن فرغ من هٰذه المصنفات التي ملأت الدنيا، وفي آخر عمره اهتدى لدراسة السنة، وأقبل على «الصحيحين» و«السنن»، ولحقه الندم على خوضه فيما

---

(١) «قانون التأويل» (ص ١٦).

(٢) (ص ١٢٣).

ليس متصلاً بالسنة، بل هو مضاد لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولعل الله تعالى يقبل توبته ويسامحه على ما أفسد من عقائد المسلمين.

وليت محبي الغزالي يقفون على هٰذه النصوص ويعلمون أن الغزالي كان يجهل الأساس من علوم الدين باعترافه بنفسه وبشهادة من يوثق بعلمه وخبرته؛ فكيف يسمي كتابه «إحياء علوم الدين» وهو في هٰذه المنزلة التي لا تهيئه لدراسة علوم الدين واستيعابها لنفسه، فضلاً عن التأليف فيها، واختيار أكبر عنوان، لا يصدق إلا على «صحيح البخاري» ومثله ممَّن أحيا الله بهم علوم الدين.

● **ما جاء في الكذب على رسول الله ﷺ:**

اتفق أئمة الحديث ومن يعتد برأيه على أنَّه لا يجوز الوضع في الحديث مهما كانت الدوافع والأسباب. هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرى، أجمع الأئمة على أن تعمد الكذب على رسول الله ﷺ كبيرة من الكبائر؛ لأنَّه ذنب توعد فاعله بالتبوؤ في النار، فقد تواتر النقل عنه ﷺ:

قوله: «من كذب علي متعمداً؛ فليتبوأ مقعده من النار».

وقوله ﷺ: «لا تكذبوا علي؛ فإنه من يكذب علي يلج النار».

فلا يجوز بحال من الأحوال الكذب عليه ﷺ مهما كان الموجب لذٰلك؛ إذ يترتب على الكذب عليه مفسدة عامة تلحق ضرراً بالدين، ولا يقتصر عليه ﷺ؛ لأن كل ما يتعلق به يتخذ شريعة، ولذا أشار ﷺ إلى ذٰلك بقوله: «إن كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد».

ومن جهة ثالثة، اتفق الأئمة وعلماء الأمة على أن الكاذب على رسول

الله ﷺ متعمداً مرتكب كبيرة من الكبائر، لاقترافه إثماً توعد فاعله بالتبوؤ في جهنم.

وقد بالغ والد إمام الحرمين ومن تبعه، فحكم بكفر من تعمد الكذب عليه ﷺ كفراً يخرجه عن الملة ويبيح دمه.

وممّن ذهب إلى ذٰلك الإمام ناصر الدين بن المنير من المالكية، ووجهة الرأي عنده: أن الكاذب عليه في تحليل حرام مثلاً لا ينفك من استحلال ذٰلك الحرام أو الحمل على استحلاله، واستحلال الحرام كفر، والحمل على الكفر كفر[1].

وجاء في «تحذير الخواص» للسيوطي:

«ومال إلى ذٰلك أبو بكر بن العربي»[2].

كما ذهب إلى القول بكفر الكاذب المتعمد أبو الفضل الهمداني شيخ ابن عقيل من الحنابلة، ومال إلى ذٰلك الحافظ الذهبي فيما إذا كان الكاذب يحل حراماً أو يحرم حلالاً، فقال:

«قد ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الكذب على النبي ﷺ كفر ينقل من الملة، ولا ريب أن تعمد الكذب على الله تعالى ورسوله في تحليل حرام أو تحريم حلال كفر محض»[3].

ويؤيد ذٰلك صنيع السلف وأئمة الحديث رحمهم الله تعالى، حيث استباحوا دم الكذبة على رسول الله ﷺ.

---

(١) «فتح الباري» (١ / ١٦٤).

(٢) (ص ٦٤ ـ ٦٥)، «وفتح الباري» (٦ / ٣٨٩).

(٣) «الكشف الحثيث» (ص ٦).

قال يحيى بن معين في سويد الأنباري: «هو حلال الدم»[1].

وفي رواية أخرى قال: «لو وجدت درقة وسيفاً لغزوت سويداً الأنباري»[2].

وقال سفيان بن عيينة لما حدث معلّى بن هلال عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن عبد الله؛ قال: «التقنع من أخلاق الأنبياء»؛ قال ابن عيينة: «إن كان لمعلى أن يحدث بهٰذا الحديث عن ابن نجيح ما أحوجه أن نضرب عنقه»[3].

وقال الشعبي لدواد بن يزيد الأزدي وجابر الجعفي: «لو كان لي عليكما سبيل ولم أجد إلا تبراً؛ لسبكته، ثمَّ غللتكما به»[4].

وروى ابن عدي بسنده إلى حسين بن محمد بن حاتم؛ قال: «كنت مع جعفر بن الهذيل عند أبي هشام الرفاعي، فأملى علينا حديث ابن إدريس عن إسماعيل عن قيس عن جرير: أتاني حبر باليمن. . . الحديث، فقال له ابن الهذيل: «لا أسمعك تحدث بهٰذا فأصلبك»[5].

إلى غير ذٰلك من الأقوال الواردة عنهم في كتب الجرح والتعديل، والتي صرحوا فيها بإباحة دم الكذابين على رسول الله ﷺ.

ومن المعلوم أنَّه لم يصرح أحد من العلماء بأن الكاذب على رسول الله

---

(١) «ميزان الاعتدال» (٢ / ٢٤٩).

(٢) «ميزان الاعتدال» (٢ / ٢٥٠).

(٣) «ميزان الاعتدال» (٤ / ١٥٣).

(٤) «تحذير الخواص» (ص ١١٦).

(٥) «تحذير الخواص» (ص ١١٦).

ﷺ يقتل حدّاً، أو أن الكذب على رسول الله ﷺ حده القتل، فدل صنيعهم على إباحة دمائهم اقتضاء لتكفيرهم». وانتهى من كتاب الوضع في الحديث[1].

وقد كتب الإمام مسلم رحمه الله مقدمة هامة في هٰذا الموضوع أرى من المفيد أن أقتطف بعض ما يدل على موضوعنا.

قال الإمام مسلم رحمه الله:

«واعلم وفقك الله تعالى أن الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها وثقات الناقلين لها من المتهمين، ألا يروي منها إلا ما عرف صحة مخارجه، والستارة في ناقليه، وأن يتقي منها ما كان منها عن أهل التهم والمعاندين من أهل البدع.

والدليل على أن الذي قلناه من هٰذا هو اللازم دون ما خالفه قول الله جل ذكره: ﴿**يا أيها الَّذينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا على ما فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾.

قال جل ثناؤه: ﴿**وَأَشْهِدُوا ذَوي عَدْلٍ مِنْكُمْ**﴾.

فدل بما ذكرنا من هٰذه الآي أن خبر الفاسق ساقط غير مقبول، وأن شهادة غير العدل مردودة، والخبر، وإن فارق معناه معنى الشهادة في بعض الوجوه، فقد يجتمعان في أعظم معانيهما، إذ كان خبر الفاسق غير مقبول عند أهل العلم، كما أن شهادته مردودة عند جميعهم، ودلت السنة على نفي رواية المنكر من الأخبار، كنحو دلالة القرآن على نفي خبر الفاسق، وهو الأثر المشهور عن رسول الله ﷺ: «من حدث عني بحديث يرى أنَّه كذب؛ فهو

---

(١) (ص ٣١٩).

أحد الكذابين»».

ثمَّ روى مسلم بسنــده إلى علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ: «لا تكذبوا علي؛ فإنَّه من يكذب علي يلج النار».

ثمَّ روى بسنده إلى أنس بن مالك أنَّه قال: «إنَّه ليمنعني أن أحدثكم حديثاً كثيراً أن رسول الله ﷺ قال: «من تعمد علي كذباً فليتبوأ مقعده من النار».

واسترسل الإمام مسلم في ذكر الروايات عن الرسول ﷺ في التحذير عن الكذب عليه، ومن ذٰلك ما رواه بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع».

وذكر بسنده إلى مالك بن أنس عن ابن وهب؛ قال: «قال لي مالك: اعلم أنَّـه ليس يسلم رجـل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ما سمع».

وذكر بسنده إلى أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم».

وذكر بسنده إلى محمد بن سيرين؛ قال: «إن هٰذا العلم دين، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم».

وذكر بسنده إلى عبد الله بن المبارك يقول: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد؛ لقال من شاء ما شاء».

وذكـر بسنـده إلى أبي عقيل صاحب بهية؛ قال: «كنت جالساً عند القاسم بن عبيد ويحيى بن سعيد، فقال يحيى للقاسم: يا أبا محمد! إنَّه قبيح

على مثلك عظيم أن تُسأل عن شيء من أمر هذا الدين، فلا يوجد عندك منه علم ولا فرج، أو علم ولا مخرج. فقال له القاسم: وعم ذاك؟ قال: لأنك ابن إمامي هدى، ابن أبي بكر وعمر. قال: يقول له القاسم: أقبح من ذاك عند من عقل عن الله أن أقول بغير علمٍ، أو آخذ عن غير ثقة. قال: فسكت فما أجابه.

انتهى من مقدمة «صحيح مسلم».

● **علماء الأمة يضعون القواعد لضبط المتون والأسانيد:**

غير أن هذا المخطط الخبيث قد تنبه له علماء الأمة وحكامها الصادقون الصالحون، فكشفوا عنه وعن حقيقته، وجند العلماء أنفسهم للعكوف في التفكير للرد على هذا المخطط، واستعانوا بالخلفاء الصالحين، فكانت الجهود متعاونة ومتضافرة، فصنف علماء الحديث التصانيف على اختلاف الوجهات التي تُحارب هذا المخطط الواسع، فبادروا إلى عزل الصحيح، وضبطوا متونه وأسانيده، ووضعوا له القواعد الدقيقة، حتى تكون سوراً مانعاً لا يمكن أن يدخل منه أي لص كيفما كانت قوته وذكاؤه ومخططه، ووضعوا للرجال مقاييس في الرواية تختلف من رجل إلى آخر، بما سمي في هذا العصر بالتنقيط، فمن مائة إلى صفر، وأصبح الرجال معروفين عند أئمة الحديث، يعرفونهم كما يعرفون أبناءهم، وألفت كتب في هذا، كل شعبة أخذت تخصصاً، حتى تتعاون الجهود وتتظافر وتسد جميع الثغرات والنوافذ التي يحاول الأعداء الدخول منها، وأصبح المنهاج محكماً، وأصبحت الشعب متكاملة، فأصبح هناك كتب تعرف بكتب الجرح والتعديل، وأخرى بكتب العلل، وأخرى بتراجم الرجال وضبط أحاديثهم الصحيحة والضعيفة، وأخرى خاصة بالضعفاء، وأخرى خاصة بالمتروكين والكذابين، وأصبح هذا

المنهاج دقيقاً، وأصبح المعاصرون الآن على ما يدعون من تفوق في الثقافة والمعرفة هم في حاجة ماسة لاستعمال هذا المنهاج الدقيق، وأنى لهم منه، فهذا كما قال بعض السلف، يحتاج إلى ذكور الرجال، أما المخنثون فلا حظ لهم ولا نصيب منه؛ لأن المقومات التي ملكها أولئك الفحول يستحيل أن تتحقق في هؤلاء الفسقة الفجرة؛ إلا من كان على مثل أولئك في العلم والزهد والورع، وقليل ما هم.

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض جنود ذلك المخطط الخبيث الذي وضع لنسف السنة والقرآن، بل لضياع المسلمين، وجعلهم عابثين في حياتهم، يحسبون أنَّهم على شيء، وإنهم في واقع الأمر ليسوا على شيء، يحسبون أنَّهم متمسكون بالكتاب والسنة، وهم في واقع الأمر يعملون بكلام الزنادقة ويطبقون مخططاتهم.

وكتاب الغزالي المسمى بـ «إحياء علوم الدين» مثال لذلك، كما سترى ذلك في حينه إن شاء الله.

● أثر الرافضة في وضع الحديث:

يقول ابن أبي الحديد ـ كما في «شرح نهج البلاغة» ـ: «إن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة؛ فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلقة في صاحبهم، حملهم على وضعها عداوة خصومهم».

ويقول الإمام الشافعي: «وتقبل شهادة أهل الأهواء؛ إلا الخطابية من الرافضة؛ لأنهم يرون الشهادة بالزور لموافقيهم»[1].

وأخرج الخطيب بإسناده إلى حرملة بن يحيى؛ قال: «سمعت الشافعي

(١) «الكفاية» (ص ١٩٤).

يقول: «لم أر أحداً من أهل الأهواء أشهد بالزور من الرافضة»[1].

وروى أيضاً بإسناده إلى علي بن الجعد؛ قال: سمعت أبا يوسف يقول: «أجيز شهادة أهل الأهواء، أهل الصدق منهم؛ إلا الخطابية، والقدرية».

قال أبو أيوب: سئل إبراهيم عن الخطابية؟ فقال: «صنف من الرافضة»[2].

وروى الخطيب أيضاً بسنده إلى ابن المبارك؛ قال: «سأل أبو عصمة أبا حنيفة: ممَّن تأمرني أن أسمع الآثار؟ قال: من كل عدل في هواه؛ إلا الشيعة، فإن أصل عقيدتهم تضليل أصحاب محمد ﷺ»[3].

وقال يزيد بن هارون: «يكتب عن كل مبتدع إذا لم يكن داعية إلا الرافضة فإنهم يكذبون»[4].

وقال يونس بن عبد الأعلى: «قال أشهب: سئل مالك رضي الله عنه عن الرافضة، فقال: لا تكلمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون»[5].

وقال شريك: «احمل العلم عن كل من لقيته إلا الرافضة، فإنهم يضعون الحديث ويتخذونه ديناً»[6].

وقال أيضاً: «أدركت الناس، وما يسمونهم إلا الكذابين، يعني

---

(١) «الكفاية» (ص ٢٠٢).

(٢) «الكفاية» (ص ٢٠٢).

(٣) «الكفاية» (ص ٢٠٣).

(٤) «المنتقى» (ص ٢٢).

(٥) «المنتقى» (ص ٢٢).

(٦) «المنتقى» (ص ٢٢).

أصحاب المغيرة بن سعيد»[1].

وقد ذكر الإمام ابن تيمية رحمة الله عليه في كتابه «منهاج السنة» فصلاً نفيساً ذكر فيه الآثار التي قدمنا ذكرها.

قال رحمه الله: «ونحن نبين إن شاء الله تعالى طريق الاستقامة في معرفة هٰذا الكتاب «منهاج الندامة» بحول الله وقوته.

وهٰذا الرجل سلك مسلك سلفه شيوخ الرافضة، كابن النعمان المفيد، ومتبعيه كالكراجكي وأبي القاسم المسوى والطوسي وأمثالهم؛ فإن الرافضة في الأصل ليسوا أهل علم وخبرة بطريق النظر والمناظرة ومعرفة الأدلة وما يدخل فيها من المنع والمعارضة، كما أنهم من أجهل الناس بمعرفة المنقولات والأحاديث والآثار، والتمييز بين صحيحها وضعيفها، وإنَّما عمدتهم في المنقولات على تواريخ منقطعة الإسناد، وكثير منها من وضع المعروفين بالكذب، بل وبالإلحاد، وعلماؤهم يعتمدون على نقل مثل أبي مخنف لوط بن يحيى وهشام بن محمد بن السائب وأمثالهما من المعروفين بالكذب عند أهل العلم، مع أن أمثال هٰؤلاء هم من أجل من يعتمدون عليه في النقل، إذ كانوا يعتمدون على من هو في غاية الجهل والافتراء ممن لا يذكر في الكتب ولا يعرفه أهل العلم بالرجال.

وقد اتفق أهل العلم بالنقل والرواية والإسناد على أن الرافضة أكذب الطوائف، والكذب فيهم قديم، ولهٰذا كان أئمة الإسلام يعلمون امتيازهم بكثرة الكذب»[2].

---

(١) «المنتقى» (ص ٢٢).

(٢) «منهاج السنة» (١ / ٥٨ ـ ٥٩).

ثمَّ ذكر ابن تيمية الآثار التي مر نقلها.

وقال الذهبي:

«والرافضة يقرون بالكذب، حيث يقولون: ديننا التقية، وهذا هو النفاق، ثم يزعمون أنَّهم هم المؤمنون، ويرمون السابقين الأولين بالردة والنفاق، كما قيل: رمتني بدائها وانسلت»[1].

● **ما يجب على أهل العلم أن يبيِّنوه للناس:**

قلت: وليس يخفى على الفطن اللبيب أن هذه الشروط توجب على أهل العلم والمعرفة بصحيح الحديث وسقيمه أن يميزوا للناس شيئين هامين:

الأول: الأحاديث الضعيفة من الصحيحة، لكي لا يعتقد العاملون بها ثبوتها، فيقعوا في آفة الكذب على رسول الله ﷺ كما تقدم في كلام الإمام مسلم وغيره.

والآخر: الأحاديث الشديدة الضعف من غيرها؛ لكي لا يعملوا بها، فيقعوا في الآفة المذكورة.

والحق والحق أقول: إن القليل من علماء الحديث ـ فضلاً عن غيرهم ـ من له عناية تامة بالتمييز الأول؛ كالحافظ المنذري ـ على تساهله المتقدم بيانه ـ والحافظ ابن حجر العسقلاني في كتبه، وتلميذه الحافظ السخاوي في كتابه «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة»، وغيرهم، وفي عصرنا هذا الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في

---

(١) «المنتقى» (ص ٢٣).

تحقيقه وتعليقه على «مسند الإمام أحمد»، وغيره، ومثله اليوم أقل من القليل.

وأقل من هٰؤلاء بكثير من له عناية تامة بتمييز الأحاديث الضعيفة جدّاً من غيرها، بل إني لا أعلم من له تخصص في هٰذا المجال، مع كونه من الأمور الهامة، كما بينته آنفاً، وهو عندي أهم من عنايتهم بتمييز الحديث الحسن من الصحيح، مع أنه ليس تحته كبير فائدة، لأن كلًّا منهما يحتج به في الأحكام كما سبق، اللهم إلا عند التعارض والترجيح؛ بخلاف ما نحن فيه؛ فإنه يعمل بالحديث الضعيف في الفضائل دون الضعيف جدّاً، فبيانه واجب من باب أولى.

● ما ذكره المنذري من التساهل في الترغيب والترهيب وجوابه:

فإن قيل: لم هٰذا التفصيل والتشديد في رواية الحديث الضعيف، والمنذري رحمه الله قد ذكر في مقدمة كتابه أن العلماء أساغوا التساهل في أنواع من الترغيب والترهيب، حتى إن كثيراً منهم ذكروا الموضوع ولم يبينوا حاله.

وجواباً عليه أقول: إن التساهل الذي أساغوه يحتمل وجهين:

الأول: ذكر الأحاديث بأسانيدها؛ فهٰذا لا بأس به، كيف لا وهو صنيع جميع المحدثين من الحفاظ السابقين، الذين كان أول أعمالهم في سبيل حفظ السنة وأحاديثها، إنَّما هو جمعها من شيوخها بأسانيدهم فيها، ثمَّ من كان منهم على علم بتراجم رواتها من جميع الطبقات ومعرفة بطرق الجرح والتعديل وعلل الحديث، فإنَّه يتمكن من التحقيق فيها، وأن يميز صحيحها من سقيمها، وإلى هٰذا وذاك أشاروا بقولهم المعروف: «قمش ثم فتش»؛ فهو

إذا من باب «ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب».

وعلى هذا الوجه ينبغي أن يحمل قول المنذري المذكور عن العلماء، إحساناً للظن بهم أولاً، ولأنه هو الذي يدل عليه كلام الحفاظ ثانياً، بالإضافة إلى ما ذكرناه مما جرى عليه عملهم.

فهٰذا هو الإمام أحمد يقول:

«إذا جاء الحلال والحرام؛ شددنا في الأسانيد، وإذا جاء الترغيب والترهيب؛ تساهلنا في الأسانيد»[1].

فهذا نص فيما قلنا.

ومثله قول ابن الصلاح في «علوم الحديث» (ص ١١٣):

«ويجوز عند أهل الحديث وغيرهم التساهل في الأسانيد، ورواية ما سوى الموضوع من أنواع الأحاديث الضعيفة، من غير اهتمام ببيان ضعفها فيما سوى صفات الله وأحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرهما، وذلك كالمواعظ والقصص وفضائل الأعمال وسائر فنون الترغيب والترهيب وسائر ما لا تعلق له بالأحكام والعقائد».

فتأمل في قوله: «التساهل في الأسانيد»؛ يتجلى لك صحة ما ذكرنا.

والسبب في ذلك أن من ذكر إسناد الحديث فقد أعذر وبرئت ذمته، لأنه قدم لك الوسيلة التي تمكن من كان عنده علم بهذا الفن من معرفة حال الحديث صحة أو ضعفاً، بخلاف من حذف إسناده، ولم يذكر شيئاً عن حاله؛ فقد كتم العلم الذي عليه أن يبلغه.

---

(١) «مجموعة الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٨ / ٦٥).

● الأدب في رواية الحديث الضعيف عند ابن الصلاح:

من أجل ذلك عقب ابن الصلاح على ما تقدم بقوله:

«إذا أردت رواية الحديث الضعيف بغير إسناد فلا تقل فيه: قال رسول الله ﷺ كذا وكذا، وما أشبه هذا من الألفاظ الجازمة بأنه ﷺ قال ذٰلك، وإنَّما تقول فيه: رُوي عن رسول الله ﷺ كذا وكذا، أو بلغنا عنه كذا وكذا... وهكذا الحكم فيما تشك في صحته وضعفه، وإنَّما تقول: قال رسول الله ﷺ... فيما ظهر لك صحته».

● لا بد من التصريح بضعف الحديث:

قلت: فثبت أنَّه لا بد من بيان ضعف الحديث في حال ذكره بدون إسناده، ولو بطريق ما اصطلحوا عليه؛ مثل: رُوي... ونحوه.

ولكني أرى أن هذا لا يكفي اليوم؛ لغلبة الجهل؛ فإنه لا يكاد يفهم أحد من كتب المؤلف أو قول الخطيب على المنبر: «روي عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: كذا وكذا...»: أنَّه حديث ضعيف، فلا بد من التصريح بذلك؛ كما جاء في أثر علي رضي الله عنه؛ قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟». أخرجه البخاري.

لنعم ما قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في «الباعث الحثيث» (ص ١٠١):

«والذي أراه أن بيان الضعف في الحديث الضعيف واجب على كل حال؛ لأن ترك البيان يوهم المطلع عليه أنه حديث صحيح، خصوصاً إذا كان الناقل من علماء الحديث الذين يرجع إلى قولهم في ذلك، وإنَّه لا فرق بين الأحكام وبين فضائل الأعمال ونحوها في عدم الأخذ بالرواية الضعيفة، بل

لا حجة لأحد إلا بما صح عن رسول الله ﷺ من حديث صحيح أو حسن».

قلت: والوجه الآخر الذي يحتمله كلام المنذري المتقدم إنَّما هو ذكر الأحاديث الضعيفة بدون أسانيدها ودون بيان حالها، حتى الموضوع منها؛ فهٰذا في اعتقادي ممَّا لا أتصور أن يقوله أحد من العلماء الأتقياء؛ لما فيه من المخالفة لما تقدم في كلام الإمام مسلم من نصوص الكتاب والسنة في التحذير من الرواية عن غير العدول، لا فرق في ذلك بين أحاديث الأحكام والترغيب والترهيب وغيرها، وكلام مسلم المتقدم صريح في ذلك.

- **تأثيم الإمام مسلم لمن يروي الضعيف دون بيان حاله، ولو في الترغيب والترهيب:**

وأصرح منه قوله بعد بحث هام في وجوب الكشف عن معايب رواة الحديث وذكر أقوال الأئمة في ذلك؛ قال (١ / ٢٩):

«وإنَّما ألزموا أنفسهم الكشف عن معايب رواة الحديث وناقلي الأخبار، وأفتوا بذٰلك؛ لما فيه من عظيم الخطر؛ إذ الأخبار في أمر الدين إنَّما تأتي بتحليل أو تحريم أو أمر أو نهي أو ترغيب أو ترهيب، فإذا كان الراوي لها ليس بمعدن للصدق والأمانة، ثمَّ أقدم على الرواية عنه مَن قد عرفه، ولم يبيِّن ما فيه لغيره ممَّن جهل معرفته؛ كان آثماً بفعله ذلك، غاشّاً لعوام المسلمين؛ إذ لا يؤمَن على بعض من سمع تلك الأخبار أن يستعملها أو يستعمل بعضها، ولعلها أو أكثرها أكاذيب لا أصل لها، مع أن الأخبار الصحاح من رواية الثقات وأهل القناعة أكثر من أن يُضطَر إلى نقل من ليس بثقة، ولا أحسب كثيراً ممَّن يُعَرِّج من الناس على ما وصفنا من هذه الأحاديث الضعاف والأسانيد المجهولة ويعتد بروايتها بعد معرفته بما فيها من الضعف؛

إلا أن الذي يحمله على روايتها والاعتداد بها إرادة التكثُّر بذٰلك عند العوام، ولأن يقال: ما أكثر ما جمع فلان من الحديث وألَّف من العدد! ومن ذهب في العلم هٰذا المذهب، وسلك هٰذا الطريق؛ فلا نصيب له فيه، وكان بأن يسمى جاهلاً أولى من أن ينسب إلى علم».

● **عاقبة التساهل برواية الأحاديث الضعيفة دون بيانها:**

والحقيقة أن تساهل العلماء برواية الأحاديث الضعيفة ساكتين عنها قد كان من أكبر الأسباب القوية التي حملت الناس على الابتداع في الدين؛ فإن كثيراً من العبادات التي عليها كثير منهم اليوم إنَّما أصلها اعتمادهم على الأحاديث الواهية، بل والموضوعة؛ كمثل التوسعة يوم عاشوراء (الحديث ٦٤٩/ ٦٥٠ضعيف الترغيب)، وإحياء ليلة النصف من شعبان وصوم نهارها (الحديث ٦٥٦). . . وهي كثيرة جدّاً، تجدها مبثوثة في كتابي «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيىء في الأمة»، وساعدهم على ذٰلك تلك القاعدة المزعومة القائلة بجواز العمل بالحديث الضعيف في الفضائل؛ غير عارفين أن العلماء المحققين قد قيدوها بقيدين اثنين:

أحدهما: حديثي:

وقد سبق تفصيله، وخلاصة ذٰلك أن كل من يريد العمل بحديث ضعيف ينبغي أن يكون على علم بضعفه، لأنه لا يجوز له العمل به إذا كان شديد الضعف، ولازم هٰذا الحد من العمل بالأحاديث الضعيفة وانتشارها بين الناس، لو قام أهل العلم بواجب بيانها.

القيد الفقهي:

وأمَّا القيد الآخر، وهو الفقهي؛ فهٰذا أوان البحث فيه؛ فأقول: قد

دندن الحافظ ابن حجر حوله في الشرط الثاني المتقدم (ص ١٨) بقوله:

«وأن يكون الحديث الضعيف مندرجاً تحت أصلٍ عام...».

إلا أن هٰذا القيد غير كاف في الحقيقة؛ لأن غالب البدع تندرج تحت أصلٍ عام، ومع ذٰلك؛ فهي غير مشروعة، وهي التي يسميها الإمام الشاطبي بالبدعة الإضافية، وواضح أن الحديث الضعيف لا ينهض لإثبات شرعيتها، فلابد من تقييد ذٰلك بما هو أدق منه؛ كأن يقال: أن يكون الحديث الضعيف قد ثبت شرعية العمل بما فيه بغيره ممَّا يصلح أن يكون دليلاً شرعيّاً، وفي هٰذه الحالة لا يكون التشريع بالحديث الضعيف، وغاية ما فيه زيادة ترغيب في ذٰلك العمل، ممَّا تطمع النفس فيه، فتندفع إلى العمل أكثر ممَّا لو لم يكن قد روي فيه هٰذا الحديث الضعيف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموعة الفتاوى» (١ / ٢٥١):

«وذٰلك أن العمل إذا علم أنَّه مشروع بدليل شرعي، وروي في فضله حديث لا يعلم أنَّـه كذب؛ جاز أن يكـون الثواب حقّاً، ولم يقل أحد من الأئمة: إنَّه يجوز أن يجعل الشيء واجباً أو مستحبّاً بحديث ضعيف، ومن قال هٰذا فقد خالف الإجماع».

● **كلام شيخ الإسلام ابن تيمية المفصل في عدم جواز استحباب شيء في الفضائل بمجرد حديث ضعيف:**

وقـد فصـل الشيخ رحمه الله هٰذه المسألة الهامة في مكان آخر من «مجموعة الفتاوى» (١٨ / ٦٥ ـ ٦٨) تفصيلاً لم أره لغيره من العلماء، فأرى لزاماً عليَّ أن أقدمه إلى القراء؛ لما فيه من الفوائد والعلم.

قال بعدَ أن ذكر قول الإمام أحمد المتقدم (ص ٢٠):

«وكـذٰلك ما عليه العلماء من العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمـال، ليس معناه إثبات الاستحباب بالحديث الذي لا يحتج به، فإن الاستحباب حكم شرعي، فلا يثبت إلا بدليل شرعي، ومن خبر عن الله أنَّه يحب عملاً من الأعمال من غير دليل شرعي؛ فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله، كمـا لو أثبت الإيجـاب أو التحـريم، ولهٰـذا يختلف العلماء في الاستحباب كما يختلفون في غيره، بل هو أصل الدين المشروع.

مراد العلماء من العمل بالحديث الضعيف بالفضائل:

وإنَّما مرادهم بذٰلك أن يكون العمل ممَّا قد ثبت أنَّه ممَّا يحبه الله أو ممَّـا يكـرهـه الله بنص أو إجمـاع؛ كتـلاوة القـرآن، والتسبيح، والدعاء، والصـدقة، والعتق، والإحسان إلى الناس، وكراهة الكذب، والخيانة... ونحـو ذٰلـك، فإذا روي حديث في فضل بعض الأعمال المستحبة وثوابها وكراهة بعض الأعمال وعقابها؛ فمقادير الثواب والعقاب وأنواعه إذا روي فيها حديث لا نعلم أنَّه موضوع؛ جازت روايته والعمل به؛ بمعنى: أنَّ النفس ترجو ذٰلك الثواب، أو تخاف ذٰلك العقاب؛ كرجل يعلم أن التجارة تربح، لكن بلغه أنَّها تربح ربحاً كثيراً، فهٰذا إن صدق نَفعه وإن كذب لم يضره.

مثال للعمل بالحديث الضعيف بشرطه:

ومثـال ذٰلك الترغيب والترهيب بالإسرائيليات، والمنامات، وكلمات السلف، والعلمـاء، ووقـائع العلماء... ونحو ذٰلك ممَّا لا يجوز بمجرده إثبات حكم شرعي، لا استحباب ولا غيره، ولكن يجوز أن يذكر في الترغيب والترهيب والتوجيه والتخويف فيما علم حسنه أو قبحه بأدلة الشرع؛ فإن ذٰلك ينفع ولا يضر، وسواء كان في نفس الأمر حقّاً أو باطلاً، فما علم أنَّه باطل

موضـوع؛ لـم يجز الالتفات إليه؛ فإن الكذب لا يفيد شيئاً، وإذا ثبت أنَّه صحيح؛ أثبتت به الأحكام، وإذا احتمل الأمرين؛ رُوي؛ لإمكان صدقه، ولعدم المضرة في كذبه.

وأحمد إنَّما قال: «إذا جاء الترغيب والترهيب؛ تساهلنا في الأسانيد»، ومعناه: أننا نروي في ذٰلك بالأسانيد وإن لم يكن محدثوها من الثقات الذين يحتج بهم.

وكذٰلك قول من قال: «يعمل بها في فضائل الأعمال»، إنَّما العمل بما فيها من الأعمال الصالحة؛ مثل التلاوة والذكر والاجتناب لما كره فيها من الأعمال السئية.

ونظير هٰذا قول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله ابن عمرو: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً؛ فليتبوأ مقعده من النار»، مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا حدثكم أهـل الكتاب؛ فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»؛ فإنَّه رخص في الحـديث عنهم، ومع هٰذا نهى عن تصديقهم وتكذيبهم، فلو لم يكن في الحـديث المطلق عنهم فائدة؛ لما رخص فيه وأمر به، ولو جاز تصديقهم بمجرد الإخبار؛ لما نهى عن تصديقهم؛ فالنفوس تنتفع بما تظن صدقه في مواضع.

لا يجوز التقدير والتحديد بأحاديث الفضائل:

فإذا تضمنت أحاديث الفضائل الضعيفة تقديراً وتحديداً؛ مثل صلاة في وقت معين بقراءة معينة أو على صفة معينة؛ لم يجز ذٰلك لأن استحباب هٰذا الوصف المعين لم يثبت بدليل شرعي، بخلاف ما لو روي فيه: «من

دخل السوق، فقال: لا إله إلا الله... كان له كذا وكذا»[14]، فإن ذكر الله في السوق مستحب؛ لما فيه من ذكر الله بين الغافلين؛ كما جاء في الحديث المعروف: «ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء بين الشجر اليابس»[1].

فأمَّا تقدير الثواب المروي فيه؛ فلا يضر ثبوته ولا عدم ثبوته، وفي مثله جاء الحديث الذي رواه الترمذي: «من بلغه عن الله شيء فيه فضل، فعمل به رجاء ذلك الفضل؛ أعطاه الله ذلك، وإن لم يكن ذلك كذلك»[2].

فالحاصل: أن هذا الباب يروى، ويعمل به في الترغيب والترهيب، لا في الاستحباب، ثمَّ اعتقاد موجبه - وهو مقادير الثواب والعقاب - يتوقف على الدليل الشرعي.

خلاصة كلام ابن تيمية في العمل بالحديث الضعيف في الفضائل:

أقـول: ذلك كله من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خيراً، ونستطيع أن نستخلص منه أن الحديث الضعيف له حالتان:

الأولى: أن يحمل في طواياه ثواباً لعمل ثبتت مشروعيته بدليل شرعي؛ فهنـا يجوز العمل به؛ بمعنى أن النفس ترجو ذلك الثواب، ومثاله عنده:

---

(١) قلت: استغربه الترمذي، لكن له طرق يرتقي بها إلى درجة التحسين؛ كما كنت ذكرت في تعليقي على «الكلم الطيب» (رقم الحديث ٢٢٩)، وحسن إسناده المنذري؛ كما سيأتي (١٦ / ٣) «الصحيح».

(٢) قلت: عزوه للترمذي وهم أو سبق قلم، وهو مخرج في المصدر السابق من ثلاث طرق كلها موضوعة، انظر الأرقام (٤٥١ - ٤٥٣)، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات»، ووافقه السيوطي.

التهليل في السوق؛ بناء على أن حديثه لم يثبت عنده، وقد عرفت رأينا فيه.

والثانية: أن يتضمن عملاً لم يثبت بدليل شرعي، يظن بعض الناس أنَّه مشروع؛ فهٰذا لا يجوز العمل به، وتأتي له بعض الأمثلة الأخرى.

● **كلام الشاطبي في هٰذه المسألة في كتاب الاعتصام:**

وقد وافقه على ذٰلك العلامة الأصولي المحقق الإمام أبو إسحاق الشاطبي الغرناطي في كتابه العظيم «الاعتصام»؛ فقد تعرض لهٰذه المسألة توضيحاً وقوة بما عرف عنه من بيان ناصع وبرهان ساطع وعلم نافع، في فصل عقده لبيان طريق الزائغين عن الصراط المستقيم، وذكر أنَّها من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها، مستدلاً على ذٰلك بالكتاب والسنة، وأنَّها لا تزال تزداد على الأيام، وأنَّه يمكن أن يجد بعده استدلالات أخر، لا سيما عند كثرة الجهل، وقلة العلم، وبعد الناظرين فيه عن درجة الاجتهاد؛ فلا يمكن إذن حصرها.

قال (١ / ٢٢٩):

«لكنا نذكر من ذٰلك أوجهاً كلية يقاس عليها ما سواها.

من طرق المبتدعة الاعتماد على الأحاديث الواهية:

فمنها: اعتمادهم على الأحاديث الواهية والمكذوب فيها على رسول الله ﷺ، والتي لا يقبلها أهل صناعة الحديث في البناء عليها؛ كحديث الاكتحال يوم عاشوراء، وإكرام الديك الأبيض، وأكل الباذنجان بنيته (١)، وأن النبي ﷺ تواجد واهتز عند السماع حتى سقط الرداء عن منكبيه (٢) . . .

---

(١) هٰذ الأحاديث كلها موضوعة، وهي في «المقاصد الحسنة» وغيرها.

(٢) حديث موضوع كما صرح به جمع، وقد خرجته في «الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (برقم ٥٥٨).

وما أشبه ذٰلك؛ فإن أمثال هٰذه الأحاديث ـ على ما هو معلوم ـ لا ينبني عليها حكم، ولا تجعل أصلاً في التشريع أبداً، ومن جعلها كذٰلك؛ فهو جاهل ومخطىء في نقل العلم، فلم ينقل الأخذ بشيء منها عمن نعتد به في طريقة العلم ولا طريقة السلوك.

وإنَّما أخذ بعض العلماء بالحديث الحسن لإلحاقه عند المحدثين بالصحيح؛ لأن سنده ليس فيه من يعاب بجرحة متفق عليها، وكذٰلك أخذ من أخذ منهم بالمرسل ليس إلا من حيث ألحق بالصحيح في أن المتروك ذكره كالمذكور والمعدل [1]، فأمَّا ما دون ذٰلك؛ فلا يؤخذ به بحال عند علماء الحديث.

ولو كان من شأن أهل الإسلام الأخذ من الأحاديث بكل ما جاء عن كل من جاء؛ لم يكن لانتصابهم للتعديل أو التجريح معنى، مع أنهم قد أجمعوا على ذٰلك، ولا كان لطلب الإسناد معنى؛ فلذٰلك جعلوا الإسناد من الدين، ولا يعنون: حدثني فلان عن فلان؛ مجرداً، بل يريدون ذٰلك؛ لما تضمنه من معرفة الرجال الذين يحدث عنهم، حتى لا يسند عن مجهول ولا مجروح ولا متهم؛ إلا عمَّن تحصل الثقة بروايته؛ لأن روح المسألة أن يغلب على الظن من غير ريبة أن ذٰلك الحديث قد قاله النبي ﷺ؛ لنعتمد عليه في الشريعة، ونسند إليه الأحكام، والأحاديث الضعيفة لا يغلب على الظن أن النبي ﷺ قالها؛ فلا يمكن أن يسند إليها حكم؛ فما ظنك بالأحاديث المعروفة الكذب؟!

---

(١) قلت: ومع ذٰلك فهو مردود عند المحدثين كما بينه الخطيب في «الكفاية» (ص ٣٩١ ـ ٣٩٧).

نعم؛ الحامل على اعتمادها في الغالب إنَّما هو ما تقدم من الهوى المتبع».

قال:

تقرير إشكال حول اشتراط الصحة في أحاديث الترغيب:

فإن قيل: هٰذا كله رد على الأئمة الذين اعتمدوا على الأحاديث التي لم تبلغ درجة الصحة؛ فإنَّهم كما نصُّوا على اشتراط صحة الإسناد، كذٰلك نصُّوا أيضاً على أن أحاديث الترغيب والترهيب لا يشترط في نقلها للاعتماد صحة الإسناد، بل إن كان ذٰلك؛ فبها ونعمت، وإلا؛ فلا حرج على من نقلها واستند إليها؛ فقد فعله الأئمة؛ كمالك في «الموطأ»، وابن المبارك في «رقائقه»، وابن حنبل في «رقائقه»، وسفيان في «جامع الخير». . . وغيرهم؛ فكل ما في هٰذا النوع من المنقولات راجع إلى الترغيب والترهيب، وإذا جاز اعتماد مثله؛ جاز فيما كان نحوه ممَّا يرجع إليه؛ كصلاة الرغائب، والمعراج، وليلة النصف من شعبان، وليلة أول جمعة من رجب، وصيام رجب، والسابع والعشرين منه. . . وما أشبه ذٰلك؛ فإنَّ جميعها راجع إلى الترغيب في العمل الصالح؛ فالصلاة على الجملة ثابت أصلها، وكذٰلك الصيام، وقيام الليل، كل ذٰلك راجع إلى خير نقلت فضيلته على الخصوص.

وإذا ثبت هٰذا؛ فكل ما نقلت فضيلته في الأحاديث؛ فهو من باب الترغيب، فلا يلزم فيه شهادة أهل الحديث بصحة الإسناد؛ بخلاف الأحكام؛ فإذاً هٰذا الوجه من الاستدلال من طريق الراسخين، لا من طريق الذين في قلوبهم زيغ، حيث فرقوا بين أحاديث الأحكام فاشترطوا فيها الصحة، وبين أحاديث الترغيب والترهيب فلم يشترطوا فيها ذٰلك!

رد الإشكال بتفصيل علمي دقيق:

فالجواب: أن ما ذكره علماء الحديث من التساهل في أحاديث الترغيب والترهيب لا ينتظم مع مسألتنا المفروضة، وبيانه:

أن العمل المتكلم فيه:

١ ـ إما أن يكون منصوصاً على أصله جملة وتفصيلاً.

٢ ـ أو لا يكون منصوصاً عليه لا جملة ولا تفصيلاً.

٣ ـ أو يكون منصوصاً عليه جملة لا تفصيلاً.

الأول: لا إشكال في صحته؛ كالصلوات المفروضات والنوافل المرتبة لأسباب وغيرها، وكالصيام المفروض أو المندوب على الوجه المعروف، إذا فعلت على الوجه الذي نص عليه من غير زيادة ولا نقصان؛ كصيام يوم عرفة، والوتر، وصلاة الكسوف؛ فالنص جاء في هٰذه الأشياء صحيحاً على ما شرطوا، فثبتت أحكامها من الفرض والسنة والاستحباب، فإذا ورد في مثلها أحاديث ترغيب فيها أو تحذير من ترك الفرض منها، وليست بالغة مبلغ الصحة، ولا هي أيضاً من الضعف بحيث لا يقبلها أحد، أو كانت موضوعة لا يقبلها أحد؛ فلا بأس بذكرها والتحذير بها والترغيب بعد ثبوت أصلها من طريق صحيح.

الثاني: ظاهر أنَّه غير صحيح، وهو عين البدعة؛ لأنَّه لا يرجع إلا لمجرد الرأي المبني على الهوى، وهو أبدع البدع وأفحشها؛ كالرهبانية المنفية عن الإسلام، والخصاء لمن خشي العنت، والتعبد بالقيام في الشمس أو بالصمت من غير كلام أحد؛ فالترغيب في مثل هٰذا لا يصح؛ إذ لا يوجد في الشرع ولا أصل له يرغب في مثله أو يحذر من مخالفته.

الثالث: ربما يتوهم أنَّه كالأول من جهة أنَّه إذا ثبت أصل عبادة في الجملة فيسهل في التفصيل نقله من طريق غير مشترط الصحة؛ فمطلق التنفل بالصلاة مشروع، فإذا جاء ترغيب في صلاة ليلة النصف من شعبان؛ فقد عضده أصل الترغيب في صلاة النافلة، وكذٰلك إذا ثبت أصل الصيام؛ ثبت صيام السابع والعشرين من رجب، وما أشبه ذٰلك، وليس كما توهموا؛ لأن الأصل إذا ثبت في الجملة؛ لا يلزم إثباته في التفصيل، فإذا ثبت مطلق الصلاة؛ لا يلزم منه إثبات الظهر والعصر أو الوتر أو غيرها، حتى ينص عليها على الخصوص، وكذٰلك إذا ثبت مطلق الصيام؛ لا يلزم منه إثبات صوم رمضان أو عاشوراء أو شعبان أو غير ذٰلك، حتى يثبت بالتفصيل بدليل صحيح، ثمَّ ينظر بعد ذٰلك في أحاديث الترغيب والترهيب بالنسبة إلى ذٰلك العمل الخاص الثابت بالدليل الصحيح.

والدليل على ذٰلك: أن تفضيل يوم من الأيام، أو زمان من الأزمنة، بعبادة ما، يتضمن حكماً شرعيّاً فيه على الخصوص؛ كما ثبت لعاشوراء مثلاً، أو لعرفة، أو لشعبان ـ مزية على مطلق التنفل بالصيام ـ فإنه ثبتت له على الصيام في مطلق الأيام، فتلك المزية اقتضت مرتبة في الأحكام أعلى من غيرها؛ بحيث لا تفهم من مطلق مشروعية الصلاة النافلة [1]؛ لأن مطلق المشروعية يقتضي أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف في الجملة، وصيام يوم عاشوراء يقتضي أنَّه يكفر السنة التي قبلها؛ فهو أمر زائد على مطلق المشروعية، ومساقه يفيد له مزية في الرتبة، وذٰلك راجع إلى الحكم.

فإذاً؛ هٰذا الترغيب الخاص يقتضي مرتبة في نوع من المندوب خاصة، فلا بد من رجوع إثبات الحكم إلى الأحاديث الصحيحة؛ بناء على

(١) كذا في الأصل، والسياق يقتضي أن يقال: «صيام النفل»، فتأمل.

قولهم: «إن الأحكام لا تثبت إلا من طريق صحيح».

والبدع المستدل عليها بغير الصحيح لا بد فيها من الزيادة على المشروعات؛ كالتقييد بزمان أو عدد أو كيفية ما، فيلزم أن تكون أحكام تلك الزيادات ثابتة بغير الصحيح، وهو أمر ناقض لما أسسه العلماء.

ولا يقال: إنَّهم يريدون أحكام الوجوب والتحريم فقط؛ لأننا نقول: هٰذا تحكم من غير دليل، بل الأحكام خمسة، فكما لا يثبت الوجوب إلا بالصحيح؛ فكذٰلك لا يثبت غيره من الأحكام الخمسة ـ كالمستحب ـ إلا بالصحيح، فإذا ثبت الحكم؛ فاستسهل أن يثبت في أحاديث الترغيب والترهيب، ولا عليك.

خلاصة كلام الإمام الشاطبي:

فعلى كل تقدير: كل ما رغب فيه، إن ثبت حكمه أو مرتبته في المشروعات من طريق صحيح؛ فالترغيب فيه بغير الصحيح مغتفر، وإن لم يثبت إلا من حديث الترغيب؛ فاشترط الصحة أبداً، وإلا؛ خرجت عن طريق القوم المعدودين في أهل الرسوخ؛ فلقد غلط في هٰذا المكان جماعة ممَّن ينسب إلى الفقه، ويتخصص عن العوام بدعوى رتبة الخواص، وأصل هٰذا الغلط عدم فهم كلام المحدثين في الموضعين، وبالله التوفيق».

قلت: هٰذا كله من كلام الإمام الشاطبي، وهو يلتقي تمام الالتقاء مع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى، ومن الطرائف أن هٰذا مشرقي وذاك مغربي، جمع بينهما على بعد الدار المنهج العلمي الصحيح.

● **صعوبة تمييز الضعيف الذي يجوز العمل به حديثيّاً وفقهيّاً:**

وبعدما عرفت أيها القارىء هٰذا الشرط الفقهي في جواز العمل

بالحديث الضعيف وذاك الشرط الحديثي المتقدم: أن لا يكون شديد الضعف؛ يتبيَّن لك أنَّه كان من الواجب على الحافظ المنذري أن يميز الحديث الضعيف والضعيف جدّاً والموضوع، ويعطي كل حديث من أحاديث كتابه الضعيفة مرتبتة من هٰذه المراتب الثلاث، وأن لا يجمل القول فيها بتصديرها كلها بصيغة: (روي)؛ خشية أن يبادر أحد من القراء إلى العمل ببعض الواهي والموضوع منها، فيقع في المحظور السابق بيانه، ولو كان من الفقهاء. هٰذا من الناحية الحديثية.

وأمَّا من الناحية الفقهية؛ فليس يخفى أنَّه من غير الميسور تمييز الحديث الضعيف الذي يجوز العمل به من الذي لا يجوز العمل به إلا على المحدثين الفقهاء بالكتاب والسنة الصحيحة، وما أقلهم!

ولذٰلك؛ فإني أرى أن القول بالجواز بالشرطين السابقين نظري غير عملي بالنسبة لجماهير الناس؛ لأنه: من أين لهم تمييز الحديث الضعيف من الضعيف جدّاً؟!

ومن أين لهم تمييز ما يجوز العمل به منه فقهيّاً ممَّا لا يجوز؟!

فيرجع الأمر عمليّاً إلى قول ابن العربي المتقدم: «إنَّه لا يُعمل بالحديث الضعيف مطلقاً»، وهو ظاهر قول ابن حبان: «لأن ما روى الضعيف وما لم يرو في الحكم سيان» (١).

وهٰذا هو الذي أنصح به عامة الناس، وهو الذي كنت نصحت به في مقدمة كتابي «صحيح الجامع الصغير وزيادته» و«ضعيف الجامع» (ص ٥١)؛ فليراجعه من شاء.

---

(١) انظر «سلسلة الأحاديث الضعيفة»، وتعليقي عليه (٢ / ٣).

● **مثال من واقع بعض الفقهاء:**

ولا بأس من أن أسوق للقراء مثالاً لصعوبة الأمر على بعض من ينتمي للفقه فضلاً عن غيرهم:

فهناك حديث أنس الصحيح: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه؛ لم يقوموا له؛ لما يعلمون من كراهيته لذٰلك»، رواه الترمذي وغيره، فاستدل به الشيخ علي القاري في «شرح الشمائل» (٢ / ١٦٩) على أن القيام المتعارف اليوم ليس من السنة، ونقل عن ابن حجر - يعني: الهيتمي - ما ينافي ذٰلك، واستغربه، ثمَّ قال:

«وأما قول ابن حجر: «ويؤيد مذهبنا من ندب القيام لكل قادم به فضيلة نحو نسب أو علم أو صلاح أو صداقة: حديث أنَّه ﷺ قام لعكرمة بن أبي جهل لما قدم عليه، ولعدي بن حاتم كلما دخل عليه، وضعفهما لا يمنع الاستدلال بهما هنا؛ خلافاً لمن وهم فيه؛ لأن الحديث الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال اتفاقاً، بل إجماعاً كما قال النووي»؛ فمدفوع؛ لأن الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال المعروفة في الكتاب والسنة، لكن لا يستدل به على إثبات الخصلة المستحبة».

فتأمل كيف خطأ الشيخ القاري الهيتمي، وهو من كبار فقهاء الشافعية المتأخرين، في تطبيق القاعدة المذكورة؛ فما عسى أن يكون حال عامة الناس في ذٰلك؟!

ومن شاء المزيد من الأمثلة فليراجع كتابي «سلسلة الأحاديث».

وجاء في «الأحاديث الضعيفة»:

«من المصائب العظمى التي نزلت بالمسلمين منذ العصور الأولى

انتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة بينهم، لا أستثني أحداً منهم، ولو كانوا علماءهم، إلا من شاء الله منهم من أئمة الحديث ونقاده؛ كالبخاري، وأحمد، وابن معين، وأبي حاتم الرازي، وغيرهم، وقد أدى انتشارها إلى مفاسد كثيرة، منها ما هو من الأمور الاعتقادية الغيبية، ومنها ما هو من الأمور التشريعية، وسيرى القارىء الكريم الأمثلة الكثيرة لما ندعيه في كثير من الأحاديث الآتية إن شاء الله تعالى.

وقد اقتضت حكمة العليم الحكيم سبحانه وتعالى أن لا يدع هٰذه الأحاديث التي اختلقها المغرضون لغايات شتى تسري بين المسلمين دون أن يقيض لها من يكشف القناع عن حقيقتها ويبين للناس أمرها، أولٰئك هم أئمة الحديث الشريف، وحاملو ألوية السنة النبوية، الذين دعا لهم رسول الله ﷺ بقوله: «نَضَّرَ الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلَّغها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(١)؛ فقد قام هٰؤلاء الأئمة جزاهم الله عن المسلمين خيراً ببيان حال أكثر الأحاديث من صحة أو ضعف أو وضع، وأصلوا أصولاً متينة، وقعدوا قواعد رصينة، من أتقنها وتضلع بمعرفتها؛ أمكنه أن يعلم درجة أي حديث، ولو لم ينصوا عليه، وذٰلك هو علم أصول الحديث أو مصطلح الحديث.

وألف المتأخرون منهم كتباً خاصة للكشف عن الأحاديث وبيان حالها، أشهرها وأوسعها كتاب «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة» للحافظ السخاوي، ونحوها كتب التخريجات؛ فإنها تبين حال الأحاديث الواردة في كتب من ليس من أهل الحديث، وما لا أصل

(١) أخرجه أبو داود والترمذي ـ وصححه، والسياق له ـ وابن حبان في «صحيحه» عن ابن مسعود، وقد ثبت عن جماعة من الصحابة بنحوه.

له من تلك الأحاديث؛ مثل كتاب «نصب الراية لأحاديث الهداية» للحافظ الزيلعي، و«المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» للحافظ العراقي، و«تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير» للحافظ ابن حجر العسقلاني، و«تخريج أحاديث الكشاف» له، و«تخريج أحاديث الشفاء» للشيخ السيوطي، وكلها مطبوعة.

ومع أنَّ هؤلاء الأئمة - جزاهم الله خيراً - قد سهلوا السبيل لمن بعدهم من العلماء والطلاب حتى يعرفوا كل حديث بهذه الكتب وأمثالها؛ فإننًا نراهم - مع الأسف الشديد - قد انصرفوا عن قراءة الكتب المذكورة، فجهلوا بسبب ذلك حال الأحاديث التي حفظوها عن مشايخهم أو يقرؤونها في بعض الكتب التي لا تتحرى الصحيح الثابت، ولذلك لا نكاد نسمع وعظاً لبعض المرشدين أو محاضرة لأحد الأساتذة أو خطبة من خطيب إلا ونجد فيها شيئاً من تلك الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وهذا أمر خطير، يخشى عليهم جميعاً أن يدخلوا بسببه تحت وعيد قوله ﷺ: «من كذب علي متعمداً [1]؛ فليتبوأ مقعده من النار» حديث صحيح متواتر؛ فإنهم وإن لم يتعمدوا الكذب مباشرة؛ فقد ارتكبوه تبعاً لنقلهم الأحاديث التي يقفون عليها جميعاً، وهم يعلمون أن فيها ما هو ضعيف وما هو مكذوب قطعاً.

---

(١) لفظة (متعمداً) صحيحة ثابتة في الحديث، وإن حاول التشكيك بها مؤلف كتاب «الأضواء»، بل إنه جزم ببطلانها، وأنها من وضع بعض المحدثين، ليروج بها قوله: «إنه يجوز رواية الحديث بالمعنى! وإنكار المؤلف المذكور لها لا يدل فقط على جهله بالحديث وطرقه، بل يدل على جهله أيضاً بأصول الشريعة وقواعدها، فإن هذه اللفظة لو لم ترد في الحديث مطلقاً؛ فإن تقديرها في الحديث لا مناص منه؛ كما لا يخفى، وإلا كان المؤلف المذكور أول من يشمله الحديث؛ لأنه - على الأقل - ليس معصوماً من الخطأ في رواية حديث ما»!.

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»، رواه مسلم (١ / ٨) وغيره من حديث أبي هريرة.

ثمَّ روي عن الإمام مالك أنَّه قال: «اعلم أنَّه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ماسمع».

وقال الإمام ابن حبان في «صحيحه» (ص ٢٧): «فصل: ذكر إيجاب دخول النار لمن نسب الشيء إلى المصطفى ﷺ وهو غير عالم بصحته».

ثمَّ ساق بسنده عن أبي هريرة مرفوعاً: «من قال عليَّ ما لم أقل؛ فليتبوأ مقعده من النار»، وسنده حسن، وأصله في «الصحيحين» بنحوه.

ثمَّ قال: «ذكر الخبر الدال على صحة ما أومأنا إليه في الباب المتقدم».

ثمَّ ساق بسنده عن سمرة بن جندب؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حَدّث عني بحديث يرى أنَّه كذب؛ فهو أحد الكاذبين».

وهو حديث صحيح، أخرجه مسلم (١ / ٧)، من حديث سمرة والمغيرة بن شعبة معاً، وقال: «إنَّه حديث مشهور».

ثمَّ قال ابن حبان: «ذكر خبر ثان يدل على صحة ما ذهبنا إليه».

ثمَّ ساق حديث أبي هريرة الأول.

فتبين ممَّا أوردنا أنَّه لا يجوز نشر الأحاديث وروايتها دون التثبت من صحتها، وأن من فعل ذلك؛ فهو حسبه من الكذب على رسول الله ﷺ، وقد قال ﷺ: «إن كذباً علي ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليّ متعمداً؛ فليتبوأ مقعده من النار» رواه مسلم وغيره.

● نماذج من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والباطلة والتي لا إسناد لها:

* جاء في «الإحياء»:

وقال ﷺ: «أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليه السلام: يا إبراهيم! إني عليم أحب كل عليم».

قال العراقي:

«ذكـره ابن عبد البر تعليقاً، ولم أظفر له بإسناد، وذكره ابن السبكي أيضاً في «الطبقات» من الأحاديث التي لم يجد لها إسناداً»[1].

* وجاء في «الإحياء»:

وقال ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين».

قال فيه العراقي:

«أخـرجه ابن عدي والبيهقي في «المدخل» و«الشعب» من حديث أنس، وقال البيهقي: «متنه مشهور، وأسانيده ضعيفة»».

وقال في شرح «الجامع الصغير» بعدما ذكر أن ابن عبد البر أخرجه في «كتاب العلم» عن أحمد بن عبد الله بن محمد عن مسلمة بن القاسم عن يعقوب بن إسحاق العسقلاني عن عبيد الله الفريابي عن أبي محمد الزهري عن أنس بن مالك:

«قال في «الميزان»: يعقوب كذاب. انتهى. وقال النيسابوري وابن الجوزي والذهبي: لم يصح فيه إسناد»[2].

---

(١) «الإحياء» (١ / ٦)، «الطبقات» (٤ / ١٤٥).

(٢) «فيض القدير» (١ / ٥٤٣).

وقال الشيخ ناصر الألباني: «باطل»، ثمَّ ذكر تخاريجه وطرقه، ثمَّ قال: «قلت وقد أورده ابن الجوزي في «الموضوعات»، وقال ابن حبان: باطل، لا أصل له. وأقره السخاوي في «المقاصد»»[1].

* وقال الغزالي:

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: «حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة، وعيادة ألف مريض، وشهود ألف جنازة». فقيل: يا رسول الله! ومن قراءة القرآن؟ فقال ﷺ: «وهل ينفع القرآن إلا بالعلم؟».

قال العراقي:

«ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» من حديث ابن عمر، ولم أجده من طريق أبي ذر»[2].

* قال الغزالي:

وقد قال ﷺ: «اختلاف أمتي رحمة»[3].

قال الألباني:

«لا أصل له، ولقد جهد المحدثون في أن يقفوا له على سند فلم يوفقوا، حتى قال السيوطي في «الجامع الصغير»: ولعله خرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا.

وهذا بعيد عندي، إذ يلزم منه أنه ضاع على الأمة بعض أحاديثه ﷺ،

---

(١) «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١ / ٤١٣ - ٤١٤).

(٢) (١ / ٩).

(٣) «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١ / ٧٦).

وهذا ممَّا لا يليق بمسلم اعتقاده.

ونقل المناوي عن السبكي أنه قال: «وليس بمعروف عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع».

وأقره الشيخ زكرياء الأنصاري في تعليقه على «تفسير البيضاوي».

ثمَّ إن معنى هذا الحديث مستنكر عند المحققين من العلماء.

قال العلامة ابن حزم في «الإحكام في أصول الأحكام» بعد أن أشار إلى أنَّه ليس بحديث:

«وهـذا من أفسـد قول يكـون؛ لأنَّه لو كان الاختلاف رحمة؛ لكان الاتفاق سخطاً، وهذا ما لا يقوله مسلم؛ لأنه ليس إلا اتفاق أو اختلاف، وليس إلا رحمة أو سخط».

وقال في مكان آخر:

«باطل مكذوب»[1].

* وقال الغزالي:

ولذلك قال ﷺ: «قليل من التوفيق خير من كثير من العلم».

قال العراقي:

«لم أجد له أصلاً»[2].

* قال الغزالي:

---

(١) (١ / ٢٧) «الإحياء».

(٢) (١ / ٣١) «الإحياء».

وقال ﷺ: «لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله، وحتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة».

قال العراقي:

«أخرجه ابن عبد البر من حديث شداد بن أوس، وقال: لا يصح مرفوعاً»(١).

* قال الغزالي:

وفي حديث آخر: «هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم».

قال العراقي:

«لم أر له أصلاً»(٢).

* قال الغزالي:

وفي بعض الأخبار: «إنكم في زمان ألهمتم فيه العمل، وسيأتي قوم يلهمون الجدل».

قال العراقي:

«لم أجده» (٣).

* قال الغزالي:

وفي الخبر: «ما أوتي قوم المنطق إلا منعوا العمل».

قال العراقي:

---

(١) (١ / ٣٢) «الإحياء».

(٢) (١ / ٣٨) «الإحياء».

(٣) (١ / ٤١) «الإحياء».

«لم أجد له أصلاً» (١) .

* قال الغزالي :

وقد قال ﷺ : «المؤمن ليس بحقود» .

قال العراقي :

«لم أقف له على أصل» (٢) .

* قال الغزالي :

قال ﷺ : «بني الدين على النظافة» .

قال العراقي :

«حديث «بني الدين على النظافة»، لم أجده هٰكذا، وفي «الضعفاء» لابن حبان من حديث عائشة : «تنظفوا فإن الإسلام نظيف»، وللطبراني في «الأوسط» بسند ضعيف جدّاً من حديث ابن مسعود : «النظافة تدعو إلى الإيمان»» (٣) .

* قال الغزالي :

«فيحشر الممزق لأعراض الناس كالبندارية، والشره إلى أموالهم ذئباً عادياً . . .» .

قال العراقي :

«حديث حشر الممزق لأعراض الناس أخرجه الثعلبي في «التفسير»

---

(١) (١ / ٤١) «الإحياء» .

(٢) (١ / ٤٦) «الإحياء» .

(٣) (١ / ٤٩) «الإحياء» .

من حديث البراء بسند ضعيف»[1] .

* قال الغزالي :

إذ قال ﷺ وهو مرشد كل معلم : «لو منع الناس عن فت البعر؛ لفتوه، وقالوا : ما نهينا عنه إلا وفيه شيء» .

قال العراقي :

«حديث : «لو منع الناس عن فت البعر لفتوه. . .» الحديث، لم أجده»[2] .

* قال الغزالي :

وقال ﷺ : «من ازداد علماً ولم يزدد هدى؛ لم يزدد من الله إلا بعداً» .

قال العراقي :

«أخرجه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث علي بإسناد ضعيف؛ إلا أنَّه قال : زهداً . ورواه ابن حبان في «روضة العقلاء» موقوفاً على الحسن : «من ازداد علماً، ثم ازداد على الدنيا حرصاً، لم يزدد من الله إلا بعداً»، وروى أبو الفتح الأزدي في «الضعفاء» من حديث علي : «من ازداد بالله علماً، ثمَّ إزداد للدنيا حبّاً، ازداد الله عليه غضباً»»[3] .

* قال الغزالي :

روى معاذ رضي الله عنه موقوفاً ومرفوعاً في رواية عن النبي ﷺ قال :

---

(١) (١ / ٤٩) «الإحياء» .

(٢) (١ / ٥٧) «الإحياء» .

(٣) (١ / ٥٩) .

«من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع».

قال العراقي:

«أخرجه أبو نعيم وابن الجوزي في «الموضوعات»»[1].

* قال الغزالي:

وعن جابر رضي الله عنه موقوفاً ومرفوعاً؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجلسوا عند كل عالم؛ إلا إلى عالم يدعوكم من خمس إلى خمس: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة».

قال العراقي:

أخرجه أبو نعيم في «الحلية»، وابن الجوزي في «الموضوعات»[2].

* قال الغزالي:

وقد روي أن رجلاً جاء رسول الله ﷺ، فقال: علمني من غرائب العلم. فقال له: «ما صنعت في رأس العلم؟». فقال: وما رأس العلم؟ فقال ﷺ: «هل عرفت الرب تعالى؟». قال: نعم. «فما صنعت في حقه؟». قال: ما شاء الله. فقال ﷺ: «هل عرفت الموت؟». قال: نعم. «فما أعددت له؟». قال: ما شاء الله. قال ﷺ: «اذهب فأحكم ما هناك، ثمَّ تعال نعلمك من غرائب العلم».

قال العراقي:

---

(١) (١ / ٦٢).

(٢) (١ / ٦٣).

«رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب «الرياضة» لهما وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مرسلاً، وهو ضعيف جدّاً»[1].

* قال الغزالي:

ولذلك قال ﷺ: «من عمل بما علم؛ ورثه الله علم ما لم يعلم»

قال العراقي:

«أخرجه أبو نعيم في «الحلية» من حديث أنس وضعفه»[2].

* قال الغزالي:

وقال ﷺ لما قيل له: رجل حسن اليقين كثير الذنوب، ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين. فقال ﷺ: «ما من آدمي إلا وله ذنوب، ولكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب؛ لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم، فتكفر ذنوبه، ويبقى له فضل يدخل به الجنة».

قال العراقي:

«أخرجه الترمذي الحكيم في «النوادر» من حديث أنس بإسناد مظلم».

* قال الغزالي:

ولذلك قال ﷺ: «إن أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطي حظه منهما؛ لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار».

قال العراقي:

---

(١) (١ / ٦٥).

(٢) (١ / ٧١).

«لم أقف له على أصل» [1] .

* قال الغزالي :

وفي خبر آخر: «من غش أمتي ؛ فعليه لعنـة الله والملائكة والناس أجمعين» . قيل : يا رسول الله! وما غش أمتك؟ «أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها» .

قال العراقي :

«أخرجه الدارقطني في «الأفراد» من حديث أنس بسند ضعيف جدّاً» [2] .

* قال الغزالي :

وقال رسول الله ﷺ : «إن لله عز وجل ملكاً ينادي كل يوم من خالف سنة رسول الله ﷺ لم تنله شفاعته» .

قال العراقي :

«لم أجد له أصلاً» [3] .

* قال الغزالي :

وقال ﷺ : «عليكم بالنمط الأوسط، الذي يرجع إليه العالي ، ويرتفع إليه التالي» .

قال العراقي :

---

(١) (١ / ٧٢) .

(٢) (١ / ٨١) .

(٣) (١ / ٨١) .

«أخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث» موقوفاً على علي بن أبي طالب، ولم أجده مرفوعاً» [1].

* قال الغزالي:

قال ﷺ: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته».

قال العراقي:

«أخرجه ابن حبان في «الضعفاء» من حديث ابن عمر، وأبو منصور الديلمي من حديث أبي رافع بسند ضعيف» [2].

* قال الغزالي:

وقال ﷺ: «يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم، وتواصوا بالعقل؛ تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه»، إلى أن قال: «وإن الجاهل من عصى الله تعالى، وإن كان جميل المنظر، عظيم الخطر، شريف المنزلة، حسن الهيئة».

قال العراقي:

«أخرجه داود بن المحبر أحد الضعفاء في «كتاب العقل» من حديث أبي هريره، وهو في «مسند الحارث بن أبي أسامة» عن داود» [3].

* قال الغزالي:

ومنه قوله ﷺ: «إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة على النار».

---

(١) (١ / ٨١).

(٢) (١ / ٨٣).

(٣) (١ / ٨٣).

قال العراقي :

«لم أجد له أصلاً» (1) .

* قال الغزالي :

وقال ﷺ فيما يروى في بعض الأخبار: «الإيمان يزيد وينقص».

قال العراقي :

«أخرجه ابن عدي في «الكامل»، وأبو الشيخ في كتاب «الثواب»، من حديث أبي هريرة، وقال ابن عدي : باطل؛ فيه محمد بن أحمد الملحي، يتعمد الكذب» (2) .

* قال الغزالي :

قال ﷺ : «إن القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فتحازنوا» .

قال العراقي :

«أخرجه أبو يعلى وأبو نعيم في «الحلية» من حديث ابن عمر بسند ضعيف» (3) .

* التعليق :

هٰذه نقطة من بحر، لو تتبع القارىء كتاب «إحياء علوم الدين»، وأراد إحصاء الأحاديث الضعيفة والموضوعة والتي لا أصل لها، لوجد من ذٰلك الآلاف، وإذا لم أكن مبالغاً، فأقول بأن معظم الأحاديث الضعيفة التي تروج

---

(1) (1 / 102).

(2) (1 / 120).

(3) (1 / 277).

على الألسنة والموجودة في كثير من خطب الخطباء والكتب والمواعظ والرقائق وغيرها؛ فإن أصلها من هٰذا الكتاب، وهٰذا مصدرها.

فلا أدري ماذا سيقـول المحبـون للغزالي في ارتكاب هٰذه الجريمة الكبرى التي لا يقدرها إلا من عرف خطرها على أمة محمد ﷺ؟

أمَّا الجهال وأصحاب العواطف الجياشة؛ فهٰؤلاء لا قيمة لحكمهم؛ لأنَّهم لا يعرفون خطر هٰذا المخطط الخبيث، الذي بدأ في القرون الأولى، وتعاون على تطبيقه الكثير من المسلمين، سواء عـن حسن نية أو سوئها.

فالذي يقرأ «إحياء علوم الدين»، ويتتبع ما فيه من الأحاديث الموضوعة والساقطة والباطلة، يعلم حقيقة ما فعله المرابطون بهٰذا الكتاب الذين رأوا خطره على أمة محمد، فبادروا إلى حرقه، فجزاهم الله خيراً عن الإسلام والمسلمين؛ إذ قاموا بما يجب عليهم.



السبب الثالث
احتواء الكتاب على أصول البدع وأسسها

الذي ينظر إلى كتاب «الإحياء» يجده بحق أصلاً كبيراً لمادة البدع التي تفرعت في الطرق الصوفية أولاً، وفي بقية المبتدعة ثانياً؛ فهو أصل كبير للبدع المنتشرة في العالم الإسلامي، وهاك مثالاً يوضح لك ما نذكره.

قال الغزالي:

«بيان الليالي والأيام الفاضلة:

اعلم أن الليالي المخصوصة بمزيد الفضل التي يتأكد فيها استحباب الإحياء في السنة خمس عشرة ليلة، لا ينبغي أن يغفل المريد عنها؛ فإنها مواسم الخيرات، ومظان التجارات، ومتى غفل التاجر عن المواسم؛ لم يربح، ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات؛ لم ينجح:

فستة من هٰذه الليالي في شهر رمضان: خمس في أوتار العشر الأخير؛ إذ فيها يطلب ليلة القدر، وليلة سبع عشرة من رمضان؛ فهي ليلة صبيحتها يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، فيه كانت وقعة بدر، وقال ابن الزبير رحمه الله: هي ليلة القدر. وأمّا التسع الأخر؛ فأول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه،

وهي ليلة المعراج، وفيها صلاة مأثورة؛ فقد قال ﷺ: للعامل في هٰذه الليلة حسنات مائة حسنة، فمن صلى في هٰذه الليلة اثنتي عشرة ركعة، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن، ويتشهد في كل ركعتين، ويسلم في آخرهن، ثم يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر مائة مرة، ثم يستغفر الله مائة مرة، ويصلي على النبي ﷺ مائة مرة، ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دنياه وآخرته، ويصبح صائماً؛ فإن الله يستجيب دعاءه كله، إلا أن يدعو في معصية، وليلة النصف من شعبان، ففيها مائة ركعة، يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص عشر مرات، كانوا لا يتركونها، كما أوردناه في صلاة التطوع، وليلة عرفة، وليلتا العيدين، قال ﷺ: «من أحيا ليلتي العيدين؛ لم يمت قلبه يوم تموت القلوب».

وأما الأيام الفاضلة؛ فتسعة عشر، يستحب مواصلة الأوراد فيها: يوم عرفة، ويوم عاشوراء، ويوم سبعة وعشرين من رجب، له شرف عظيم، روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهراً»، وهو اليوم الذي أهبط الله فيه جبريل عليه السلام على محمد ﷺ بالرسالة، ويوم سبعة عشر رمضان، وهو يوم وقعة بدر، ويوم النصف من شعبان، ويوم العيدين، والأيام المعلومات، وهو عشر من ذي الحجة، والأيام المعدودات، وهي أيام التشريق.

وقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام، وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة».

وقال بعض العلماء: من أخذ مهناة في الأيام الخمسة في الدنيا؛ لم ينل مهناة في الآخرة، وأراد به العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء.

ومن فواضل الأيام في الأسبوع يوم الخميس والاثنين، ترفع فيها

الأعمال إلى الله تعالى، وقد ذكرنا فضائل الأشهر والأيام للصيام في كتاب الصوم، فلا حاجة إلى الإعادة، والله أعلم، وصلى الله على كل عبد مصطفى من كل العالمين»[1].

* **التعليق**:

هٰذا المقطع الذي ذكره الغزالي، وملأه بالأحاديث الضعيفة، التي استدل بها على تفضيل ليالي وأيام معينة، لم يصح فيها عن المعصوم شيء، وما ذكره من الأحاديث؛ فهي ضعيفة، كما هو موضح في هامش «الإحياء».

فقوله: وأول ليلة من رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه، وهي ليلة المعراج، وذكر فيها الصلاة المبتدعة؛ فهٰذه البدعة الكبرى كم فُتِنَ بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، كم وضعوا حولها من الأسطورات ومن الأكذوبات.

وللحافظ ابن حجر رحمة الله عليه كتاب جيد بيَّن فيه بطلان ما ذكره القصاص والمتأكلون بالبدع، سماه: «تبين العجب في بيان إبطال ما ورد في رجب».

ولهٰذه البدعة يجند الخطباء أنفسهم في العالم الإسلامي، لبيان هٰذه البدعة والإشادة بها بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، وذٰلك لجهلهم بالحديث وعلومه، ولمجاراتهم الأوضاع البدعية الفاسدة؛ إلا من شاء الله منهم.

فمتى وقع الإسراء والمعراج؟

لا أحد يستطيع أن يحدد بالضبط الشهر واليوم، ومن أراد معرفة ذٰلك؛

---

(١) (١ / ٣٦١).

فليرجع إلى شرح البخاري «فتح الباري»، فيرى الأقوال المتضاربة التي لا تُثبت تاريخاً معيناً، ولا وقتاً محدداً، وعلى فرض أنَّه لو علم تاريخ الإسراء والمعراج؛ ما جاز للمسلمين اتخاذ ذٰلك اليوم عيداً؛ لأن العيد من الأمور التـوقيفية التي يخص الله بهـا يوماً من الأيام بمزيد عبادة؛ فلا يمكن أن يكون ذٰلك إلا إذا صح عن المعصوم.

وشرح هٰذا المقطع وبيان ما فيه من الباطل يحتاج إلى تسويد أوراق، ولا فائدة في ذٰلك لأن القصد بيان الباطل والتمثيل في ذٰلك، ومن له خبرة بعلم الحديث والرواية يعرف بطلان ذٰلك من أول نظرة.

فالغزالي يخلط بين المشروع وبين المبتدع كما هنا حتى يروج بضاعة البدعة، فما ذكره في العشر الأواخر فهٰذا في الصحيح.



السبب الرابع
الطامات والمصائب التي تهدم الإسلام من أصله

● فمن طاماته:
صرف المسلمين عن القرآن الكريم وإشغالهم بالملاهي

لا يخفى على الموفق ما في كتاب «الإحياء» من صرف للمسلمين عن دراسة كتاب الله حفظاً وعلماً وعملاً، وإشغالهم بالغناء والرقص واللهو واللعب، الذي قال فيه الشافعي رضي الله عنه: «أدركت الزنادقة ببغداد يصنعون شيئاً يسمونه التغبير ـ أي: الأناشيد ـ يشغلون الناس به عن كتاب الله».

قال الغزالي:

«فإن قلت: فإن كان سماع القرآن مفيداً للوجد، فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوالين دون القارئين، فكان ينبغي أن يكون اجتماعهم وتواجدهم في حلق القراء لا حلق المغنين، وكان ينبغي أن يطلب عند كل اجتماع في كل دعوة قارىء لا قوال؛ فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لا محالة؟

فاعلم أن الغناء أشدُّ تهييجاً للوجد من القرآن من سبعة أوجه:

الـوجه الأول: أنَّ جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع، ولا تصلح لفهمه وتنزيله على ما هو ملابس له، فمن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم؛ فمن أين يناسب حاله: قوله تعالى: ﴿**يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ**﴾. وقوله تعالى: ﴿**والذين يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ**﴾.

وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان أحكام الميراث والطلاق والحدود وغيرها، وإنَّما المحرك لما في القلب ما يناسبه، والأبيات إنَّما يضعها الشعراء إعراباً بها عن أحوال القلب، فلا يحتاج في فهم الحال منها إلى تكلف.

نعم؛ من يستولي عليه حالة غالبة قاهرة لم تبق فيه متسعاً لغيرها، ومعه تيقظ وذكاء ثاقب يتفطن به للمعاني البعيدة من الألفاظ؛ فقد يخرج وجده على كل مسموع؛ كمن يخطر له عند ذكر قوله تعالى: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَولادِكُمْ**﴾: حالة الموت المحوج إلى الوصية، وأنَّ الإنسان لا بد أن يخلف ماله وولده، وهما محبوباه من الدنيا، فيترك أحد المحبوبين للثاني، ويهجرهما جميعاً، فيغلب عليه الخوف والجزع، أو يسمع ذكر الله في قوله: ﴿**يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَولادِكُمْ**﴾، فيدهش بمجرد الاسم عما قبله وبعده، أو يخطر له رحمة الله على عباده وشفقته، بأن تولى قسم مواريثهم بنفسه، نظراً لهم في حياتهم وموتهم، فيقول: إذا نظر لأولادنا بعد موتنا؛ فلا نشك بأنَّه ينظر لنا، فيهيج منه حال الرجاء، ويورثه ذلك استبشاراً وسروراً، أو يخطر له من قوله تعالى: ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ**﴾، تفضيل الذكر بكونه رجلاً على الأنثى، وأن الفضل في الآخرة لرجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وأن من ألهاه غير الله تعالى عن الله فهو من الإناث لا من الرجال تحقيقاً، فيخشى أن يحجب أو يؤخر في نعيم الآخرة، كما أخرت الأنثى في أموال الدنيا.

فأمثال هٰذا قد يحرك الوجد، ولكن لمن فيه وصفان: أحدهما حالة غالبة مستغرقة قاهرة، والآخر: تفطن بليغ وتيقظ بالغ كامل للتنبيه بالأمور القريبة على المعاني البعيدة، وذٰلك ممَّا يعز.

فلأجل ذٰلك يفزع إلى الغناء، الذي هو ألفاظ مناسبة للأحوال، حتى يتسارع هيجانها.

وروي أن أبا الحسين النوري كان مع جماعة في دعوى، فجرى بينهم مسألة في العلم، وأبو الحسين ساكت، ثم رفع رأسه وأنشدهم:

رُبَّ ورْقَاءَ هَتُوفٍ في الضحى ... ذَاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ في فَنَنِ
ذَكَرَتْ إلفاً ودَهْراً سَالِفاً ... وبَكَتْ حُزْناً فَهَاجَتْ حَزَنِي
فَبُكَائي رُبما أَرَّقَها ... وبُكَاهَا رُبَّمَا أَرَّقَنِي
ولَقَدْ تَشْكُو فَمَا أَفْهَمُها ... ولَقَدْ أَشْكُو فَمَا تَفْهَمُني
غَيْرَ أَنِّي بِالجَوى أَعْرِفُهَا ... وهي أَيْضاً بِالجَوى تَعْرِفُني

قال: فما بقي أحد من القوم إلا قام وتواجد، ولم يحصل لهم هٰذا الوجد من العلم الذي خاضوا فيه، وإن كان العلم وجداً وحقّاً.

الوجه الثاني: أن القرآن محفوظ للأكثرين، ومتكرر على الأسماع والقلوب، وكلما سمع أولاً؛ عظم أثره في القلوب، وفي الكرة الثانية يضعف أثره، وفي الثالثة يكاد يسقط أثره، ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام في مرات متقاربة في الزمان، في يوم أو أسبوع، لم يمكنه ذٰلك، ولو أبدل ببيت آخر؛ لتجدد له أثر في قلبه، وإن كان معرباً عن عين ذٰلك المعنى، ولكن كون النظم واللفظ غريباً، بالإضافة إلى الأولى؛ يحرك النفس، وإن كان المعنى واحداً، وليس يقدر القارىء على أن

يقرأ قرآناً غريباً في كل وقت ودعوة، فإن القرآن محصور، لا يمكن الزيادة عليه، وكله محفوظ متكرر.

وإلى ما ذكرناه أشار الصديق رضي الله عنه حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويبكون، فقال: «كنا كما كنتم، ولكن قست قلوبنا».

ولا تظنن أن قلب الصديق رضي الله عنه كان أقسى من قلوب الأجلاف من العرب، وأنَّه كان أخلى عن حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم، ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقلة التأثر به لما حصل له من الأنس بكثرة استماعه، إذ محال في العادات أن يسمع السامع آية لم يسمعها قبل فيبكي، ثمَّ يدوم على بكائه عليها عشرين سنة، ثمَّ يرددها ويبكي، ولا يفارق الأول الآخر؛ إلا في كونه غريباً جديداً، ولكل جديدة لذة، ولكل طارىء صدمة، ومع كل مألوف أنس يناقض الصدمة.

ولذا هم عمر رضي الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف، وقال: «قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت»؛ أي: يأنسوا به، ومن قدم حاجاً، فرأى البيت أولاً؛ بكى وزعق، وربما غشي عليه إذ وقع عليه بصره، وقد يقيم بمكة شهراً، ولا يحس من ذلك في نفسه بأثر.

فإذاً المغني يقدر على الأبيات الغريبة في كل وقت، ولا يقدر في كل وقت على آية غريبة.

الوجه الثالث: أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيراً في النفس، فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون، وإنَّما يوجد الوزن في الشعر دون الآيات، ولو زحف المغني البيت الذي ينشده، أو لحن فيه، أو مال عن حد تلك الطريقة في اللحن؛ لاضطرب قلب المستمع،

وبطل وجده وسماعه، ونفر طبعه؛ لعدم المناسبة، وإذا نفر الطبع؛ اضطرب القلب وتشوش، فالوزن إذن مؤثر؛ فلذٰلك طاب الشعر.

الوجه الرابع: أن الشعر الموزون يختلف تأثيره في النفس بالألحان التي تسمى الطرق والاستانات، وإنَّما اختلاف تلك الطرق بمد المقصور وقصر الممدود والوقف في أثناء الكلمات والقطع والوصل في بعضها، وهٰذا التصرف جائز في الشعر، ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنزل، فقصره ومده والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقضيه التلاوة حرام أومكروه، وإذا رتل القرآن كما أنزل؛ سقط عنه الأثر الذي سببه وزن الألحان، وهو سبب مستقل بالتأثير، وإن لم يكن مفهوماً، كما في الأوتار والمزمار والشاهين وسائر الأصوات التي لا تفهم.

الوجه الخامس: أن الألحان الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعات وأصوات أخر موزونة خارج الحلق؛ كالضرب بالقضيب والدف وغيره؛ لأن الوجد الضعيف لا يستثار إلا بسبب قوي، وإنَّما يقوى بمجموع هٰذه الأسباب، ولكل واحد منها حظ في التأثير، وواجب أن يصان القرآن عن مثل هٰذه القرائن؛ لأن صورتها عند عامة الخلق صورة اللهو واللعب، والقرآن جد كله عند كافة الخلق، فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما هو لهو عند العامة، وصورته صورة اللهو عند الخاصة، وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث إنَّها لهو، بل ينبغي أن يوقر القرآن، فلا يقرأ على شوارع الطرق، بل في مجلس ساكن، ولا في حال الجنابة، ولا على غير طهارة، ولا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا المراقبون لأحوالهم، فيعدل إلى الغناء الذي لا يستحق هٰذه المراقبة والمراعاة، ولذٰلك لا يجوز الضرب بالدف مع القرآن ليلة العرس، وقد أمر رسول الله ﷺ بضرب الدف في العرس، فقال: «أظهروا

النكاح ولو بضرب الغربال»[1]، أو بلفظ هٰذا معناه، وذٰلك جائز مع الشعر دون القرآن، ولذٰلك لما دخل رسول الله ﷺ بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار، فسمع إحداهن تقول: وفينا نبي يعلم ما في غد؛ على وجه الغناء، فقال ﷺ: «دعي هٰذا وقولي ما كنت تقولين»[2]، وهٰذه شهادة بالنبوة، فزجرها عنها وردها إلى الغناء الذي هو لهو؛ لأن هٰذا جد محض؛ فلا يقرن بصورة اللهو، فإذاً يتعذر بسببه تقوية الأسباب التي بها يصير السماع محركاً للقلب، فواجب في الاحترام العدول إلى الغناء عن القرآن، كما وجب على تلك الجارية العدول عن شهادة النبوة إلى الغناء.

الوجه السادس: أن المغني قد يغني ببيت لا يوافق حال السامع، فيكرهه وينهاه عنه ويستدعي غيره، فليس كل كلام موافقاً لكل حال، فلو اجتمعوا في الدعوات على القارىء، فربما يقرأ آية توافق حالهم؛ إذ القرآن شفاء للناس كلهم على اختلاف الأحوال، فآيات الرحمة شفاء الخائف، وآيات العذاب شفاء المغرور الآمن، وتفصيل ذٰلك مما يطول، فإذاً لا يؤمن ألا يوافق المقروء الحال، وتكرهه النفس، فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلاً إلى دفعه، فالاحتراز عن خطر ذٰلك حزم بالغ وحتم واجب؛ إذ لا يجد الخلاص عنه إلا بتنزيله على وفق حاله، ولا يجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى، وأما قول الشاعر؛ فيجوز تنزيله على غير مراده؛ فليس فيه خطر الكراهة أو خطر التأويل الخطأ لموافقة

(١) أخرجه ابن ماجه بلفظ: «أعلنوا النكاح، واضربوا عليه بالغربال».
قال في «الزوائد»: «في إسناده خالد بن إلياس أبو الهيثم العدوي، اتفقوا على ضعفه، بل نسبه ابن حبان والحاكم وأبو سعيد النقاش إلى الوضع» (٢ / ٦٤).

(٢) «فتح الباري» (٩ / ٢٠٢).

الحال؛ وهذا يجب توقير كلام الله وصيانته عنه.

وهذا ما ينقدح في علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرآن.

وهنا وجه سابع ذكره أبو نصر السراج الطوسي في الاعتذار عن ذلك، فقال: «القرآن كلام الله وصفة من صفاته، وهو حق لا تطيقه البشرية؛ لأنه غير مخلوق، فلا تطيقه الصفات المخلوقة، ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبتـه؛ لتصدعت ودهشت وتحيرت، والألحان الطيبة مناسبة للطباع نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق، والشعر نسبته نسبة الحظوظ، فإذا علقت الألحان والأصوات بما في الأبيات من الإشارات واللطائف؛ شاكل بعضها بعضاً؛ كان أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب؛ لمشاكلة المخلوق المخلوق، فما دامت البشرية باقية؛ ونحن بصفاتنا وحظوظنا نتنعم بالنغمات الشجية والأصوات الطيبة؛ فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أولى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى الذي هو صفته وكلامه الذي منه بدأ وإليه يعود».

وهذا حاصل المقصود من كلامه واعتذاره.

وقـد حكي عن أبي الحسن الـدارج أنـه قال: «قصـدت يوسف بن الحسين الرازي من بغداد للزيارة والسلام عليه، فلما دخلت الري؛ كنت أسأل عنه، فكل من سألته عنه؛ قال: أيش تعمل بذلك الزنديق؟ فضيقوا صدري، حتى عزمت على الانصراف، ثمَّ قلت في نفسي: قد جبت هذا الطريق كله، فلا أقل من أن أراه، فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه في مسجد وهو قاعد في المحراب وبين يديه رجل وبيده مصحف وهو يقرأ، فإذا

هو شيخ بهي حسن الوجه واللحية، فسلمت عليه، فأقبل علي، وقال: من أين أقبلت؟ فقلت: من بغداد. فقال: وما الذي جاء بك؟ فقلت: قصدتك للسلام عليك. فقال: لو أن في بعض هٰذه البلدان قال لك إنسان: أقم عندنا حتى نشتري لك داراً أو جارية؛ أكان يقعدك ذٰلك عن المجيء؟ فقلت: ما امتحنني الله بشيء من ذٰلك، ولو امتحنني؛ ما كنت أدري كيف أكون. ثم قال لي: أتحسن أن تقول شيئاً؟ فقلت: نعم. فقال: هات! فأنشأت أقول:

رَأَيْتُـكَ تَبْـنِي دائِمـاً في قَطِيعَتي ... ولـو كُنْت ذا حَزْمٍ لَهَدَّمت ما تَبْني

كَأَنِّـي بِكُمْ والليْتُ أَفْضَـلُ قَولِكُمْ ... ألا لَيْتَنـا كُنَّـا إذ اللَّيْتُ لا يُغْني

قال: فأطبق المصحف، ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وابتل ثوبه، حتى رحمته من كثرة بكائه، ثم قال: يا بني! تلوم أهل الري يقولون: يوسف زنديق، هٰذا أنا من صلاة الغداة أقرأ المصحف لم تقطر من عيني قطرة، وقد قامت القيامة علي لهٰذين البيتين.

فإذاً؛ القلوب وإن كانت محترقة في حب الله تعالى؛ فإن البيت الغريب يهيج منها ما لا تهيج تلاوة القرآن، وذٰلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع، ولكونه مشاكلاً للطبع؛ اقتدر البشر على نظم الشعر، وأما القرآن؛ فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومنهاجه، وهو لذٰلك معجز لا يدخل في قوة البشر؛ لعدم مشاكلته لطبعه.

وروي أن إسرافيل ـ أستاذ ذي النون المصري ـ دخل على رجل، فرآه وهو ينكت في الأرض بأصبعه ويترنم ببيت، فقال: هل تحسن أن تترنم بشيء؟ فقال: لا. قال: فأنت بلا قلب ـ إشارة إلى أن من له قلب، وعرف طباعه؛ علم أنه تحركه الأبيات والنغمات تحريكاً لا يصادف في غيرها، فيتكلف طريق التحريك: إما بصوت نفسه أو بغيره ـ.

وقد ذكرنا حكم المقام الأول في فهم المسموع وتنزيله، وحكم المقام الثاني في الوجد الذي يصادف في القلب؛ فلنذكر الآن أثر الوجد؛ أعني: ما يترشح منه إلى الظاهر من صعقة وبكاء وحركة وتمزيق ثوب وغيره».

* **التعليق:**

أقـول بأن هٰذا المبحث الذي كتبه الغزالي في «إحيائه» في تفضيل الغناء والطرب والرقص على كتاب الله، قد وجد آذاناً صاغية وقلوباً مستعدة، فتسابقوا إلى الإنشاد، وسمع المسلمون منهم ذٰلك، فعكفوا على قراءة ما أُنشد لهم، وجعلوه قربة يتقربون بها إلى الله، فقرؤوه على موتاهم، وفي جميع مناسباتهم، بل فضلوه على قراءة القرآن، وأكرموا الحافظ له وبجلوه وعظموه، وتنافسوا في دعوته إلى منازلهم وبيوتهم.

ويا ليت هٰذا الإنشاد كان خالياً من الشرك والبدع حتى ينظر في حكمه من حيث الجواز أو المنع، ولكن غالبه كان ممزوجاً بأناشيد شركية وبدعية، تغضب الله ورسوله وكل موحد يخلص توحيده لله، وإحصاء هٰذه الأناشيد والقصائد البدعية والشركية يحتاج إلى مؤلفات لجمعها وبيان ما فيها للأمة من الشرك والبدع، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر «بردة البوصيري» التي شاع ذكرها في الآفاق، والتي ترجمت إلى عدة لغات، والتي تعتبر امتداداً لما جاء في «الإحياء» من تفضيل الشعـر والأنـاشيد على القـرآن من النـاحية العملية، وهٰذه القصيدة مع الأسف مملوءة بالشرك والبدع، وأنشدها صاحبها في القرن السابع، وما يزال الناس منذ إنشادها يعظمونها بأنواع من التعظيم، فمن شارح لها، ومن مخمس لها معارض، وإحصاء شراحها والمعتنين بها أمر يطول، أمَّا إنشادها في المناسبات والحفلات الدينية؛ فأمر لا بد منه، والناس يتبركون بها وبقراءتها طيلة هٰذه العصور، وأمَّا نقدها ومعرفة ما فيها من

الشرك والغلو وتحذير الناس من قراءتها؛ فلم يعرف إلا عن علماء التوحيد، الذين بوأهم الله هذه المنزلة في الدفاع عن عقيدة التوحيد الخالصة، التي تتبرأ من كل شرك وغلو، فجزاهم الله خيراً عن تنبيهم وعن تحذيرهم ممَّا فيها من الغلو والانحراف.

وقصدي أن أبين للقراء الخطر الناجم عمَّا كتبه الغزالي في «إحيائه»، حيث كان لهـذا المبحث خطره في القديم وفي الحديث، فاشتغل الناس بقراءة القصائد الشعرية والبدعية، وتركوا كتاب الله وراءهم ظهريّاً، وكذلك فعلوا في وقتنا الحاضر، فجندوا أنفسهم للسير في هذه المسيرة المشؤومة، والتي مفـادهـا الإعراض عن كتاب الله وعن سنة رسوله ﷺ، وجعلوا هذه المسيرة المشؤومة ضمن دعوتهم الإسلامية المزعومة، وألفوا في ذلك الكتب والمقالات، يبينون للناس مشروعية هذا العمل، وكأن أمة محمد ﷺ تجهل ما صح عن رسـول الله ﷺ في الشعـر المبـاح الذي يخضع لكل موازين المباح؛ فحسنه حسن، وقبيحه قبيح، وينزلون هٰذه الأحكام في غير موضعها.

أمَّا إنشاد قصيدة أو قراءتها أحياناً؛ فهذا أمر صح عن رسول الله ﷺ أنَّـه سمع قصائد وقال: «إن من الشعر لحكمة»، ولكن اجتماع المسلمين اجتماع القربة إلى الله لم يكن إلا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أمَّا ما يفعل في الوقت الحاضر من ضرب بالدفوف وتلحين للقصائد؛ فلا شك أنه من فعل المخنثين، والدفاع عن هذا الأمر هو نصرة للباطل. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى ضياع القرآن بين أظهر المسلمين حفظاً وقراءة وعملاً، وتكالب عليه جميع أعداء الإسلام بكل وسائلهم، وضيقوه بجميع مناهجهم، وأبعـدوه من ساحة عملهم؛ فهلا اجتمع المسلمون على نصرة كتاب الله

حفظاً وعلماً وعملاً، ولكن كيف يشتغل بكتاب الله من يطلب المناصب الدنيوية ويشارك في كل شر بزعم أنَّه يريد نشر الإسلام وهو لعمر الله هدم لكيانه وتشويه لمعالمه؟!

ولو كان هٰذا العمل الباطل الذي يقوم به الحركيون صحيحاً؛ لكان سلفنا الصالح أحق به، وكما قيل: فاقد الشيء لا يعطيه؛ فهم فاقدون لقدر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا يحسنون إلا البهرجة واللغط، وما سوى ذٰلك من دعوة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهم بعيدون منها، وهم جاهلون لها، نسأل الله السلامة والعافية.

وهاك «قصيدة البردة» مع توضيح يسير وتنبيه صغير لما في أبياتها من الشرك والغلو، حتى يعلم القراء خطر هٰذا الموضوع، وأثره السلبي على أمة محمد ﷺ، منذ كتب الغزالي هٰذا البحث المشؤوم الذي قراءته تكفي عن رده، وارتأيت أن أذكر هٰذه التنبيهات، ولم اشتغل برد الوجوه التي ذكرها الغزالي؛ لأن بطلانها معلوم عند المسلمين من الدين بالضرورة.

*** تعريف بالشاعر البوصيري:**

لقد كتب الأستاذ عبد البديع صقر نقداً لـ «البردة»، وكتب مقدمة على البوصيري وقصيدته، رأيت من المفيد أن أنقلها في هٰذا البحث؛ ليعلم القراء خطر هٰذا الموضوع.

قال الأستاذ عبد البديع:

«لقد ولد البوصيري ببلبيس من أعمال محافظة الشرقية ٦٠٨هـ / ١٢١٢م؛ أي: في عهد الدولة الأيوبية، واسمه محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي، وينسب إلى بلدة أبو صير من أعمال بني سويف بمصر؛ لأن أمه

منهـا، وأبـوه من بلاد المغـرب... وكـان البـوصيري معدوداً من الشعراء المجيدين، يعالج فن الكتاب والشعر...

ومن أشهـر قصـائـده «البردة» التي مطلعها: «أمن تذكُّر جيران بذي سلم»، و «الهمـزية» التي مطلعها: «كيف ترقى رقيك الأنبياء»، ومعارضة قصيدة «بانت سعاد» التي مطلعها: «إلى متى أنْت باللَّذَّات مشغول»...

وتوفي المؤلف سنة ٦٩٦هـ / الموافق ١٢٩٦م؛ أي: قبل نحو سبعة قرون...

ويتضح من هذه الترجمة الواردة في الكتب المعتمدة أن الرجل كان معدوداً في الشعراء وليس في الفقهاء ولا العلماء، كما أن انحداره من عائلة مغربية يعطي احتمالاً بأن له ارتباطاً بالفاطميين، شأنه في ذلك شأن السيد أحمد البدوي والشعراني وأبو الحسن الشاذلي، كما أن مصر في هذه الأيام كانت في قمة التأثر بالصوفية واتجاهات العبيديين الفاطميين، وهذه الفترة من التاريخ الإسلامي كان لها تأثير مهم جدّاً على مصر خاصة وعلى باقي بلاد الإسـلام عامة؛ إذ كانوا ينقلون دائماً عن مصر، ويعتبرونها من أهم مراكز الثقافة الدينية.

وقد نجح الأيُّوبيون في القضاء على الدولة الفاطمية سياسيّاً، وغيروا منهج الدارسة في المدارس الكبرى، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا تماماً على الأفكار المسيطرة على أذهان الشعب في مصر وجاراتها؛ بسبب استناد تلك الأفكار إلى عاطفة الحب لرسول الله ﷺ، متمثلاً في آل بيته؛ فقد دأب الفـاطميون خلال قرنين من الزمان على تعميق هذه العاطفة في النفوس؛ باعتبارها كانت من الدعائم الرئيسية في تثبيت أقدام الغزاة القادمين من المغرب.

إن الدعوة الفاطمية ساعدت على انتشار الأفكار الصوفيَّة؛ لأنَّها تخدم أهدافها وتتمشى مع سياستها، فازدهر التصوف في هٰذه الفترة، ولم يستطع الحكام الأيوبيون أن يحاربوا الصوفيَّة كما حاربوا الفاطمية، بل تظاهروا بأنَّهم منهم، وتقربوا إليهم، وكانوا في سبيل كسب عواطف الجماهير يتعمَّدون إظهار محبتهم لهم وتوقيرهم إياهم.

*** ظروف كتابة القصيدة:**

قالوا في سبب تسميتها: إن المؤلف كان قد أصيب بمرض عضال لم ينفع فيه علاج، لكنه كان يكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ، فرآه في المنام ذات ليلة يغطيه ببردته الشريفة، ولما قام الرجل من نومه؛ لم يجد مرضاً ولا ألماً، فحصلت له حالة من الانجذاب والهيام في حب الرسول ﷺ، وأنشأ فيه هٰذه القصيدة «البردة» وغيرها من القصائد التي لا تكاد تخرج عن مضمونها.

قلت: كيف تصح هٰذه الرؤية والقصيدة مباينة لدعوة التوحيد التي جاء بها النبي ﷺ؟!

وقد اشتهرت هٰذه القصيدة، وترجمت إلى عدة لغات، وصار الناس يتعبَّدون بتلاوتها في المولد والمناسبات، وفي تشييع الجنائز، وشغلوا بها حتى عن تلاوة القرآن الكريم.

تنبيه:

مَولاي صَلِّ وسَلِّمْ دائِماً أَبَداً   على حَبيبِكَ خَيْرِ الخَلْقِ كُلِّهِمِ

هٰذا البيت ينبغي قراءته بعد كل بيت من أبيات هٰذه القصيدة الشريفة، وذٰلك لما يروى أن الإمام الفرنوي كان يقرؤها كل ليلة ليرى النبي ﷺ في

منامه، فلم تيسر الرؤيا، فشكا ذلك إلى شيخ كامل، فقال له: إن لها شرطاً، وهو أن تُصلي بالصلاة التي كان يصلي بها الإمام البوصيري رضي الله عنه على النبي ﷺ، وهو قوله:

مَولايَ صَلِّ وسَلِّمْ دائِماً أَبَداً   على حَبيْبِكَ خَيْرِ الخَلْقِ كُلِّهِمِ

عقب كل بيت من أبيات القصيدة، وإن شق ذلك على القارىء؛ فيكتفي بترديده بعد كل فصل من فصولها، وحكمة اختيار هذا أن الإمام البوصيري رضي الله عنه أنشد هذه القصيدة بين يدي النبي ﷺ في منامه، حتى أتى إلى قوله: «فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيْهِ أَنَّهُ بَشَرٌ»، ولم يستطع تكميل البيت، فقال له النبي ﷺ: اقرأ. فقال رضي الله عنه: إني لم أوفَّق للمِصراع الثاني. فقال له عليه الصلاة والسلام: قل: «وأَنَّهُ خَيْرُ خَلقِ اللهِ كُلِّهِمِ».

فالاعتراض على هذا يأتي من عدة وجوه:

الأول: فهمنا لقول الله تعالى: ﴿ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحَمَلْناهُمْ فِي البَرِّ والبَحْرِ ورَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ على كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً﴾، والرسول ﷺ من بني آدم، ولم تقل الآية: فَضَّلناهم على جميع من خلقنا!

الثاني: أن الرسول ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1]، ولم يقل: أنا سيد العالمين، وكان ذلك في موقف يحتاج للاستعلاء بالدين الذي ختمت به الرسالات، لكنه في أكثر من موضع قبل ذلك وبعده كره أن نفضله على الأنبياء والمرسلين، وأكد الأخوة ووحدة الهدف؛ تمشياً مع نصوص القرآن الكريم، في مثل قوله تعالى: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾[2]، وقوله تعالى:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة البقرة: ١٣٦.

﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾(1).

الثالث: أن رسول الله ﷺ نهى عن مدحه في مواضع كثيرة من أحاديثه الصحيحة:

فمن ذلك ما ورد عن أنس؛ قال: جاء إلى النبي ﷺ رجل، فقال: يا خير البرية! فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم». رواه مسلم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: سمعت النبي يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم؛ إنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله». رواه البخاري ومسلم.

أما قوله: «لما يروى»؛ ففيه دلالة على ضعف السند بسبب البناء للمجهول، فمن الذي روى؟!

وقال الناشر: «إن الشيخ الفرنوي كان يقرأ القصيدة ليرى النبي ﷺ».

فهٰذا يدل على ضعف إدراك الشيخ الفرنوي، فرؤية الرسول ﷺ لا توضع في ميزان الأعمال، وإن كثيراً من الذين رأوه في حياته ماتوا كفاراً، ومنهم بعض أقربائه، ثم إن الرسول لا يتوصل لرؤيته في المنام بتلاوة قصائد الشعر، وقد أمرنا الله بالصلاة عليه لا بمدحه ولا بتلاوة الأشعار بين يديه، عن المقداد بن الأسود؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم المداحين؛ فاحثوا في وجوههم التراب»، رواه مسلم».

وقال الناشر أيضاً: «وقد أنشدها البوصيري بين يدي النبي ﷺ في منامه».

---

(1) سورة النساء: ١٥٢.

ما الدليل على صحة هذا الكلام؟ وهل ثبت أن النبي ﷺ يستقبل في قبره الشعراء ويستمع إلى قصائد المديح؟!

قال: «ثم إن الرسول أكمل له شطر البيت بقوله عن نفسه: «وإنه خير خلق الله كلهم»».

وواضح أن هٰذا افتراء على رسول الله ﷺ، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يٓس: ٦٩]؛ فلا هو بشاعر ولا بكاهن، ولم يقل شعراً في حياته قط، فضلاً عن أن يقوله بعد أن انتقل إلى جوار ربه عز وجل.

والآن ندخل إلى أبيات القصيدة:

إنها تبدأ بالبيت المعروف:

أَمِـنْ تَذَكُّـرِ جِيرانٍ بِذِي سَلَمِ ... مَزَجْـتَ دَمْعَـاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

وهٰذا من أعذب الشعر ومن أكذبه أيضاً؛ لأنه يزعم أن مجرد تذكره لهٰؤلاء الجيران؛ جعل دموعه تنزل مختلطة بالدماء، وليته فعل ذٰلك على المجازر التي حصلت في أيامه من عدوان الكافرين على حرمات المسلمين، أو من المجاعة التي حصلت للناس في إبان حياته.

أمـن تذكُّـرِ جيرانٍ بذي سلمِ ... مزجْتَ دمعـاً جرى من مُقلةٍ بدمِ
أم هبت الـريحُ من تلقـاءِ كاظمـة ... وأومض البرقُ في الظلماء من إضمِ
فمـا لعينيك إن قلت آكففـا همتـا ... ومـا لقلبـك إن قلتَ استفقْ يهمِ
أيحسب الصَّبُّ أن الحُبَّ منكتمٌ ... ما بين منسجمٍ منـه ومضـطرمِ
لولا الهوى لم تُرق دمعاً على طللٍ ... ولا أرِقْـتَ لذكـر البـان والعلمِ
فكيف تنكـرُ حبّـاً بعـد ما شهدت ... به عليك عدول الـدمع والسَّقَمِ

وأثبت الوجد خطى عبرةٍ وضنى ... مثل البهار على خدَّيْكَ والعنمِ
نعم سرى طيفُ مَن أهوى فأرَّقني ... والحبُّ يعترض اللَّذَّات بالألمِ
يا لائمي في الهوى العُذْرِيِّ معذرةً ... منِّي إليك ولو أنصفت لم تلمِ
عدتك حالي لا سري بمستتر ... عن الوشاة ولا دائي بمنحسمِ
محَّضْتني النصحَ لكن لستُ أسمعهُ ... إنَّ المحبَّ عن العُذَّال في صممِ
إني اتَّهمتُ نصيحَ الشيب في عذلٍ ... والشيبُ أبعدُ في نصحٍ عن التُّهمِ
فإن أمَّارتي بالسوءِ ما اتَّعظت ... من جهلها بنذير الشيب والهرمِ
ولا أعدَّت من الفعل الجميل قِرى ... ضيفٍ ألمَّ برأسي غير محتشمِ
لو كنتُ أعلم أني ما أوقِّره ... كتمت سرّاً بدا لي منه بالكتمِ
من لي برد جماحٍ من غوايتها ... كما يُردُّ جماح الخيل باللُّجُمِ
فلا تَرُمْ بالمعاصي كسرَ شهوتها ... إن الطعام يقوِّي شهوة النَّهمِ
والنفسُ كالطفل إنْ تهمله شبَّ على ... حبِّ الرضاعِ وإن تفطمه ينفطمِ
فاصرفْ هواها وحاذرْ أن تولِّيَهُ ... إن الهوى ما تولَّى يُصْمِ أو يَصِمِ
وراعها وهي في الأعمال سائمةٌ ... وإن هي استحلت المرعى فلا تُسِمِ
كم حسَّنتْ لذةً للمرء قاتلةً ... من حيثُ لم يدرِ أن السمَّ في الدسمِ
واخْشَ الدَّسائسَ من جوع ومن شبع ... فرب مخمصةٍ شرٌ من التخمِ
واستفرغِ الدَّمع من عينٍ قد امتلأت ... من المحارم والزم حمية الندمِ
وخالف النفس والشيطان واعصمها ... وإن هما محَّضاك النصح فاتَّهمِ
ولا تطعْ منهما خصماً ولا حكماً ... فأنْتَ تعرف كيد الخصم والحكمِ
أستغفر اللهَ من قولٍ بلا عملٍ ... لقد نسبتُ به نسلاً لذي عُقُمِ
أمرتُكَ الخيرَ لكن ما ائتمرت بهِ ... وما استقمت فما قولي لك استقمِ
ولا تزودتُ قبل الموت نافلةً ... ولم أصلِّ سوى فرضٍ ولم أصمِ

ظلمتُ سنةَ من أحيا الظلامَ إلى   أن اشتكت قدماه الضُّرَّ من وَرَمِ
وشدَّ من سغبٍ أحشاءه وطوى   تحت الحجارة كشحاً مُتْرف الأدمِ
وراودته الجبال الشمُّ من ذهب   عن نفسه فأراها أيما شَمَمِ
وأكَّدت زهده فيها ضرورتُهُ   إن الضرورة لا تعدو على العِصَمِ
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من   لولاه لم تخرج الدنيا من العدمِ
محمدٌ سيد الكونين والثقليـ   ـن والفريقين من عُرْبٍ ومن عجمِ
نبينا الآمر الناهي فلا أحد   أبر في قول لا منه ولا نعمِ
هو الحبيب الذي ترجى شفاعتُهُ   لكل هولٍ من الأهوال مقتحمِ
دعا إلى الله فالمستمسكون به   مستمسكون بحبلٍ غير منفصمِ
فاق النبيين في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ   ولم يدانوه في علم ولا كَرَمِ
وكُلهم من رسول الله ملتمسٌ   غرفاً من البحر أو رشفاً من الديمِ
وواقفون لديه عند حدِّهمُ   من نقطة العلم أو من شكلة الحكمِ
فهو الذي تم معناه وصورتُه   ثم اصطفاه حبيباً بارىء النسمِ
مُنَزَّهٌ عن شريك في محاسنه   فجوهر الحسن فيه غير منقسمِ
دع ما ادعته النصارى في نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكمِ
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف   وانسب إلى قدره ما شئت من عظمِ
فإن فضل رسول الله ليس له   حدٌّ فيعْرِبَ عنه ناطقٌ بفمِ
لو ناسبت قدرَه آياتُه عظماً   أحيا اسمه حين يدعى دارس الرممِ
لم يمتحنا بما تعيى العقول به   حرصاً علينا فلم نَرْتَبْ ولم نهمِ
أعيى الورى فهمُ معناه فليس يرى   للقرب والبعد فيه غير منفحمِ
كالشمس تظهر للعينين من بُعُدٍ   صغيرة وتكل الطرف من أممِ
وكيف يدرك في الدنيا حقيقته   قوم نيام تسلوا عنه بالحلمِ

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم
وكل آي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم
فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظلم
أكرم بخلق نبي زانه خُلُقٌ بالحسن مُشْتَمِل بالبشر متسم
كالزهر في ترف والبدر في شرف والبحر في كَرَمٍ والدهر في همم
كأنه وهو فرد في جلالته في عسكر حين تلقاه وفي حشم
كأنما اللؤلؤ المكنون في صدفِ أكرم في منطقٍ منه ومبتسم
لا طيب يعدل ترباً ضم أعظمه طوبى لمنتشق منه وملتثم
أبان مولده عن طيب عنصره يا طيب مبتدإ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدعٌ كشمل أصحاب كسرى غير مُلتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف عليه والنهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها ورُدَّ واردها بالغيظ حين ظمي
كأن بالنار ما بالماء من بلل حزناً وبالماء ما بالنار من ضَرَم
والجن تهتف والأنوار ساطعة والحق يظهر من معنى ومن كلم
عموا وصموا فإعلان البشائر لم تسمع وبارقة الأنذار لم تشم
من بعد ما أخبر الأقوام كاهنهم بأن دينهم المعوج لم يَقُم
وبعد ما عاينوا في الأفق من شُهُبٍ منقضةٍ وفق ما في الأرض من صنم
حتى غدا عن طريق الوحي منهزم من الشياطين يقفوا إثر منهزم
كأنهم هرباً أبطالُ أبرهةٍ أو عسكر بالحصى من راحتيه رمي
نبذاً به بعد تسبيح ببطنها نبذ المسبح من أحشاء ملتقم
جاءت لدعوته الأشجار ساجدة تمشي إليه على ساق بلا قدم

كأنما سطرت سطراً لما كتبت ... فروعها من بديع الخط باللَّقَم

مثل الغمامة أنى سار سائرةً ... تقيه حرَّ وطيسٍ للهجير حمي

أقسمت بالقمر المنشق إن له ... من قلبه نسبة مبرورة القسم

وما حوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرفٍ من الكفار عنه عمي

فالصدق في الغار والصديق لم يرما ... وهم يقولون ما بالغار من أرم

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تحم

وقاية الله أغنت من مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

ما سامني الدهر ضيماً واستجرت به ... إلا ونلت جواراً منه لم يضم

ولا التمست غنى الدارين من يده ... إلا استلمت الندى من خير مستلم

لا تنكر الوحي من رؤياه إن له ... قلباً إذا نامت العينان لم ينم

وذاك حين بلوغ من نبوءته ... فليس ينكر فيه حال محتلم

تبارك الله ما وحي بمكتسب ... ولا نبي على غيب بمتهم

كم أبرأت وصباً باللمس راحته ... وأطلقت أرباً من ربقة اللمم

وأحيت السنة الشهباء دعوته ... حتى حكت عزة في الأعصر الدُّهُم

بعارض جاد أو خلت البطاح بها ... سيباً من اليم أو سيلاً من العَرِم

دعني ووصفي آيات له ظهرت ... ظهور نار القرى ليلاً على عَلَم

فالدُّرُّ يزداد حسناً وهو منتظم ... وليس ينقص قدراً غير منتظم

فما تطاول آمال المديح إلى ... ما فيه من كرم الأخلاق والشيم

آيات حق من الرحمٰن محدثة ... قديمة صفة الموصوف بالقدم

لم تقترن بزمان وهي تخبرنا ... عن المعاد وعن عاد وعن إرم

دامت لدنيا ففاقت كل معجزة ... من النبيين إذ جاءت ولم تدم

محَكَّماتٌ فما تبقين من شبه ... لذي شقاق وما تبغين من حكم

ما حوربت قط إلا عاد من قرب أعدى الأعادي إليها ملقي السلم

ردت بلاغتها دعوى معارضها رد الغيور يد الجاني عن الحرم

لها معان كموج البحر في مدد وفوق جوهره في الحسن والقيم

فما تعد ولا تحصى عجائبها ولا تسام على الإكثار بالسأم

قَرَّتْ بها عين قاريها فقلت له لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم

إن تتلها خيفة من حرِّ نار لظى أطفأت حر لظى من وردها الشيم

كأنها الحوض تبيض الوجوه به من العصاة وقد جاؤوه كالحمم

وكالصراط وكالميزان مَعدَلةً فالقسط من غيرها في الناس لم يقم

لا تعجبن لحسود راح ينكرها تجاهلاً وهو عين الحاذق الفهم

قد تنكر العين ضوء الشمس من بعد وينكر الفم طعم الماء من سقم

يا خير من يمم العافون ساحته سعياً وفوق متون الأينق الرسم

ومن هو الآية الكبرى لمعتبر ومن هو النعمة العظمى لمغتنم

سريْت من حرم ليلاً إلى حرم كما سرى البدر في داج من الظلم

وبت ترقى إلى أن نِلت منزلة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم

وقدمتك جميع الأنبياء بها والرسل تقديم مخدوم على خدم

وأنت تخترق السبع الطباق بهم في موكب كنت فيه صاحب العلم

حتى إذا لم تدع شأواً لمستبق من الدنو ولا مرقى لمستنم

خفضت كل مقام بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

كيما تفوز بوصل أي مستتر عن العيون وسر أي مكتتم

فخرت كل فخار غير مشترك وجزت كل مقام غير مزدحم

وجل مقدار ما وليت من رتب وعز إدراك ما أوليت من نعم

بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا من العناية ركناً غير منهدم

لمــا دعــا الـلـه داعينــا لطاعتــه ... بأكــرم الــرســل كنـا أكـرم الأمم
راعت قلوب العــدا أنبــاء بعثتــه ... كنبــأة أجفلت غفــلا من الغنم
مازال يلقــاهــم في كل معتــرك ... حتى حكوا بالقنا لحماً على وضم
ودُّوا الفــرار فكــادوا يغبــطون به ... أشـلاء شالت مع العقبان والرخم
تمضي الليالي ولا يدرون عدتهــا ... ما لم تكن من ليالي الأشهر الحرم
كأنمــا الـدين ضيف حلَّ ساحتهم ... بكــل قرم إلـى لحم العــدا قرم
يجــر بحــر خميس فوق سابحة ... يرمي بمــوج من الأبـطال ملتـطم
من كل منــتــدب لله محتــسب ... يسـطو بمستـأصل للكفر مصطلم
حتى غدت ملة الإسلام وهي بهم ... من بعـد غربتهـا موصـولـة الرحم
مكـفــولــة أبــداً منـهم بخير أب ... وخــير بعــل فلم تيتم ولـم تئم
هم الجبــال فسل عنهم مصادمهم ... ماذا رأى منهم في كل مصــطدم
وســل حنينـاً وسل بدراً وسل أحداً ... فصول حتف لهم أدهى من الوخم
أُلمصْدري البيض حمراً بعدما وردت ... من العــدا كل مســود من اللمم
والـكــاتبين بسنن الخط ما تركت ... أقـلامهم حرف جسم غير منعجم
شاكي الســلاح لهم سيمـا تميزهم ... والــورد يمتـاز بالسيمـا من السمم
تهـدي إليك رياح النصـر نشـرهُم ... فتحسب الزهر في الأكمام كل كمي
كأنهم في ظهـور الخيل نبت ربـاً ... من شدة الحـزم لا من شدة الحُزُم
طارت قلوب العدا من بأسهم فرقاً ... فمــا تفــرق بين الـبَـهْـم والبُهُم
ومـن تكن برســول الله نصـرتــه ... إن تلقـه الأسـد في آجـامها تجم
ولــن ترى مولــى غير منــتـصــر ... به ولا من عدو غير منـقــصــم
أحــلَّ أمــتــه في حرز ملتــه ... كالليث حل مع الأشبال في أجم
كم جدلت كلمـات الله من جدل ... فيه ولـد خصم البرهان من خصم

كفـاك بالـعلم في الأمي معجـزة في الجـاهلية والتـأديب في اليتمِ
خدمـتـه بمـديح أسـتـقيل به ذنوب عمر مضى في الشعر والخدمِ
إذا قلدانـي ما تخشى عواقبـه كأنـني بهـمـا هدي من الـنعمِ
أطعت غي الصبا في الحالتين وما حصلت إلا على الآثـام والنـدمِ
فيا خسـارة نفسٍ في تجـارتهـا لم تشتـر الـدين بالـدنيا ولم تسمِ
ومـن يبـع آجـلاً منـه بعـاجـله يَبِـنْ له الـغبن في بيع وفي سلمِ
إن آت نبـأ فمـا عهـدي بمنتقض من الـنبـي ولا حبـلي بمنصـرمِ
فإن لي ذمـة منـه بتـسـميتي محمـداً وهـو أوفى الخلق بالذممِ
إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي فضـلاً وإلا فقـل يا زلـة القـدمِ
حاشـاه أن يحـرم الـراجي مكارمه ويرجـع الجـار منـه غير محتـرمِ
ومنـذ ألـزمتُ أفكـاري مدائحـه وجـدتُـهُ لخـلاصي خير ملتـزمِ
ولن يفـوت الغنى منـه يداً تربت إن الحيا ينبت الأزهـار في الأكمِ
ولم أرِد زهـرة الـدنيا التي اقتطفت يدا زهـير بمـا أثـنى على هرمِ
يا أكـرم الخلق ما لي من ألـوذ به سواك عنـد حلول الحادث العممِ
ولن يضيق رسـول الله جاهك بي إذا الـكـريم تحـلى باسم منتقمِ
فإن من جودك الـدنيا وضـرتهـا ومـن علومـك علم اللوح والقلمِ
يا نفس لا تقنـطي من زَلَّةٍ عظمت إن الكبـائـر في الغفـران كاللممِ
لعـل رحمـة ربي حين يقسمهـا تأتي على حسب العصيان في القسمِ
يا رب واجعل رجائي غير منعكس لديك واجعل حسابي غير منخرمِ
والـطف بعبـدك في الدارين إنَّ له صبـراً متى تدعُـهُ الأهـوالُ ينهـزمِ
وأذن لسُحب صلاة منـك دائمـةً على الـنبـي بمـنـهـل ومنسجمِ
ما رنحت عذبـات البـان ريح صبا وأطرب العيس حادي العيس بالنغمِ

ثم الرضى عن أبي بكر وعن عمر ... وعن علي وعن عثمان ذي الكرمِ
والآل والصحب ثم التـابعين فهم ... أهـل التقى والنقا والحلم والكرمِ
يا رب بالمصـطفى بلغ مقـاصـدنا ... واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرمِ
واغفـر إلٰهي لكـل المسلمين بمـا ... يتلون في المسجد الأقصى وفي الحرم
بجـاه من بيتُـهُ في طيبـة حرمٌ ... واسـمـه قسم من أعـظم القسمِ
وهٰـذه بردة الـمختـار قد ختمت ... والـحـمـد لله في بدء وفي ختمِ
أبـياتـهـا قد أتت ستين مع مائـة ... فرج بهـا كربنا يا واسع الكـرمِ

نماذج من الضلالات والشركيات في قصيدة البردة:

قال الشاعر:

وكَيْفَ تَدْعُـو إلى الدُّنْيا ضَرُورَةُ مَنْ ... لَولاهُ لَمْ تَخْـرُجِ الـدُّنْيا مِنَ العَـدَمِ
مُحَـمَّـدُ سَيِّدُ الـكَـونَـيْنِ والثَّقَليـ ... ـنِ والفَريقَينِ مِنْ عُرْبٍ ومِنْ عَجَمِ

أقول: ما هٰذا الكلام، فهل الدنيا خلقت من أجل النبي ﷺ منذ أن خلقها الله وإلى أن تقوم الساعة؟!

فالدنيا خلقت وخلق فيها الخلق من أجل عبادة الله وحده؛ قال الله تعالى: ﴿**وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلا لِيَعْبِدُونِ**﴾، والنبي ﷺ هو أحد عباده المخلصين، فلو سمع النبي ﷺ هٰذا البيت من البوصيري؛ لاستتابه، فإن تاب، وإلا ضرب عنقه، وصح عنه ﷺ في أقل من هٰذا الغضب والإنكار، حيث تنتهك حرمة التوحيد والعقيدة:

كما في «المسند» وغيره في الرجل الذي قال له: ما شاء الله وشئت، فقال له: «أجعلتني لله نداً؟! ما شاء الله وحده».

وصح عنه ﷺ في الرجل الذي سمعه يخطب، فقال: من يطع الله

ورسوله، فقال له النبي ﷺ: «بئس الخطيب أنت».

وصح عنه ﷺ في البخاري وغيره لما سمع: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال: «قولوا بقولكم أو ببعض قولكم».

ولم يرض ﷺ في يوم من الأيام بالشرك به أو بغيره مع الله تعالى، فكيف لو سمع مثل هٰذا الكلام؟!

وقوله:

لا طِيبَ يَعْدِلُ تُرْباً ضَمَّ أَعْظُمَهُ طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ ومُلْتَثِمِ

أقول: ما هٰذا الكلام؟! فمتى كان تقبيل التراب واستنشاقه من القربات؟! فهٰذا الفعل هو عمل المشركين الذين يعظمون الأحجار والأشجار، ويعتقدون نفعها وضرها، وكيف وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقول في الحجر الأسود: «والله إنك حجر لا تضر ولا تنفع، لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك؛ ما قبلتك»؟! فعمر رضي الله عنه يقتدي برسول الله ﷺ في هٰذا الفعل، ويعلم أن تقبيل الأحجار والأشجار والتراب هو من فعل المشركين، الذين يعتقدون فيها نفعاً أو ضرّاً، فهٰذا من البوصيري الغلو المنهي عنه، فمتى كان حب رسول الله ﷺ بتقبيل التراب واستنشاقه، فلو رأى رسول الله ﷺ من يفعل ذٰلك لاستتابه؟!

قال البوصيري:

يا أَكْرَمَ الخَلْقِ ما لي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِواكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمِمِ

أقول: وأين ذهب رب العالمين؟! ومتى كان النبي ﷺ محل لياذة في غيابه؟!

فلو قال البوصيري:

يا خَالِقَ الخَلقِ مَا لي مَنْ أَلُــوذُ بِهِ ... سِواكَ عِنْـدَ حُلُول الحَادِثِ العَمِمِ

لكان مصيباً ومحقّاً، ولكن غلوَّه أوقعه في الشرك الصريح، فإذا لم يكن هٰذا شركاً؛ فما في الدنيا شرك أبداً.

فهٰـذا الكلام لا يجوز أن يقال إلا في خالق الخلق، أما المخلوقون ـ وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ـ فوصفهم بهٰذا الوصف شرك لا مرية فيه.

قال البوصيري:

فإنَّ من جُودِكَ الـدُّنْيا وَضَـرَّتَهـا ... ومِنْ عُلومِـكَ عِلْمُ اللَّوْحِ والقَلَمِ

أقول: وماذا أبقى البوصيري لخالق الخلق إذا كانت الدنيا والآخرة من جود النبي ﷺ ومن علومه علم اللوح والقلم.

فالذين قتلهم الإمام علي كما في «البخاري» على ما ادعوه فيه لم يصل إلى هٰذا الذي ادعاه البوصيري للنبي ﷺ!

فقاتـل الله المؤولين والمعتذرين عن هٰؤلاء المشركين الذين نشروا الشرك في أمة محمد ﷺ منذ قرون باسم محبة النبي ﷺ، وهي لعمر الله بغض له، ونقض لدعوته من أولها إلى آخرها.

وهٰكذا الأمر في باقي الأبيات التي فيها من الشرك والغلو ما هو واضح لكل ذي عقيدة سليمة.

وقصـائد البوصيري وأشباهه كلها من هٰذا الوادي، فقصيدة الهمزية المشهورة فيها من البلايا والعظائم ما تنبو عنه الأسماع وتتقطع له الأكباد، وقصائد الصوفيَّة في جميع العصور معظمها من هٰذا الباب.

ومن هنا يعلم أن الصوفيَّة كان لهم الحظ الوافر في نشر الشرك في أمة

محمد ﷺ علماً وعملاً وإنشاداً وتأليفاً، وما يزالون حتى الآن يتغنون بالشرك وينشرونه بكل وسائلهم، نرجو الله تعالى أن يكفي المسلمين شرهم.

واقرأ القصيدة بنفسك، وتمعَّن بها؛ تجد محالَّ الخطر والانحراف والغلو تختفي وراء كل بيت وكل كلملة، والكلام على أخطاء البردة كلها يستغرق صفحات كثيرة، ويهمنا أن نبين للقراء خطر السماع الذي ذكره الغزالي وفضَّله على القرآن، فهو خطر عقدي كبير إذا لم ينتبه المسلمون له. هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرى؛ فليعلم أن قضية السماع عند الصوفيَّة أمر قديم، وقد ذكره القشيري في «رسالته»، وقد رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ردّاً صحيحاً، وسأنقل في بحثي هٰذا بعض رد الشيخ على هٰذا الباطل على طريق الاختصار، ومن أراد الاستيفاء؛ رجع إلى كتاب الاستقامة؛ فإن فيها الرد الوافي؛ كما ننقل أيضاً بعض كلام تلميذه العلامة ابن القيم في «إغاثة اللهفان»؛ فقد أفادوا وأجادوا، ولهٰذا الأخير أيضاً كتاب كبير رد فيه هٰذا السماع الباطل، وفند حجة المخرفين وأدلتهم المزعومة.

قال ابن تيمية رحمه الله:

سئل شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه عن صفة سماع الصالحين: ما هو؟ وهل سماع القصائد الملحنة بالآلات المطربة هو من القرب والطاعات أم هو محرم أو مباح؟ فأجاب:

«الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أصل هٰذه المسألة أن يفرق بين السماع الذي ينتفع به في الدين وبين ما يرخص فيه رفعاً

للحرج وبين سماع المتقربين وسماع المتلعبين، فأما السماع الذي شرعه الله لعباده، وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم وزكاة نفوسهم؛ فهو سماع آيات الله، وهو سماع النبيين والمؤمنين أهل العلم وأهل المعرفة؛ فإن الله تعالى لما ذكر من ذكره من الأنبياء عليهم السلام في قوله:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدم ومِمَّنْ حَمَلنَا مَعَ نوح ومِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهيمَ وإِسْرائيلَ ومِمَّنْ هَدَيْنَا واجْتَبَيْنَا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيّاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وإِذا تُلِيَتْ عَلَيهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وعلى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ويَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كَانَ وعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً . ويَخِرُّونَ للأَذْقانِ يَبْكُونَ ويَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإِذا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرفُوا مِنَ الحَقِّ﴾.

وبهٰذا السماع أمر الله تعالى في قوله: ﴿وإِذا قُرِىءَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرحَمُونَ﴾.

وعلى أهله أثنى تعالى؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّر عِبَادِي الَّذينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

وقول تعالى في الأخرى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفَالُها﴾.

فالقول الذي أمروا بتدبره هو الذي أمروا بسماعه.

وقال تعالى: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ﴾.

وكما أثنى تعالى على هٰذا السماع ذم تعالى المعرضين عن هٰذا السماع:

فقال تعالى: ﴿وإِذ تُتْلى عَلَيهِ آياتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾.

وقال تعالى: ﴿وقَالَ الَّذين كَفَرُوا لا تَسْمَعوا لِهٰذا القُرآنِ والْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُم تغلبونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَومِي اتَّخَذُوا هٰذا القُرآنَ مَهْجُوراً﴾.

وقال تعالى: ﴿فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿وقَالُوا قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدعُونَا إِليهِ وفي آذانِنا وَقْرٌ ومِنْ بيْنِنا وبيْنِكَ حِجابٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وإِذا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وبيْنَ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً . وجَعَلْنا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾.

وهٰذا هو السماع الذي شرعه الله للمسلمين في صلواتهم وخطبهم؛ كصلاة الفجر، وصلاة العشاءين، وفي غير ذٰلك.

وعلى هٰذا السماع كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتمعون، وكانوا إذا

اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ، والباقي يستمعون، وكان عمر يقول لأبي موسى: ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون.

وهٰذا هو السماع الذي كان النبي ﷺ يشهده مع أصحابه ويستدعيه منهم؛ كما في «الصحيحين» عن عبد الله بن مسعود: أن النبي ﷺ قال له: «اقرأ علي». قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري». فقرأت عليه سورة النساء، حتى وصلت إلى هٰذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وجِئْنَا بِكَ على هٰؤلاءِ شَهِيداً﴾. قال: «حسبك»، فإذا عيناه تذرفان.

وهٰذا هو الذي كان النبي يسمعه وأصحابه:

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ على المُؤْمِنينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رسولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ﴾.

والحكمة هي السنة.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ البَلْدَةِ الذي حَرَّمَها ولَهُ كُلُّ شَيءٍ وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ . وأَنْ أَتْلُو القُرْآنَ فَمَن اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ المُنْذِرينَ﴾.

وكذٰلك غيره من الرسل صلوات الله عليهم.

قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وأَصْلَحَ فَلا خوفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وكذٰلك يحتج عليهم يوم القيامة:

كما قال تعالى: ﴿يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُم

يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا قالوا شَهِدْنَا على أَنْفُسِنا وغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿وسِيقَ الذين كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً حتَّى إذا جَاؤوهَا فُتِحَتْ أَبْوابُها وقالَ لَهُم خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ ويُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَومِكُمْ هٰذا قالوا بَلَى﴾ الآية .

وقد أخبر الله تعالى أن المعتصم بهٰذا السماع مهتد مفلح ، والمعرض ضال شقي :

قال الله تعالى : ﴿فإمَّا يأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدَىً فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنْكَاً . ونَحْشُرُهُ يومَ القِيَامَة أَعْمَى . قال رَبِّ لَمَ حَشَرْتَني أَعْمَى﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ .

وذكر الله يراد به تارة ذكر العبد ربه ، ويراد به الذكر الذي أنزله الله :

كما قال تعالى : ﴿وهٰذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ .

وقال تعالى : ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ على رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ .

وقال : ﴿يا أَيُّها الذي نُزِّلَ عَلَيهِ الذِّكْرُ إنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ .

وقال تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلَّا اسْتَمَعُوهُ وهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ ولِقَومِكَ﴾ .

وقال تعالى: ﴿إِنْ هُو إلا ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ و مَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُو إِلَّا ذِكْرٌ وقُرآنٌ مُبِينٌ﴾.

وهٰذا السماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية والأحوال الزكية ما يطول شرحها ووصفها، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ودموع العين واقشعرار الجلد، وهٰذا مذكور في القرآن، وهٰذه الصفات موجودة في الصحابة، ووجدت بعدهم آثار ثلاثة من الاضطراب والصراخ والإغماء والموت في التابعين.

وبالجملة؛ فهٰذا السماع هو أصل الإيمان؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى الخلق أجمعين؛ ليبلغهم رسالات ربهم، فمن سمع ما بلغه الرسول، فآمن به، واتبعه؛ اهتدى وأفلح، ومن أعرض عن ذلك؛ ضلَّ وشقي.

وأمَّا سماع المكاء والتصدية؛ فالتصدية هي التصفيق بالأيدي، والمكاء مثل الصفير ونحوه؛ فهٰذا سماع المشركين الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وما كَانَ صَلاتُهم عِنْدَ البيتِ إلَّا مُكاءً وتَصْديةً﴾.

فأخبر الله تعالى المشركين أنَّهم كانوا يتخذون التصفيق باليد والتصويت باليد قربة وديناً، ولم يكن النبي ﷺ وأصحابه يجتمعون على مثل هٰذا السماع، ولا حضروه قط، ومن قال: إن النبي ﷺ حضر ذٰلك؛ فقد كذب عليه باتفاق أهل المعرفة بحديثه وسننه.

والحديث الذي ذكره محمد بن طاهر المقدسي في مسألة السماع في صفة التصوف، ورواه من طريقه الشيخ أبو حفص عمر السهروردي صاحب

«عوارف المعارف»: أن النبي ﷺ أنشده أعرابي:

قَدْ لَسَعَتْ حَيَّةُ الهوى كَبِدي فلا طبيب لَهَا ولا رَاقِي
إلَّا الحبِيبُ الذي شَغِفْتُ بهِ فَعِنْدَهُ رَقيَّتي وتِرْيَاقِي

فتواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه، فقال معاوية: ما أحسن لهوكم. فقال: «مهلاً يا معاوية، ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر الحبيب». هو حديث مكذوب وموضوع باتفاق أهل العلم بهٰذا الشأن، وأظهر منه كذباً حديث آخر يذكرون فيه أنَّه لمَّا بشر الفقراء بسبقهم للأغنياء إلى الجنة؛ تواجدوا وخرَّقوا أثوابهم، وأن جبريل نزل من السماء، فقال: يا محمد! إن ربك يطلب نصيبه من هٰذه الخروق، فأخذ منه خرقة، فعلقها بالعرش، وإن ذٰلك هو زبق الفقراء.

وهٰذا وأمثاله إنَّما يرويه من هو من أجهل الناس بحال النبي ﷺ وأصحابه، ومن أبعدهم بمعرفة الإيمان والإسلام، وهو شبيه برواية من روى أن أهل الصفة قاتلوا مع الكفار لما انكسر المسلمون يوم حنين أو غير يوم حنين، وأنَّهم قالوا: نحن مع الله، من كان معه كنا معه، ومن روى أن صبيحة المعراج وجد أهل الصفة يتحدثون بشيء كان الله أمر نبيه أن يكتمه، فقال لهم: «من أين لكم هٰذا». فقالوا: الله علمنا إياه، فقال: «يا رب! ألم تأمرني أن لا أفشيه؟». فقال: أمرتك أنت أن لا تفشيه، ولكن أنا أعلمتهم به»... ونحو هٰذه الأحاديث التي يرويها طوائف منتسبون إلى الدين، مع فرط جهلهم بدين الإسلام، ويبنون عليها من النفاق والبدع ما يناسبها، تارة يسقطون التوسط بالرسول وأنَّهم يصلون إلى الله من غير طريق الرسول مطلقاً.

وهٰذا أعظم من كفر اليهود والنصارى، فإن أولٰئك أسقطوا وساطة

رسول واحد، ولم يسقطوا وساطة الرسل مطلقاً، وهٰؤلاء إذا أسقطوا وساطة الرسل مطلقاً عن أنفسهم؛ كان هٰذا أغلظ من كفر أولٰئك، لكنهم يقولون: لا تسقط الوساطة إلا عن الخاصة لا عن العامة! فيكونون أكفر من أهل الكتاب من جهة إسقاط السفارة مطلقاً عنهم، وفي بعض الأحوال، وأهل الكتاب أكفر من جهة إسقاط السفارة مطلقاً، بل أهل الكتاب الذين يقولون: إنَّه رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب خيرٌ من هٰؤلاء؛ فإن أولٰئك أخرجوا عن رسالته من له كتاب، وهٰؤلاء يخرجون عن رسالته من لا يبقى معه إلا خيالات ووساوس وظنون ألقاها إليه الشيطان، مع ظنه أنَّه من خواص أولياء الله، وهو من أشدِّ أعداء الله.

وتارة يجعلون هٰذه الآثار المختلقة حجة فيما يفترونه من أمور تخالف دين الإسلام، ويدعون أنَّها من أسرار الخواص، كما يفعله الملاحدة والقرامطة والباطنية.

وتارة يجعلونها حجة في الإعراض عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ إلى ما ابتدعوه من اتخاذ دينهم لهواً ولعباً.

وبالجملة قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن النبي ﷺ لم يشرع لصالحي أمته وعبادهم وزهادهم أن يجتمعوا على استماع الأبيات الملحنة مع ضرب بالأكف أو ضرب بالقضيب أو الدف، كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعته واتباع ما جاء به من الكتاب والحكمة، لا في باطن الأمر ولا في ظاهره، لا لعامي ولا لخاص، ولكن رخص النبي ﷺ في أنواع من اللهو في العرس ونحوه، كما رخص للنساء أن يضربن بالدف في الأعراس والأفراح، وأما الرجال على عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بدف ولا يصفق بكف، بل قد ثبت عنه في الصحيح أنَّه قال: «إنَّما التصفيق للنساء والتسبيح للرجال»،

ولعن المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء، ولمَّا كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء؛ كان السلف يسمون من يفعل ذٰلك مخنثاً، ويسمون الرجال المغنين مخانيث، وهٰذا مشهور في كلامهم.

ومن هٰذا الباب حديث عائشة رضي الله عنها لما دخل عليها أبو بكر في أيام العيد وعندهـا جاريتان من الأنصار تغنيان بما تقولت به الأنصار يوم بعاث، فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ وكان النبي معرضاً عنه مقبلاً وجهه إلى الحائط، فقال: «دعهما يا أبا بكر؛ فإن لكل قوم عيداً، وهٰذا عيدنا أهل الإسلام».

ففي هٰذا الحديث بيان أن هٰذا لم يكن من عادة النبي ﷺ وأصحابه الاجتماع عليه، ولهٰذا سماه الصديق أبو بكر رضي الله عنه مزمور الشيطان، والنبي ﷺ أقر الجواري عليه؛ معللاً ذلك بأنَّه يوم عيد، والصغار يرخص لهم في اللعب في الأعياد، كما جاء في الحديث: «ليعلم المشركون أن في ديننا فسحـاً»، وكمـا كان لعائشة لعب تلعب بهن وتجيء صواحباتها من صغار النسوة يلعبن معها.

وليس في حديث الجـاريتين أن النبي ﷺ استمع إلى ذلك، والأمر والنهي إنَّما يتعلق بالاستماع لا بمجرد السماع؛ كما في الرؤية؛ فإنَّه إنَّما يتعلق بقصـد الرؤية؛ لأنها يحصل منها بغير الاختيار، كذٰلك في اشتمام الطيب، إنَّما ينهى المحرم عن قصد الشم، فأما إذا شم ما لا يقصده؛ فإنه لا إثم عليه، وكذٰلك في مباشرة المحرمات؛ كالحواس الخمس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس، إنَّما يتعلق الأمر والنهي في ذٰلك بما للعبد فيه قصد وعمل، وأمَّا ما يحصل بغير اختياره؛ فلا أمر فيه ولا نهي، وهٰذا ممَّا وجه به الحديث الذي في «السنن» حديث ابن عمر: «أنَّه كان مع النبي ﷺ،

فسمع صوت زمارة راع، فعدل عن الطريق، وقال: هل تسمع؟ حتى انقطع الصوت»؛ فإن من الناس من يقول ـ بتقدير صحة الحديث ـ: لم يأمر ابن عمر بسد أذنه. فيجاب بأن ابن عمر لم يكن يستمع، وإنما كان يسمع، وهٰذا لا إثم فيه، وإنَّما النبي ﷺ عدل طلباً للأكمل والأفضل، كمن اجتاز بطريق، فسمع قوماً يتكلمون بكلام محرم، فسد أذنه؛ كيلا يسمعه؛ فهٰذا حسن، ولو لم يسد أذنه؛ لم يأثم بذٰلك، اللهم إلا أن يكون في سماعه ضرب ديني لا يندفع إلا بالسد.

وبالجملة فهٰذه ـ مسألة السماع ـ تكلم فيها كثير من المتأخرين في السماع: هل هو محظور أو مكروه أو مباح؟ وليس المقصود بذٰلك رفع الحرج، بل مقصودهم بذٰلك أن يتخذ طريقاً إلى الله، يجتمع عليه أهل الربابات لصلاح القلوب والتشويق إلى المحبوب والتخويف من الهروب والتحزين على فوات المطلوب، يستنزل به الرحمة، ويستجلب به النعمة، ويحرك به مواجيد أهل الإيمان، ويستجلى به مشاهد أهل العرفان، حتى يقول بعضهم: إنه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه، وحتى يجعلونه قوتاً للقلوب، وغذاء للأرواح، وحادياً للنفوس، يحدوها على المسير إلى الله عز وجل، ويحثها على الإقبال عليه.

ولهٰذا يوجد من اعتاده واغتذى به، لا يحب القرآن ولا يفرح به ولايحدى في سماع الآيات كما يحدى في سماع الأبيات، بل إذا سمعوا القرآن؛ سمعوه بقلوب لاهية وألسن لاغية، وإذا سمعوا سماع أهل المكاء والتصدية؛ خشعت الأصوات وسكنت الحركات وأصغت القلوب وتعاطت المشروب، فمن تكلم في هٰذا: هل هو مكروه أو مباح وشبَّهه بما كان النساء يغنين به في الأعياد والأفراح؛ لم يكن قد اهتدى إلى الفرق بين طريق أهل

الخسارة والفلاح، ومن لم يتكلم في هٰذا: هل هو من الدين ومن سماع المتقين، ومن أحوال المقربين والمقتصدين، ومن أعمال أهل اليقين، ومن طريق المحبين المحبوبين، ومن أفعال السالكين إلى رب العالمين؛ كان كلامه فيه من وراء، بمنزلة من سئل عن علم الكلام المختلف فيه هل هو محمود أو مذموم، فأخذ يتكلم في جنس الكلام وانقسامه إلى الاسم والفعل والحرف، أو يتكلم في مدح الصمت، أو في أن الله أباح الكلام والنطق، وأمثال ذٰلك، ممَّا لا يمس المحل المشتبه المتنازع فيه.

وإذا عرف هٰذا فاعلم أنَّه لم يكن في القرون الثلاثة المفضلة، لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا بمصر ولا بالمغرب والعراق وخراسان، من أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة، من يجتمع على مثل سماع المكاء والتصدية، لا بدف ولا بكف ولا بقضيب، وإنَّما حدث هٰذا بعد ذلك، في أواخر المائة الثانية، فلما رآه الأئمة؛ أنكروه:

فقال الشافعي: خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة، يسمونه التغبير، يصدون به الناس عن القرآن.

وقال يزيد بن هارون: ما يغبر إلا فاسق.

ومتى كان التغبير؛ سئل عنه أحمد؟ فقال: أكرهه، هو محدث. قيل: أتجلس معهم، قال: لا.

وكذٰلك سائر أئمة الدين كرهوه، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه، فلم يحضره مثل إبراهيم بن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولا معروف الكرخي، ولا أبو سليمان الداراني، ولا أحمد بن أبي الحواري، ولا السري السقطي، وأمثالهم، والذين حضروه من الشيوخ من المحمودين تركوه

في آخر أمرهم، وأعيان المشايخ عابوا أهله؛ كما ذكر ذٰلك الشيخ عبد القادر والشيخ أبو البيان وغيرهما من الشيوخ.

وما ذكره الإمام الشافعي رضي الله عنه أنَّه من إحداث الزنادقة من كلام إمام خبير بأصول الإسلام؛ فإن هٰذا السماع لم يرغب فيه ويدع إليه في الأصل إلا من هو متهم بالزندقة؛ كابن الراوندي، والفارابي، وابن سينا، وأمثالهم.

كما ذكر أبو عبد الرحمٰن السلمي في مسألة السماع عن ابن الراوندي أنّه قال: «اختلف الفقهاء في السماع، فأباحه قوم وكرهه قوم، وأنا أوجبه، أو قال: آمر به»، فخالف إجماع العلماء في الأمر به.

وأبو نصر الفارابي كان بارعاً في الغناء الذي يسمونه الموسيقا، وله فيه طريقة معروفة عند أهل صناعة الغناء، وحكايته مع ابن حمدان مشهورة، لما ضرب فأبكاهم، ثم أضحكهم، ثم نومهم، ثم خرج.

وابن سينا ذكر في إشاراته في مقامات العارفين من الترغيب فيه وفي عشق الصور ما يناسب طريقة أسلافه الصابئين المشركين الذين كانوا يعبدون الكواكب والأصنام، كأرسطو وشيعته من اليونان ومن اتبعه كبرقلس وثامسطيوس والإسكندر الأفروديسي، وكان أرسطو وزير الإسكندر بن فيلفوس المقدوني، الذي تؤرخ له اليهود والنصارى، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة، وأمَّا ذو القرنين المذكور في القرآن، الذي بنى السد، فكان قبل هٰؤلاء بزمان طويل، وأمَّا الإسكندر الذي وزر له أرسطو؛ فإنَّه إنَّما بلغ بلاد خراسان ونحوها في دولة الفرس، لم يصل إلى السد، وهٰذه الأمور مبسوطة في غير هٰذا الموضع.

وابن سينا أحدث فلسفة ركبها من كلام سلفه اليوناني، وممَّا أخذه من أهــل الكــلام المبتــدعين الجهمية ونحـوهم، وسلك طريق المـلاحـدة الإسماعيلية في كثير من أمورهم العلمية والعملية، ومزجه بشيء من كلام الصوفيَّة، وحقيقته تعود إلى كلام إخوانه الإسماعيلية القرامطة الباطنية؛ فإن أهل بيته كانوا من أتباع الحاكم الذي كان بمصر، وكانوا في زمانه، ودينهم دين أصحاب «رسائل إخوان الصفا» وأمثالهم من أئمة منافقي الأمم الذين ليسوا مسلمين ولا يهود ولا نصارى.

وكـان الفـارابي قد حذق في حروف اليونان التي هي تعاليم أرسطو وأتباعه من الفلاسفة المشائين وفي أصولهم صناعة الغناء.

ففي هٰذه الطوائف من يرغب لله ويجعله ممَّا تزكو به النفوس وترتاض به وتهذب به الأخلاق.

وأمَّا الحنفاء، أهل ملة إبراهيم الخليل، الذي جعله الله للناس إماماً، وأهل دين الإسلام، الذي لا يقبل الله من أحد ديناً غيره، المتبعون لشريعة خاتم الرسـل محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً؛ فهٰؤلاء ليس منهم من يرغب في ذلك، ولا يدعو إليه، وهٰؤلاء هم أهل القرآن والإيمان، والهدى والرَّشاد، والسعد والفلاح، وأهل المعرفة والعلم واليقين، والإخلاص لله، والحب له، والتوكل عليه، والخشية منه، والإنابة إليه.

ولكن قد حضره أقوام من أهل الإرادة، وممَّن له نصيب في المحبة، لما فيه من التحريك لهم، ولم يعلموا غائلته، ولا عرفوا مغبته، كما أدخل قوم من الفقهاء أهل الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ في أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام، ظنّاً منهم أنّه حق موافق، ولم يعلموا غائلته، ولا

عرفوا مغبته؛ فإن القيام بحقائق الدين علماً وقولاً وعملاً وذوقاً وخبرة، لا يستقل به أكثر الناس، ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة، فإن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً.

وقد قال تعالى: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي ورَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾.

وقال تعالى: ﴿وأَنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ خطّاً، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: «هٰذا سبيل الله، وهٰذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وأَنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتَقِيماً﴾.

ومن كان له خبرة بحقائق الدين وأحوال القلوب ومعارفها وأذواقها ومواجيدها؛ عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلب منفعة ولا مصلحة؛ إلا وفي ضمن ذٰلك من الضلال والمفسدة ما هو أعظم منه؛ فهو للروح كالخمر للجسد، يفعل في النفوس أعظم ما تفعله حميّا الكؤوس، ولهٰذا يورث أصحابه سكراً أعظم من سكر الخمر، فيجدون لذة كما يجد شارب الخمر، بل يحصل لهم أكثر وأكبر ممَّا يحصل لشارب الخمر، ويصدهم ذٰلك عن ذكر الله ـ أعني الصلاة ـ أعظم ممَّا يصدهم الخمر، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء أعظم من الخمر، حتى يقتل بعضهم بعضاً من غير مس بيد، بل بما يقترن بهم من الشياطين، فإنه يحصل لهم أحوال شيطانية، بحيث تتنزل عليهم الشياطين في تلك الحال، ويتكلمون على

ألسنتهم، كما يتكلم الجني على لسان المصروع، إمَّا بكلام من جنس كلام الأعاجم الذين لا يفقه كلامهم؛ كلسان الترك أو الفرس أو غيرهم، ويكون الإنسان الذي لبسه الشيطان عربياً، لا يحسن أن يتكلم بذلك، بل يكون الكلام من جنس كلام من تكون تلك الشياطين من إخوانهم، وإمَّا بكلام لا يعقل ولا يفهم له معنى، وهذا يعرفه أهل المكاشفة شهوداً وعياناً، وهؤلاء الذين يدخلون النار مع خروجهم عن الشريعة هم من هذا النمط، فإن الشياطين تلبس أحدهم بحيث يسقط إحساس بدنه، حتى إن المصروع يضرب ضرباً عظيماً وهو لا يحس ولا يؤثر في بدنه، فكذلك هؤلاء تلبسهم الشياطين، فتدخل بهم النار، وقد تطير بهم في الهواء، وإنَّما يلبس أحدهم الشيطان مع تغيب عقله كالمصروع، وبالمغرب ضرب من الزط يقال لأحدهم: المصل، يلبسه الشياطين، ويدخلها، ويطير في الهواء، ويفعل أشياء أبلغ ممَّا يفعله هؤلاء، وهم من الزط الذين لا أخلاق لهم، والجن تخطف كثيراً من الإنس، وتغيبه عن أبصار الناس، وتطير به في الهواء، وقد باشرنا من هذه الأمور ما يطول وصفه.

وكذلك هؤلاء المتولهون المنتسبون إلى بعض الشيوخ، إذا حصل لهم وجد سماعي عند سماع المكاء والتصدية، منهم من يصعد في الهواء، ومنهم من يدخل النار، ويأخذ الحديد المحمى بالنار، يضعه على بدنه، وأنواع من هذا الجنس، ولا تحصل لهم هذه الأفعال عند الصلاة ولا عند الذكر ولا عند قراءة القرآن؛ لأن هذه عبادات شرعية إيمانية إسلامية نبوية محمدية تطرد الشياطين، وتلك عبادات بدعية شركية شيطانية فلسفية تستجلب الشياطين.

وبالجملة؛ فعلى المؤمن أن يعلم أن النبي ﷺ لم يترك شيئاً يقرب إلى الجنة إلا وقد حدث به، ولا شيئاً يبعد عن النار إلا وقد حدث به، وأن هذا

السماع لو كان مصلحة لشرعه الله ورسوله؛ فإن الله يقول: ﴿**اليَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**. . .﴾ الآية، وإذا وجد السامع به منفعة لقلبه، ولم يجد شاهد ذٰلك من كتاب الله ولا من سنة رسوله؛ لم يلتفت إليه؛ كما أن الفقيه إذا رأى قياساً لا يشهد له الكتاب والسنة؛ لم يلتفت إليه.

وفصل النزاع في حكم مسألة السماع ثلاث قواعد من أهم قواعد الإيمان والسلوك، فمن لم يبن عليها؛ فبناؤه على شفا جرف هار:

القاعدة الأولى: أن الذوق والحال والوجد هل هو حاكم، أو محكوم عليه بحاكم آخر، أو متحاكم إليه؛ فهٰذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة، حيث جعلوه حاكماً يتحاكمون إليه فيما هو صحيح فاسد، فجعلوه حكماً بين الحق والباطل، فنبذوا الكتاب والسنة، ولم يحكموا العلم والنصوص، وحكموا الأذواق والحال والمواجيد، فعظم الفساد، وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم.

والعجب أنهم دخلوا في الرياضات والمجاهدات والزهد ليتجردوا عن شهوات النفوس وحظوظها، فانتقلوا من شهوات إلى شهوات أكبر منها، ومن حظوظ إلى حظوظ أعظم منها، وكان حالهم في الشهوات التي انتقلوا عنها أكمل وخير من هٰؤلاء؛ لأنهم لم يعارضوا بها العلم، ولا قدموها على النصوص، ولا جعلوها قربة وديناً، واقفون مع حظوظهم من الله، فانون بها عن مراد الله، وإنَّما زهدوا في حظ إلى حظ أعلى منه، وتركوا شهوة بشهوة.

فليتدبر اللبيب هٰذا في نفسه وفي غيره، فكل ما خالف مراد الله الديني من العبد؛ فهو حظه وشهوته؛ ذوقاً كان، أو حالاً، أو وجداً، أو صورة. . . ونحو ذٰلك، فمن قدمه على مراده؛ فهو أسوأ حالاً، يعترف أنَّه يعصي ويحبه، وأنَّ مراد الله أولى بالتقديم منه، وأنَّه ذنب تجب التوبة منه.

القاعدة الثانية: أنَّه إذا وقع النزاع في حكم فعل مِن الأفعال أو حال أو ذوق؛ هل هو صحيح أو فاسد، أو حقٌّ أو باطل؛ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله من كتاب الله وسنة رسوله؛ فهٰذا هو الأساس، ومن لم يبن على هٰذا الأصل؛ فعلمه وسلوكه ليس على شيء.

القاعدة الثالثة: إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء: هل هو الإباحة أو التحريم؛ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته، فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة؛ فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته، بل يقطع أن الشرع يحرمه، لا سيما إذا كان طريقه مفضياً إلى ما يبغضه الله ورسوله، فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر لأنه يشوق النفس إلى المسكر الذي يشوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منها شوقاً للنفوس إلى المحرم بكثير؟! فإن الغناء ـ كما قال ابن مسعود ـ هو رقية الزنى، وقد شاهد الناس أنَّه ما عاناه صبي إلا وفسد، ولا امرأة إلا وبغت، ولا شاب ولا شيخ إلا وقع في محذور».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«فصل الخطاب في هٰذا الباب: ينبغي أن ينظر في ماهية الشيء، ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذٰلك، والغناء اسم يطلق على أشياء؛ منها:

غناء الحجيج؛ فإنَّهم ينشدون أشعاراً يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام وغير ذٰلك، فسماع تلك الأشعار مباح.

وفي معنى هٰؤلاء الغزاة؛ فإنَّهم ينشدون أشعاراً يحرضون بها على الغزو.

وفي هٰذا المعنى إنشاد المتبارزين للقتال.

وقد قال الرسول ﷺ لحاديه: «رويدك رفقاً بالقوارير».

وقال عبد الله بن رواحة يمدح النبي ﷺ:

وفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ ... إذا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الفَجْرِ سَاطِعُ
يَبِيْتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إذا اسْتَثْقَلَتْ بالمُشْرِكِينَ المَضَاجِعُ
أَرَانا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنَا ... بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ

وروي عن النبي ﷺ أنَّه خرج على أهل الصفة وفيهم واحد يقرأ والباقي يستمعون، فجلس معهم».

وقال الشيخ في موضع:

«ولكن تكلموا في الغناء المجرد عن آلات اللهو: هل هو حرام أو مكروه أو مباح، وذكر أصحاب أحمد لهم في ذٰلك ثلاثة أقوال، وذكرنا عن الشافعي قولين، ولم يذكروا عن أبي حنيفة ومالك في ذٰلك نزاعاً، وذكر زكريا ابن يحيى الساجي ـ وهو أحد الأئمة المتقدمين من المائلين إلى مذهب الشافعي ـ أنَّه لم يخالف من الفقهاء المتقدمين إلا إبراهيم بن سعد من أهل المدينة وعبيد الله بن الحسن العنبري من أهل البصرة، وما ذكره أبو عبد الرحمٰن السلمي وأبو القاسم القشيري وغيرهما عن مالك وأهل المدينة في ذٰلك؛ فغلط، وإنَّما وقعت به لأن بعض أهل المدينة كان يحضر السماع؛ إلا أن هٰذا ليس قول أئمتهم وفقهائهم».

وقال شيخ الإسلام أيضاً:

«وجماع الأمر في ذٰلك أنه إذا كان الكلام في السماع وغيره هل هو طاعة وقربة؛ فلا بد من دليل شرعي يدل على ذٰلك، وإذا كان الكلام هل هو

محرم أو غير محرم؛ فلا بد من دليل شرعي يدل على ذلك، إذ لا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله، والله تعالى سبحانه ذم المشركين على أنَّهم ابتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله، وأنَّهم حرموا ما لم يحرمه الله.

قال الله تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وإِذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالوا وَجَدْنا عَلَيها آبَاءَنا وَاللهُ أَمَرَنا بِهَا...**﴾ الآية.

قال أبو سليمان الداراني: إنَّه لتمر بي النكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة.

وقال أيضاً: ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر، فإذا سمع بأثر؛ كان نوراً على نور.

وقال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث؛ لا يصلح له أن يتكلم في علمنا.

وقال سهل بن عبد الله التستري: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة؛ فهو باطل.

وقال: كل عمل على اقتداء؛ فهو عذاب على النفس، وكل عمل بلا اقتداء؛ فهو عيش النفس.

وقال أبو عثمان النيسابوري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً؛ نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً؛ نطق بالبدعة.

وقال أبو الفرج بن الجوزي: اعلم أن سماع الغناء يجمع شيئين:

أحدهما: أن يلهي القلب عن التفكر في عظمة الله تعالى والقيام بخدمته.

والثاني: أن يميله إلى اللَّذَّات العاجلة، ويدعو إلى استيفائها، من جميع الشهوات الحسية، ومعظمها النكاح، وليس تمام لذته إلا في المتجددات، ولا سبيل إلى كثرة المتجددات من الحل، فلذلك يحث على الزنى، فبين الغناء والزنى تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح والزنى أكبر لذات النفس».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع من كلامه في السماع:

«وأما أبو حنيفة ومالك والثوري ونحوهم؛ فهم أعظم كراهة وانكاراً لذلك من الشافعي وأحمد».

وقال في موضع آخر:

«ولم يحضره مثل إبراهيم بن أدهم ولا الفضيل بن عياض ولا معروف الكرخي ولا السري السقطي ولا أبو سليمان الداراني، ولا مثل الشيخ عبد القادر والشيخ عدي والشيخ أبي البيان والشيخ حياة وغيرهم، بل في كلام طائفة من هؤلاء ـ مثل الشيخ عبد القادر وغيره ـ النهي عنه، وكذلك أعيان المشايخ، وقد حضره من المشايخ جماعة، وشرطوا المكان والإمكان والخلان والشيخ الذي يحرس من الشيطان، وأكثر الذين حضروه من المشايخ الموثوق بهم رجعوا عنه في آخر عمرهم، كالجنيد؛ فإنه كان يحضره وهو شاب، وتركه في آخر عمره، وكان يقول: من تكلف السماع؛ فتن به، ومن صادف السماع؛ استراح به؛ فقد ذم من يجتمع له، ورخص فيمن يصادفه من غير قصد ولا اعتماد للجلوس له، وسبب ذلك أنه مجمل ليس فيه

تفصيل؛ فإن الأبيات المتضمنة لذكر الحب والوصل والهجر والقطيعة والشوق والصبر على العذل واللوم ونحو ذلك هو قول مجمل، يشترك فيه محب الرحمٰن ومحب الأوثان ومحب الصلبان ومحب الإخوان ومحب الأوطان ومحب النسوان ومحب الصبيان، فقد يكون فيه منفعة إذا هيج القاطن وأثار الساكن وكان ذلك ممَّا يحبه الله ورسوله، لكن تكون فيه مضرة راجحة على نفعه، كما في الخمر والميسر، فإن فيهما إثماً كبيراً ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما، فلهٰذا لم تأت به الشريعة، فإن الشريعة لم تأت إلا بالمصلحة الخالصة أو الراجحة، وأمَّا ما تكون مفسدته غالبة على مصلحته؛ فهو بمنزلة من يأخذ درهماً بدينار، أو يسرق خمسة دراهم يتصدق منها بدرهمين، وذلك أنَّه يهيج الوجد المشترك، فيثير من النفس كوامن تضره آثارها، ويغذي النفس ويقيتها به، فتعتاض به عن سماع القرآن، حتى لا يبقى فيها محبة لسماع القرآن، ولا يلتذ به، ولا يستطيبه، بل قد يبقى في النفس بغض لذلك واستثقال به، كمن يستثقل نفسه بتعلم التوارة والإنجيل وعلوم أهل الكتاب والصابئين واستفادة العلم والحكمة منها، فأعرض بذلك عن كتاب الله وسنة رسوله إلى أشياء أخر يطول ذكرها.

فلما كان هٰذا السماع لا يعطي بنفسه ما يحبه الله ورسوله من الأحوال والمعارف، بل قد يصد عن ذلك، ويعطي ما لا يحبه الله ورسوله، بل ما يبغضه الله ورسوله، لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا سلف الأمة، ولا أعيان مشايخها.

والصوت يؤثر في النفس بحسب الأوقات: تارة فرحاً، وتارة حزناً، وتارة غضباً، وتارة رضىً، وإذا قوي السكر بصوت اللذة المطربة من غير تمييز، كما يحصل للنفس إذا سكرت بالصور والجسد إذا سكر بالطعام والشراب؛

فإن السكر هو الطرب الذي يورث لذة بلا عقل، فلا تقوم منفعة تلك اللذة بما يحصل من غيبة العقل الذي صد عن ذكر الله وعن الصلاة وأورث العداوة والبغضاء.

وأمَّا الرقص؛ فلم يأمر الله عز وجل به ولا رسوله ولا أحد من الأئمة.

بل قال الله تعالى: ﴿ولا تَمْشِ فِي الأرضِ مَرَحاً﴾، والرقص شيء من هٰذا.

وقال تعالى: ﴿واقْصُدْ في مَشْيِكَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذينَ يَمْشُونَ عَلى الأرضِ هَوْناً﴾؛ أي: بسكينة ووقار.

وإنَّما عبادة المسلمين الركوع والسجود، بل الزفن والرقص في الطريق لم يأمر الله به ولا رسوله ولا أحد من سلف الأمة، بل أمروا في الصلاة بالسكينة والوقار، ولو ورد على الإنسان حال يغلب فيها حتى يخرج إلى حالة خارجة عن المشروع، وكان ذٰلك الحال بسبب مشروع، كسماع القرآن الكريم ونحوه؛ لسلم إليه ذٰلك؛ كما تقدم، فأمَّا الذي إذا تكلف من الأسباب ما لم يؤمر به، مع علمه بأنَّه يوقعه فيما لا يصلح له؛ فهو بمنزلة من شرب الخمر، مع علمه أنَّها تسكره. وإذا قال: ورد علي حال وأنا سكران؛ قيل له: إذا كان السبب محظوراً؛ لم يكن صاحبه معذوراً.

فهٰذه الأحوال الفاسدة؛ من كان فيها صادقاً؛ فهو مبتدع ضال من جنس خفر التتر وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال الفاسدة الذين ضاهوا عبادة النصارى والمشركين ببعض ما لهم من الأحوال، ومن كان كاذباً؛ فهو منافق ضال.

فصل:

وقد استدل قوم على إباحة السماع بأمور ألخصها لك:

ـ منهـا أنَّـه مستلذ طيب تلتذ به النفوس وتستريح إليه، وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، بل بعض الصغار لا ينام حتى تحدو له القائمة بأمره، والإبل تقاسي تعب السير ومشقة الحمولة، فيهون عليها بالحداء.

ـ ومنهـا أن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه، وزيادة في خلقه، قد يستدلون عليه بقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾، وبأن الله تعالى ذم الصوت الفظيع، فقال: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾.

ـ ومنها أنَّ الله وصف أهل الجنة أنَّهم في روضة يُحبرون، وأنَّ ذٰلك هو السماع الطيب؛ فكيف يكون حراماً وهو في الجنة؟

ـ ومنها ما ثبت أن الله تعالى ما أذِنَ لشيءٍ كأذنه ـ أي: كاستماعه ـ لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن.

ـ ومنهـا أن أبا موسى الأشعري استمع النبي ﷺ لصوته وأثنى على حسن الصوت وقال: «لقد أوتي هٰذا مزماراً من مزامير آل دواد»، وقال له أبو موسى: لو أعلم أنك استمعت؛ لحبرته لك تحبيراً؛ أي: زينته وحسنته.

ـ ومنها قوله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم».

ـ وقوله: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن».

والصحيح أنَّه من التغني، وهو تحسين الصوت به، ويعضده ما فسره الإمام أحمد، فقال: «يحسن صوته ما استطاع».

ـ ومنها أن النبي ﷺ أقر عائشة على غناء القينتين يوم العيد، وقال لأبي

بكر: «دعها؛ فإن لكل قوم عيداً وهٰذا عيدنا أهل الإسلام».

ـ ومنها أنَّه ﷺ أذن في العرس بالغناء وسماه لهواً.

ـ ومنها أنَّه سمع رسول الله ﷺ الحداء وأذن فيه.

ـ ومنها أنَّه كان يسمع إنشاد الصحابة، وكانوا يرتجزون بين يديه في حفر الخندق:

نَحْنُ الذينَ بَايَعُوا مُحَمَّداً   على الجِهادِ ما بَقِينا أَبَداً

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة، وحدا به الحادي في منصرفه من خيبر، فجعل يقول:

واللَّهِ لولا اللَّهُ مَا اهْتَدَينَا   ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا   وثَبِّتِ الأقْدامَ إنْ لاقَيْنَا
إنَّ الألَى قَدْ بَغَوا عَلَينَا   إذا أَرادُوا فِتْنَةً أَبَيْنا

فدعا لقائله.

ـ ومنها أنَّه سمع قصيدة كعب بن زهير وأجازه.

ـ ومنها أنَّه استنشد الأسود بن سريع قصائد حمد بها ربه، واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية، وأنشد الأعشى شيئاً من شعره فسمعه، ومنها أنَّه صدق لبيداً في قوله:

أَلا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلا اللَّهَ بَاطِلُ   وكُلُّ نَعيمٍ لا مَحَالَةَ زائِلُ

ودعا لحسان أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافح عنه، وكان يُعجبه شعره، وقال له: «اهجهم وروح القدس معك».

وأنشدت عائشة رضي الله عنها قول أبي كثير الهذلي:

وإذا نَظَرْتَ إلـى أَسِـرَّةِ وَجـهِـهِ   بَرَقَتْ كَبَـرْقِ العـارِضِ المُتَهَلِّلِ

وقالت: أنتَ أحق بهٰذا البيت، فسر بقولها.

ـ ومنها أنَّهم ادعوا أنَّه رخص فيه عبد الله بن عمر وعبد الله بن جعفر وأهل المدينة، وبأنَّ كذا وكذا ولي لله حضروه وسمعوه، فمن حرمه؛ فقد قدح في هٰؤلاء السلدة القدوة الأعلام.

ـ ومنها أن إجماع العلماء؛ منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية، فلذة سماع صوت الآدمي أولى بالإباحة أو مساوية.

ـ وبأن السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه، فإن كان محبوبه حراماً؛ كان السماع معيناً له على الحرام، وهو حرام في حقه، وإن كان مباحاً؛ كان السماع في حقه مباحاً، وإن كانت محبته رحمانية؛ كان السماع في حقه قربة وطاعة؛ لأنَّه يحرك المحبة الرحمانية ويهيجها.

ـ وبأن التِذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن والشم بالروائح الطيبة والذوق بالطعم الطيب، فإذا كان هٰذا حراماً؛ كانت هٰذه اللذات والإدراكات محرمة.

والجواب عن ذٰلك ـ وبالله التوفيق ـ فيما تقدم من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم وغيرهما كفاية، وما ذكر حيد عن المقصود وروغان عن محل النزاع؛ فإن جهة كون الشيء مستلذّاً للحاسة ملائماً لها لا يدل على إباحته ولا تحريمه ولا كراهته ولا استحبابه؛ فإن هٰذه اللذة تكون في أحكام التكليف الخمسة؛ فكيف يستدل بها على الإباحة من تعرف شروط الدليل ومواقع الاستدلال؟!

وهل هٰذا إلا بمنزلة من يستدل على إباحة الزنى بما يجد به فاعله من

اللذة، ولذته لا ينكرها ذو طبع سليم؟!

وهل يستدل بوجود اللذة الملائمة على حل اللذيذ الملائم أحد؟!

وهل خلت غالب المحرمات من اللذات؟!

وهل أصوات المعازف التي صح عن النبي ﷺ تحريمها، وأن في أمته من يستحلها، بأصح الأسانيد، وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها، وقال بعضهم بتحريم جملتها، وقد حكى ابن الصلاح الإجماع على تحريم الغناء مع الدف والشبابة ـ يعني: إذا كان معه آلة لهو.

وهل في التذاذ الإبل والطفل بالصوت الطيب دليل شرعي من إباحة أو تحريم؟!

وأعجب من هٰذا الاستدلال على الإباحة بأن الله تعالى خلق الصوت الطيب، وهو زيادة نعمة منه لصاحبه، فيقال: والصورة الحسنة الجميلة، أليست زيادة في النعمة، والله تعالى خالقها ومعطي حسنها، أفيدل ذٰلك على إباحة التمتع بها والالتذاذ بها على الإطلاق؟! وهل هٰذا إلا مذهب أهل الإباحة الجارين على رسوم الطبيعة؟!

ولعل في ذم الله لصوت الحمار ما يدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات والألحان اللذيذات من الصور المستحسنات بأنواع القصائد المستحسنات بالدفوف والشبابات، هٰذا من المضحكات المعجبات.

وأعجب من هٰذا الاستدلال على الإباحة بسماع أهل الجنة أنَّهم في روضة يُحبَرون، أما يخاف صاحب هٰذا الاستدلال؟! إن هٰذا كمن يستدل على إباحة الخمر بأن في الجنة خمراً، وعلى إباحة لبس الحرير بأن لباس

أهل الجنة الحرير، وعلى حل أواني الذهب والفضة والتحلي بها للرجال؛ فإن هذا كله مباح لأهل الجنة.

فإن قيل: قام الدليل على تحريم هذا، ولم يقم على تحريم السماع.

قيل: هذا الآن استدلال آخر على الاستدلال على إباحته لأهل الجنة، فعلم أن استدلالك بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل.

وقولك: لم يقم دليل على تحريم السماع؛ فيقال: أي السماعات تعني؟ وأي المسموعات تريد؟ فإنَّه منهما المحرم والمكروه والمباح والواجب والمستحب؛ فعين نوعاً يقع الكلام فيه نفياً وإثباتاً.

فإن قلت: سماع القصائد مما مُدح الله به ورسوله وكتابه وهجي به أعداؤه؛ فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها، وهي التي سمعها الرسول وأصحابه، وأثاب عليها، وحرض حسان عليها، وهي التي غرت أصحاب السماع الشيطاني، فقالوا: تلك قصائد، ويكفي هذا. والسنة كلام والبدعة كلام، والتسبيح كلام والغيبة كلام، ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا المشتمل على قريب من مائة مفسدة؟!

ونظير هذا ما استدلوا به على أن الرسول استحسن الصوت الحسن، وأذن فيه؛ كما تقدم من حديث أبي موسى الأشعري وغيره، فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم بالغناء المقرون بالدفوف والصنوج والشبابات والأوتار وغير ذلك من المعازف، وذكر القدود والثغور والنهود والخصور، ووصف فواتر العيون وسوادها، وسواد الشعور، ومحاسن الشباب، وحمرة الخدود، وذكر الوصل والصد والتجني والهجران والعتاب والاستعطاف والاشتياق والقلق والفراق وما أشبه ذلك ممَّا هو أفسد للقلب من

سكر الخمر، وأي نسبة لسكر يوم ونحوه إلى سكرة العشق التي لا يستفيق صاحبها إلا في عسكر الهالكين أسيراً قتيلاً حزيناً؟! وهل تقاس سكرة الشراب إلى سكرة الأرواح بالسماع؟!

فإن نازع منازع في سكر السماع وتأثيره في العقول والأرواح؛ خرجوا عن الذوق والحس، فظهرت مكابرة القوم، فكيف يحمي الطبيب المريض عمَّا يشوش عليه صحته ويبيح له ما فيه أعظم السقم والكلام، مع من وجد لا من فقد.

وأعجب من هٰذا من استدل على إباحة السماع المركب من الهيئة الاجتماعية باجتماع البنتين الصغيرتين ـ وهما دون البلوغ ـ عند امرأة صبية في يوم عيد وفرح بأبيات للعرب في وصف الشجاعة والحروب ومكارم الأخلاق والشيم، فأين هٰذا من هٰذا؟!

والعجب أن هٰذا من أكبر الحجج عليهم؛ فإن الصديق سمى ذٰلك مزمار الشيطان، وأقره على هٰذه التسمية [الرسول ﷺ] مرخصاً فيه لجويريتين غير مكلفتين ولا مفسدة في إنشاده ولا في استماعه، أفيدل هٰذا على إباحة ما يفعلونه من السماع اليوم؟!

وأعجب من هٰذا كله الاستدلال على إباحته بما سمعه الرسول من الحدو المشتمل على الحق والتوحيد، وهل حرم أحد مطلق الشعر وقوله واستماعه؟!

وأعجب [من ذٰلك] استدلالهم بإباحته على إباحة أصوات الطيور اللذيذة، وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا إنَّما البيع مثل الربا؟! وأين أصوات الطيور إلى نغمات النسوان والمردان والأوتار والعيدان والغناء منهن

بما يحدو الأرواح والقلوب إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب؟! وأين الفتنة بمن هو من جنسك إلى الفتنة بصوت القمري والبلبل والهزار والشحرور ونحوها؟!

وأعجب من هٰذا من قال: إنَّه من أنكره فقد أنكر على كذا كذا وليّ لله! فحجة عامية، نعم ينكر أولياء الله على أولياء الله، فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عدداً وأعظم عند الله وعند المؤمنين، وقد تقاتل أولياء الله في صفين بالسيوف، ولما سار بعضهم إلى بعض؛ كان يقال: سار أهل الجنة إلى الجنة، وكون ولي الله يرتكب المكروه أو المحظور متأولاً أو عاصياً؛ لا يمنع ذٰلك الإنكار عليه، ولا يخرجه عن أصل ولايته لله، وهيهات هيهات أن يكون أحد من أولياء الله المتقين حضر هٰذا السماع المحدث المشتمل على هٰذه الهيئة التي تفتن القلوب أعظم فتنة».

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع من كلامه:

«قال إسحاق بن موسى الطباع: سألت مالكاً عمَّا يترخص فيه أهل المدينة من الغناء؟ فقال: إنَّما يفعله عندنا الفُساق. وهٰذا النص عن مالك معروف في كتب أصحاب مالك مشهور، وهم أعرف بمذهبه وأضبط ممَّن ينقل عنه الغلط وعن أهل المدينة من طائفة بالمشرق لا علم لهم بمذاهب الفقهاء، ومن ذكر عن مالك أنَّه ضرب بعود؛ فقد افترى عليه، وإنَّما نبهت على هٰذا؛ لأن فيما جمعه أبو عبد الرحمٰن السلمي ومحمد بن طاهر المقدسي في ذٰلك حكايات وآثار يظن من لا خبرة له بالعلم وأحوال السلف أنَّها صدق، وكان الشيخ أبو عبد الرحمٰن السلمي فيه من الخير والزهد والدين والتصوف ما يحمله على أن يجمع من كلام الشيوخ والآثار التي توافق مقصوده كل ما يجده، ولهٰذا يوجد في كتبه من الآثار الصحيحة والكلام ما

ينتفع به في الدين، ويوجد فيها من الآثار السقيمة والكلام المردود ما يضر من لا خبرة له، وبعض الناس توقف في روايته، حتى إن البيهقي كان إذا روى عنه يقول: حدثنا أبو عبد الرحمٰن من أصل سماعه، وأكثر الحكايات التي يرويها أبو القاسم القشيري صاحب «الرسالة» عنه؛ فإنَّه كان أجمع شيوخه لكلام الصوفيَّة، ومحمد بن طاهر له فضيلة جيدة في معرفة الحديث ورجاله، وهو من حفاظ وقته، لكن كثير من المتأخرين أهل الحديث وأهل الزهد وغيرهم إذا صنفوا في باب؛ ذكروا ما روي من غث وسمين، ولم يميزوا بين ذٰلك».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في موضع آخر ذكر فيه من صنف في السماع ومن روى فيه من الأحاديث الموضوعة والمكذوبة ثم قال:

«وكثير من المتأخرين أهل الحديث وأهل الزهد وأهل الفقه والتصوف وغيرهم، إذا صنفوا في باب؛ ذكروا ما روي فيه من غث وسمين، ولم يميزوا ذٰلك، كما يوجد في كثير ممَّن يصنف في الأبواب، مثل المصنفين في فضائل الشهور والأوقات وفضائل الأعمال والعبادات وفضائل الأشخاص وغير ذٰلك من الأبواب، مثل ما صنف بعضهم في فضائل صيام رجب وغيره، وفي فضائل صلوات الأيام والليالي صلاة يوم الأحد وصلاة يوم الاثنين والثلاثاء، وصلاة أول جمعة في رجب والتي أول رجب ونصف شعبان وإحياء ليلة العيدين وصلاة يوم عاشوراء، وكل هذا كذب باتفاق أهل العلم بالحديث.

وأجود حديث يروى عن النبي ﷺ في صيام رجب ما رواه ابن ماجه عن النبي ﷺ: أنَّه نهى عن صيام رجب، وقد ثبت بالإسناد الصحيح عن عمر بن الخطاب أنَّه كان يضرب أيدي الناس في رجب حتى يفطروا، ويقول: «لا تشبهوه برمضان»، وكذا كره إفراده بالصوم غير واحد من السلف والأئمة.

وأجود ما يروى من هٰذه الصلوات حديث صلاة التسبيح، وقد رواه أبو داود والترمذي وغيرهما، ومع هٰذا فلم يقل به أحد من الأئمة الأربعة، بل الإمام أحمد ضعف الحديث، وقال: «لا يصح»، ولم يستحب هٰذه الصلاة، وأمَّا ابن المبارك والمنقول عنه؛ فشيء مثل الصلاة المرفوعة؛ فإن تلك فيها قعدة طويلة بعد السجدة الثانية، وهٰذا يخالف الأصول، فلا يجوز أن يثبت بمثل هٰذا الحديث، ومن تدبر الأصول؛ علم أنَّه موضوع، وأمَّا سائر هٰذه الأحاديث؛ فإنَّها كلها أحاديث موضوعة مكذوبة باتفاق أهل المعرفة، مع أنها توجد في مثل كتاب أبي طالب وكتاب أبي حامد وكتاب الشيخ عبد القادر، وتوجد في مثل «أمالي» أبي القاسم بن عساكر، وفيما صنفه أبو حفص بن شاهين وعبد العزيز الكناني وأبو علي بن البناء وأبو الفضل بن ناصر وغيرهم، وكذٰلك أبو الفرج ابن الجوزي ذكر مثل هٰذا في كتاب «فضائل الشهور»، ويذكر في الموضوعات أنَّه كذب موضوع.

والذين جمعوا الأحاديث في الزهد والرقائق يذكرون ما روي في هٰذا الباب، ومن أجل ما صنف في هٰذا الباب كتاب «الزهد» لعبد الله بن المبارك، وفيه أحاديث واهية، وكذٰلك كتاب «الزهد» لهناد بن السري ولوكيع، وكذٰلك «الزهد» لأسد بن موسى وغيرهم، وأجود ما صنف في ذٰلك كتاب «الزهد» للإمام أحمد، لكنه مرتب على الأسماء، «وزهد» ابن المبارك على الأبواب، وهٰذه الكتب يذكر فيها زهد الأنبياء والصحابة والتابعين.

ثم إن المتأخرين على صنفين: منهم من ذكر زهد المتقدمين والمتأخرين؛ كأبي نعيم في «الحلية»، وأبي الفرج في «صفوة الصفوة»، ومنهم من اقتصر على ذكر المتأخرين من حين حدث اسم الصوفيَّة؛ كما فعل أبو عبد الرحمٰن السلمي في «طبقات الصوفيَّة»، وصاحبه أبو القاسم القشيري

في «رسالته».

ثم الحكـايات التي يذكـرهـا هٰؤلاء ونحوهم كابن خميس الموصلي وأمثاله يذكرون حكايات مرسلة بعضها صحيح وبعضها باطل قطعاً. والله أعلم».

وقال الشيخ رحمه الله:

«والمقصـود هنـا أن المذكور عن سلف الأمة وأئمتها من المنقولات ينبغي للإنسـان أن يميز بين صحيحـه وسقيمـه، كما ينبغي مثل ذٰلك في المعقـولات والنـظريات، وكـذٰلـك في الأذواق والمـواجيد والمكـاشفـات والمخاطبات؛ فإن كل صنف من هٰذه الأصناف الثلاثة فيها حق وباطل؛ فلا بد من التمييز بين هٰذا وهٰذا، وجميع ذٰلك أن ما وافق كتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه وما كان عليه أصحابه؛ فهو حق، وما خالف ذٰلك؛ فهو باطل؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولي الأَمْرِ مِنْكُمْ. . .﴾ الآية.

فصل:

وأمَّـا من زعم أن الملائكة أو الأنبياء تحضر سماع المكاء والتصدية محبة له ورغبة فيه؛ فهو كاذب مفتر، بل إنَّما تحضره الشياطين، وهي التي تتنزل عليهم، وتنفخ فيهم.

كما روى الطبراني وغيره عن ابن عباس مرفوعاً: «أن الشيطان قال: يا رب اجعل لي بيتاً. قال: بيتك الحمام. قال: اجعل لي قرآناً. قال: قرآنك الشعر. قال: اجعل لي مؤذناً. قال: مؤذنك المزمار».

وقد قال الله تعالى مخاطباً للشيطان: ﴿واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ

بِصَوتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، وقد فسر ذلك بصوت الغناء.

وروي عن النبي ﷺ: أنَّــه قال: «إنَّمـا نُهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت لهو ولعب ومزامير الشيطان، وصوت لطم خدود وشق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية».

وقـد كوشف جمـاعـات من أهل المكاشفات بحضور الشياطين في مجـامع السماعات الجاهلية ذات المكاء والتصدية، وكيف يدور الشيطان عليهم حتى يتواجدوا الوجد الشيطاني، حتى إن بعضهم صار يرقص فوق رؤوس الحاضرين.

ورأى بعض المشايخ المكاشفين: أن شيطانه قد حمله حتى رقص به، فلما صرخ بشيطانه؛ هرب وسقط ذلك الرجل.

وهذه الأمور لها أسرار وحقائق لا يشهدها إلا أهل البصائر الإيمانية والمشاهد الإيقانية، ولكن من اتبع ما جاءت به الشريعة وأعرض عن السبل المبتدعة؛ فقد حصل له الهدى وخير الدنيا والآخرة، وإن من لم يعرف حقائق الأمور بمنزلة من سلك السبيل إلى مكة خلف الدليل الهادي؛ فإنه يصل إلى مقصـوده، ويجد الزاد والماء في مواطنه، وإن لم يعرف كيف حصل ذلك وسببه، ومن سلك خلف غير الدليل الهادي؛ كان ضالاًّ عن الطريق؛ فإما أن يهلك، وإمَّا أن يشقى مدة ثم يعود إلى الطريق.

والـدليل الهـادي هو الرسول الذي بعثه الله إلى الناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وهادياً إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

وآثار الشيطان تظهر على أهل السماع الجاهلي؛ مثل الإزباد والإرغاء

والصـراخـات المنكرة ونحو ذٰلك ممَّا يضارع أهل الصرع الذين يصرعهم الشيطان، وكـذٰلـك يجـدون في نفـوسهم من ثوران مراد الشيطان بحسب الصـوت: إمـا وجد في الهوى المذموم، وإما غضب وعدوان على من هو مظلوم، وإما لطم وشق ثياب وصياح كصياح المحزون المحروم. . . إلى غير ذٰلك من الآثار الشيطانية التي تعتري أهل الاجتماع على شرب الخمر إذا سكروا بها؛ فإن السكر بالأصوات المطربة قد يصير من جنس السكر بالأشربة المطربة، فتصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، وتمنع قلوبهم حلاوة القرآن وفهم معانيه واتباعه، فيصيرون مضارعين للذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله، ويوقـع بينهـم العدواة والبغضاء، حتى يقتل بعضهم بعضاً بأحواله الفاسدة الشيطانية كما يقتل العائن مـن أصابه بعينه، ولهٰذا قال من قال من العلمـاء: إن هٰؤلاء يجب عليهم القـود والدية إذا عرف أنَّهم قتلوا بالأحـوال الفـاسـدة؛ لأنهم ظالمـون، وهم إنَّمـا يغتبطون بما ينفذونه من مراداتهم المحرمة كما يغتبط الظلمة المسلطون، ومن هٰذا الجنس حال فقراء الكافرين والمبتدعين والظالمين؛ فإنهم قد يكون لهم زهد وعبادة وهمة كما يكون للمشركين وأهل الكتاب، وكما كان للخوارج المارقين، الذين قال فيهم النبي ﷺ: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم. . .»[1] الحديث.

وقد يكون لهم مع ذٰلك أحوال باطلة كما يكون لهم مملكة ظاهرة؛ فإن سلطان الباطن مضاه لسلطان الظاهر، ولا يكون من أولياء الله؛ إلا من كان من الـذين آمنـوا وكـانوا يتقون وما فعلوه من الإعانة على الظلم يستحقون العقاب عليه بقدر الذنب وباب القدرة والتمكن ظاهراً وباطناً ليس مستلزماً

---

(١) (٩ / ٩٩) «فتح الباري».

لولاية الله.

بل قد يكون ولي الله متمكناً ذا سلطان، وقد يكون مستضعفاً، إلى أن ينصره الله، وقد يكون عدو الله مستضعفاً، وقد يكون مسلطاً، إلى أن ينتقم الله منه، فخفراء السر في الباطن من جنس التتر في الظاهر، هٰؤلاء في العبَّاد بمنزلة هٰؤلاء في الأجناد.

وأما الغلبة؛ فإن الله قد يديل الكافرين كما كان يكون لأصحاب رسول الله ﷺ مع عدوهم، لكن العاقبة للمتقين، فإن الله يقول: **﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذينَ آمَنُوا في الحَيَاةِ الدُّنْيا ويَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾**.

وإذا كان في المسلمين ضعف، وكان العدو مستظهراً عليهم؛ كان ذٰلك لسبب ذنوبهم وخطاياهم، إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطناً وظاهراً، وإما لعداوتهم بتعدي الحدود باطناً وظاهراً.

قال الله تعالى: **﴿إِنَّ الذين تَوَلَّوا مِنْكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ إِنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾**.

وقال تعالى: **﴿أولَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلتُمْ أَنَّى هٰذا قُلْ هو مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾**.

وقال تعالى: **﴿ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاة وآتَوا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ ونَهَوْا عنِ المُنْكَرِ ولِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾**».

وقال الشيخ في موضع آخر:

«وأمَّا اتخاذ التصفيق والغناء والضرب بالدفوف والنفخ في الشبابات والاجتماع على ذٰلك ديناً وطريقاً إلى الله وقربة؛ فهٰذا ليس من دين الإسلام،

وليس ممَّا شرعه نبيهم محمد ﷺ، ولا أحد من خلفائه، ولا استحسن ذٰلك أحد من أئمة المسلمين، بل ولم يكن أحد من أهل الدين يفعل ذٰلك على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أصحابه، ولا عهد تابعيهم بإحسان، ولا تابعي التابعين، بل لم يكن أحد من أهل الدين من الأعصار الثلاثة، لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا العراق ولا خراسان ولا المغرب ولا مصر، يجتمع على مثل هٰذا السماع، وإنَّما ابتدع في الإسلام بعد القرون الثلاثة، ولهٰذا قال الشافعي لما رأى ذٰلك: خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة».

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجل يحب السماع والرقص، فأنكر عليه رجل، فقال هٰذه الأبيات:

أَنْكَروا رَقْصاً وقالوا حَرامُ ... فَعَليهِمْ مِنْ أَجْلِ ذاك سلامُ
اعْبُدِ اللهَ يا فَقيهُ وَصَلِّ ... والزَمْ الشَّرْعَ فالسَّماعُ حَرامُ
بَلْ حَرامٌ عَليكَ ثُمَّ حَلالٌ ... عِنْدَ قَوْمٍ أَحْوالُهُمْ لا تُلامُ
مِثْلَ قَوْمٍ صَفُوا وبَانَ لَهُمْ مِنْ ... جَانِبِ الطُّور جَذْوَةٌ وكَلامُ
فَإذا قُوبِلَ السَّماعُ بِلَهْوٍ ... فَحَرامٌ على الجَّميعِ حَرامُ

أجاب: «الحمد لله رب العالمين، هٰذا الشعر يتضمن منكراً من القول وزوراً، بل أوله يتضمن مخالفة الشريعة، وآخره يفتح باب الزندقة والإلحاد المخالفة للحقيقة الإلٰهية الدينية النبوية، وذٰلك أن قول القائل: «مثل قوم صفوا وبان لهم من جانب الطور جذوة وكلام»؛ يتضمن تمثيل هٰؤلاء بموسى بن عمران الذي نودي من جانب الطور، ولما رأى النار قال لأهله: امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبسٍ أو جذوة من النار لعلكم تصطلون، وهٰذا قول طائفة من الناس، يسلكون طريق الرياضة والتصفية، ويظنون أنَّهم بذٰلك

يصلون إلى أن يخاطبهم الله كما خاطب موسى بن عمران، وهٰؤلاء ثلاثة أصناف:

النوع الأول: يزعمون أنَّهم يخاطبون بأعظم ممَّا خوطب به موسى بن عمران؛ كما يقول ذلك من يقوله من أهل الوحدة والاتحاد القائلين بأن الوجود واحد كصاحب «الفصوص» وأمثاله؛ فإن هؤلاء يدعون أنَّهم أعلى من الأنبياء، وأن الخطاب الذي يحصل لهم من الله أعلى ممَّا يحصل لإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد.

ومعلوم أن هٰذا الكفر أعظم من كفر اليهود والنصارى الذين يفضلون الأنبياء على غيرهم، لكن يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض.

والنوع الثاني: من يقول: إن الله يكلمه مثل كلام موسى بن عمران؛ كما يقول ذٰلك من يقوله من المتفلسفة ومتصوفتهم الذين يقولون: إن تكليم موسى فيض فاض على قلبه من العقل الفعال، ويقولون: إن النبوة مكتسبة.

والنوع الثالث: الذين يقولون: إن موسى أفضل، لكن صاحب الرياضة قد يسمع الخطاب الذي سمعه موسى، ولكن موسى مقصود بالتكليم دون هٰذا؛ كما يوجد هٰذا في أخبار صاحب «مشكاة الأنوار»، وكذٰلك سلك مسلكه صاحب «خلع النعلين» وأمثالهما.

وأمَّا قوله في أول الشعر لمن يخاطبه: «الزم الشرع يا فقيه وصل»: يُشعر بأنَّك أنت تبع الشرع، وأمَّا نحن؛ فلنا إلى الله طريق غير الشرع، ومن ادعى أن له إلى الله طريقاً يوصل إلى رضوان الله وكرامته وثوابه غير الشريعة التي بعث الله بها رسوله؛ فإنَّه أيضاً كافر يُستتاب، فإن تاب؛ وإلا ضربت عنقه؛ كطائفة أسقطوا التكليف، وزعموا أن العبد يصل إلى الله بلا متابعة

الرسل، وطائفة يظنون أن الخواص من الأولياء يستغنون عن متابعة محمد ﷺ كما استغنى الخضر عن متابعة موسى، وجهل هٰؤلاء أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ومحمد ﷺ رسول إلى كل أحد ظاهراً وباطناً، مع أن قضية الخضر لم تخالف شريعة موسى، بل وافقتها، ولكن الأسباب المبيحة للفعل لم يكن موسى علمها، فلما علمها؛ تبين أن الأفعال توافق شريعته لا تخالفها».

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن المؤذن يصعد إلى المئذنة ينشد أبياتاً يذكر فيها الفراق والبين وتفرق الأحباب، فأنكر عليه رجل، فقال له: لا تفعل هٰذا، وعليك بالتسبيح والتحميد والقصائد الربانية؛ فهل أصاب أم لا؟!

أجاب رضي الله عنه:

«الحمد لله، نعم يُنهى المؤذن أن ينشد الأبيات التي هي من جنس النياحة والمراثي، وكذٰلك ما كان من جنس الغزل؛ فإن في ذٰلك مفاسد كثيرة، وليس ذٰلك من ذكر الله المشروع للمؤذن، ولا بأس بالأبيات المتضمنة لذكر الآيات والأخبار والتوبة والاستغفار. والله أعلم».

* **التعليق:**

قلت: يجب على المؤذن أن يلتزم بصيغ الأذان التي شرعها رسول الله ﷺ وكان عليها صحابته الكرام والتابعون لهم بإحسان، أمَّا ما أحدث من أناشيد وقصائد على منارات المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؛ فأمر لا يجوز؛ لأنه من البدع المحدثة، ومن الطرق التي نشر بها الشرك والبدع؛ فالهدي هديه ﷺ.

وقال الإمام العلامة ابن القيم في كتابه العظيم «إغاثة اللهفان»:

«فصل:

ومن مكـايد عدو الله ومصايده التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقـل والـدين وصـاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماع المكـاء، والتصدية والغناء بالآلات المحرمة، الذي يصد القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان، فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمٰن، وهو رقية اللواط والزنى، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى، كاد به الشيطان النفوس المبطلة، حسنه لها مكراً منه وغروراً، وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجوراً، فلو رأيتهم عنـد ذياك السمـاع وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحـركـات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم أرأيت تكسر المخانيث والنسوان، ويحق لهم ذٰلك وقد خالط خماره النفوس، ففعل فيها أعظم ما يفعله حسيا الكؤوس، فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق، وأثواب تشقق، وأموال في غير طاعة الله تنفق، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزهم بصوته وحيله، وأجلب عليه برجله وخيله، ووخـز في صدورهم وخـزاً، وأزَّهم إلى ضرب الأرض بالأقـدام أزّاً، فطوراً يجعلهم كالحمير حول المـدار، وتارة كالذباب رقص وسيط الديار، فيا رحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام، ويا شماتة أعداء الإسلام بالذين يزعمون أنَّهم خواص الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطرباً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى

آخره؛ لما حرك له ساكناً، ولا أزعج له قاطناً، ولا أثار فيه وجداً، ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلى الله زنداً، حتى إذا تلي عليه قرآن الشيطان، وولج مزموره سمعه، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت، فيا أيها الفاتن المفتون، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون، هلا كانت هٰذه الأشجان عند سماع القرآن؟! وهٰذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد؟! وهٰذه الأحوال السنيات عند تلاوة السور والآيات؟! ولكن كل امرىء يصبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكله، والجنسية علة الضم قدراً وشرعاً، والمشاكلة سبب الميل عقلاً وطبعاً، فمن أين هٰذا الإخاء والنسب لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب؟! ومن أين هٰذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خللاً؟! ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيَّتَهُ أَولِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾[1].

ولقد أحسن القائل:

تلي الكتاب فأطرقوا لا خيفةً ... لكنَّه إطْراقُ ساهٍ لاهي
وأتى الغناءُ فكالحميرِ تَنَاهَقوا ... واللهِ ما رقَصوا لأجْلِ اللهِ
دَفٌّ ومِزْمارٌ ونغمةُ شادنٍ ... فمتى رأيتَ عِبادةً بِمَلاهي
ثقل الكتابُ عليهم لمَّا رأوا ... تقييدَه بأوامِرٍ ونواهي
سمِعوا له رعْداً وبرقاً إذْ حَوى ... زجْراً وتخويفاً بِفعلِ مَناهي
ورأوْه أعْظَمَ قاطِعٍ للنفس عن ... شَهَواتِها يا ذَبْحَها[2] المُتناهي

---

(١) سورة الكهف: ٥٠.

(٢) في نسخة: «يلوحها».

وأتى السمــاعُ مُوافقــاً أغْـراضهَـا فَلأجْـل ذاك غدَا عظيمَ الـجَـاهِ
أين المُسـاعِدُ للهَـوى منْ قاطِـعٍ أسْبـابَـه عِنـدَ الجَهُـول السّـاهي
إنْ لمْ يكُنْ خمـر الجُسـوم فإنَّـه خَمْـرُ العُقـولِ مُمـاثِـلٌ ومُضـاهي
فانـظرْ إلى النَّشْوان عنـد شَرابـه وانـظرْ إلى النِّسوانِ عنـد ملاهي
وانـظرْ إلـى تَمْـزيقِ ذا أثـوابَـه من بَعْـدِ تمـزيقِ الفُؤادِ الـلاَّهِي
واحكُم فَأيُّ الخَمـرتَينِ أحَقُّ بالتـ ـحْـريمِ والتـأثيمِ عِنـد اللهِ

وقال آخر:

بَرِئْـنَـا إلـى الـله من مَعْـشَـر بهِـمْ مَرَضٌ من سمَـاعِ الغِـنَـا
وكـم قُلْتُ: يا قَوْمُ أنـتُـم على شَفَـا جُرُفٍ ما به منْ بِنَـا
شفَـا جُرُفٍ تحـتَـهُ هُوَّةٌ إلـى دَرَكٍ كم به مِنْ عَنَـا
وتَـكْـرارُ ذا النُّصْـحِ مِنَّـا لهم لنُـعْـذَرَ فيهـمْ إلـى ربِّـنـا
فلمَّـا اسْـتَهـانُـوا بتَنْـبيهنـا رَجَـعْـنـا إلى اللهِ في أمْـرِنـا
فعِشْـنـا على سُنَّـةِ المُصْـطَفى ومَـاتُـوا على تِنْـتِـنـا تِنْـتِـنـا

ولم يزل أنصار الإسلام وأئمة الهدى تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض، وتحذر من سلوك سبيلهم واقتفاء آثارهم من جميع طوائف الملة».

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي في خطبة كتابه في تحريم السماع:

«الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ونسأله أن يرينا الحق حقّاً فنتبعه، والباطل باطلاً فنجتنبه، وقد كان الناس فيما مضى يتستر أحدهم بالمعصية إذا واقعها، ثم يستغفر الله ويتوب إليه منها، ثم كثر الجهل وقلَّ العلم وتناقص الأمر، حتى صار أحدهم يأتي المعصية جهاراً، ثم ازداد الأمر إدباراً، حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا

المسلمين وفقنـا الله وإياهم استـزلهم الشيطان واستغوى عقولهم في حب الأغاني واللهو، وسماع الطقطقة والنقير، واعتقدته من الدين الذي يقربهم إلى الله، وجاهرت به جماعة المسلمين، وشاقّت سبيل المؤمنين، وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين:

﴿ومَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّم وسَاءَتْ مَصِيراً﴾(1).

فرأيت أن أوضح الحق، وأكشف عن شبه أهل الباطل، بالحجج التي تضمنها كتاب الله وسنة رسوله، وأبدأ بذكر أقاويل العلماء الذين تدور الفتيا عليهم في أقاصي الأرض ودانيها، حتى تعلم هٰذه الطائفة أنَّها قد خالفت علماء المسلمين في بدعتها، والله ولي التوفيق».

ثم قال:

«أمَّـا مالـك؛ فإنَّه نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال: إذا اشترى جارية، فوجدها مغنية؛ كان له أن يردها بالعيب».

وسئل مالك رحمهُ الله عمَّا يرخص فيه أهل المدينة من الغناء؟! فقال: «إنَّما يفعله عندنا الفساق»».

قال: «وأمَّا أبو حنيفة؛ فإنَّه يكره الغناء ويجعله من الذنوب.

وكـذٰلك مذهب أهل الكوفة: سفيان، وحماد، وإبراهيم، والشعبي، وغيرهم، لا اختلاف بينهم في ذٰلك، ولا نعلم خلافاً أيضاً بين أهل البصرة في المنع منه».

قلت: مذهب أبي حنيفة في ذٰلك من أشدَّ المذاهب، وقوله فيه أغلظ

(1) سورة النساء: ١١٥.

الأقـوال، وقـد صرح أصحـابـه بتحـريـم سماع الملاهي كلها؛ كالمزمار، والدف، حتى الضرب بالقضيب، وصرحوا بأنَّه معصية، يوجب الفسق، وترد به الشهادة.

وأبلغ من ذٰلك أنَّهم قالوا: «إن السماع فسق، والتلذذ به كفر»، وهٰذا لفظهم، ورووا في ذٰلك حديثاً لا يصح رفعه.

قالوا: «ويجب عليه أن يجتهد في أن لا يسمعه إذا مر به، أو كان في جواره».

وقال أبو يوسف في دار يسمع منها صوت المعازف والملاهي: «ادخل عليهم بغير إذنهم؛ لأن النهي عن المنكر فرض، فلو لم يجز الدخول بغير إذن؛ لامتنع الناس من إقامة الفرض».

قالوا: «ويتقدم إليه الإمام إذا سمع ذٰلك من داره، فإن أصر؛ حبسه أو ضربه سياطاً، وإن شاء؛ أزعجه عن داره».

وأمَّا الشافعي فقال في كتاب «أدب القضاء»: «إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل والمحال، ومن استكثر منه؛ فهو سفيه ترد شهادته».

وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه، وأنكروا على من نسب إليه حله؛ كالقاضي أبي الطيب والشيخ أبي إسحاق وابن الصباغ.

قال الشيخ أبو إسحاق في «التنبيه»: «ولا تصح ـ يعني الإجارة ـ على منفعة محرمة ـ كالغناء والزمر وحمل الخمر ـ ولم يذكر فيه خلافاً».

وقال في «المهذب»: «ولا يجوز على المنافع المحرمة؛ لأنه محرم، فلا يجوز أخذ العوض عنه؛ كالميتة والدم».

فقد تضمن كلام الشيخ أموراً:

أحدها: أن منفعة الغناء بمجرده منفعة محرمة.

الثاني: أن الاستئجار عليها باطل.

الثالث: أن أكل المال به أكل مال بالباطل بمنزلة أكله عوضاً عن الميتة والدم.

الرابع: أنَّه لا يجوز للرجل بذل ماله للمغني، ويحرم عليه ذٰلك؛ فإنَّه بذل ماله في مقابلة محرم، وأن بذله في ذٰلك كبذله في مقابلة الدم والميتة.

الخامس: أن الزمر حرام.

وإذا كان الزمر الذي هو أخف آلات اللهو حراماً؛ فكيف بما هو أشدُّ منه؛ كالعود، والطنبور، واليراع؟! ولا ينبغي لمن شم رائحة العلم أن يتوقف في تحريم ذٰلك، فأقل ما فيه أنَّه من شعار الفساق وشاربي الخمور.

وكذٰلك قال أبو زكريا النووي في «روضته»:

«القسم الثاني: أن يغني ببعض آلات الغناء بما هو من شعار شاربي الخمر، وهو مطرب كالطنبور والعود والصنج وسائر المعازف والأوتار؛ يحرم استعماله واستماعه».

قال: «وفي اليراع وجهان: صحح البغوي التحريم».

ثم ذكر عن الغزالي الجواز؛ قال: «والصحيح تحريم اليراع، وهو الشَّبابة، وقد صنف أبو القاسم الدولعي كتاباً في تحريم اليراع».

وقد حكى أبو عمرو بن الصلاح الإجماع على تحريم السماع الذي جمع الدف والشبابة والغناء، فقال في «فتاويه»:

«وأمَّا إباحة هٰذا السماع وتحليله؛ فليعلم أن الدف والشبابة والغناء إذا

اجتمعت؛ فاستماع ذلك حرام عند أئمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين، ولم يثبت عن أحد ممَّن يعتد بقوله في الإجماع والاختلاف أنَّه أباح هذا السماع، والخلاف المنقول عن بعض أصحاب الشافعي إنَّما نقل في الشبابة منفردة والدف منفرداً، فمن لا يحصل أو لا يتأمل ربما اعتقد خلافاً بين الشافعيين في هذا السماع الجامع هذه الملاهي، وذلك وهم بيِّن من الصائر إليه، تنادي عليه أدلة الشرع والعقل، مع أنَّه ليس كل خلاف يستروح إليه ويعتمد عليه، ومن تتبع ما اختلف فيه العلماء، وأخذ بالرخص من أقاويلهم؛ تزندق، أو كاد».

قال: «وقولهم في السماع المذكور: إنَّه من القربات والطاعات، قول مخالف لإجماع المسلمين، ومن خالف إجماعهم؛ فعليه ما في قوله تعالى: ﴿ومَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لهُ الهُدَى ويَتَّبِعْ غَيْرَ سبِيلِ المُؤْمنينَ نُولِّهِ ما تَولَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وسَاءَت مَصيراً﴾»(١).

وأطال الكلام في الرد على هاتين الطائفتين اللتين بلاء الإسلام منهم: المحللون لما حرم الله، والمتقربون إلى الله بما يباعدهم عنه.

والشافعي وقدماء أصحابه والعارفون بمذهبه من أغلظ الناس قولاً في ذلك.

وقد تواتر عن الشافعي أنَّه قال: «خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة، يسمونه التغبير، يصدون به الناس عن القرآن».

فإذا كان هذا قوله في التغبير، وتعليله أنَّه يصد عن القرآن، وهو شعر يزهد في الدنيا، يغني به مغن، فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع

---

(١) سورة النساء: ١١٥

أو مخدة على توقيع غنائه؛ فليت شعري! ما يقول في سماع التغبير عنده كتفلة في بحر، قد اشتمل على كل مفسدة، وجمع كل محرم، فالله بين دينه وبين كل متعلم مفتون وعابد جاهل؟!

قال سفيان بن عيينة: «كان يقال: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون».

ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة؛ وجده من هٰذين المفتونين.

فصل:

وأمَّا مذهب الإمام أحمد؛ فقال عبد الله ابنه: «سألت أبي عن الغناء، فقال: الغناء ينبت النفاق في القلب، لا يعجبني. ثم ذكر قول مالك: إنَّما يفعله عندنا الفساق».

قال عبد الله: سمعت أبي يقول: «سمعت يحيى القطان يقول: لو أن رجلاً عمل بكل رخصة، بقول أهل الكوفة في النبيذ، وأهل المدينة في السماع، وأهل مكة في المتعة؛ لكان فاسقاً».

قال أحمد: «وقال سليمان التيمي: لو أخذت برخصة كل عالم أو زلة كل عالم؛ اجتمع فيك الشر كله».

ونص على كسر آلات اللهو ـ كالطنبور وغيره ـ إذا رآها مكشوفة وأمكنه كسرها.

وعنه في كسرها إذا كانت مغطاة تحت ثيابه وعلم بها روايتان منصوصتان.

ونص في أيتام ورثوا جارية مغنية وأرادوا بيعها، فقال: «لا تباع؛ إلا

على أنها ساذجة». فقالوا: إذا بيعت مغنية؛ ساوت عشرين ألفاً أو نحوها، وإذا بيعت ساذجة؛ لا تساوي ألفين. فقال: «لا تباع إلا على أنها ساذجة». ولو كانت منفعة الغناء مباحة؛ لما فوت هٰذا المال على الأيتام.

فصل:

وأمَّا سماعه من المرأة الأجنبية أو الأمرد؛ فمن أعظم المحرمات وأشدِّها فساداً للدين.

قال الشافعي رحمه الله: «وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها؛ فهو سفيه تردُّ شهادته»، وأغلظ القول فيه، وقال: «هو دياثة، فمن فعل ذٰلك كان ديوثاً».

قال القاضي أبو الطيب: «وإنَّما جعل صاحبها سفيهاً؛ لأنَّه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل؛ كان سفيهاً فاسقاً».

قال: «وكان الشافعي يكره التغبير، وهو الطقطقة بالقضيب، ويقول: وضعته الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن».

قال: «وأمَّا العود والطنبور وسائر الملاهي؛ فحرام، ومستمعه فاسق، واتباع الجماعة أولى منِ أتباع رجلين مطعون عليهما.

قلت: يريد بهما إبراهيم بن سعد وعبيد الله بن الحسن؛ فإنَّه قال: «وما خالف في الغناء إلا رجلان: إبراهيم بن سعد؛ فإن الساجي حكى عنه أنَّه كان لا يرى به بأساً، والثاني عبيد الله بن الحسن العنبري قاضي البصرة، وهو مطعون فيه».

قال أبو بكر الطرطوشي:

«وهٰـذه الطائفة مخالفة لجماعة المسلمين؛ لأنَّهم جعلوا الغناء ديناً وطاعة، ورأت إعلانه في المساجد والجوامع وسائر البقاع الشريفة والمشاهد الكريمة، وليس في الأمة من رأى هٰذا الرأي».

قلت: ومن أعظم المنكرات: تمكينهم من إقامة هٰذا الشعار الملعون هو وأهله في المسجد الأقصى عشية عرفة، ويقيمونه أيضاً في مسجد الخيف أيام منى، وقد أخرجناهم منه بالضرب والنفي مراراً، ورأيتهم يقيمونه بالمسجد الحرام نفسه والناس في الطواف، فاستدعيت حزب الله، وفرقنا شملهم، ورأيتهم يقيمونه بعرفات والناس في الدعاء والتضرع والابتهال والضجيج إلى الله، وهم في هٰذا السماع الملعون باليراع والدف والغناء.

فإقرار هٰذه الطائفة على ذٰلك فسق يقدح في عدالة من أقرهم ومنصبه الديني.

وما أحسن ما قال بعض العلماء(1) وقد شاهد هٰذا وأفعالهم:

ألا قُل لهُـمْ قولَ عبْـدٍ نَصُـوحٍ ... وحـقُّ الـنَّـصيحَـةِ أنْ تُسْتَمَـعْ
متَـى عَلِمَ الـنَّـاسُ في ديننـا ... بأنَّ الـغـنـا سُنَّـةٌ تُتَّـبَـعْ
وأنْ يأكُـلَ المـرءُ أكْـلَ الحِمـا ... رِ ويرقُصَ في الجَمْـعِ حتَّى يقَـعْ
وقـالـوا سَكِـرْنـا بحُـبِّ الإلٰـهِ ... ومـا أسْكَـرَ القَـوْمَ إلا القِصَـعْ
كذاك الـبَـهـائِـمُ إن أُشْبِعَـتْ ... يُرَقِّـصُـهـا رِيُّهـا والـشِّـبَـعْ
ويُسْـكِـرُهُ الـنَّـايُ ثم الـغِـنـا ... ويَس لوْ تُلِيَتْ ما انْـصَـدعْ

---

(1) هو ظهير الدين، أبو إسحاق إبراهيم بن نصر الموصلي، وقد أورد ابن خلكان في «تاريخه» صفحة في ترجمته مع زيادة، وكذٰلك أوردها الحافظ ابن كثير في الجزء الثالث عشر من «البداية والنهاية».

فيا لَلْعقُولِ ويا للنُّهى ألا مُنْكِرٌ منكُمُ لِلْبِدَعْ
تُهانُ مسَاجِدُنا بالسَّما عِ وتُكْرَمُ عن مثلِ ذاك البِيَعْ

وقال آخر، وأحسن ما شاء:

ذهبَ الرِّجالُ وحال دونَ مجالِهِمْ زُمَرٌ منَ الأوْبَاشِ والأنذالِ
زعَمُوا بأنَّهمُ على آثارِهِمْ سَاروا ولكنْ سِيرَةَ البَطَّالِ
لَبِسوا الدُّلُوقَ مُرَقَّعاً وتقَشَّفوا كتَقَشُّفِ الأقْطَاب والأبْدالِ
قَطَعُوا طريقَ السَّالِكين وغَوَّرُوا سُبُلَ الهدى بِجَهالَةٍ وضَلالِ
عَمَروا ظَواهِرَهُم بأثْوابِ التُّقى وحَشَوْا بَوَاطِنَهم مِنَ الأدْغالِ
إنْ قُلْتَ: قالَ اللهُ قالَ رسولُه هَمَزُوكَ هَمْزَ المُنْكِرِ المُتغالِي
أو قُلتَ قدْ قالَ الصَّحابَةُ والأُلى تَبِعُوهُمُ في القَوْلِ والأعْمالِ
أو قُلتَ قال الآلُ آلُ المُصطفَى صَلَّى عليه اللهُ أفْضَلُ آلِ
أو قُلتَ قالَ الشَّافِعِيُّ وأحمدٌ وأبو حنيفةَ والإمامُ العالِي
أو قُلتَ قالَ صِحابُهُمْ مِن بعدِهِم فالكُلُّ عندَهُمُ كَشِبْهِ خيالِ
ويقولُ قَلْبي قالَ لي عن سِرِّهِ عن سِرِّ سِرِّي عَنْ صفا أحْوالي
عن حَضْرتي عن فِكرتي عن خَلوتي عن شاهدي عن واردي عن حالي
عن صَفْوِ وَقْتي عن حقيقةِ مَشهَدي عن سِرِّ ذاتي عن صفاتِ فِعالِي
دعْوى إذا حقَّقتَها ألْفَيْتَها ألْقَابَ زورٍ لُفِّقَتْ بمُحَالِ
تركوا الحقائقَ والشَّرائعَ واقْتدَوْا بظَواهرِ الجُهَّالِ والضُّلالِ
جَعلُوا المِرا فَتْحاً وألفاظَ الخَنا شَطْحاً وصالوا صَولَةَ الإدْلالِ
نَبذُوا كتابَ اللهِ خَلْفَ ظُهُورِهِمْ نَبْذَ المسافِرِ فَضْلَةَ الأكَّالِ
جَعلوا السَّماعَ مَطِيَّةً لِهَواهُمُ وغَلَوْا فقالوا فيه كلَّ مُحالٍ
هو طاعَةٌ هو قُرْبَةٌ هو سُنَّة صدَقوا لِذاك الشيخِ ذي الإضلالِ

شيخٌ قديمٌ صادَهُم بِتَحَيُّلٍ … حتى أجابوا دَعْوةَ المُحتالِ
حَجَرُوا له القرآنَ والأخبارَ و الـ … آثارَ إذ شهِدَتْ لهمْ بضَلالِ
ورأوْا سماعَ الشِّعْرِ أنْفَعَ للفتى … من أوجُهٍ سبعٍ لهمْ بتوالِ
تاللهِ ما ظَفِرَ العدوُّ بمثْلِها … مِن مِثْلِهِمْ وا خيْبَةَ الآمالِ
نَصَبَ الحبالَ لهُمْ فلمْ يقعوا بها … فأتى بذا الشَّرْكِ المُحيطِ الغالي
فإذا بهم وسطَ العرينِ مُمَزَّقي … الأثْواب والأدْيانِ والأحوالِ
لا يسمعونَ سوى الذي يَهْوَوْنَه … شُغْلاً بهِ عن سائِرِ الأشْغالِ
ودْعَوْا إلى ذاتِ اليمينِ فأَعْرَضوا … عنها وسارَ القَوْمُ ذات شِمَالِ
خَرُّوا على القُرْآنِ عندَ سَماعِه … صُمّاً وعُمياناً ذوي إهْمالِ
وإذا تَلا القاري عليهِمْ سُورةً … فأطالَها عَدُّوهُ في الإثْقالِ
ويقولُ قائِلُهم: أطَلْتَ وليس ذا … عَشْرٌ فخَفِّفْ أنتَ ذو إمْلالِ
هٰذا وكَمْ لَغْوٍ وكَمْ صَخَبٍ وكَمْ … ضَحِكٍ بلا أَدَبٍ ولا إجْمالِ
حتى إذا قامَ السَّماعُ لديْهِمُ … خَشَعَتْ له الأصواتُ بالإجْلالِ
وامتدَّتِ الأعناقُ تسمعُ وحيَ ذا … كَ الشيخِ مِن مُتَرنِّمٍ قَوَّالِ
وتحرَّكَتْ تلكَ الرُّؤوسُ وهزُّها … طَرَبٌ وأشْواقٌ لِنَيْلِ وِصالِ
فهُنالِكَ الأشْواقُ والأشْجانُ والـ … أحوالُ لا أهْلاً بذي الأحوالِ
تاللهِ لو كانوا صُحَاةً أبصروا … ماذا دَهاهُمْ مِن قَبيحِ فِعالِ
لكنَّما سُكْرُ السَّماعِ أشدُّ مِنْ … سُكْرِ المُدامِ وذا بلا إشكَالِ
فإذا هُما اجْتَمَعا لِنَفسٍ مرَّة … نالَتْ مِن الخُسْرانِ كُلَّ منالِ
يا أمَّةً لعِبَتْ بدينِ نَبِيِّها … كتَلاعُبِ الصِّبيانِ في الأوحالِ
أشْمَتُّموا أهلَ الكِتابِ بدينِكُم … واللهِ لنْ يَرْضَوْا بذي الأفعالِ
كمْ ذا نُميِّزُ منهُمُ بفريقِكُم … سرّاً وجَهْراً عندَ كلِّ جِدالِ ؟

قالوا لنا: دينٌ عبادَةُ أهْلِهِ ... هٰذا السماعُ فذاك دينُ مُحالِ
بلْ لا تجيءُ شريعةٌ بِجَوازِهِ ... فَسلوا الشَّرائِعَ تَكْتَفوا بسُوالِ
لوْ قلْتُمُ فسقٌ ومَعْصيةٌ وتزْ ... يينٌ مِنَ الشيطانِ للأنْذالِ
لِيَصُدَّ عن وحْيِ الإلٰهِ ودينهِ ... وينالَ فيه حيلةَ المُحتالِ
كُنَّا شَهِدْنا أنَّ ذا دينٌ أتى ... بالحقِّ دينُ الرُّسْلِ لا بِضَلالِ
واللهِ مِنْهُمْ قد سمِعْنا ذا ... إلى الآذانِ مِنْ أفواهِهِم بمَآلِ
وتمامُ ذاك القوْلِ بالحيَلِ الَّتي ... فَسَخَتْ عُقودَ الدِّينِ فسْخَ فِصالِ
جَعَلَتْهُ كالثَّوْبِ المهلْهَلِ نَسْجُه ... فيهِ تُفَصِّلُهُ مِن الأوْصالِ
ما شئتَ مِن مَكْرٍ ومِن خِدَعٍ ومن ... حِيَلٍ وتَلْبيسٍ بلا إقْلالِ
فاحْتَلْ على إسْقاطِ كُلِّ فَريضةٍ ... وعلى حَرامِ اللهِ بالإحْلالِ
واحْتَلْ على المَظْلوم يُقْلَبُ ظالماً ... وعلى الظَّلوم بِضِدِّ تِلْكَ الحالِ
واقِلبْ وحَوِّلْ فالتَّحيُّلُ كلُّه ... في القَلْبِ والتَّحْويل ذو إعمالِ
إنْ كنتَ تفهَمُ ذا ظَفِرْتَ بكلِّ ما ... تبْغي مِنَ الأفْعالِ والأقْوالِ
واحْتَلْ على شُرْبِ المُدامِ وسَمِّها ... غيرَ اسْمِها واللَّفْظُ ذو إجْمالِ
واحْتَلْ على أكلِ الرِّبا واهْجُرْ شَنَا ... عَةَ لفْظِهِ واحْتلْ على الأبْدالِ
واحْتَل على الوَطْءِ الحرامِ ولا تَقُلْ ... هٰذا زِنىً وانْكِحْ رَخِيَّ البالِ
واحْتَلْ على حِلِّ العقودِ وفَسْخِها ... بعدَ اللُّزوم وذاك ذو إشْكَالِ
إلَّا على المُحْتالِ فهْوَ طَبيبُها ... يا مِحْنَةَ الأدْيانِ بالمُحتَالِ
واحْتَلْ على نَقضِ الوقُوفِ وعَوْدِها ... طَلْقاً ولا تَسْتَحْيِ مِن إبطالِ
فَكِّرْ وقدِّرْ ثمَّ فصِّلْ بعْدَ ذا ... فإذا غُلِبْتَ فَلُجَّ في الإشكالِ
واحْتَلْ على الميراثِ فانْزَعْهُ مِنَ الـ ... ـوُرَّاثِ ثمَّ ابْلَعْ جميعَ المالِ
قدْ أثْبَتوا نَسباً وحَصْراً فيكُمُ ... حتَّى تَحوزَ الإرْثَ للأمْوالِ

واعْمِدْ إلى تِلْكَ الشَّهادةِ واجعَلِ الـ إبْـطالَ هَمَّـكَ تَحْظَ بالإبْـطالِ
فالـحَـصْـرُ إثْبـاتٌ ونفيٌ غيرُ مَعْـ ـلومٍ وهْـذا مَوْضِـعُ الإشكـالِ
واحـتَـلْ على مالِ الـيَتيمِ فإنَّـهُ رِزْقٌ هَنِـيٌّ مِن ضعيفِ الـحـالِ
لا سوطَـهُ تَخْشى ولا مِنْ سيفِـهِ والقـولُ قولُـك في نفـاذِ المالِ
واحْتَـلْ على أكْـلِ الـوقـوفِ فإنَّها مثـلُ السَّـوائِبِ ربَّـةُ الإهمـالِ
فأبـو حنيفـةَ عنـدَهُ هي باطِـلٌ في الأصْـلِ لم تحتَجْ إلى إبْطالِ
فالـمـالُ مالٌ ضائـعٌ أربـابُـهُ هَلَكـوا فخُـذْ منـه بلا مِكْـيالِ
وإذا تَصِـحُّ بحُـكـمِ قاضٍ عادلٍ فشـروطُها صارتْ إلى اضْمحْلالِ
قد عطلَ النـاسُ الشـروطَ وأَحْملوا مقصـودَهـا فالكـلُّ في إهمـالِ
وتَمَـامُ ذاك قُضـاتُنـا وشُهـودُنـا فاسْـأَلْ بهِـم ذا خبْـرةٍ بالحـالِ
أمَّـا الشُّهـودُ فهُمْ عُدُولٌ عن طريـ ـقِ العَدْلِ في الأقـوالِ والأفعالِ
زوراً وتـنـميـقـاً وكِـتْـمـانـاً وتلـ ـبـيسـاً وإسـرافـاً بأخـذ نوالِ
يَنْـسـى شهـادتَـه ويَحْـلِف إنـه ناسٍ لهـا والـقـلْبُ ذو إغـفـالِ
فإذا رأى المنقـوشَ قال ذَكَـرتُهـا يا مُذْكِـري قد جِئـتَ بالآمـالِ
ويقـولُ قائلُهم أخوضُ النَّـارَ في نَزْرٍ يسـيرٍ ذاك عينُ خَبـالِ
نَقـلُ ليَ الـمـيزانَ إني خائضٌ للمـنْـكِـبَيْنِ أجْـرٌ بالأغْـلالِ
أمَّـا الـقُضـاةُ فقـد تَواتـر عنهُمُ ما قدْ سمِـعْـتَ فلا تفُـهْ بمقـالِ
ماذا تقـولُ لمَنْ يقـولُ حَكمْتُ أنَّـ ـك فاسـقٌ أو كافـرٌ في الحـالِ
فإذا استَغَثْتَ أغِثْتَ بالجَلْدِ الـذي قد طَرَّقُـوه كَمِثْـلِ طَرْقِ نِعَـالِ
فيقـولُ طَقْ فتقـولُ قطْ فتعـارضـا ويكـونُ قولُ الـجَـلْدِ ذا إعْمـالِ
فأجـارَكَ الـرحمٰنُ منْ ضَرْبٍ ومنْ عَرْضٍ ومنْ كذِبٍ وسـوءِ مَقـالِ
هٰذا ونِـسْبَـةُ ذاك أجـمَـعِـهِ إلى دينِ الـرَّسـولِ وذا منَ الأهْـوالِ

حاشا رَسُولِ الله يحْكُمُ بالهَوى … والجهْلِ تلك حكومةُ الضُّلَّالِ
والـلهِ لو عُرِضَتْ عليه كلُّها … لاجْتَثَّها بالنَّقضِ والإبْطَالِ
إلا التي منْها يُوَافِقُ حُكْمَه … فهُو الذي يَلْقَاهُ بالإقبالِ
أحْكَامُه عدلٌ وحقٌّ كلُّها … في رَحمةٍ ومَصالِحٍ وحَلالِ
شَهِدتْ عُقُولُ الخَلقِ قاطبَةً بما … في حُكمِه من صِحَّةٍ وكمالِ
فإذا أتَتْ أحْكامُهُ ألْفَيتَها … وفْقَ العقُولِ تُزيلُ كل عِقالِ
حتَّى يقُولَ السَّامعون لحُكمِه … ما بعْدَ هٰذا الحقِّ غيرُ ضلالِ
لله أحكامُ الرسولِ وعَدْلُها … بينَ العبادِ ونورُها المُتلالي
كانت بها في الأرض أعظَمُ رحْمةٍ … والنَّاسُ في سَعْدٍ وفي إقْبالِ
أحكامُهمْ تجْري على وجْه السَّدا … دِ وحالُهُمْ في ذاكَ أحْسَنُ حالِ
أمْناً وعِزاً في هُدًى وتراحُمٍ … وتَواصُلٍ ومَحَبَّةٍ وَجَلالِ
فتَغَيَّرَتْ أوضاعُها حتى غَدَت … مَنكُورَةً بتلَوُّثِ الأعمالِ(1)
فتغيَّرت أعمالُهم وتبدَّلَتْ … أحْوالُهم بالنَّقْصِ بعدَ كمالِ
لو كان دينُ اللهِ فيهمْ قائماً … لرَأيتَهم في أحسَنِ الأحْوالِ
وإذا هُمُ حَكَموا بحُكمٍ جائرٍ … حَكَموا لِمُنكِرِه بكلٍّ وَبالِ
قالوا أتُنْكِرُ حُكمَ شرْعِ محمَّدٍ … حاشا لِذَا الشّرْعِ الشريفِ العالي
عجَّتْ فُروجُ الناسِ ثم حُقُوقُهم … للهِ بالبُكُراتِ والآصالِ
كم تُستَحلُّ بكلِ حُكمٍ باطلٍ … لا يرتضيهِ ربُّنا المُتعالي
والكلُّ في قعْرِ الجَحيمِ سِوى الذي … يَقْضي بدينِ اللهِ لا لِنَوالِ
أو ما سمِعْتَ بأنَّ ثُلثَيْهم غدا … في النَّارِ في ذاكَ الزَّمانِ الخَالي
وزَمانُنا هٰذا فربُّك عالِمٌ … هلْ فيه ذاكَ الثُّلثُ أمْ هو خالي

(١) في نسخة: «مساوية الأعمال».

انظُر إلى هذْي الصَّحابَة والذي | كانوا عليه في الزَّمان الخالي
واسْلُك طريق القوم أين تيمَّمُوا | خُذْ يَمْنَةً ما الدَّربُ ذات شمالِ
تالله ما اختاروا لأنفُسِهِم سِوى | سُبُلَ الهُدى في القولِ والأفعالِ
درجوا على نهجِ الرسولِ وهَدْيِهِ | وبه اقْتَدَوْا في سائِر الأحوالِ
نِعْمَ الرفيقُ لطالبٍ يبغي الهُدى | فمَآلُه في الحشْرِ خيرُ مآلِ
القانتين المُخبتينَ لربِّهم | الناطقين بأصدَقِ الأقْوالِ
التَّاركينَ لكُلِّ فعلٍ سيِّىء | والعاملينَ بأحسنِ الأعمالِ
أهواؤُهُم تبَعٌ لدين نبيِّهم | وسِواهُمُ بالضِّدِّ في ذي الحالِ
ما شابَهم في دينِهم نقصٌ ولا | في قوْلهم شَطحُ الجهولِ الغالي
عمِلوا بما علِموا ولم يتكَلَّفوا | فلِذاك ما شابُوا الهُدى بضلالِ
وسواهُمُ بالضِّدِّ في الأمرَيْن قد(١) | تركوا الهُدى ودعَوْا إلى الإضْلالِ
فهُمُ الأدلَّةُ للحيارى مَنْ يَسِرْ | بِهُداهُمُ لم يخْشَ من إضْلالِ
وهُمُ النُّجوم هِدايةً وإضاءةً | وعُلُوَّ منزلةٍ وبُعْدَ منالِ
يمْشونَ بين الناس هَوْناً نُطْقُهُم | بالحَقِّ لا بَجهالَةِ الجُهَّالِ
حِلْماً وعلماً مع تُقى وتواضُع | ونصيحةٍ مع رُتبةِ الأفضالِ
يُحْيُونَ ليلَهُمُ بطاعةِ ربِّهم | بتِلاوةٍ وتضرُّعٍ وسُؤالِ
وعُيونُهم تجري بِفَيْض دموعِهم | مثلَ انهمالِ الوابِلِ الهطَّالِ
في الليلِ رُهْبانٌ وعندَ جهادِهم | لعَدوِّهم مِن أشجعِ الأبطالِ
وإذا بدَا عَلَمُ الرِّهانِ رأيتَهمْ | يتسابقونَ بِصَالحِ الأعمالِ
بِوُجوهِهِم أثَرُ السُّجودِ لربّهم | وبها أشعَّةُ نورِه المُتلالي

---

(١) في نسخة: «وسواهم بنضد في أحوالهم».

ولقدْ أبانَ لكَ الكِتابُ صفاتِهمْ ... في سورةِ الفتحِ المبينِ العالي
وبِرابِعِ السَّبْعِ الطِّوالِ صفاتُهُمْ ... قومٌ يُحبُّهُمُ ذَوو إدلالِ
وبراءةٍ والحَشْرِ فيها وصْفُهُم ... وبِهَلْ أتى وبِسورةِ الأنفالِ



● ومن طاماته :

عرض القرآن والسنة على الكشف

قال الغزالي :

«الاقتصاد بين هٰذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلٰهي لا بالسماع، ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ماهم عليه؛ نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة، فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين؛ قرروه، وما خالف؛ أولوه، فأما من يأخذ معرفة هٰذه الأمور من السمع المجرد؛ فلا يستقر له فيها قدم، ولا يتعين له موقف»[1].

* **التعليق :**

هٰذا أمر خطير وخطير جدّاً، معناه تشكيك المسلمين في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، فمن لم يصل منهم إلى هٰذا الهوس الذي يسمى بالكشف؛ فلا قرآن عنده ولا سنة؛ لأنه بالكشف يعرف صحة القرآن والسنة.

وقد درج المسلمون بحمد الله خلفاً عن سلف، ما ذكر أحد منهم هٰذا الوسواس، وفي مقدمتهم جيل الصحابة ومن أخذ عنهم من التابعين، فكلهم أخذوا كتاب الله عن قناعة كافية، حفظوا لفظه، ودرسوا معناه، وعملوا بمقتضاه؛ دون أن يخطر ببال أحد منهم هٰذا الوسواس الذي يذكره الغزالي باسم الكشف، وها هي كتب السنة والتفسير وعلوم القراءات والقرآن لم نجد فيها من ذكر هٰذا الوسواس، وحاشاهم من ذٰلك؛ فإن هٰذه دسيسة إبليسية، وروَّج لها المتصوفة؛ كالغزالي وأضرابه، ولله در الشيخ الإمام أبو العباس بن

(١) (١ / ١٠٤) من «الإحياء».

تيمية رحمة الله عليه في كتابه القيم «درء تعارض والعقل والنقل»؛ إذ قال:

«قلت: هٰذا الكلام مضمونه لا يستفاد من خبر الرسول ﷺ شيء من الأمور العلمية، بل إنما يدرك ذٰلك كل إنسان بما حصل له من المشاهدة والنور والمكاشفة، وهٰذان أصلان للإلحاد؛ فإن كل ذي مكاشفة إن لم يزنها بالكتاب والسنة؛ وإلا دخل في الضلالات»[1].



---

(١) (٥ / ٣٤٨).

● **ومن طاماته :**

صرف المسلمين عن دراسة سنة رسول الله ﷺ

جاء في «الإحياء» في الجزء الأول منه :

«ولذلك قال بشر: حدثنا باب من أبواب الدنيا، فإذا سمعت الرجل يقول: حدثنا؛ فإنما يقول: أوسعوا لي.

ودفن بشر بن الحارث بضعة عشر ما بين قمطرة وقوصرة من الكتب، وكان يقول: أنا أشتهي أن أحدث، ولو ذهبت شهوة الحديث؛ لحدثت.

وقال هو وغيره: إذا اشتهيت أن تحدث؛ فاسكت، فإذا لم تشته؛ فحدث.

وهٰذا لأن الالتذاذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم في الدنيا، فمن أجاب شهوته؛ فهو من أبناء الدنيا.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش؛ فقد ركن إلى الدنيا»(١).

وقال في موضع آخر:

«وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري: نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا. قال: وفي ماذا رغبت؟! قالت: في الحديث»(٢).

وقال في موضع آخر:

«وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذي يحفظ من كتاب، فإذا

---

(١) (١ / ١٦١).

(٢) (٢ / ٢٣٧).

نسي ما حفظه؛ صار جاهلاً، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس»[1].

وقال في موضع آخر:

«ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن، ولا بالتأمل في تفسير، ولا بكتب حديث، ولا غيره»[2].

* **التعليق:**

هٰكذا نقل الغزالي هذه الأقوال التي مفادها طرح سنة رسول الله ﷺ ورمي المسلمين لها وراءهم ظهرياً والاشتغال بهذه الترهات التي ملأت الدنيا وشغلت الناس عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ.

وممَّا قاله الغزالي، وبما نقله عن غيره، يجب أن نرمي بكتب الحديث كلها في البحار، وأن نحرقها في النار؛ لأنها كلها من علوم الدنيا، وهٰذا هو الذي يصوره الغزالي للناس أنَّه من إحياء علوم الدين.

والمتتبع لكتاب الغزالي يراه من أكبر المعاول التي تهدم علوم الدين؛ فكيف هٰذا والسنة هي المصدر الكبير للشريعة الإسلامية بعد كتاب الله، والجهل بها جهل بالإسلام والقرآن، لا يمكن أن يفهم الفهم الصحيح إلا بالرجوع إلى السنة ودراستها؟!

وعلى كل حال؛ فدراسة السنة وما ورد في فضلها أمر معلوم عند المسلمين من الدين بالضرورة، وبشرف السنة يشرف دارسها؛ فالشرف كله في دارسة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والعمل بهما، لا في هذه الوساوس التي

---

(١) (٣ / ٢٤).

(٢) (٣ / ١٩).

ملأ الغزالي كتابه بها.

وتعجبني كلمة ذكرها عبد الرحمٰن المباركفوري في مقدمة «تحفة الأحوذي» في الحديث وأهله، أنقلها لأهميتها، وللرد بها على هٰذه الخزعبلات التي ضررها واضح على المسلمين.

قال في «مقدمة تحفة الأحوذي»:

«الفصل الثاني في فضيلة علم الحديث وأهله:

اعلم أن أنف العلوم الشرعية ومفتاحها، ومشكاة الأدلة السمعية ومصباحها، وعمدة المناهج اليقينية ورأسها، ومبنى شرائع الإسلام وأساسها، ومستند الروايات الفقهية كلها، ومأخذ الفنون الدينية دقها وجلها، وأسوة جملة الأحكام وأسها، وقاعدة جميع العقائد وأسطقسها، وسماء العبادات وقطب مدارها، ومركز المعاملات ومحط جارها وقارها: هو علم الحديث الشريف، الذي تعرف به جوامع الكلم، وتنفجر منه ينابيع الحكم، وتدور عليه رحى الشرع بالأسر، وهو ملاك كل نهي وأمر، ولولاه لقال من شاء ما شاء، وخبط الناس خبط عشواء، وركبوا متن عمياء، فطوبى لمن جد فيه وحصل منه على تنويه، يملك من العلوم النواصي، ويقرب من أطرافها البعيد القاصي، ومن لم يرضع من دره ولم يخض في بحره ولم يقتطف من زهره، ثم تعرض للكلام في المسائل والأحكام؛ فقد جار فيما حكم، وقال على الله تعالى ما لم يعلم.

كيف وهو كلام رسول الله ﷺ، والرسول أشرف الخلق كلهم أجمعين، وقد أوتي جوامع الكلام وسواطع الحكم من عند رب العالمين، فكلامه أشرف الكلم وأفضلها، وأجمع الحكم وأكملها، كما قيل: كلام

الملوك ملك الكلام، وهو تلو كلام الله العلام، وثاني أدلة الأحكام، فإن علوم القرآن وعقائد الإسلام بأسرها وأحكام الشريعة المطهرة بتمامها، وقواعد الطريقة الحقة بحذافيرها، وكذا الكشفيات والعقليات بنقيرها وقطميرها، تتوقف على بيانه ﷺ؛ فإنها ما لم توزن بهٰذا القسطاس المستقيم، ولم تضرب على ذٰلك المعيار القويم؛ لا يعتمد عليها؛ ولا يصار إليها؛ فهٰذا العلم المنصوص والبناء المرصوص بمنزلة الصراف لجواهر العلوم عقليها ونقليها، وكالنقاد لنقود كل فنون أصليها وفرعيها، من وجوه التفاسير والفقهيات، ونصوص الأحكام، ومأخذ عقائد الإسلام، وطرق السلوك إلى الله سبحانه وتعالى ذي الجلال والإكرام، فما كان منها كامل العيار في نقد هٰذا الصراف؛ فهو الحري بالترويج والاشتهار، وما كان زيفاً غير جيد عند ذاك النقاد، فهو القمين بالرد والطرد والإنكار، فكل قول يصدق خبر الرسول؛ فهو الأصلح للقبول، وكل ما لا يساعده الحديث والقرآن؛ فذٰلك في الحقيقة سفسطة بلا برهان، فهي مصابيح الدجى، ومعالم الهدى، وبمنزلة البدر المنير، من انقاد لها؛ فقد رشد واهتدى وأوتي الخير الكثير، ومن أعرض عنها وتولى؛ فقد غوى وهوى، وما زاد نفسه إلا التخسير؛ فإنه ﷺ نهى وأمر وأنذر وبشر وضرب الأمثال وذكر، وأنَّها لمثل القرآن بل هي أكثر، وقد ارتبط بها أتباعه ﷺ الذي هو ملاك سعادة الدارين والحياة الأبدية بلا مين، كيف وما الحق إلا فيما قاله ﷺ أو عمل به أو قرره أو أشار إليه أو تفكر فيه أو خطر بباله أو بجس في خلده واستقام عليه؟! فالعلم في الحقيقة هو علم السنة والكتاب، والعمل العمل بهما في كل إياب وذهاب، ومنزلته بين العلوم منزلة الشمس بين كواكب السماء، ومزية أهله على غيرهم من العلماء مزية الرجال على النساء، وذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فيا له من علم سيط بدنه الحق

والهدى، ونيط بعنقه الفوز بالدرجات العلى.

وقد كان الإمام محمد بن علي بن حسين عليه السلام يقول: إن من فقه الرجل بصيرته أو فطنته بالحديث، ولقد صدق؛ فإنه لو تأمل المتأمل بالنظر العميق والفكر الدقيق؛ لعلم أن لكل علم خاصية تتحصل بمزاولته للنفس الإنسانية كيفية من الكيفيات الحسنة والسيئة، وهٰذا علم تعطي مزاولته صاحب هٰذا العلم معنى الصحابية؛ لأنها في الحقيقة هي الاطلاع على جزيئات أحواله ﷺ ومشاهدة أوضاعه في العبادات والعادات كلها، وعند بعد الزمان يتمكن هٰذا المعنى بمزاولته في مدركة المزاول، ويرتسم في خياله، بحيث يصير في حكم المشاهدة والعيان، وإليها أشار القائل بقوله شعراً:

أهـلُ الحديث همُ أهلُ النبيِّ وإنْ   لمْ يصحبـوا نفسَـهُ أنفاسَه صحبوا

ويروى عن بعض العلماء: أنه قال: أشدُّ البواعث وأقوى الدواعي لي على تحصيل علم الحديث لفظ: «قال رسول الله ﷺ».

فالحاصل أن أهل الحديث ـ كثر الله تعالى سوادهم ورفع عمادهم ـ لهم نسبة خاصة ومعرفة مخصوصة بالنبي ﷺ، لا يشاركهم فيها أحد من العالمين فضلاً عن الناس أجمعين؛ لأنهم الذين لا يزال يجري ذكر صفاته العليا وأحواله الكريمة وشمائله الشريفة على لسانهم، ولم يبرح تمثال جماله الكريم وخيال وجهه الوسيم ونور حديثه المستبين يتردد في حاق وسط جنانهم، فعلاقة باطنهم بباطنه العلي متصلة، ونسبة ظاهرهم بظاهره النقي مسلسلة.

وقال الله تعالى: ﴿يَومَ نَدْعُو كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ﴾.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة

أنَّه يحاسب كل أمة بإمامهم، وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي: نبيهم، وهذا كقوله تعالى: **﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فإذا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضَى بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ...﴾** الآية، وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ. انتهى.

وقد ورد في فضيلة علم الحديث وأهله أحاديث كثيرة، وأنا أقتصرها هنا على ذكر خمسة أحاديث:

الحديث الأول:

روى الترمذي عن ابن مسعود؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة».

وقال: هذا حديث حسن غريب.

قال القاري في «المرقاة شرح المشكاة»: ورواه ابن حبان في «صحيحه»، ذكره ميرك.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، قال ابن حبان عقب هذا الحديث: في الخبر بيان صحيح على أن أولى الناس برسول الله ﷺ في القيامة يكون أصحاب الحديث؛ إذ ليس في هذه الأمة قوم أكثر صلاة عليه منهم.

وقال غيره: لأنهم يصلون عليه قولاً وفعلاً. انتهى.

وقال الخطيب في كتابه «شرف أصحاب الحديث»: قال لنا أبو نعيم: هذه منقبة شريفة تختص بها رواة الآثار ونقلتها؛ لأنه لا يعرف لعصابة من العلماء من الصلاة على رسول الله ﷺ أكثر مما يعرف لهذه العصابة نسخاً وذكراً.

وقال أبو اليمن بن عساكر: ليهن أهل الحديث هذه البشرى؛ فقد أتم

الله تعالى نعمه عليهم بهٰذه الفضيلة الكبرى؛ فإنهم أولى الناس بنبيهم، وأقربهم إن شاء الله تعالى وسيلة يوم القيامة إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ فإنهم يخلدون ذكره في طروسهم، ويجددون الصلاة والتسليم عليه في معظم الأوقات في مجالس مذاكرتهم ودروسهم؛ فهم إن شاء الله تعالى الفرقة الناجية، جعلنا الله منهم وحشرنا في زمرتهم. انتهى.

الحديث الثاني:

روى الترمذي عن ابن مسعود؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرأ سمع منا شيئاً، فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى له من سامع».

وقال: هٰذا حديث حسن صحيح، وفي الباب أحاديث أخرى.

قال القاري: خص مبلغ الحديث كما سمع بهٰذه الدعاء؛ لأنه سعى في نضارة العلم وتجديد السنة، فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله، وهٰذا يدل على شرف الحديث وفضله ودرجة طلابه، حيث خصهم النبي ﷺ بدعاء لم يشرك فيه أحد من الأمة، ولو لم يكن في طلب الحديث وحفظه وتبليغه فائدة سوى أن يستفيد بركة هٰذه الدعوة المباركة؛ لكفى ذٰلك فائدة وغنماً، وجل في الدارين حظّاً وقسماً. انتهى.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: قال علماء الحديث: ما من رجل يطلب الحديث؛ إلا كان على وجهه نضرة؛ لقول النبي ﷺ: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها...» الحديث. قال: وهٰذا دعاء منه عليه السلام لحملة علمه، ولا بد بفضل الله تعالى من نيل بركته. انتهى.

وإلى هٰذه النضرة أشار أبو العباس العزفي بقوله:

أهـل الحـديث عصـابـة الحق فازوا بدعـوة سيد الـخـلق
فوجـوهـهـم زهـر منـضـرة لألاؤهـا كتـألـق الـبـرق
يا ليتـنـي معـهـم فيدركـنـي ما أدركـوه بهـا من الـسـبـق!

الحديث الثالث:

روى الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي». قلنا: يا رسول الله! ومن خلفاؤك؟ قال: «الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس».

قال القسطلاني في مقدمة «إرشاد الساري» بعد ذكر هٰذا الحديث: ولا ريب أن أداء السنن إلى المسلمين نصيحة لهم من وظائف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فمن قام بذلك؛ كان خليفة لمن يبلغ عنه، وكما لا يليق بالأنبياء عليهم السلام أن يهملوا أعاديهم ولا ينصحوهم، كذٰلك لا يحسن لطالب الحديث وناقل السنن أن يمنحها صديقه ويمنعها عدوه، فعلى العالم بالسنة أن يجعل أكبر همه نشر الحديث، فقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه حيث قال: «بلغوا عني ولو آية...» الحديث، رواه البخاري، قال المظهري: أي: بلغوا عني أحاديثي، ولو كانت قليلة. قال البيضاوي: قال: «ولو آية»، ولم يقل: ولو حديثاً؛ لأن الأمر بتبليغ الحديث يفهم منه بطريق الأولوية؛ فإن الآيات مع انتشارها وكثرة حملتها تكفل الله تعالى بحفظها وصونها عن الضياع والتحريف. انتهى.

وقال إمام الأئمة مالك رحمه الله تعالى: بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة عن تبليغهم العلم كما تسأل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقال سفيان الثوري: لا أعلم علماً أفضل من علم الحديث لمن أراد

به وجه الله تعالى، إن الناس يحتاجون إليه حتى في طعامهم وشرابهم، فهو أفضل من التطوع بالصلاة والصيام؛ لأنه فرض كفاية. انتهى.

الحديث الرابع:

روى البيهقي في «المدخل» عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يحمل هٰذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»، كذا في «المشكاة».

قال القسطلاني بعد ذكره من حديث أسامة بن زيد: وهٰذا الحديث رواه من الصحابة: علي، وابن عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وجابر بن سمرة، ومعاذ، وأبو هريرة رضي الله عنهم، وأورده ابن عدي من طرق كثيرة كلها ضعيفة؛ كما صرح به الدارقطني وأبو نعيم وابن عبد البر، لكن يمكن أن يتقوى بتعدد طرقه، ويكون حسناً، كما جزم به ابن كيكلدي العلائي، وفيه تخصيص حملة السنة بهٰذه المنقبة العلية، وتعظيم لهٰذه الأمة المحمدية، وبيان لجلالة قدر المحدثين وعلو مرتبتهم في العالمين؛ لأنهم يحمون مشارع الشريعة ومتون الروايات من تحريف الغالين وتأويل الجاهلين، بنقل النصوص المحكمة لرد المتشابه إليها.

وقال النووي في أول «تهذيبه»: هٰذا إخبار منه ﷺ بصيانة هٰذا العلم وحفظه وعدالة ناقليه، وأن الله تعالى يوفق له في كل عصر خلفاء من العدول يحملونه وينفون عنه التحريف فلا يضيع، وهٰذا التصريح بعدالة حامليه في كل عصر، وهٰكذا وقع ولله الحمد، وهو من أعلام النبوة، ولا يضر كون بعض الفساق يعرف شيئاً من علم الحديث، فإن الحديث إنَّما هو إخبار بأن العدول يحملونه، لا أن غيرهم لا يعرف شيئاً منه. انتهى.

على أنَّه قد يقال ما يعرفه الفساق من العلم ليس بعلم حقيقة؛ لعدم عملهم؛ كما أشار إليه المولى سعد الدين التفتازاني في تقرير قول التلخيص، وقد ينزل العالم منزلة الجاهل، وصرح به الإمام الشافعي في قوله:

ولا العلم إلا مع التقى ولا العقل إلا مع الأدب

ولعمري إن هٰذا الشأن من أقوى أركان الدين، وأوثق عرى اليقين، لا يرغب في نشره؛ إلا صادق تقي، ولا يزهده؛ إلا كل منافق شقي.

قال ابن القطان: ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث.

وقال الحاكم: لولا كثرة طائفة المحدثين على حفظ الأسانيد؛ لدرس منار الإسلام، ولتمكن أهل الإلحاد والمبتدعة من وضع الأحاديث وقلب الأسانيد. انتهى.

الحديث الخامس:

أخرج الترمذي في باب ما جاء في أهل الشام من أبواب الفتن عن معاوية بن قرة عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فسد أهل الشام؛ فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين، لا يضرهم من خذلهم، حتى تقوم الساعة».

قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح.

وقال: قال محمد بن إسماعيل ـ يعني: البخاري ـ: قال علي بن المديني: هم أصحاب الحديث. انتهى.

وقال الإمام البخاري في «صحيحه»: باب قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق»، وهم أهل العلم.

قال الحافظ في «الفتح»: قوله: «وهم أهل العلم»: هو من كلام المصنف، وأخرج الترمذي حديث الباب، ثم قال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: سمعت علي بن المديني يقول: هم أصحاب الحديث. قال: وذكر - أي: البخاري - في كتاب «خلق أفعال العباد» عقب حديث أبي سعيد في قوله تعالى: ﴿وكذٰلِكَ جَعَلنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾: هم الطائفة المذكورة في حديث: «لا تزال طائفة من أمتي...»، ثم ساق وقال: وجاء نحوه عن: أبي هريرة، ومعاوية، وجابر، وسلمة بن نفيل، وقرة بن إياس. انتهى.

وأخرج الحاكم في «علوم الحديث» بسند صحيح عن أحمد: إن لم يكونوا أهل الحديث؛ فلا أدري من هم. ومن طريق يزيد بن هارون مثله. انتهى ما في «الفتح».

قلت: ولأهل العلم في فضيلة الحديث وأهله أقوال كثيرة منثورة ومنظومة، فمن أقوالهم المنظومة ما أنشد السيد المرتضى الحسيني لنفسه في «أماليه الشيخونية»:

عليك بأصحاب الحديث فإنهم ... خيار عباد الله في كل محفل
ولا تعدونْ عيناك عنهم فإنهم ... نجوم الهدى في أعين المتأمل
جهابذة شمٌّ سُراةٌ فمن أتى ... إلى حبهم يوماً بالانوار يمتلي
لقد شرقت شمس الهدى في وجوههم ... وقدرهم في الناس لا زال يعتلي
فلله محياهم معاً ومماتهم ... لقد ظفروا إدارك مجد مؤثل
وقال الإمام الشافعي مقالة ... غدت منهم فخراً لكُلّ محصل
أرى المرء من أهل الحديث كأنه ... رأى المرء من صحب النبي المفضل
عليه صلاة الله ما ذرَّ شارق ... وآل له والصحب أهل التفضل

ومنها ما قال السيد المرتضى الواسطي:

علم الحديث شريف ليس يدركه إلا الذي فارق الأوطان مغتربا
وجاهد النفس في تحصيله فغدا يجتاب بحراً وفي الأوعار مضطربا
يلقى الشيوخ ويروي عنهم سنداً وحافظ ما روى عنهم وما كتبا
ذاك الذي فاز بالحسنى وتم له حظ السعادة موهوباً ومكتسبا
طوبى لمن كان هذا العلم صاحبه لقد نفى الله عنه الهم والوصبا

ومنها ما قال بعضهم وأجاد:

أصح ما قيل بعد الذكر من خبر حديث خير البرايا سيد البشر
أعظم به هادياً زكّاه خالقه بالعدل والفضل والآيات والسور
فلو تمسك خلق الله أجمعهم بلفظة منه نالوا أشرف الوطر
هذا هو العلم والبحر الذي سعدت غَوَّاصُهُ بأعالي جوهر الدرر
تشفي الصدور به حقّاً وخادمه يوم الورود تراه فاز بالصدر
تلقي ملائكة الرحمٰن أجنحة له إذا سار هٰذا أفخر البشر
يستغفر الله حيتان البحار لمن يرعاه بالفهم لو وقتاً من العمر
الفضل لله هذا نور من شرقت له البشائر في الآفاق بالبشر
صلى عليه إله العرش ما صدحت ورق على فنن الأغصان والشجر

ومنها ما قال محمد بن محمد المديني:

أحق أناس يستضاء بهديهم أئمة أصحاب الحديث الأفاضل
خلائف أصحاب الحديث ذوو الحمى لهم رتب عليا وأسنى الفضائل
فلولاهم لم يعرف الشرع عالم ولم تك فتوى في فنون المسائل
وهل نشر الآثار قومٌ سواهم نعم حفظوها ناقلاً بعد ناقل

فديتهم من عصبة علم الهدى — لقد أحرزوا فضلاً على كل فاضل
هم القوم لا يشقى لعمري جليسهم — فمن فاتهم يحظى بغير الفضائل

ومنها ما قال السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير اليماني رحمه الله تعالى:

سلام على أهل الحديث فإنني — نشأت على حب الأحاديث من مهدي
هم بذلوا في حفظ سنة أحمد — وتنقيحها من جهدهم غاية الجهد
وأعني بهم أسلاف سنة أحمد — أولٰئك في بيت القصيد هم قصدي
أولٰئك أمثال البخاري ومسلم — وأحمد أهل الجد في العلم والجد
بحور أحاشيهم عن الجذر إنما — لهم مدد يأتي من الله بالمد
رووا وارتووا من بحر علم محمد — وليس لهم تلك المذاهب من ورد
كفاهم كتاب الله والسنة التي — كفت قبلهم صحب الرسول ذوو المجد
أأنتم أهدى أم صحابة أحمد — وأهل الكسا هيهات ما الشوك كالورد
أولٰئك أهدى في الطريقة منكم — فهم قدوتي حتى أوسد في لحدي
وشتان ما بين المقلد والهدى — ومن يقتدي والضد يعرف بالضد
فمن قلد النعمان أصبح شارباً — نبيذاً وفيه القول للبعض بالحد
ومن يقتدي أضحى إمام معارف — وكان نسياً في العبادة والزهد
فمقتدياً في الحق كن لا مقلداً — وخل أخا التقليد في الأسر بالقد
وأقبح من كل ابتداع سمعته — وأنكاه للقلب الموفق للرشد
مذاهب من رام الخلاف لبعضها — يعض بأنياب الأساود والأسد
يصب عليه سوط ذم وغيبة — ويجفوه من قد كان يهواه عن عمد
ويعزى إليه كل ما لا يقوله — لتنصيصه عند التهامي والنجد
فيرميه أهل الرفض بالنصب فرية — ويرميه أهل النصب بالرفض والجحد

وليس له ذنب سوى أنه غدا　　يتابع قول الله في الحل والعقد
ويتبع أقوال النبي محمد　　وهل غيره بالله في الشرع من يهدي
لئن عده الجهال ذنباً فحبذا　　به حبذا يوم انفرادي في لحدي
علام جعلتم أيها الناس ديننا　　لأربعة لا شك في فضلهم عندي
هم علماء الدين شرقاً ومغرباً　　ونور عيون الفضل والحق والزهد
ولكنهم كالناس ليس كلامهم　　دليلاً ولا تقليدهم في غد يجدي
ولا زعموا حاشاهم أن قولهم　　دليل فيستهدي به كل مستهدي
بلى صرحوا أنا نقابل قولهم　　إذا خالف المنصوص بالقدح والرد

ومنها ما قال أبو محمد هبة الله بن الحسن الشيرازي :

عليك بأصحاب الحديث فإنهم　　على منهج للدين ما زال معجماً
وما النور إلا في الحديث وأهله　　إذا ما دجى الليل البهيم وأظلما
فأعلى البرايا من إلى السنن اعتزى　　وأعمى البرايا من إلى البدع انتمى
ومن ترك الآثار ضلل سعيه　　وهل يترك الآثار من كان مسلماً

ومنها ما قال أبو بكر بن أبي داود السجستاني :

تمسك بحبل الله واتبع الهدى　　ولا تك بدعيّاً لعلك تفلح
ولُذ بكتاب الله والسنن التي　　أتت عن رسول الله تنجو وتربح
ودع عنك آراء الرجال وقولهم　　فقول رسول الله أزكى وأشرح
ولا تك في قوم تلهَّوا بدينهم　　فتطعن في أهل الحديث وتقدح
إذا ما اعتقدت الدهر يا صاح هٰذه　　فأنت على خير تبيت وتصبح

ولله در أبي بكر حميد القرطبي ؛ فلقد أحسن وأجاد حيث قال :

نور الحديث مبين فادن واقتبس　　واحد الركاب له نحو الرضى الندس

وأطلبه بالصين فهو العلم إن رفعت   أعــلامــه بربــاهــا يا ابن أنــدلس
فلا تضيع في سوى تقييد شارده   عمــراً يفــوتــك بين اللحظ والنفس
وخل سمعك عن بلوى أخي جدل   شغل اللبيب بها ضرب من الهوس
ما إن سمت بأبي بكــر ولا عمــر   ولا أتـــت عن أبـــي هر ولا أنس
إلا هوى وخصــومــات ملفـقــة   ليسـت برطـب إذا عدت ولا يبس
فلا يغــرك من أربــابــهــا هذر   أجـدى وجـدك منها نغمة الجرس
أعــرهــم أذنــاً صمّــاً إذا نطقــوا   وكن إذا سألــوا تعـزى إلى خرس
ما الـعـلم إلا كتــاب الله أو أثــر   يجــلو بنــور هداه كل ملتــبس
نور لمــقــتــبس خير لمــلـتـمس   حمــى لمــحتــرس نعمى لمبتئس
فاعكف ببــابهمــا على طلابهمــا   تمحو العمى بهما عن كل ملتمس
ورد بقلبــك عذبــاً من حياضهمــا   تغسل بماء الهدى ما فيه من دنس
واقـف الـنـبي وأتبــاع النبي يكن   من هديهم أبــداً تدنــو إلى قبس
والـزم مجالسهم واحفظ مُجالسهم   وانـدب مدارسهم بالأربـع الدرس
واسـلك طريقـهـم والــزم فريقهم   تسكن رفيقهم في حضـرة القدس
تلك السعــادة إن تلمم بساحتهـا   فحط رحـلك قد عوفيت من تعس

وقال بعض الأعلام مخمساً على هذه القصيدة:

إن كنت تطلب علمـاً جِدَّ ملتمس   وحرت إذ غُمَّ عنك الرطبُ باليبس
فاسمـع لنصـح لبيب أي محترس
نور الـحــديث مبين فادن واقتبس   واحد الركاب له نحو الرضى الندس
واقــطع علائق من تحصيله منعت   تنـظرشموس الهدى في الأفق قدطلعت
وحُجُبَ غيّ ترى عن قلبك ارتفعت
فاطلبه بالصين فهو العلم إن رفعت   أعــلامــه بربــاهــا يا ابن أنــدلس

ولازم الـدرس واغنم من فوائـده لا تقنعُ الـدهـر من حلوى موائده
واشـرب فديتـك عَلًّا من موارده

ولا تضـع في سوى تقييد شارده عمـراً يفـوتـك بين اللحظ والنفس
دع الكـلام فمـا فيه سوى الخطل وانبـذ مجـالسـه تُحفظ من العلل
فهـو شر ابـتـداع جاء بالـخـلل

وخل سمعك عن بلوى أخي جدل شغل اللبيب بها ضرب من الهوس
الـله يعـلم كم قد سيق من ضرر للناس من أجله في البدو والحضر
أقبـح بهـا بدعـةً تدني إلى الشـرر

ما إن سمت بأبي بكـر ولا عمـر ولا أتـت عن أبـي هر ولا أنس
وكم دمـاء غدت في النـاس مهرقة فهـو الكـلام بكسـر ساء مخـرقـة
فلا ترى فيه شمس الحق مشـرقة

إلا هوىً وخـصـومـاتٍ ملفـقـةً ليسـت برطـب إذا عدت ولا يبس
داء كمـا جرب في النـاس منتشـر وكـتبـه بين أهـل العلم تستـطـر
ذر بدعـة عنـد أهـل الحق تُحتقـر

فلا يغـرك من أربـابـهـا هذر اجـدى وجدك منها نغمة الجرس
نأوا عن الحق بالأوهـام وانـطلقـوا في مهـمـهٍ بلقـع ما فيه مرتـفـق
وجـادلـوا بأبـاطيل بهـا مرقـوا

أعِـرْهـم أذنـاً صمّـاً إذا نطقـوا وكن إذا سألـوا تُعـزى إلى خرس
وابعد عن الرأي بُعداً يعدُك الخطر فهـو السحـابُ ولكن ما به مطَر
الـرأي أغصـان سدر ما بهـا ثمـر

ما الـعـلم إلا كتـاب الله أو أثـر يجـلو بنـور سنـاه كل ملتـبس
إن الـحـديث زلال خير منـبجس لم ينـأ عنه سوى ذي الغي والهوس

فاعمـــل به لا تكن عنـه بمنحبس

نور لمــقــتــبس خير لمــلتــمس　　حمىً لمـحتــرس نُعمى لمبتئس
وإن للدين أصـلين اغـتنى بهمــا　　خير القـرون وجَـدُّوا في اطِّلابهما
يا ويل من جرا على اجتنـــابهمــا
فاعكف ببـــابهمـــا على طِلابهمـا　　تمحو العمى بهما عن كل ملتمس
ودع فريقـــاً جروا على نقـاضهمـا　　ولا تَمـلَّنَّ يومـــاً من عِراضـهـمـا
وسَـرِّح الطرف وارتع في رياضهما
وِرد بقلبــك عذبـاً من حياضهمـا　　تغسل بماء الهُدى ما فيه من دنس
لا تركــنــنَّ لتــقــليدٍ بأي نر من　　فذاك جهل عظيم في الصدور كمن
إن الـمقلد بيت العنكبــوت سكن
واقـف الـنبي واتبـــاع النبي تكن　　من هديهم أبــداً تدنـــو إلى قبس
شُدَّ الـرحـالَ إليهم كي تجـالسهم　　واحـذر فديتـك يومـاً أن تعاكسهم
لا تحسُـدَنهم ولكن كن مُنـافسهم
والـزم مجالسهم واحفظ مُجالسهم　　وانـدب مدارسهم بالأربـع الدرس
واطـلب مودتـهـم وكـن صديقـهـم　　وكن مُجـــالسهم تشـــرب رحيقهم
وَقــرهُم كلهم واعـــرف حقـــوقهم
واسـلك طريقـهـم واتبـــع فريقهم　　تكن رفيقهم في حضـــرة القـدس
هي الشـريعـة فانظر في سماحتها　　كفـيلة لنـفــوس باسـتــراحـتـهـا
في حظرهـا حكمـة وفي إباحتهـا
تلك السعـــادة إن تلمم بسـاحتهـا　　فحط رحـلك قد عوفيت من تعس

وقال بعض علماء الهند:

أيا علمـــاء الـهنـــد طال بقـــاؤكم　　وزال بفـضـــل الـلـه عنكم بلاؤكم

رجـوتم بعلم العقـل فوز سعـادة ... وأخشى عليكم أن يخيب رجاؤكم
فلا في تصـانـيف الأثـير هداية ... ولا في إشـارات ابن سينا شفاؤكم
ولا طلعت شمس الهدى من مطالع ... فأوراقـهـا ديجـوركم لا ضياؤكم
ولا كان شرح الصدر للصدر شارحاً ... بل ازداد منه في الصدور صداؤكم
وبـازغـة لا ضوء فيهـا إذا بدت ... وأظـلم منـهـا كالـليالي ذكـاؤكم
وسـلمكـم ممَّـا يفيد تسفـلاً ... ليس به نحـو العـلى ارتقـاؤكم
فمـا علمكم يوم المعـاد بنافـع ... فيا ويلتـى ماذا يكـون جزاؤكـم
أخـذتم علوم الكفـر شرعـاً كأنمـا ... فلاسـفـة اليونـان هم أنـبياؤكم
مرضـتـم فزدتـم علة فوق علة ... تداووا بعلم الشـرع فهـو دواؤكم
صحاح حديث المصطفى وحسانه ... شفـاء عجيب فليزل منـه داؤكم

وقال ابن قتيبة رحمه الله في كتابه «تأويل مختلف الحديث»:

قال أبـو محمـد: فأمَّـا أصحاب الحديث؛ فإنَّهم التمسوا الحق من جهته، وتتبعوه من مظانه، وتقربوا من الله تعالى؛ باتباعهم سنن رسول الله ﷺ وطلبهم لآثاره وأخباره برّاً وبحراً وشرقاً وغرباً، يرحل الواحد منهم راجلاً مقوياً في طلب الخبر الواحد، أو السنة الواحدة، حتى يأخذها من الناقل لها مشافهة، ثم لم يزالوا في التنقير عن الأخبار والبحث لها حتى فهموا صحيحها وسقيمها وناسخها منسوخها، وعرفوا من خالفها من الفقهاء إلى الرأي.

فنبهوا على ذٰلك حتى نجم الحق بعد أن كان عافياً، وبسق بعد أن كان دارساً، واجتمع بعد أن كان متفرقاً، وانقاد للسنن من كان عنها معرضاً، وتنبه عليها من كان عنها غافلاً، وحكم بقول رسول الله ﷺ، بعد أن كان يحكم بقول فلان وفلان، وإن كان فيه خلاف على رسول الله ﷺ»[1].

(١) ص (٧٣ ـ ٧٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «نقض المنطق»، وكله في ذكر مناقب أهل الحديث، نقتطف منه جملاً يسيرة تدل على مقصودنا، فنقول:

«من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال، ويمتازون عنهم بما ليس عندهم، فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طرقاً أخرى، مثل: المعقول والقياس والرأي والكلام والنظر والاستدلال والمحاجة والمجادلة والمكاشفة والمخاطبة والوجد والذوق ونحو ذلك.

وكل هٰذه الطرق؛ لأهل الحديث صفوتُها وخلاصتها، فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسَدُّهم كلاماً، وأصحهم نظراً، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً، وهٰذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل[1]، فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحد وأسد عقلاً، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال، وكذٰلك أهل السنة والحديث تجدهم كذٰلك ممتعين، وذٰلك؛ لأن اعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه.

قال تعالى: ﴿والذينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدَىً﴾ [محمد: ١٧].

وقال: ﴿ولَو أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خيراً لَهُمْ وأَشَدَّ تَثْبِيتاً . وإذاً لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجراً عَظيماً . ولَهَدَيْنَاهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨].

---

(١) يريد الفرق والطوائف الإسلامية.

وهٰذا يعلم تارة بموارد النزاع بينهم وبين غيرهم، فلا تجد مسألة خُولفوا فيها؛ إلا وقد تبين أن الحق معهم، وتارة بإقرار مخالفيهم ورجوعهم إليهم دون رجوعهم إلى غيرهم، أو بشهادتهم على مخالفيهم بالضلال والجهل، وتارة بشهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض، وتارة بأن كل طائفة تعتصم بهم فيما خالفت فيه الأخرى، وتشهد بالضلال على كل من خالفها أعظم ممَّا تشهد به عليهم.

فأمَّا شهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض، فهٰذا أمر ظاهر معلوم بالحس والتواتر لكل من سمع كلام المسلمين، لا تجد في الأمة عُظم أحد تعظيماً أعظم ممَّا عُظّموا به، ولا تجد غيرهم يُعَظّمهم إلا بقدر ما وافقهم فيه، كما لا يُنقَّص إلا بقدر ما خالفهم، حتى إنك تجد المخالفين لهم كلهم وقت الحقيقة[1] يقر بذٰلك، كما قال الإمام أحمد: «آية ما بيننا وبينهم يوم الجنائز»؛ فإن الحياة بسبب اشتراك الناس في المعاش يعظم الرجل طائفته، فأمَّا وقت الموت؛ فلا بد من الاعتراف بالحق من عموم الخلق، ولهٰذا لم يعرف في الإسلام مثل جنازته، مسح المتوكل موضع الصلاة عليه، فوجد ألف ألف وست مائة ألف، سوى من صلى في الخانات والبيوت، وأسلم يومئذ من اليهود والنصارى عشرون ألفاً، وهو إنَّما نَبُل عند الأمة باتباع الحديث والسنة، وكذٰلك الشافعي وإسحاق وغيرهما إنَّما نبلوا في الإسلام باتباع أهل الحديث والسنة، وكذٰلك البخاري وأمثاله إنَّما نبلوا بذٰلك، وكذٰلك مالك والأوزاعي والثوري وأبو حنيفة وغيرهم إنَّما نبلوا في عموم الأمة وقُبِلَ قولهم لما وافقوا فيه الحديث والسنة، وما تُكُلِّمَ فيمن تكلم فيه منهم إلا بسبب المواضع التي لم يتفق له متابعتها من الحديث والسنة؛ إمَّا لعدم بلاغها

---

(١) يعني: يوم الوفاة والموت إذ به تظهر الحقيقة.

إياه، أو لاعتقاده ضعف دلالتها، أو رُجحان غيرها عليها.

وكـذٰلـك المسـائـل الاعتقـادية الخبرية، لم يَنْبُل أحد من الطوائف ورؤوسهم عند الأمة إلا بما معه من الإثبات والسنة:

فالمعتـزلـة أولاً ـ وهم فرسـان الكلام ـ إنَّما يُحمدون ويُعظمون عند أتباعهم وعند من يُغْضي عن مساويهم لأجل محاسنهم عند المسلمين بما وافقوا فيه مذهب أهل الإثبات والسنة والحديث وردهم على الرافضة بعض ما خرجـوا فيه عن السنـة والحديث من إمامة الخلفاء وعدالة الصحابة وقبول الأخبار وتحريف الكلم عن مواضعه والغلو في علي ونحو ذٰلك.

وكذٰلك الشيعة المتقدمون، كانوا يَرجُحُون على المعتزلة بما خالفوهم فيه من إثبات الصفات والقدر والشفاعة ونحو ذٰلك، وكذٰلك كانوا يُستحمدون بمـا خالفـوا فيه الخـوارج من تكفير علي وعثمـان وغيرهمـا، وما كفروا به المسلمين من الـذنـوب، ويُستحمـدون بما خالفوا فيه المرجئة من إدخال الواجبات في الإيمان، ولهٰذا قالوا بالمنزلة، وإن لم يهتدوا إلى السنة المحضة.

وكذٰلك متكلمة أهل الإثبات مثل الكُلابية والكرَّامية والأشعرية، إنَّما قُبِلوا واتُّبعوا واستُحمِدوا إلى عموم الأمة بما أثبتوه من أصول الإيمان، من إثبات الصانع وصفاته، وإثبات النبوة، والرَّد على الكفار من المشركين وأهل الكتاب، وبيان تناقض حججهم، وكذٰلك استحمدوا بما ردوه على الجهمية والمعتزلة والرافضة والقدرية من أنواع المقالات التي يخالفون فيها أهل السنة والجماعة، فحسناتهم نوعان: إمَّا موافقة أهل السنة والحديث، وإما الرد على من خالف السنة والحديث؛ ببيان تناقض حججهم.

ولم يتبع أحد مذهب الأشعري ونحوه؛ إلا لأحد هذين الوصفين، أو كلاهما، وكل من أحبه وانتصر له من المسلمين وعلمائهم؛ فإنَّما يحبه وينتصر له بذلك، فالمصنف في مناقبه، الدافع للطعن واللعن عنه - كالبيهقي والقشيري أبي القاسم وابن عساكر الدمشقي - إنَّما يحتجون لذلك بما يقوله من أقوال أهل السنة والحديث، أو مما ردَّه من أقوال مخالفيهم، لا يحتجون له عند الأمة وعلمائها وأمرائها؛ إلا بهذين الوصفين، ولولا أنَّه كان من أقرب بني جنسه إلى ذٰلك؛ لألحقوه بطبقته الذين لم يكونوا كذٰلك، كشيخه الأول أبي علي وولده أبي هاشم، لكن كان له من موافقة مذهب السنة والحديث في الصفات والقدر، والإمامة والفضائل والشفاعة، والحوض والصراط والميزان، وله من الردود على المعتزلة والقدرية والرافضة والجهمية وبيان تناقضهم ما أوجب أن يمتاز بذٰلك عن أولئك ويعرف له حقه وقدْرُه: ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق: ٣]، وبما وافق فيه السنة والحديث؛ صار له من القبول والأتباع ما صار، لكن الموافقة التي فيها قهر المخالف وإظهار فساد قوله هي من جنس المجاهد المنتصر، فالراد على أهل البدع مجاهد، حتى كان يحيى بن يحيى يقول: «الذب عن السنة أفضل من الجهاد»، والمجاهد قد يكون عدلاً في سياسته وقد لا يكون، وقد يكون فيه فجور كما قال النبي ﷺ: «إن الله يؤيد هٰذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم»، ولهٰذا مضت السنة بأن يغزى مع كل أمير برّاً كان أو فاجراً، والجهاد عمل مشكور لصاحبه في الظاهر لا محالة، وهو مع النية الحسنة مشكور باطناً وظاهراً، ووجه شكره: نصره للسنة والدين، فهكذا المنتصر للإسلام والسنة، يشكر على ذٰلك من هٰذا الوجه.

فحمد الرجال عند الله ورسوله وعباده المؤمنين بحسب ما وافقوا فيه

دين الله وسنة رسوله وشرعه من جميع الأصناف، إذ الحمد؛ إنَّما يكون على الحسنات، والحسنات هي ما وافق طاعة الله ورسوله من التصديق بخبر الله والطاعة لأمره، وهٰذا هو السنة.

فالخير كله باتفاق الأمة هو فيما جاء به الرسول ﷺ، وكذٰلك ما يُذَم من يُذَم من المنحرفين عن السنة والشريعة وطاعة الله ورسوله إلا بمخالفة ذٰلك.

ومن تُكلم فيه من العلماء والأمراء وغيرهم إنما تكلَّم فيه أهل الإيمان بمخالفته السنة والشريعة، وبهٰذا ذم السلف والأئمة أهل الكلام والمتكلمين الصفاتية؛ كابن كرَّام، وابن كلاب، والأشعري، وما تكلم فيه من تكلم من أعيان الأمة وأئمتها المقبولين فيها من جميع طوائف الفقهاء وأهل الحديث والصوفية إلا بما يقولون: إنَّهم خالفوا فيه السنة والحديث؛ لخفائه عليهم، أو إعراضهم عنه، أو لاقتضاء أصل قياس مَهَّدوه رد ذٰلك، كما يقع نحو ذٰلك في المسائل العلمية، فإن مخالفة المسلم الصحيح الإيمان النص؛ إنَّما يكون لعدم علمه به، أو لاعتقاده صحة ما عارضه، لكن هو فيما ظهر من السنة وعظُم أمرُه يقع بتفريط من المخالف وعدوان، فيستحق من الذم ما لا يستحقه في النص الخفي، وكذٰلك فيما يوقع الفُرقة والاختلاف يعظم فيه أمر المخالفة للسنة.

ولهٰذا اهتم كثير من الملوك والعلماء بأمر الإسلام وجهاد أعدائه، حتى صاروا يلعنون الرافضة والجهمية وغيرهم على المنابر، حتى لعنوا كل طائفة رأوا فيها بدعة، فلعنوا الكُلابية والأشعرية، كما كان في مملكة الأمير محمود ابن سُبكتكين، وفي دولة السلاجقة ابتداء، وكذٰلك الخليفة القادر ربما اهتم بذٰلك، واستشار المعتزلة من الفقهاء، ورفعوا إليه أمر القاضي أبي بكر ونحوه وهموا به حتى كان يختفي، وإنَّما تستر بمذهب الإمام أحمد وموافقته، ثم

ولى النِّظَام، وسعوا في رفع اللعنة، واستفتوا من استفتوه من فقهاء العراق؛ كالدامغاني الحنفي، وأبي إسحاق الشيرازي، وفتواهما حجة على من بخراسان من الحنفية والشافعية، وقد قيل: إن أبا إسحاق استعفى من ذٰلك، فألزموه، وأفتوا بأنَّه لا يجوز لعنتهم، ويعزر من يلعنهم، وعلل الدامغاني بأنهم طائفة من المسلمين، وعلل أبو إسحاق ـ مع ذٰلك ـ بأن لهم ذَبّاً وردّاً على أهل البدع المخالفين للسنة، فلم يمكن المفتي أن يعلل رفع الذم إلا بموافقة السنة والحديث.

وكذٰلك رأيت في فتاوى الفقيه أبي محمد فتوى طويلة، فيها أشياء حسنة قد سئل بها عن مسائل متعددة قال فيها:

ولا يجوز شغل المساجد بالغناء والرقص ومخالطة المردان، ويعزر فاعله تعزيراً بليغاً رادعاً، وأمَّا لبس الحلق والدمالج والسلاسل والأغلال والتختم بالحديد والنحاس؛ فبدعة وشهوة، وشر الأمور محدثاتها، وهي لهم في الدنيا، وهي لباس أهل النار، وهي لهم في الآخرة إن ماتوا على ذٰلك، ولا يجوز السجود لغير الله من الأحياء والأموات، ولا تقبيل القبور، ويعزر فاعله، ومن لعن أحداً من المسلمين؛ عزر على ذٰلك تعزيراً بليغاً، والمؤمن لا يكون لعاناً، وما أقربه من عود اللعنة عليه.

قال: ولا تحل الصلاة عند القبور، ولا المشي عليها من الرجال والنساء، ولا تعمل مساجد للصلاة؛ فإنه اشْتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

قال: وأمَّا لعن العلماء لأئمة الأشعرية؛ فمن لعنهم عزر، وعادت اللعنة عليه، فمن لعن من ليس أهلاً للعنة؛ وقعت اللعنة عليه، والعلماء أنصار فروع الدين، والأشعرية أنصار أصول الدين.

قال: وأمَّا دخولهم النيران، فمن لا يتمسك بالقرآن، فإنه فتنة لهم ومضلة لمن يراهم، كما يفتتن الناس بما يظهر على يدي الدجال، فإنه من ظهر على يديه خارق فإنه يوزن بميزان الشرع، فإن كان على الاستقامة كان ما ظهر على يديه كرامة، ومن لم يكن على الاستقامة؛ كان ذٰلك فتنة؛ كما يظهر على يدي الدجال من إحياء الميت، وما يظهر من جنته وناره، فإن الله يُضِلُّ من لا خلاق له بما يظهر على يدي هٰؤلاء، وأما من تمسك بالشرع الشريف؛ فإنه لو رأى من هٰؤلاء من يطير في الهواء أو يمشي على الماء؛ فإنه يعلم أن ذٰلك فتنة للعباد. انتهى.

فالفقيه أبو محمد أيضاً إنما منع اللعن، وأمر بتعزير اللاعن؛ لأجل ما نصروه من أصول الدين، وهو ما ذكرناه من موافقة القرآن والسنة والحديث، والرد على من خالف القرآن والسنة والحديث، ولهٰذا كان الشيخ أبو إسحاق يقول: إنما نفقت الأشعرية عند الناس بانتسابهم إلى الحنابلة، وهٰذا ظاهر عليه وعلى أئمة أصحابه في كتبهم ومصنفاتهم قبل وقوع الفتنة القشيرية ببغداد، ولهٰذا قال أبو القاسم ابن عساكر في «مناقبه»: مازالت الحنابلة والأشاعرة في قديم الدهر متفقين غير مفترقين حتى حدثت فتنة ابن القشير.

ثم بعد حدوث الفتنة وقبلها لا تجد من يمدح الأشعري بمدحة؛ إلا إذا وافق السنة والحديث، ولا يذمه من يذمه؛ إلا بمخالفة السنة والحديث.

وهذا إجماع من جميع هٰذه الطوائف على تعظيم السنة والحديث، واتفاق شهاداتهم على أن الحق في ذٰلك، ولهٰذا تجد أعظمهم موافقة لأئمة السنة والحديث أعظم عند جميعهم ممن هو دونه، فالأشعري نفسه لما كان أقرب إلى قول الإمام أحمد ومن قبله من أئمة السنة؛ كان عندهم أعظم من أتباعه، والقاضي أبو بكر بن البلاقاني لما كان أقربهم إلى ذٰلك؛ كان أعظم

عندهم من غيره، وأمَّا مثل الأستاذ أبي المعالي وأبي حامد ونحوهما ممَّن خالفـوا أصوله في مواضع؛ فلا تجدهم يُعظِّمون؛ إلا ممَّا وافقوا فيه السنة والحديث، وأكثر ذٰلك تقلدوه من مذهب الشافعي في الفقه الموافق للسنة والحـديث، وممَّـا ذكروه في الأصول يوافق السنة والحديث، وما ردُّوه ممَّا يخـالف السنة والحديث، وبهٰذا القدر ينتحلون السنة ويُنحلونها؛ وإلا لم يصح ذلك.

وكانت الرافضة والقرامطة ـ علماؤها وأمراؤها ـ قد استظهرت في أوائل الدولة السلجوقية، حتى غلبت على الشام والعراق، وأخرجت الخليفة القائم ببغداد إلى تِكريت، وحبسوه بها، في فتنة البساسيري المشهورة، فجاءت بعـد ذٰلـك السلجـوقية، حتى هزمـوهـم، وفتحوا الشام والعراق، وقهروهم بخراسان، وحجروهم بمصر، وكان في وقتهم من الوزراء مثل نظام الملك، ومن العلماء مثل أبي المعالي الجويني، فصاروا بما يقيمونه من السنة ويردونه من بدعة هؤلاء ونحوهم لهم من المكانة عند الأمة بحسب ذلك.

وكـذٰلك المتأخرون من أصحاب مالك، الذين وافقوه، كأبي الوليد الباجي، والقاضي أبي بكر بن العربي، ونحوهما، لا يُعظِّمون إلا بموافقة السنة والحديث، وأما الأكابر ـ مثل ابن حبيب وابن سحنون ونحوهما ـ فلون آخر.

وكـذٰلـك أبـو محمد بن حزم[1] فيما صنفه من الملل والنحل؛ إنما يُستحمـد بموافقة السنة والحديث، مثل ما ذكره في مسائل القَدَر والإرجاء

---

(١) هو أبـو محمـد علي بن أحمـد بن سعيد بن حزم، فقيه أهـل الظاهر ولسانهم وحجتهم، صاحب التصانيف النافعة، كـ «المحلى» و«الفصل» و«الأحكام» وغيرها، توفي سنة ٤٥٦هـ.

ونحو ذٰلك؛ بخلاف ما انفرد به من قوله في التفضيل بين الصحابة، وكذٰلك ما ذكره في باب الصفات؛ فإنَّه يُستحمد فيه بموافقة أهل السنة والحديث؛ لكونه يثبّت الأحاديث الصحيحة، ويعظم السلف وأئمة الحديث، ويقول: إنَّه موافق للإمام أحمد في مسألة القرآن[1] وغيرها، ولا ريب أنَّه موافق له ولهم في بعض ذٰلك.

لكن الأشعري ونحوه أعظم موافقة للإمام أحمد بن حنبل ومن قبله من الأئمة في القرآن والصفات، وإن كان أبو محمد ـ ابن حزم ـ في مسائل الإيمان والقدر أقوم من غيره، وأعلم بالحديث، وأكثر تعظيماً له ولأهله من غيره، لكن قد خالط من أقوال الفلاسفة والمعتزلة في مسائل الصفات ما صرفه عن موافقة أهل الحديث في معاني مذهبهم في ذٰلك، فوافق هٰؤلاء في اللفظ وهٰؤلاء في المعنى، وبمثل هٰذا صار يذمه من يذمه من الفقهاء والمتكلمين وعلماء الحديث؛ باتباعه لظاهر لا باطن له؛ كما نفى المعاني في الأمر والنهي والاشتقاق، وكما نفى خرق العادات ونحوه من عبادات القلوب، مضموماً إلى ما في كلامه من الوقيعة في الأكابر، والإسراف في نفي المعاني، ودعوى متابعة الظواهر، وإن كان له من الإيمان والدين والعلوم

---

(١) قوله: «ويقول: إنه موافق للإمام أحمد في مسألة القرآن»: الظاهر أنه في غاية المخالفة له، ومذهبه الذي ينقل عنه في القرآن مذهب باطل؛ فإنه يقول: «القرآن أربعة: هٰذا المتلو، والثابت في الرسم العثماني، والمحفوظ في الصدور، وهٰذه الثلاث كلها مخلوقة، والرابع المعنى القديم، وكل واحد منها يسمى بالقرآن»، وهٰذا مباين لمذهب الإمام أحمد الذي هو مذهب السلف، كذا في هامش الأصل.

قلت: كذا الموجود في الهامش، والذي في «الملل و النحل» لأبي محمد بن حزم: «القرآن خمسة أشياء أربعة مخلوقة»، وزاد على ما هنا: «المفهوم من ذٰلك الصوت». انظر (٣/ ٧) وكتبه سليمان الصنيع.

الواسعة الكثيرة ما لا يدفعه إلا مكابر، ويوجد في كتبه من كثرة الاطلاع على الأقـوال والمعرفة بالأحوال والتعظيم لدعائم الإسلام ولجانب الرسالة ما لا يجتمـع مثله لغيره؛ فالمسـألة التي يكون فيها حديث يكون جانبه فيها ظاهر الترجيح، وله من التمييز بين الصحيح والضعيف والمعرفة بأقوال السلف ما لا يكاد يقع مثله لغيره من الفقهاء.

وتعظيم أئمة الأمة وعوامها للسنة والحديث وأهله في الأصول والفروع من الأقوال والأعمال أكثر من أن يذكر هنا، وتجد الإسلام والإيمان كلما ظهر وقوي؛ كانت السنة وأهلها أظهر وأقوى، وإن ظهر شيء من الكفر والنفاق؛ ظهرت البدع بحسب ذلك؛ مثل دولة المهدي والرشيد ونحوهما ممن كان يعظم الإسلام والإيمان، ويغزو أعداءه من الكفار والمنافقين، كان أهل السنة في تلك الأيام أقـوى وأكثر، وأهل البدع أذل وأقل، فإن المهدي قَتَلَ من المنافقين الزنادقة من لا يحصي عدده إلا الله، والرشيد كان كثير الغزو والحجّ.

وذلـك أنَّـه لما انتشرت الدولة العباسية، وكان في أنصارها من أهل المشرق والأعاجم طوائف من الذين نعتهم النبي ﷺ، حيث قال: «الفتنة ها هنـا»؛ ظهـر حينئـذ كثير من البـدع، وعُرِّبت أيضاً إذ ذاك طائفة من كتب الأعاجم من المجوس الفرس والصابئين الروم والمشركين الهنود.

وكـان المهدي من خيار خلفاء بني العباس، وأحسنهم إيماناً وعدلاً وجوداً، فصار يتتبع المنافقين الزنادقة كذلك، وكان خلفاء بني العباس أحسن تعاهداً للصلوات في أوقاتها من بني أمية؛ فإن أولئك كانوا كثيري الإضاعة لمواقيت الصلاة، كما جاءت فيهم الأحاديث: «سيكون بعدي أمراء يؤخرون الصـلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها، واجعلوا صلاتكم معهم نافلة»،

لكن كانت البدع في القرون الثلاثة الفاضلة مقموعة، وكانت الشريعة أعز وأظهر، وكان القيام بجهاد أعداء الدين من الكافرين والمنافقين أعظم.

وفي دولة أبي العباس المأمون ظهر الخُرَّمية ونحوهم من المنافقين، وعرب من كتب الأوائل المجلوبة من بلاد الروم ما انتشر بسببه مقالات الصابئين، وراسل ملوك المشركين من الهند ونحوهم، حتى صار بينه وبينهم مودَّة، فلما ظهر ما ظهر من الكفر والنفاق في المسلمين، وقوي ما قوي من حال المشركين وأهل الكتاب؛ كان من أثر ذٰلك ما ظهر من استيلاء الجهمية والرافضة وغيرهم من أهل الضلال، وتقريب الصابئة ونحوهم من المتفلسفة، وذٰلك بنوع رأي يحسبه صاحبه عقلاً وعدلاً، وإنَّما هو جهل وظلم، إذ التسوية بين المؤمن والمنافق والمسلم والكافر أعظم الظلم، وطلب الهدى عند أهل الضلال أعظم الجهل، فتولد من ذٰلك محنة الجهمية، حتى امتحنت الأمة بنفي الصفات والتكذيب بكلام الله ورؤيته، وجرى من محنة الإمام أحمد وغيره ما جرى ممَّا يطول وصفه.

وكان في أيام المتوكل قد عز الإسلام، حتى ألزم أهل الذمة بالشروط العمرية، وألزموا الصغار، فعزت السنة والجماعة، وقمعت الجهمية والرافضة ونحوهم، وكذٰلك في أيام المعتضد والمهدي والقادر وغيرهم من الخلفاء، الذين كانوا أحمد سيرة وأحسن طريقة من غيرهم، وكان الإسلام في زمنهم أعز، وكانت السنة بحسب ذٰلك.

وفي دولة بني بويه ونحوهم الأمر بالعكس؛ فإنهم كان فيهم أصناف المذاهب المذمومة، قوم منهم زنادقة، وفيهم قرامطة كثيرة، ومتفلسفة ومعتزلة ورافضة، وهٰذه الأشياء كثيرة فيهم غالبة عليهم، فحصل في أهل الإسلام والسنة في أيامهم من الوهن ما لم يعرف، حتى استولى النصارى على ثغور

الإسلام، وانتشرت القرامطة في أرض مصر والمغرب والمشرق وغير ذٰلك، وجرت حوادث كثيرة.

ولما كانت مملكة محمود بن سبكتكين من أحسن ممالك بني جنسه؛ كان الإسلام والسنة في مملكته أعز؛ فإنه غزا المشركين من أهل الهند، ونشر من العدل ما لم ينشره مثله فكانت السنة في أيامه ظاهرة والبدع في أيامه مقموعة.

وكـذٰلـك السلطان نور الـدين محمـود، الذي كان بالشام، عَزَّ أهل الإسـلام والسنة في زمنه، وذل الكفار وأهل البدع ممَّن كان بالشام ومصر وغيرهما من الرافضة والجهمية ونحوهم، وكذٰلك ما كان في زمنه من خلافة بني العباس، ووزارة ابن هبيرة لهم، فإنه كان من أمثل وزراء الإسلام، ولهٰذا كان له من العناية بالإسلام والحديث ما ليس لغيره.

وما يوجد من إقرار أئمة الكلام والفلسفة وشهادتهم على أنفسهم وعلى بني جنسهم بالضلال، ومن شهادة أئمة الكلام والفلسفة بعضهم على بعض كذٰلك؛ فأكثر من أن يحتمله هٰذا الموضع، وكذٰلك ما يوجد من رجوع أئمتهم إلى مذهب عموم أهل السنة وعجائزهم كثير.

وأئمة السنة والحديث لا يرجع منهم أحد؛ لأن الإيمان حين تخالط بشـاشتـه القلوب؛ لا يسخـطه أحـد، وكذٰلك ما يوجد من شهادتهم لأهل الحديث بالسلامة والخلاص من أنواع الضلال، وهم لا يشهدون لأهل البدع إلا بالضلال، وهٰذا باب واسع كما قدمناه.

وجميع الطوائف المتقاتلة من أهل الأهواء تشهد لهم بأنهم أصلح من الآخرين وأقرب إلى الحق، فنجد كلام أهل النحل فيهم وحالهم معهم بمنزلة

كلام أهل الملل مع المسلمين وحالهم معهم.

وإذا قابلنا بين الطائفتين ـ أهل الحديث وأهل الكلام ـ؛ فالذي يعيب بعض أهل الحديث وأهل الجماعة بحشو القول: إنَّما يعيبهم بقلة المعرفة أو بقلة الفهم.

أما الأول: فبأن يحتجوا بأحديث ضعيفة، أو موضوعة، أو بآثار لا تصلح للاحتجاج.

وأما الثاني: فبأن لا يفهموا معنى الأحاديث الصحيحة، بل قد يقولون القولين المتناقضين، ولا يهتدون للخروج من ذٰلك.

والأمر راجع إلى شيئين: إمَّا زيادة أقوال غير مفيدة تُظَن أنها مفيدة؛ كالأحاديث الموضوعة، وإما أقوال مفيدة لكنهم لا يفهمونها؛ إذ كان اتباع الحديث يحتاج أولاً إلى صحة الحديث، وثانياً إلى فهم معناه؛ كاتباع القرآن، فالخلل يدخل عليهم من ترك إحدى المقدمتين[1]، ومن عابهم من الناس؛ فإنما يعيبهم بهٰذا.

ولا ريب أن هٰذا موجود في بعضهم، يحتجون بأحاديث موضوعة في مسائل الأصول والفروع، وآثار مفتعلة، وحكايات غير صحيحة، ويذكرون من القرآن والحديث ما لا يفهمون معناه، وربما تأولوه على غير تأويله، ووضعوه على غير موضعه، ثم إنَّهم بهٰذا المنقول الضعيف والمعقول السخيف قد يكفرون ويُضلّلون ويُبَدِّعون أقواماً من أعيان الأمة ويُجَهِّلونهم؛ ففي بعضهم من التفريط في الحق والتعدي على الخلق ما قد يكون بعضه خطأً مغفوراً، وقد يكون مُنكراً من القول وزوراً، وقد يكون من البدع

---

(١) عدم الصحة أو عدم الفهم.

والضلالات التي توجب غليظ العقوبات؛ فهٰذا لا ينكره إلا جاهل أو ظالم، وقد رأيت من هٰذا عجائب، لكن هم بالنسبة إلى غيرهم في ذٰلك كالمسلمين بالنسبة إلى بقية الملل، ولا ريب أن في كثير من المسلمين من الظلم والجهل والبدع والفجور ما لا يعلمه إلا من أحاط بكل شيء علماً، لكن كل شر يكون في بعض المسلمين؛ فهو في غيرهم أكثر، وكل خير يكون في غيرهم؛ فهو فيهم أعلى وأعظم، وهٰكذا أهل الحديث بالنسبة إلى غيرهم.

وبيان ذٰلك: أن ما ذكر من فضول الكلام الذي لا يفيد ـ مع اعتقاد أنه طريق إلى التصور والتصديق ـ هو في أهل الكلام والمنطق أضعاف أضعاف أضعاف ما هو في أهل الحديث؛ فبإزاء احتجاج أولٰئك بالحديث الضعيف احتجاج هٰؤلاء بالحدود والأقيسة الكثيرة العقيمة التي لا تفيد معرفة، بل تفيد جهلاً وضلالاً، وبإزاء تكلم أولٰئك بأحاديث لا يفهمون معناها تكلُّفُ هٰؤلاء من القول بغير علم ما هو أعظم من ذٰلك وأكثر، وما أحسن قول الإمام أحمد: «ضعيف الحديث خير من رأي فلان».

ثم لأهل الحديث من المزية: أن ما يقولونه من الكلام الذي لا يفهمه بعضهم، هو كلام في نفسه حق، وقد آمنوا بذٰلك، وأما المتكلمة؛ فيتكلفون من القول ما لا يفهمونه ولا يعلمون أنه حق، وأهل الحديث لا يستدلون بحديث ضعيف في نقض أصل عظيم من أصول الشريعة، بل إمَّا في تأييده، وإمَّا في فرع من الفروع، وأولٰئك يحتجون بالحدود والمقاييس الفاسدة في نقض الأصول الحقة الثابتة.

إذا عرف هٰذا؛ فقد قال الله تعالى عن أتباع الأئمة من أهل الملل المخالفين للرسل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وجُوهُهُمْ في النَّارِ يَقُولُونَ ياليْتَنا أَطَعْنا اللهَ وأَطَعْنـا الرَّسُولَ...﴾، إلى قوله ﴿والْعَنْهُمْ لَعْناً كَبيراً﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨]، ومثل هٰذا في القرآن كثير.

وإذا كانت سعادة الدنيا والآخرة هي باتباع المرسلين؛ فمن المعلوم أن أحق النـاس بذٰلـك هم أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذٰلك، فالعالمون بأقوالهم وأفعالهم المتبعون لها هم أهل السعادة في كل زمان ومكان، وهم الطائفة الناجية من أهل كل ملة، وهم أهل السنة والحديث من هٰذه الأمة؛ فإنهم يشاركون سائر الأمة فيما عندهم من أمور الرسالة، ويمتازون عنهم بما اختصوا به من العلم الموروث عن الرسول ممَّا يجهله غيرهم أو يكذب به.

والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، عليهم البلاغ المبين، وقد بلغوا البلاغ المبين، وخاتم الرسل محمد ﷺ أنزل الله كتابه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فهو الأمين على جميع الكتب، وقد بلَّغ أبين البلاغ وأتمّه وأكمله، وكان أنصح الخلق لعباد الله، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين، فأسعد الخلق وأعظمهم نعيماً وأعلاهم درجة أعظمهم اتباعاً وموافقة له علماً وعملاً، وأمَّا غير أتباعه من أهل الكلام، فالكلام في أقيستهم التي هي حججهم وبراهينهم على معارفهم وعلومهم، وهٰذا يدخل فيه كل من خالف شيئاً من السنة والحديث من المتكلمين والفلاسفة، فالكلام في هٰذا المقـام واسع لا ينضبط هنا، لكن المعلوم من حيث الجملة أن الفلاسفة والمتكلمين من أعظم بني آدم حشواً وقولاً للباطل وتكذيباً للحق في مسائلهم ودلائلهم، لا يكاد ـ والله أعلم ـ تخلو مسألة واحدة عن ذٰلك.

وأذكر أني قلت مرَّة لبعض من كان ينتصر لهم من الشغوفين بهم ـ وأنا

إذا ذاك صغير قريب العهد من الاحتلام ـ: كل ما يقوله هٰؤلاء ففيه باطل: إمَّا في الدلائل، وإمَّا في المسائل، إمَّا أن يقولوا مسألة تكون حقّاً لكن يقيمون عليها أدلة ضعيفة، وإمَّا أن تكون المسألة باطلاً، فأخذ ذٰلك المشغوف بهم يعظم هٰذا».

وقال في موضع آخر رحمه الله في الكتاب نفسه:

«ولا ريب أن أهل الحديث أعلم الأمة وأخصها بعلم الرسول وعلم خاصته؛ مثل: الخلفاء الراشدين وسائر العشرة، ومثل أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت، وأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، ومثل سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة، وعباد بن بشر، وسالم مولى أبي حذيفة، وغير هٰؤلاء ممَّن كان أخص الناس بالرسول ﷺ، وأعلمهم بباطن أموره، وأتبعهم لذٰلك.

فعلماء الحديث أعلم الناس بهٰؤلاء وببواطن أمورهم، وأتبعهم لذٰلك، فيكون عندهم العلم، علم خاصة الرسول وبطانته، كما أن خواص الفلاسفة يعلمون علم أئمتهم، وخواص المتكلمين يعلمون علم أئمتهم، وخواص القرامطة والباطنية يعلمون علم أئمتهم، وكذٰلك أئمة الإسلام مثل أئمة العلماء، فإن خاصة كل إمام أعلم بباطن أموره؛ مثل: مالك بن أنس؛ فإن ابن القاسم لما كان أخص الناس به، وأعلمهم بباطن أمره؛ اعتمد أتباعه على روايته، حتى إنه تؤخذ عنه مسائل السر التي رواها ابن أبي الغمر، وإن طعن بعض الناس فيها، وكذٰلك أبو حنيفة، فأبو يوسف ومحمد وزفر أعلم الناس به، وكذٰلك غيرهما.

وقد يكتب العالم كتاباً، أو يقول قولاً، فيكون بعض من لم يشافهه به

أعلم بمقصوده من بعض من شافهه به، كما قال النبي ﷺ: «فرب مبلغ أوعى من سامع»، لكن بكل حال، لا بد أن يكون المبلغ من الخاصة العالمين بحال المبلغ عنه، كما يكون في أتباع الأئمة من هو أفهم لنصوصهم من بعض أصحابهم.

ومن المستقر في أذهان المسلمين: أن ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء هم الذين قاموا بالدين علماً ودعوة إلى الله والرسول، فهٰؤلاء أتباع الرسول حقّاً، الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت، فقبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسها وزكا الناس بها، وهٰؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة، ولذٰلك كانوا ورثة الأنبياء، الذين قال الله تعالى فيهم: **﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾** [ص: ٤٥]، فالأيدي: القوة في أمر الله، والأبصار: البصائر في دين الله؛ فبالبصائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه.

فهٰذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه في الدين والبصر والتأويل، ففجرت من النصوص أنهار العلوم، واستنبطت منها كنوزها، ورزقت فيها فهماً خاصّاً؛ كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟! فقال: «لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة؛ إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه»؛ فهٰذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الذي أنبتته الأرض الطيبة، وهو الذي تميزت به هٰذه الطبقة عن الطبقة الثانية، وهي التي حفظت النصوص، فكان همها حفظها وضبطها، فوردها الناس وتلقوها بالقبول، واستنبطوا منها، واستخرجوا كنوزها، واتجروا فيها، وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات، ورووها كل

بحسبه.

قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

وهٰؤلاء الذين قال فيهم النبي ﷺ: «نضر الله أمرأ سمع مقالتي، فوعاها، ثم أداها كما سمعها، فرب حامل فقه وليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

وهٰذا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، حبر الأمة وترجمان القرآن، مقدار ما سمعه من النبي ﷺ لا يبلغ نحو العشرين حديثاً، الذي يقول فيه: «سمعت ورأيت»، وسمع الكثير من الصحابة، وبورك له في فهمه والاستنباط منه، حتى ملأ الدنيا علماً وفقهاً.

قال أبو محمد بن حزم: «وجمعت فتواه في سبعة أسفار كبار»[1].

وهي بحسب ما بلغ جامعها، وإلا؛ فعلم ابن عباس كالبحر، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن بالموضع الذي فاق به الناس، وقد سمعوا ما سمع وحفظوا القرآن كما حفظه، ولكن أرضه[2] كانت من أطيب الأراضي، وأقبلها للزرع، فبذر فيها النصوص، فأنبتت من كل زوج كريم.

وكما قال الله تعالى: ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ

---

(١) كذا هنا، والذي في «إحكام الأحكام» لأبي محمد بن حزم (٥ / ٨٢) ونقله عنه الحافظ ابن القيم في «إعلام الموقعين» (١ / ١٣) لما ذكر المكثرين من الصحابة؛ قال: «فهم سبعة، يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد منهم سفر ضخم، وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب ـ ابن أمير المؤمنين المأمون ـ فتيا عبد الله بن عباس في عشرين كتاباً، وأبو بكر المذكور أحد أئمة الإسلام في علم الحديث» اهـ. وكتبه سليمان الصنيع.

(٢) يعني: فطرته ومواهبه.

العَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

وأين تقع فتاوى ابن عباس وتفسيره واستنباطه من فتاوى أبي هريرة وتفسيره[1]؟! وأبو هريرة أحفظ منه، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق، يؤدي الحديث كما سمعه، ويدرسه بالليل درساً، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط وتفجير النصوص وشق الأنهار منها واستخراج كنوزها.

وهٰكذا ورثتهم من بعدهم، اعتمدوا في دينهم على استنباط النصوص، لا على خيال فلسفي، ولا رأي قياسي، ولا غير ذٰلك من الآراء المبتدعات، لا جرم كانت الدائرة والثناء الصادق والجزاء العاجل والآجل لورثة الأنبياء التابعين لهم في الدنيا والآخرة، فإن المرء على دين خليله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وبكل حال؛ فهم أعلم الأمة بحديث الرسول وسيرته ومقاصده وأحواله.

ونحن لا نعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه أو كتابته أو روايته، بل نعني بهم كل من كان أحق بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهراً واتباعه باطناً وظاهراً وكذٰلك أهل القرآن.

وأدنى خصلة في هٰؤلاء: محبة القرآن والحديث، والبحث عنهما وعن معانيهما، والعمل بما علموه من موجبهما، ففقهاء الحديث أخبر بالرسول من فقهاء غيرهم، وصوفيتهم أتبع للرسول من صوفية غيرهم، وأمراؤهم أحق

---

(١) في العبارة قلب؛ فإن المفضل هو فتاوى ابن عباس على فتاوى أبي هريرة.

بالسياسة النبوية من غيرهم، وعامتهم أحق بموالاة الرسول من غيرهم.

ومن المعلوم أن المعظمين للفلسفة والكلام، المعتقدين لمضمونهما، هم أبعد عن معرفة الحديث وأبعد عن اتباعه من هٰؤلاء، هٰذا أمر محسوس، بل إذا كشفت أحوالهم؛ وجدتهم من أجهل الناس بأقواله ﷺ وأحواله وبواطن أموره وظواهرها، حتى لتجد كثيراً من العامة أعلم بذٰلك منهم، ولتجدهم لا يميزون بين ما قاله الرسول وما لم يقله، بل قد لا يفرقون بين حديث متواتر عنه وحديث مكذوب موضوع عليه، وإنما يعتمدون في موافقته على ما يوافق قولهم».

وبعد نقلنا لبعض كلام أهل العلم في فضيلة الحديث وأهله، ننقل بعض ما ورد عن النبي ﷺ، حتى يعلم القارىء من المحق، أرسول الله ﷺ وأتباعه المهديون المرضيون والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، أم الغزالي وأصحابه الذين يصرفون المسلمين عن سنة رسول الله ﷺ بوساوسهم الشيطانية التي أُمرنا أن نستعيذ منها في سورة بكاملها من سور القرآن الكريم، وهي رقية أهل السنة والجماعة؟!

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلٰهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الوَسْواسِ الخَنَّاسِ . الذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ﴾.

وقد كتب إمام من أئمة السنة كتاباً سماه ذم الموسوسين، وهٰؤلاء منهم، وقد كتب العلامة ابن القيم رحمه الله كتابه القيم «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»، وذكر فيه أحوال هٰؤلاء الموسوسين، وقد كتب العلامة ابن الجوزي كتاباً قيماً بين فيه تلبيس إبليس على هٰؤلاء وبيَّن أحوالهم وتخبطاتهم وشطحاتهم، فمن شاء؛ طلب هٰذه الكتب؛ فإنها نافعة بإذن الله في معالجة

هٰذا الوسواس الذي ضيع للمسلمين عقولهم ودينهم، وجنى عليهم من جميع الوجوه، وما يزالون حتى الآن يرغبون في هٰذا الوسواس؛ رغم وضوح ضلاله وبيان فساده، ولكن بعد الناس عن الكتاب والسنة جعلهم يجرون وراء كل ناعق، ولـو خالف ما هو معلوم عند المسلمين من الدين بالضرورة؛ كهٰذه المسألة التي نحن بصدد علاجها.

أخرج الترمذي ـ وقال: حديث حسن صحيح ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع» (١).

وأخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسـول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم؛ انقطع عمله؛ إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (٢).

وأخرج البخاري في «صحيحه» من حديث أبي بكرة، ذكر النبي ﷺ، قعد على بعيره، وأمسك إنسان بخطامه أو بزمامه، قال: «أي يوم هٰذا؟». فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه. قال: «أليس يوم النحر؟!». قال: بلى. قال: «فأي شهر هٰذا؟». فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقـال: «أليس بذي الحجة؟!». قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هٰذا في شهركم هٰذا، في بلدكم هٰذا؛ ليبلغ الشاهد الغائب؛ فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه» (٣).

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: «حسن صحيح» (٤ / ٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣ / ١٢٥٥).

(٣) (٦ / ٢٩٣).

وأخرج أيضاً عن أبي موسى عن النبي ﷺ؛ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم؛ كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجاديب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنَّما هي قيعان، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذٰلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذٰلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[1].



(١) «فتح الباري» (١ / ١٧٥).

● ومن طاماته:

الأخذ عن الرُّهبان وعُبَّاد أهل الكتاب

قال الغزالي:

«قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: تعلمت المعرفة من راهبٍ يقال له سمعان، دخلت عليه في صومعته، فقلت: يا سمعان! منذ كم أنت في صومعتك؟! قال: منذ سبعين سنة. قلت: فما طعامك؟ قال: يا حنيفي! وما دعاك إلى هٰذا؟ قلت: أحببت أن أعلم. قال: في كل ليلة حمصة. قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هٰذه الحمصة؟ قال: ترى الدير الذي بحذائك؟ قلت: نعم. قال: إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً، فيزينون صومعتي، ويطوفون حولها، ويُعظموني، فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة، ذكرت عز تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة، فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد. فوقر في قلبي المعرفة، فقال: حسبك أو أزيدك. قلت: بلى. قال: انزل عن الصومعة، فنزلت، فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة. فقال لي: ادخل الدير؛ فقد رأوا ما أدليت إليك. فلما دخلت الدير اجتمع علي النصارى، فقالوا: يا حنيفي! ما الذي أدلى إليك الشيخ؟ قلت: من قوته. قالوا: فما تصنع به ونحن أحق به؟ ثم قالوا: ساوم. قلت: عشرون ديناراً. فأعطوني عشرين ديناراً، فرجعت إلى الشيخ، فقال: يا حنيفي! ما الذي صنعت؟ قلت: بعته منهم. قال: بكم؟! قلت: بعشرين ديناراً. قال: أخطأت، لو ساومتهم بعشرين ألف دينار؛ لأعطوك. هٰذا عز من لا تعبده، فانظر كيف عزُّ من تعبد يا حنيفي، أقبل على ربك، ودع الذهاب والجيئة»[1].

---

(١) (٣ / ٣٣٤).

* **التعليق :**

هٰذه هي علوم القوم ومصادرهم، التي يستقون منها المعرفة، ولا أدري ماذا سيقول المحبون لأبي حامد الغزالي؟! هل سيؤولون هٰذه القصة ويخرجونها على ما تمليه عليهم أهواؤهم، أو سيقولون الحق، ويضربون بـ «الإحياء» عرض الحائط، ويقولون هٰذا ليس من ديننا؟!

فالنبي عليه الصلاة والسلام غضب على عمر لما رآه يقرأ من كتب أهل الكتاب.

أخرج الإمام أحمد وابن أبي شيبة والبزار من حديث جابر: أن عمر أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده؛ لو أن موسى كان حيّاً؛ ما وسعه إلا أن يتبعني».

قال الحافظ في «الفتح»: «ورجاله موثقون؛ إلا أن في مجالد ضعفاً».

وأخرج البزار أيضاً من طريق عبد الله بن ثابت الأنصاري: أن عمر نسخ صحيفة من التوراة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء».

وفي سنده جابر الجعفي، وهو ضعيف.

وأخرجه سفيان الثوري من هٰذا الوجه؛ بلفظ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء».

وسنده حسن.

وقد بوب عليه الإمام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة،

باب قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء»، وذكر بسنده المعلق: وقال أبو اليمان: أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني حميد بن عبد الرحمان سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة، وذكر كعب الأحبار، فقال: «إن كان من أصدق هٰؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب».

ثم قال: حدثنا محمد بن بشار حدثنا عثمان بن عمر أخبرنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة؛ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أنزل إليكم...» الآية.

ثم قال: حدثني موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم أخبرنا ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أُنزل على رسول الله ﷺ أحدث، تقرؤونه مَحْضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أُنزل عليكم»[1].

فهٰذه أحاديث رسول الله، وهٰؤلاء صحابة رسول الله، وهٰذا الإمام البخاري رحمه الله يبوب في «صحيحه» على هٰذه المسألة بباب طويل عريض؛ فمن أحق بالهدى، هل هٰؤلاء أم أبو حامد الذي يسوق لنا من هٰذه

---

(١) «فتح الباري» (١٣ / ٣٣٤).

الخرافات السمجة التي يتنزه العقلاء عن حكايتها، فضلاً عن أهل العلم، فضلاً عمن يعنون عنواناً يسميه «إحياء علوم الدين»؛ فهل في المعقول أن يعيش شخص في كل يوم بحمصة مدة سبعين سنة، ولكن الصوفية يسوقون كل كذب، ويصدقون به كهٰذا.

ثم إن الراهب لم يذكر له إلا سفاسف الأمور التي ينبغي للعقلاء أن يتنزهوا عنها، فضلاً عن أهل العلم. هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرى، لما هٰذا الطواف المذكور في القصة، فإن كان طواف عبادة؛ فهو شرك بالله، وهو غالب ما يدل عليه السياق.

ثم إعطاؤه السائل الحمص ليذهب به إلى أهل الدير فيه من البدع والشرور ما فيه؛ فهٰذا طريق الشرك إذا لم يكن هو، وهٰكذا يروج الصوفية مثل هٰذه الأباطيل والخرافات والضلالات، التي ضلت بها أمة محمد ﷺ، فوا حسرتاه على علماء الإسلام، الذين تركوا رواج هٰذا الضلال على المسلمين، وزكوه وأحيوه وما يزالون.



● ومن طاماته :

مخالفة هدي الأنبياء في سؤال الله الفضل والخير

قال الغزالي :

«وقال الحسن : إذا أراد الله بعبد خيراً ؛ أعطاه من الدنيا عطية ، ثم تمسك ، فإذا نفد ؛ أعاد عليه ، وإذا هان عليه عبد ؛ بسط له الدنيا بسطاً .

وكان بعضهم يقول في دعائه : يا ممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك أمسك الدنيا عني» .

* **التعليق :**

هٰكـذا يطلق الغزالي النقل عن التابعين ، ولا يبين المصدر والسند ، حتى نستطيع أن نتعامل مع النص : إما بقبوله ، أو برفضه .

والذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة هو الزهد والإعراض عما حرم الله ، والرغبة فيما عند الله من الفضل ، وآيات القرآن كثيرة ، وكثيرة جدّاً .

قال الله تعالى : **﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِروا في الأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ واذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** .

وقال تعالى : **﴿يا أَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا في الأرضِ حَلالاً طَيِّباً ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ﴾** .

وفي القرآن : **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ قُلْ هي للذين آمَنُوا في الحَياةِ الدُّنْيا خَالِصَةً يَومَ القِيامَةِ﴾** .

وفي البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله قال وهو على المنبر، وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة : «اليد العليا خير من

اليد السفلى، والعليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة».

وفي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه».

وفي البخاري عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «ما أكل أحد طعاماً خيراً له من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله دواد عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «بينما أيوب يغتسل عرياناً، خر عليه رجل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟! قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك».

وصح عنه ﷺ: أنه قال: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

وهٰذه المسألة لا تحتاج إلى كثرة سياق الأدلة؛ فإن المنهاج النبوي من أوله إلى آخره قائم على تقوية أتباعه، وأمرهم بأخذ أسباب القوة وبأحدثها؛ لأن أصحاب المنهاج النبوي هم أمة الجهاد والمواجهة، فكيف يدخل لنا الغزالي هٰذه المفاسد باسم «إحياء علوم الدين»؛ لتضعف قوتنا، ويعلو عدونا، ويسيطر علينا، وكان ذٰلك كذٰلك لما انتشرت هٰذه الكتب الرديئة والأفكار الرذيلة، والتي أبعدت المسلمين عن واقع الحياة، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم؛ إذ يقول: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي ذٰلك خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، ولا تقل لو أني فعلت كذا؛ كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء الله فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان». أخرجه مسلم.

● **ومن طاماته :**

التنقيص من شأن النبوة

قال الغزالي :

«وروي أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً، فدخلت عليه امرأة، فسألته نفسه، فامتنع عليها، وخرج هارباً من منزله، وتركها فيه. قال سليمان: فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام، وكأني أقول له، أنت يوسف؟! قال: نعم! أنا يوسف الذي هممت وأنت سليمان الذي لم تهم. أشار إلى قوله تعالى: ﴿**ولَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وهَمَّ بِها لولا أَنْ رَأَى بُرْهانَ رَبِّهِ**﴾[1].

وجلس سليمان في الخيمة، وكان من أجمل الناس وجهاً وأورعهم، فبصرت به أعرابية من قلة الجبل، وانحدرت إليه، حتى وقفت بين يديه، وعليها البرقة والقفازان، فأسفرت عن وجهٍ لها كأنه فلقة قمر، وقالت: أهنيئني. فظن أنها تريد طعاماً، فقام إلى فضلة السفرة ليعطيها، فقالت: لست أريد هٰذا، إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله، فقال: جهزك إلي إبليس، ثم وضع رأسه بين ركبتيه، وأخذ في النحيب، فلم يزل يبكي، فلما رأت منه ذلك؛ سدلت البرقعة إلى وجهها، وانصرفت راجعة، حتى بلغت أهلها، وجاء رفيقه، فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء، وانقطع خلقه، فقال: ما يبكيك؟ قال: خير ذكرت صبيتي. قال: لا والله إن لك قصة، إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاثين أو نحوها، فلم يزل به حتى أخبره خبر الأعرابية، فوضع رفيقه السفرة، وجعل يبكي بكاء شديداً، فقال سليمان: وأنت ما يبكيك؟

---

(١) سورة يوسف: .

قال: أنا أحق بالبكاء منك؛ لأني أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها، فلم يزالا يبكيان، حتى انتهى سليمان إلى مكة، فسعى وطاف، ثم أتى الحجر، فاحتبى بثوبه، فأخذته عينه، فنام، وإذا رجل وسيم طوال له شارة حسنة ورائحة طيبة، فقال له سليمان: رحمك الله من أنت؟ فقال له: أنا يوسف. قال: يوسف الصديق؟ قال: نعم. قال: إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لعجباً. فقال له يوسف: شأنك وشأن صاحبة الإيواء أعجب»[1].

* التعليق:

هٰذا أمر عجيب من الغزالي، أن يستره باسم «إحياء علوم الدين»، وهو في الحقيقة طعن في النبوة وأصحابها، بطريق قصصي، يدخل على مرضى القلوب، الذين لا ميزان شرعيّاً عندهم.

فالنبوة مكانة لا يصل إليها أحد؛ إلا من اختاره الله للنبوة، هٰذا هو المقرر عند علماء الكتاب والسنة، وأجمع عليه سلفهم وخلفهم.

أمَّا المتصوفة والفلاسفة منهم؛ فإدراك النبوة عندهم ومقامها أمر سهل ويسير، وذٰلك بالمجاهدات والخلوات والسياحة والجوع والسهر وغير ذٰلك من تعذيب النفس ممَّا نهى الله عنه، ولذٰلك يقول قائلهم في تفضيل الولي على النبي:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ في برزخٍ ... فُوَيْقَ الرَّسول ودُونَ الوَلي

فلذا لا يستغرب أن يذكر الغزالي هٰذه القصص التي مفادها أفضلية سليمان بن يسار الرجل الصالح على يوسف النبي الرسول سبط إبراهيم الخليل عليه السلام والذي خصص له سورة بكاملها في القرآن لعظم شأنه

(١) (٣ / ١٠٥).

عنده.

وحاشا سليمان بن يسار أن يصدر منه هٰذا الذي حكاه الغزالي عنه. فإن سليمان بن يسار من أجل العلماء ومن خيرتهم، ولكن هٰذه القصة وأمثالها من وضع الوضاعين، ولذا لا يذكر الغزالي المصادر التي ينقل منها، ولا الأسانيد التي يمكن أن يرجع إليها، فيلقي بمثل هٰذا إلى الجهلة والغفلة الذين لا يهمهم صحة القصة أم بطلانها، وإنما يهمهم إشباع رغبة الهوى، ومتابعة الشيطان في تخطيطه.

وعلى فرض صحة هٰذه القصة؛ فإن هٰذه منامة شيطانية، لا تجوز حكايتها؛ لأنها تخالف ما عند المسلمين من الأصول الصحيحة المعلومة عندهم بالضرورة، فلا مقارنة عندهم بين نبي وغيره في الفضل، بل نهينا أن نفضل الأنبياء على بعضهم، فضلاً عما هو دونهم. والله المستعان.



● **ومن طاماته:**

مساوىء الأخلاق والكبائر من الولاية والمقامات

قال الغزالي:

«كما حكي عن بعضهم: أنه كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس، ويكلف نفسه الصبر، ويكظم غيظه، حتى صار الحلم عادة له، بحيث كان يضرب به المثل»[1].

* **التعليق:**

أقول: فالغزالي يذكر هذا من المقامات، ومن صفات الأولياء، والنبي ﷺ جعل ذلك كبيرة من الكبائر:

روى البخاري «بسنده» إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه». فقيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل أبويه؟! قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»[2].

فكيف يتقرب هؤلاء إلى الله بما يخالف نصوص السنة الصحيحة الصريحة، ويجعلون ذلك مكرمة لهم وديناً؟!

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً»[3].

---

(١) (٣ / ٦٢).

(٢) «فتح الباري» (١٠ / ٤٠٣).

(٣) (٤ / ٢٠٠٥).

وفي «صحيح مسلم» أيضاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»(١).

فهـذا كلام رسـول الله ﷺ الصريح، ولكن القوم يرون الهداية في خلافه، والغزالي يسجل ذلك على أنه من «إحياء علوم الدين».

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة عن الرسول ﷺ؛ قال: «المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم»(٢).

وفي «البخاري» عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: «سباب المسلم فسوف، وقتاله كفر»(٣).

فهٰذا رسول الله ﷺ يعتبر السباب فسوقاً وانحرافاً عن الدين، وهٰؤلاء يعتبرونه قربة وديانة ومثالاً للزهد والاستقامة، والغزالي يعتبره من «إحياء علوم الدين».

وروى البزار بإسناد جيد كما قال المنذري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ؛ قال: «سباب المسلم كالمشرف على الهلكة»(٤).

وفي «الترمذي» ـ وقال فيه: حسن صحيح ـ عن أبي جري جابر بن سليم رضي الله عنه؛ قال: رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه، لا يقول شيئاً؛ إلا صدروا عنه، قلت: من هٰذا؟! قالوا: هٰذا رسول الله ﷺ. قلت: السلام عليك. قال: قلت: أنت رسول الله؟ قال: «أنا رسول الله، الذي إذا أصابك

(١) (٤ / ٢٠٠٦).

(٢) (٤ / ٢٠٠٠).

(٣) «فتح الباري» (١٠ / ٤٦٤).

(٤) (٤ / ٤٦٧) «الترغيب والترهيب».

ضر فدعوته كشفه عنك، وإن أصابك عام سنة فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفر أو فلاة فضلت راحلتك فدعوته ردها عليك». قال: قلت: اعهد إلي. قال: «لا تسبنَّ أحداً». فما سببت بعده حرّاً ولا عبداً ولا بعيراً ولا شاة. قال: «ولا تحقرن شيئاً من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك إن ذٰلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت؛ فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الأزار؛ فإنها من المخيلة، إن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيرك بما يعلم فيك؛ فلا تعيره بما تعلم فيه؛ فإنما وبال ذٰلك عليه»(١).

قلت: هٰكذا المنهاج النبوي، المعاهدة على ترك السباب والمشاتمة، والأمر بالصبر لمن عيرك بما يعلم فيك، حتى تكمل أخلاق المسلمين، وتكون المثال الأعلى، وأمَّا الغزالي وجماعته؛ فيرون خلاف ذٰلك، ويذكرون تلك القصص الباردة، التي مفادها الرد على الله وعلى رسوله ﷺ.

وفي البخاري ومسلم من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذباً متعمداً؛ فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشيء؛ عذب به يوم القيامة، وليس على رجل نذر في ما لا يملك، ولعن المؤمن كقتله»(٢).

وفي الطبراني بإسناد جيد ـ كما يقول المنذري ـ عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه؛ قال: «كنا إذا رأينا الرجل يلعن أخاه؛ رأينا أنه قد أتى باباً من باب الكبائر»(٣).

---

(١) (٥ / ٧٢)، أبو داود (٤ / ٣٤٤).

(٢) «فتح الباري» (١٠ / ٤٦٤).

(٣) (٣ / ٤٧٢) «الترغيب والترهيب».

وفي «صحيح مسلم» من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه؛ قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة، فضجرت، فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة». قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد[1].

إلى غير ذلك من الأحاديث.

وفي كتاب الله يقول الله تعالى: ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَولِ إلا مَنْ ظُلِمَ﴾[2].

وفيه قوله تعالى: ﴿وإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ ولَئِنْ صَبَرْتُم لَهُو خَيْرٌ للصَّابِرينَ﴾[3].

وفيه قوله تعالى: ﴿ولَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمُورِ﴾.

وفيه قوله تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجاهِلينَ﴾.

وفي صفات عباد الرحمن في القرآن: ﴿وإذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾.

وفيه قوله تعالى: ﴿واصْبر على مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورِ﴾.

والقرآن والسنة مملوآن بمثل هذا، والغزالي وأصحابه يردون على هذا باسم «إحياء علوم الدين»، والذين يرغبون الناس في قراءة هذا الكتاب واقتنائه، هم شركاء لهم في كل وقت وحين.

---

(١) (٤ / ٢٠٠٥).

(٢) سورة المائدة: ١٤٨.

(٣) سورة النحل: ١٢٦.

● ومن طاماته :
أخذ الرياضات عن عباد الهنود

قال الغزالي :

«وعباد الهنود يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة، وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام، فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل؛ ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع»(١).

* **التعليق :**

هٰكذا يصرح الغزالي بالمصدر الذي يأخذ منه دينه وسلوكه، ولا شك أن هٰذا الفعل إن صح فعله عمن ذكره مخالف لمنهاج النبي ﷺ الذي جاء بالوسطية في كل شيء، وجاء بالسماحة ورفع الحرج عن الأمة، وجاء برفع الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة.

وفي «البخاري» عن عائشة؛ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم؛ أمرهم من الأعمال بما يطيقون. قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب، حتى يُعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»(٢).

قلت: ماذا لو رأى أو سمع رسول الله ﷺ ما حكاه الغزالي من الوقوف على الرؤوس؛ فهو يكره لأمته التنطّع والتشدّد، ويعتبر ذٰلك خروجاً عن منهاجه وعن ديانته السمحة التي جاء بها.

وفي «البخاري» أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ؛ قال: «إن الدين

---

(١) (٣ / ٦٢).

(٢) (١ / ٧٠).

يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[١].

وفي «مسند أحمد» و«الأدب المفرد» ـ ويقول عنه الحافظ: إسناده حسن ـ عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»[٢].

وفي «المسند» أيضاً من حديث بريدة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم هدياً قاصداً؛ فإنه من يشاد هٰذا الدين يغلبه»[٣].

قال الحافظ وإسناده حسن.

قلت: كل هٰذا لا يرتضيه الغزالي، ويرى خلافه في المناهج الهندية الكافرة، التي لم تهتَد بنور النبوة.

وفي «البخاري» عن عائشة: أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: «من هٰذه؟». قلت: فلانة؛ تذكر من صلاتها. قال: «مه؛ عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا». وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه[٤].

وروى البخاري عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه؛ قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟! قلت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في

---

(١) (١ / ٩٣) «فتح الباري».
(٢) (١ / ٩٤) «فتح الباري».
(٣) (١ / ٩٤) «فتح الباري».
(٤) (١ / ١٠١) «فتح الباري».

الدنيا. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً، فقال له: كل. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. قال: فأكل. فلما كان الليل؛ ذهب أبو الدرداء يقوم. قال: نم. فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم. فلما كان من آخر الليل؛ قال سلمان: قم الآن. فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقّاً، ولنفسك عليك حقّاً، ولأهلك عليك حقّاً، فأعطِ كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال له النبي ﷺ: «صدق سلمان»(١).



(١) (٤ / ٢٠٩) «فتح الباري».

● ومن طاماته :

مدح تعريض الإنسان نفسه للمهالك

قال الغزالي : وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب، فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة، فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج[1].

* التعليق :

قلت : وهٰذا أمر محرم لا يجوز فعله، والله تبارك وتعالى حرم علينا أن نعرض أنفسنا إلى التهلكة، وإلى كل ما من شأنه أن يضر جزءاً من البدن عاجلاً أو آجلاً.

قال الله تعالى : ﴿ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إلى التَّهْلُكَةِ﴾.

والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص الأسباب.

والصلاة على عظم شأنها لا يجوز للجنب استعمال الماء في وقت البرد إذا كان يضر به لبرودته، فيتحول إلى التيمم الذي لا ضرر فيه، وقد أخذ بذٰلك صحابة رسول الله ﷺ؛ كما في قصة عمرو رضي الله عنه لما أجنب تيمم، واستدل بقوله تعالى : ﴿ولا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾، وأقره النبي ﷺ على ذٰلك[2].

وفي الرجل الذي أفتاه بعضهم بالغسل، لما كان به شُجاج، فمات، فقال ﷺ : «قتلوه قاتلهم الله، هلا سألوا إذ لم يعلموا، إنما شفاء العي

---

(١) (٣ / ٦٢).

(٢) وقد ذكره البخاري تعليقاً، وأخرجه أبو داود والحاكم موصولاً، انظر: «فتح الباري» (ص ٣٥٤).

السؤال»[1].

ورخص للمسافر في الإفطار.

وهٰذه الصور كثيرة في الإسلام، والنبي ﷺ جاء رحمة لأمته، ولم يبعث بشقائهم، وأمرهم بقتل أنفسهم وتعريضهم إلى التهلكة، كما يذكر لنا الغزالي عن هٰؤلاء المنافقين، ويعتبره من مناقبهم ومن ولايتهم.

وفي «فتح الباري» من حديث زهير بن عبد الله عن النبي ﷺ: «من ركب البحر إذا ارتج؛ فقد برئت منه الذمة».

وفي رواية: «فلا يلومن إلا نفسه».

أخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث»، وقال الحافظ: «وإسناده حسن»[2].

فيلاحظ القارىء أن هٰؤلاء الذين يزعمهم الغزالي أنهم الأولياء وأصحاب المقامات في شق والنبي ﷺ في شق آخر؛ فكيف يكون هٰذا «إحياء علوم الدين» وهو في الحقيقة رد صريح على من جاء بعلوم الدين. والله المستعان.



---

(١) أبو داود (١ / ٢٤٠)، وله طرق يقوي بعضها بعضاً.

(٢) (٦ / ٨٨).

● ومن طاماته :

محادَّة الله ورسوله ومخالفة الفطر السليمة بمدح العزوبة والدعوة إليها

قال الغزالي :

«اعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي ألا يشغل نفسه بالتزويج ؛ فإن ذٰلك شغل شاغل يمنعه من السلوك، ويستجره إلى الأنس بالزوجة، ومن أنس بغير الله ؛ شغل عن الله، ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله ﷺ .

ولذٰلك قال أبو سليمان الداراني : من تزوج ؛ فقد ركن إلى الدنيا .

وقال : ما رأيت مريداً تزوج فثبت على حاله الأول .

وقيل له مرة : ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها! فقال : لا آنسني الله بها ؛ أي : إن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى .

وقال أيضاً : كل ماشغلك عن الله من أهل ومال وولد ؛ فهو عليك مشؤوم .

فشرط المريد العزبة في الابتداء إلى أن يقوى في المعرفة»[1] .

* التعليق :

وفي هٰذه الطامة من المفسدة والمخالفة لشرع الله ما هو واضح ، وقد سبق أن ذكرنا بعض ذٰلك ، فلنضف ما حضرنا من الأدلة من الكتاب والسنة ، حتى يعلم القارىء مخالفة هٰؤلاء لشرع الله جملة وتفصيلاً ، وأن كتابة هٰذه العناوين إنما هي خدعة للجاهلين والعاقلين عن منهاج الكتاب والسنة .

---

(١) (٣ / ١٠١).

جاء في «صحيح» البخـاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة؛ فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع؛ فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء»[1].

وفي «التـرمـذي» وحسنه من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ «أربع من سنن المرسلين: الحياء، والتعطر، والسواك، والنكاح»[2].

وفي «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»[3].

وفي «الترمذي» ـ وقال: حديث حسن صحيح ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»[4].

وفي «صحيح» البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: جاء رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا، كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر أبداً، وقال آخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

---

(١) (٩ / ١٠٦).

(٢) (٣ / ٣٩١).

(٣) (٢ / ١٠٩٠).

(٤) (٤ / ١٨٤).

فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي؛ فليس مني».

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»:

«والمراد: من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية؛ فإنهم الذين ابتدعوا التشديد؛ كما وصفهم الله تعالى، قد عابهم بأنهم ما وفوه بما التزموه، وطريقة النبي ﷺ الحنيفية السمحاء، فيفطر ليتقوى على الصوم، وينام ليتقوى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة وإعفاف النفس وتكثير النسل.

وقوله: «فليس مني»: إن كانت الرغبة بضرب من التأويل يعذر صاحبه فيه؛ فليس مني ـ أي: على طريقتي ـ، ولا يلزم أن يخرج عن الملة، وإن كان إعراضاً وتنطُّعاً يفضي إلى اعتقاد أرجحية عمله؛ فمعنى: «فليس مني»: ليس على ملتي أن اعتقاد ذٰلك نوع من الكفر، وفي الحديث دلالة على فضل النكاح والترغيب فيه»(١).

وفي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»(٢).

وفي «سنن أبي دواد» من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه؛ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني أصبت امرأة ذات

---

(١) (٩ / ١٠٥) «فتح الباري».

(٢) (٩ / ١٣٢).

حسب ومنصب ومال، إلا أنها لا تلد، أفأتزوجها؟ فنهاه، ثم أتاه الثانية، فقال له مثل ذلك، ثم أتاه الثالثة، فقال له: «تزوجوا الودود الولود؛ فإني مكاثر بكم الأمم»(١).

أما القرآن:

فقد قال الله تعالى: ﴿وأَنْكِحُوا الأيَامَى مِنْكُمْ والصَّالِحينَ منْ عِبَادِكُمْ وإمَائِكُمْ إنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾(٢).

وقال تعالى أيضاً: ﴿فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ﴾(٣).

وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم: ﴿ولَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِك وجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وذُرِّيةً﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿والذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْواجِنا وذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ومِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وجَعَلَ بَيْنَكُمْ مودَّةً ورَحمةً﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿فَانْكِحُوا ما طَابَ لكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ﴾(٧).

---

(١) أبو داود (٢ / ٥٤٢).

(٢) سورة النور: ٣٢.

(٣) سورة البقرة: ٢٣٢.

(٤) سورة الرعد: ٣٨.

(٥) سورة الفرقان: ٧٤.

(٦) سورة الروم: ٢١.

(٧) سورة النساء: ٣.

وفي «البخاري» بسنده إلى عطاء؛ قال: «حضرنا مع ابن عباس جنازة ميمونة بسرف، فقال ابن عباس: هٰذه زوجة النبي ﷺ، فإذا رفعتم نعشها؛ فلا تزعزعوها، ولا تزيلوها، وارفقوا؛ فإنه كان عند النبي ﷺ تسع، كان يقسم لثمان، ولا يقسم لواحدة».

وفي «البخاري» أيضاً عن سعيد بن جبير: «قال لي ابن عباس: هل تزوجت؟ قلت: لا. قال: فتزوج؛ فإن خير هٰذه الأمة أكثرها نساء» (١).

هٰذه هي آيات القرآن، وهٰذه نصوص السنة، فمن أحق بالاتباع؟! هل نصوص القرآن والسنة أم كلام الغزالي الذي فيه من المفاسد والآفات:

الأولى: الرغبة عن سنة رسول الله ﷺ وعما أمر الله به، وقد تقدم ما قاله الحافظ فيمن ترك ذٰلك تنطعاً وزهداً في سنة رسول الله ﷺ، ولو لم يكن في هٰذا من المفسدة إلا أنه داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيبات مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ولا تَعْتَدُوا**﴾ (٢)؛ لكفى.

الثانية: قطع النسل الذي هو من أهم أهداف الزواج، وهو مخطط قديم، في تضعيف أمة محمد ﷺ بجميع الوسائل، وما يزال هٰذا المخطط ينفذ، ويحاط بمجموعة من المغريات، وفي نفس الوقت من التخوفات؛ فالنبي ﷺ يباهي بأمته يوم القيامة الأمم، وهٰؤلاء يزهدون في ذٰلك.

الثالثة: التشبه بالرهبان والهنود، هٰذه سنة رهبانية شيطانية هندية هندوكية، تبناها الصوفية منهاجاً لهم.

الرابعة: إشاعة الفاحشة في المجتمع، وما عرف اللواط في العالم

---

(١) «فتح الباري» (٩ / ١١٢ - ١١٣).

(٢) سورة المائدة: ٨٧.

الإسلامي؛ إلا بقلة الزواج، ولهٰذا يكثر اللواط في كثير من الطرق الصوفيَّة، بل بعضهم يرى اللواط قربة، ويعرف ذٰلك من درس أحوالهم وعرف أشخاصهم.

والله تعالى يقول في القرآن: ﴿إِنَّ الذينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ في الذينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ في الدُّنْيا والآخِرةِ﴾[1].

الخامسة: هي خطيرة: قول الغزالي: «ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله ﷺ»؛ فهل هٰذه تهمة لرسول الله ﷺ، فلا يبادر من العبارة إلا ذٰلك! ويكفي الإنسان خزياً وعاراً أن يتهم رسول الله ﷺ، فلا نسمع إلى الغزالي إذا حاول أن يهدىء من هٰذه العبارة، فمهما لطف من القول؛ فإن هٰذه كبيرة وكبيرة جدّاً.



(١) سورة النور: ١٩.

● ومن طاماته :

رؤية أبي يزيد مرة واحدة أنفع من رؤية الله سبحانه سبعين مرة

قال الغزالي :

«وحكي أن أبـا تراب النخشبي كان معجباً ببعض المريدين، فكان يدنيه ويقوم بمصالحه، والمريد مشغول بعبادته ومواجدته، فقال له أبو تراب يوماً: لو رأيت أبا يزيد؟! فقال: إني عنه لمشغول. فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله: لو رأيت أبا يزيد! هاج وجد المريد، فقال: ويحك! ما أصنع بأبي يزيد وقد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد؟ قال أبو تراب: فهاج طبعي، ولم أملك نفسي، فقلت: ويلك! تغتر بالله عز وجل، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة؛ كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة. قال: فبهت الفتى من قوله وأنكره، فقال: وكيف ذلك؟! قال له: ويلك! أما ترى الله عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره. فعرف ما قلت، فقال: احملني إليه. . . » فذكر قصة قال في آخرها: «فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيطة، وكان يأوي إلى غيطة فيها سباع. قال: فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره، فقلت للفتى: هذا أبو يزيد؛ فانظر إليه، فنظر إليه الفتى، فصعق، فحـركنـاه، فإذا هو ميت، فتعاونا على دفنه، فقلت لأبي يزيد: يا سيدي! نظره إليك قتله؟ قال: لا، ولكن كان صاحبكم صادقاً، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه، فلما رآنا؛ انكشف له سر قلبه، فضاق عن حمله؛ لأنه في مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك»(١).

---

(١) (٤ / ٣٥٦).

* **التعليق:**

فلا أدري كيف تسجل هٰذه الوقاحات وهٰذه البلايا والمصائب في كتب المسلمين، وتدخل ضمن عنوان «إحياء علوم الدين»، وضررها على الدين واضح، بل ضررها على الإنسانية جمعاء مسلمهم وكافرهم، عقلية فاسدة وقصص لا معنى لها وكفريات لا حد لها ولا مقدار.

فلا أدري لو سمع الصحابة ومن بعدهم من التابعين والأئمة المرضيون مثل هٰذه الخزعبلات؛ ماذا يقولون؟! فكيف بنبي من الأنبياء؟! وهو من أولي العزم من الرسل، يطلب رؤية ربه، ويعتبرها من أسعد ما يصل إليه، ولا تتحقق له ـ لضعفه وعدم قدرته على ذلك ـ، ونبينا ﷺ جعل ذٰلك ذروة أصول دينه، والقرآن اعتبر رؤية الله تعالى نهاية السعادة. هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرى: هل هناك من يقارن بين الخالق والمخلوق؟! والمقارنة بينهما والتسوية بينهما نهاية التشبيه الذي أجمع العلماء على كفر صاحبه، وليس في علماء المسلمين بحمد الله من يفعل ذلك؛ إلا الصوفيَّة أهل الحلول والاتحاد، الذين لا يفرقون بين خالق ومخلوق، وضلال هذا الكلام واضح لكل ذي لب سليم؛ إلا من مسخ قلبه، وانقلبت فطرته، وسقط ميزانه؛ فهو الذي يعجب بهٰذه الترهات، ويتأولها؛ ليعتذر لهؤلاء الضلال. والله المستعان.



● **ومن طاماته :**

التمدح بالظلم والظالمين

قال الغزالي :

«ولما دخل الزنج البصرة، فقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، اجتمع إلى سهل إخوانه، فقالوا: لو سألت الله تعالى دفعه. فسكت، ثم قال: إن لله عباداً في هٰذه البلدة، لو دعوا على الظالمين؛ لم يصبح على وجه الأرض ظالم؛ إلا مات في ليلة واحدة، ولكن لا يفعلون. قيل: لم؟! فقال: لأنهم لا يحبون ما لا يحب. ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لا يستطيع ذكرها. . . حتى قال: ولو سألوه ألا يقيم الساعة؛ لم يقمها»(١).

*** التعليق :**

ترى إذا قرأت هٰذه القصة يتبين لك المنهاج الصوفي، الذي أدخل على المسلمين كل المصائب والبلايا والفساد الخلقي والسياسي.

لو فتحنا كتاب الله من أوله إلى آخره كم نجد من الآيات التي تحرم الظلم، وتنعى على الظالمين ظلمهم، وتنفي عن رب العالمين الظلم قليله وكثيره، وكم من الأحاديث القدسية وغير القدسية في تحريم الظلم وذم الظالمين، وميزان المؤرخين وكل عاقل فيمن مضى من الحكام والحاضرين هو ظلمهم وعدالتهم، وما تميز العمران عن بقية الخلفاء إلا بالعدل ونفي الظلم ورد المظالم إلى أهلها، وما مدح أحد إلا بعدله ومحاربته للظلم، وما ذم أحد إلا بالظلم والمعاصي، وفي مقدمتها الشرك بالله من الظلم؛ فكيف يتمدح هؤلاء بما يخالف الشرائع والفطر والعقول السليمة؟!

---

(١) (٤ / ٣٥٧).

ولوضوح هذا أترك القارىء يرجع بنفسه لمعرفة النصوص الكثيرة في هٰذا الباب، وضلال باقي النص واضح، حيث وصفوا الله تعالى بالظلم، وادعوا ما لا يجوز لهم من سؤاله: ألا يقيم الساعة، والمسلم لا يجوز له بحال أن يدعي مثل هٰذه الدعاوى الكاذبة. والله المستعان.



● ومن طاماته :

عدم القناعة بمراتب النبوة والرسالة
وطلب ما هو أكثر من ذٰلك

قال الغزالي :

«ولـذٰلـك كان أبـو يزيد يقول: إن أعطاك مناجاة موسى ، وروحانية عيسى ، وخلة إبراهيم ؛ فاطلب بما وراء ذٰلك»[1] .

* التعليق :

ماذا بعـد النبـوة من مرتبة؟! فالقرآن والكتب السماوية من أولها إلى آخرها تعتبر النبوة أعلى المرتبات، ولكن الصوفية يعتبرون الولاية أفضل من ذٰلـك؛ كمـا صرح بذٰلك إمامهم وشيخهم الضال الهالك المسمى بمحيي الدين بن عربي

مَقَـامُ الـنُّـبُـوةِ فـي بَرْزَخٍ ... فُوَيْقَ الـرَّسُـولِ ودُونَ الـوَلِـي

وكأني بهٰذا النص يطابق ما ذكره ابن عربي ، فمن لا يرضى بمناجاة موسى ولا مرتبة عيسى ولا خلة إبراهيم ؛ فهو لا شك أفضل من هٰؤلاء الذين أجمع المسلمون على تقدمهم في المرتبة بعد نبينا ﷺ .

وأهل الأهواء وأهل البدع يتألون مثل هٰذه الكفريات، ويحللونها بما يناسب أهواءهم وبدعهم، فلا ينبغي للمسلم الصادق أن يلتفت إليه .



(1) (٤ / ٣٥٧).

● **ومن طاماته:**

تزكية الأنفس ومخالفة ما هو معلوم عند المسلمين بالضرورة

قال الغزالي:

«وقد قال بعض العارفين: كشفت بأربعين حوراء، رأيتهن يتساعين في الهواء، عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر، يتخشخش ويتثنى معهن، فنظرت إليهن نظرة، فعوقبت أربعين يوماً، ثم كوشفت بعد ذٰلك بثمانين حوراء، فوقهن في الحسن والجمال، وقيل لي: انظر إليهن، فسجدت وغمضت عيني في سجودي؛ لئلا أنظر إليهن، وقلت: أعوذ بك ممَّا سواك، لا حاجة لي بهٰذا، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني»(١).

* **التعليق:**

ترى في هٰذا النص ما يخالف المعلوم عند المسلمين من الدين بالضرورة، فتزكية النفس أمر منهي عنه في القرآن وفي السنة، وهو منهاج يهودي، أخذه الصوفية من اليهود، أما المسلم الحق؛ فيعيش بين الخوف والرجاء.

قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ ولا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً . انْظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ على اللهِ الكَذِبَ وكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً﴾**.

قال الحافظ ابن كثير:

«قال الحسن وقتادة: نزلت هٰذه ـ قوله: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الذينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ...﴾** ـ في اليهود والنصارى حين قالوا: **﴿نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُهُ﴾**».

---

(١) (٤ / ٣٥٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا معتمر عن أبيه عن نعيم بن أبي هند: قال عمر بن الخطاب: «من قال: أنا مؤمن؛ فهو كافر، ومن قال: أنا عالم؛ فهو جاهل، ومن قال: أنا في الجنة؛ فهو في النار»[1].

وكل ما ورد من نهي عن النبي ﷺ في المدح؛ فهو صادق على الإنسان نفسه قبل غيره؛ كما ثبت في «صحيح مسلم» عن المقداد بن الأسود: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجه المداحين التراب[2]».

وفي القرآن: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هو أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾.

وفي «مسند أحمد»: «من يرد الله به خيراً؛ يفقهه في الدين، وإن هٰذا المال حلو خضر، فمن يأخذه بحقه؛ يبارك له فيه؛ وإياكم والتمادح؛ فإنه الذبح»[3].

والحكم لأحد بجنة أو نار في حياته أو بعد موته منهاج يهودي أيضاً، أما المسلمون والسلف الصالح؛ فمنهاجهم عدم الحكم لأحد بجنة أو نار.

أخرج البخاري في «صحيحه» بسنده إلى أم العلاء امرأة من الأنصار بايعت النبي ﷺ؛ قالت: إنه اقتسم المهاجرون قرعة، فطار عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فوجع وجعه الذي توفي فيه، فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه؛ دخل رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب؛ فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله قد أكرمه؟!». فقلت: بأبي أنت يا رسول الله؛ فمن يكرمه الله؟! فقال: «أما

---

(١) (٢ / ٢٩٢).

(٢) «الزهد» (٨ / ٢٢٨).

(٣) (٤ / ٩٣).

هو؛ فقد جاءه اليقين، والله؛ إني لأرجو له الخير، والله؛ ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي». قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً(١).

انظر رعاك الله إلى سيد الأولين والآخرين لا يحكم لنفسه بجنة بعد وفاته، وهؤلاء يزعمون لأنفسهم أكثر من ذلك، فبعداً لهم وسحقاً.

وفي «صحيح مسلم» عن عائشة أم المؤمنين؛ قالت: توفي صبي، فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة. فقال رسول الله ﷺ: «أو لا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار، فخلق لهٰذه أهلاً ولهٰذه أهلاً؟!»(٢).

فالنبي ﷺ حريص على أمته، رحيم بهم، رؤوف بهم، يدلهم على خير ما ينفعهم، ويحذرهم شر ما يضرهم، ويجعلهم الأمة الصادقة، التي تتعامل مع خالقها على ما يرضيه منها، وذٰلك باتباع كتابه وسنة نبيه ﷺ.

وأمَّا هؤلاء الضلال؛ فيسخرون من الأمة، ويضحكون عليها، ويجعلونها أمة تائهة، تعيش على الأماني والأحلام، وعلى الكذب والدجل، وشر منهم أهل هٰذا العصر الذي نحن فيه، الذي اتضحت فيه معالم السنة، وافتضحت فيه مخازي البدعة، ومع ذٰلك يحيطون أنفسهم بأسوار من البدع، ويكذبون على الناس بالليل والنهار، ويلعبون على الشباب الجهال الذين لم يتعلموا من العلم إلا أعداداً حسابية وجملاً ركيكة من بعض المدارس العلمانية ولو أخذوا أعلى الشهادات، وتجد الأمي الذي صفت نظرته وعرف الحق وأهله أحسن منهم حالاً. والله المستعان.



---

(١) (٣ / ١١٤).

(٢) (٤ / ٢٠٥٠).

● ومن طاماته :

الدعوة إلى الذلة والمسكنة والامتهان

قال الغزالي :

«وعن بعضهم أنه قال: أقلقني الشوق إلى الخضر عليه السلام، فسألت الله تعالى مرة أن يرينيه إياه؛ ليعلمني شيئاً كان أهم الأشياء علي. قال: فرأيته، فما غلب علي همي ولا همتي؛ إلا أن قلت له: يا أبا العباس! علمني شيئاً إذا قلته حجبت من قلوب الخليقة، فلم يكن لي فيها قدر، ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة. فقال: قل: اللهم أسبل علي كثيف سترك، وحط علي سرادقات حجبك، واجعلني في مكنون غيبك، واحجبني عن قلوب خلقك. قال: ثم غاب، فلم أره، ولم أشتق إليه بعد ذلك، فما زلت أقول هذه الكلمات في كل يوم، فحكي أنه سار بحيث كان يستذل ويمتهن، حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق بحمل الأشياء لهم؛ لسقوطه عندهم، وكان الصبيان يلعبون به، فكانت راحته ركوض قلبه واستقامة حاله في ذله وخموله»[1].

* **التعليق :**

انظر رعاك الله ووقاك شر هذه الطامات، التي مفادها أن شريعة رسول الله ﷺ غير كافية لهؤلاء الضلال، فيحتاجون إلى غيرها، ولهذا لفقوا دينهم بين الهندوسية والرهبانية وغيرها ممَّا سيذكر إن شاء الله.

فأين الغزالي من غضب رسول الله ﷺ على عمر إذ وجده ينظر في بعض صفحات التوارة؟! وهل ديننا دين العزة والكرامة أو هو دين الذلة

---

(١) (٤ / ٣٥٧).

والمهانة؟!

فالله تعالى يقول: ﴿ولله العِزَّةُ ولِرَسُولِه وللمُؤْمِنِينَ﴾.

ويقول: ﴿ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

والنصوص في هٰذا المعنى كثيرة وكثيرة جدّاً.



● **ومن طاماته:**

المسلم بمنزلة الكلب في الخسة والدناءة عند الصوفية

قال الغزالي:

«ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة، حتى روي أن ابن الكريبي ـ وهو أستاذ الجنيد ـ دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات، ثم كان يرده، ثم يستدعيه، فيرجع إليه بعد ذٰلك، حتى أدخله في المرة الرابعة، فسأله عن ذٰلك؟ فقال: روضت نفسي على الذل عشرين سنة، حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يُدعى فيرمى له عظم فيعود، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذٰلك؛ لأجبت»[1].

* **التعليق:**

هٰكذا نقل هٰذه المخازي وهٰذه الطامات الكبرى، التي مفادها أن المسلمين أحقر من اليهود والنصارى، الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ وبَاؤوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ**﴾.

والله تبارك وتعالى جعل الذلة والمسكنة من غضبه على أعدائه اليهود، وهٰؤلاء يجعلون الذلة والصغار والحقار من أهم أسس منهاجهم، نسأل الله السلامة والعافية.



(١) (٤ / ٣٥٨).

● **ومن طاماته :**

السرقة واللصوصية مدعاة لراحة النفس ورضاها

قال الغزالي :

«وعنه أيضاً أنه قال: نزلت في محلة، فعرفت فيها بالصلاح، فتشتت علي قلبي، فدخلت الحمام، وعدلت إلى ثياب فاخرة، فسرقتها ولبستها، ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت، وجعلت أمشي قليلاً، فلاحقوني، فنزعوا مرقعتي، وأخذوا الثياب، وصفعوني، وأوجعوني ضرباً، فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام، فسكنت نفسي»(١).

*** التعليق :**

والسرقة هي من منهاج الصوفيَّة، مضافة إلى الذلة والمسكنة التي اعتبروها من أعظم أصول الصلاح، وهي لعمر الله غضب من الله على أعدائه؛ فالسرقة من منهاج الصوفيَّة، ويفتخرون بهذا اللقب، كما هو واضح في هٰذه الواقعة المخذولة.



(١) (٤ / ٣٥٨).

● ومن طاماته:

كلمة (سبحان الله) شركٌ

قال الغزالي:

«فهٰكـذا كانـوا يروضـون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق، ثم من النظر إلى النفس، فإن الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى، وشغله بنفسه حجاب له، فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل، وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها، وأعظم الحجب شغل النفس.

ولـذٰلـك حكي أن شاهداً عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد، فقال له يوماً: أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد في قلبي من هٰذا الذي تذكر شيئاً، وأنا أصدق به وأحبه. فقال أبو يزيد: ولو صمت ثلاث مائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هٰذا ذرة. قال: ولم؟! قال: لأنك محجوب بنفسك. قال: أفلهٰذا دواء؟! قال: نعم. قال: قل لي حتى أعمله. قال: لا تقبله. قال: فاذكره لي حتى أعمل. قال: اذهب الساعة إلى المزين، فاحلق رأسك ولحيتك، وانزع هٰذا اللبـاس، واتزر بعباءة، وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزاً، واجمع الصبيان حولك، وقل: كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل السوق، وطف الأسـواق كلهـا عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذٰلك. فقال الرجل: سبحان الله! تقول لي مثل هٰذا؟ فقال أبو يزيد: قولك سبحان الله شرك. قال: وكيف؟! قال: لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك. فقـال: هٰذا لا أفعله، ولكن دلني على غيره. فقال: ابتدىء بهٰذا قبل كل

شيء. فقال: لا أطيقه. قال: قد قلت لك إنك لا تقبل»[1].

* **التعليق:**

فلا أدري أين نضع هٰذه النصوص من الدين الذي يريد الغزالي إحياءه، أما دين الإسلام؛ فلا؛ فهو بريء من هٰذه الترهات؛ فالقرآن من أوله إلى آخره ما جاء إلا لتنزيه الله تبارك وتعالى عن الشرك والشركاء، وهٰذا يعتبر أن التسبيح شرك؛ فهل بعد هٰذا من كلام؟!

وأعجب من شبابنا الجهلة، الذين يشيعون في تجمعاتهم أن فلاناً وعلاناً يكفر الغزالي، ويشغلون الناس بقضية التكفير، ولكن لا يقرؤون عليهم هٰذه البلايا، فيحذرونهم منها؛ فإسلام الغزالي وتكفيره لا يفيد بشيء، والاشتغال به من أكبر العبث، ولكن الواجب المحتم على المسلم التحذير من هٰذه البلايا والاشتغال ببيانها وتحذير الناس منها من أعظم النصيحة للإسلام وللمسلمين.



---

(١) (٤ / ٣٥٨).

● ومن طاماته :

ذم ما مدح الله به خيرَ عباده

قال الغزالي :

«فأما القاصر منه؛ فهو الذي يجري مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن، فيورث البكاء، وتفيض الدموع»[1].

* التعليق :

انظر هداك الله إلى مخالفة صريح القرآن الذي يقول:

﴿وإذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[3].

ويكفي الإنسان خزيـاً أن يخالف صريح القرآن لباطل يروج به لجماعة من المنحرفين.



---

(١) (٤ / ١٥٧).

(٢) سورة المائدة: ٨٣.

(٣) سورة الزمر: ٢٣.

● **ومن طاماته :**

اتِّهام الله تعالى بالظلم

قال الغزالي :

«قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة»[1].

*** التعليق :**

وهل في الخزي أكثر من هٰذا، اتهام الله تبارك وتعالى بالجور والظلم، بحيث أكرم الملائكة من غير ما يستحقون لذٰلك، وطرد إبليس بغير ذنب؛ فما هٰذا؟! أين نصوص القرآن المستفيضة في وصف الله تبارك وتعالى بالعدل ونفي الظلم؟! وأين ما قصه الله تبارك وتعالى علينا من قصة إبليس ومخازيه وجرائمه وإبائه وامتناعه عن السجود لآدم؟! وقد كرر الله قصته في القرآن؛ لبيان فُحشه وضلاله وخُبثه ومكره، زيادة على مئات الآيات التي وصفته بأوصاف دقيقة، لو تتبعها الغزالي؛ لما وقع في هٰذه المهاوي الساحقة، التي لازمها التسوية بين المتقين والكفار والفجار، وأنه لا فرق بينهم، فأولٰئك أكرموا من غير وسيلة سابقة، وأولٰئك أهينوا من غير جريمة لاحقة.

وأين قوله تعالى في وصفه للملائكة: ﴿**عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[2].

وقوله: ﴿**وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ولا يَسْتَحْسِرُونَ**.

---

(١) (٤ / ١٦٨).

(٢) سورة الأنبياء: ٢٠.

يُسَبِّحُونَ اللَيْلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾[1].

وقـولـه: ﴿وقَـالُوا اتَّخذَ الرَّحْمنُ ولَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ وهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وهـذا أمـر معلوم عنـد المسلمين جميعاً بالضرورة؛ فالملائكة مِثال للطاعـة، وإبليس وجنـوده مِثـال للتمرد والعناد، وأصل الشرور والمعاصي المنتشرة في الأرض، ومنها هذا المسمى بـ «الإحياء»، الذي انتشر شره وملأ الدنيا بدعة وضلالاً، ونشر في المسلمين من الحديث الضعيف والموضوع ما الله عالم به، ولا يعلم شره إلا من مارسه وعرضه على ميزان الكتاب والسنة والمقاييس العلمية الصحيحة، وأمَّا المخرفون المهرجون؛ فـ «الإحياء» من أكبر مكاسبهم في تضليل أمة محمد ﷺ. والله المستعان.



(١) سورة التحريم: ٢٧.

(٢) سورة الأنبياء: ٢٧.

● **ومن طاماته:**

استحباب ما حرم الله ورسوله

قال الغزالي:

«وذلك كما روي أن بعضهم رأى أبا إسحاق النوري رحمه الله يمد يده ويسأل الناس في بعض المواضع. قال: فاستعظمت ذلك واستقبحته له، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك، فقال: لا يعظم هذا عليك؛ فإن النوري لم يسأل الناس؛ إلا ليعطيهم، وإنما سألهم؛ ليثيبهم في الآخرة، فيؤجرون من حيث لا يضرهم. وكأنه أشار به إلى قوله ﷺ: «يد المعطي هي العليا»[1]، فقال بعضهم: يد المعطي هي يد الآخذ للمال؛ لأنه يعطي الثواب والقدر لا لما يأخذه. ثم قال الجنيد: هات الميزان، فوزن مائة درهم، ثم قبض قبضة، فألقاها على المائة، ثم قال: احملها إليه. فقلت في نفسي: إنما يوزن الشيء؛ ليعرف مقداره؛ فكيف خلط به مجهولاً وهو رجل حكيم؟! واستحييت أن أسأله، فذهبت بالصرة إلى النوري، فقال: هات الميزان، فوزن مائة درهم، وقال: ردها عليه، وقل له: أنا لا أقبل منك أنت شيئاً، وآخذ ما زاد على المائة. قال: فزاد تعجبي، فسألته، فقال: الجنيد رجل حكيم، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه، وزن المائة لنفسه طلباً لثواب الآخرة، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل، فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى، ورددت ما جعله لنفسه. قال: فرددتها إلى الجنيد، فبكى. وقال: أخذ ماله ورد مالنا. والله المستعان»[2].

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) (٤ / ٢١٦).

* **التعليق:**

انظر عفاك الله من هٰذه البلايا والمصائب، التي تسجل باسم «إحياء علوم الدين»، وهي مناقضة لما جاءت به علوم الدين أصولها وفروعها.

أين الأحاديث التي وردت في النهي عن السؤال وما أكثرها؟! وقد جمعها أئمة الحديث رضوان الله عليهم:

فمنها ما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «لا تزال المسألة بأحدكم، حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم»(1).

ومنها عند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من سأل الناس تكثراً؛ فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر».

والأحاديث في هٰذا كثيرة، وكثيرة جدّاً، ومع هٰذا تجد هٰؤلاء يستحسنون التسول، ويرونه من المنهاج الصوفي المعظم. هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرى علم الغيب المدعى في القصة، وسنتكلم عليه إن شاء الله في حينه.

والقصد أن هٰؤلاء يخالفون ما هو معلوم عند المسلمين بالضرورة، ويرونه هو منهاجاً مثاليّاً، فمتى يرتفع شأن المسلمين عن هٰذه الترهات والبلايا التي أخرتهم دهراً من الزمان، وما يزالون قليلي الوزن في نظر أعدائهم؛ فكيف يرتقي ويكون سيد العالم من يرى التسول منهاجاً له، ويراه من كبريات الصلاح؟! والله المستعان.

---

(1) في «البخاري» و«مسلم».

● ومن طاماته:

محادة الله ورسوله في تكريم بني آدم

قال الغزالي:

«وقال المسيح عليه السلام: بحق أقول لكم: إنه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير»[1].

* التعليق:

أين قال المسيح هٰذا؟! وفي أي كتاب؟! ومن أي مصدر؟! وهل لنا مصدر عن المسيح وإخوانه من الأنبياء؛ إلا القرآن والسنة الصحيحة، وما سوى ذٰلك؛ فمن تحريف اليهود وصنعهم بإجماع من يعتد به؛ إلا الصوفيَّة الذين يستقون أصولهم من تحريفات اليهود والنصارى؛ كهٰذا المثال الذي نحن بصدده. هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرى: أين نصوص القرآن المستفيضة في تحليل الطيبات وفي وصف النبي ﷺ بأن ما جاء به هو تحليل الطَّيبات؟!

قال الله تعالى من سورة الأعراف في وصف النبي ﷺ: ﴿**الذينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ في التَّوراةِ والإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْـرُوفِ ويَنْهَـاهُمْ عَنِ المُنْكَـرِ ويُحِـلُّ لَهُمُ الـطَّيِّبَـاتِ ويُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ...**﴾ الآية[2].

وقوله تعالى من سورة المائدة: ﴿**يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ**

---

(١) (٤ / ١٣١).

(٢) الآية ١٥٧.

ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ . وكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالاً طَيِّباً واتَّقُوا اللهَ الذي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾(١).

وفي سورة الأعراف: ﴿يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هي للذينَ آمَنُوا في الحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يومَ القِيامَةِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ﴾(٢).

وفي سورة البقـرة: ﴿يـا أَيُّها الذينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ واشْكُرُوا للهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(٣).

وفي السورة نفسها: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا في الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبين﴾(٤). . .

إلى غير ذٰلك من الآيات.

وأما الأحاديث، وأعمال الرسول ﷺ وأفعاله، وأعمال السلف الصالح من الصحابة والتَّابعين ومن بعدهم؛ فيصعب حصرها.

وهٰذا الأصل معلوم عند المسلمين من الدين بالضرورة، فما حرمه الله هو الحرام، وما أباحه فهو المباح.

وقال تعالى: ﴿هو الذي خَلَقَ لَكُمْ ما في الأَرْضِ جَميعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وهو بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾.

(١) سورة المائدة: ٨٨.

(٢) سورة الأعراف: ٣٢.

(٣) سورة البقرة: ١٧٢.

(٤) سورة البقرة: ١٦٨.

فمــاذا تصــدق أيهــا المسلم؟! هل تصــدق ربـك في هٰذه الآيات الصريحات، أو نبيك في قوله وفعله، أو سلفك الصالح الذين كانوا يأكلون الـطَّيِّبـات ويتـركـون المحرمات؟! ومن قرأ سيرة عثمان ذي النورين وعبد الرحمٰن بن عوف وطلحة والزبير وغيرهم ممَّن أقام الله بهم أعلام الإسلام؛ ير ما أورده الغزالي من تحريفات اليهود وكذبهم على المسيح عليه السلام داخلاً في مخطط إبادة المسلمين، وإعطاء الفرص للعدو ليتقوى ويقوى على إبـادة المسلمين، وتفتيت وحـدتهم، وتفريق كلمتهم، وسحق معنوياتهم، وكان كذٰلك لما سجل المسلمون مثل هٰذا الفكر، وروجوا له، وما يزالون مع الأسف.



● ومن طاماته :

وصف الله تعالى بالعجز والإلحاد في قدرته

قال الغزالي :

«وليس في الإمكـان أصـلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل، ولو كان، وادخـره مع القـدرة، ولـم يتفضل بفعله؛ لكان بُخلاً يناقض الجود، وظلماً يناقض العدل»(١).

* **التعليق :**

هٰذه العبارة من أخبث العبارات الموجودة في هٰذا الكتاب، فهي نقض لأسماء الله وصفاته، التي جاءت من أجل بيان كمال قدرته، وأن قدرته لا نهاية لها ولا حد، فقبح الله علماً يتعلم منه هٰذا الضلال وهٰذه الوقاحة على أسماء الله وصفاته؛ فماذا يمثل الكون في قدرة الله؟!

قال الله تعالى : **﴿قُلْ لو كَانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي﴾**.

وقال الخضر لموسى عليه السلام ـ كما في «الصحيح» ـ: «فما مثل علمي وعلمك في علم الله إلا كما ينقر هٰذا الطائر من هٰذا البحر».

فأين علم النبوة والرسالة من علم إبليس وجنوده الذين ينطق هٰؤلاء على لسانهم؟! فهل من العقيدة الإسلامية أن نحدد صفة من صفات الله، وأن نعلل ذٰلك بجهلنا وضلالنا، اللهم لا.

فالمسلم يصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ،

---

(١) (٤ / ٢٥٨).

ويقف عند هٰذا الحد، ومن دخل إلى البحر؛ غرق فيه، ومن يتعد حدود الله؛ فقد ظلم نفسه.

﴿تِلْكَ حُدودُ اللهِ فَلا تَعْتَدوها ومَنْ يَتَعَدَّ حُدودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾[1].



---

(١) سورة البقرة: ٢٢٩.

● **ومن طاماته :**

نسف أصل التوحيد واللجإ إلى الله الذي جاء به الإسلام

قال الغزالي :

«ولهٰذا دخل جماعة على الجنيد، فقال: ماذا تطلبون؟! قالوا: نطلب الرزق. فقال: إن علمتم في أي موضع هو؛ فاطلبوه. قالوا: نسأل الله. قال: إن علمتم أنه ينساكم؛ فاذكروه. فقالوا: ندخل البيت ونتوكل وننظر ما يكون. فقال: التوكل على التجربة شك. قالوا: فما الحيلة؟! قال: ترك الحيلة.

وقال أحمد بن عيسى الخراز: كنت في البادية، فنالني جوع شديد، فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاماً، فقلت: ليس هٰذا من أفعال المتوكلين، فطالبتني أن أسأل الله صبراً، فلما هممت بذٰلك؛ سمعت هاتفاً يهتف بي ويقول:

ويَزْعُـمُ أَنَّـهُ مِنَّـا قَريبٌ ... وأَنَّـا لا نُضَيِّعُ مَنْ أَتَانَـا
ويَسْأَلُنَـا عَلى الإِفطَارِ جُهْداً ... كَأَنَّـا لا نَراهُ ولا يَرانـا»[1]

* **التعليق :**

أليس هٰذا نسفاً للعقيدة من أولها إلى آخرها، ونسفاً للآيات القرآنية والأحاديث النبوية؟!

قال الله تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لولا دُعاؤُكُمْ**﴾.

وقال الله تعالى: ﴿**وإذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾.

---

(١) (٤ / ٢٧٥).

وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾.

وفي «الترمذي» وغيره من حديث النعمان بن بشير: «الدعاء هو العبادة».

وحياة النبي ﷺ في يقظته وسفره وحضره كلها دعاء، وما روي عنه ﷺ من الدعاء في سرائه وضرائه لا نستطيع إحصاءه، وغزاوته وحروبه كان من أهم أسباب نصره فيها هو الدعاء، ورجوع المشركين عنه في غزوة الخندق كان من الدعاء، والصلاة من أولها إلى آخرها كلها دعاء، والعبادة جميعها دعاء ووقوف بين يدي الله، فما هٰذه العقيدة الكاذبة التي يذكرها الغزالي باسم «إحياء علوم الدين»، ويصد الناس بها عن أصول الدين وفروعه؟! والله المستعان.



● **ومن طاماته :**

الدعوة إلى عدم الخوف من الله تعالى والرغبة في جنته والرهبة من ناره

قال الغزالي :

«ولهٰذا قال أبو سليمان الداراني : إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟!

ولذٰلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له: أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت، فقال: ذكر الموت. فقال: وأي شيء الموت؟! فقال: ذكر القبر والبرزخ. فقال: وأي شيء القبر؟! فقال: خوف النار ورجاء الجنة. فقال: وأي شيء هٰذا؟! إن ملكاً هٰذا كله بيده، إن أحببته أنساك جميع ذٰلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة؛ كفاك جميع هٰذا.

وفي أخبار عيسى عليه السلام: إذا رأيت الفتى مشغوفاً بطلب الرب تعالى؛ فقد ألهاه ذٰلك عمّا سواه.

ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم، فقال: ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوارق؟ فقال: تركتهم الساعة بين يدي الله يأكلان ويشربان. قلت: فأنت؟ قال: علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب؛ فأعطاني النظر إليه.

وعن علي بن الموفق؛ قال: رأيت في النوم، كأني دخلت الجنة، فرأيت رجلاً قاعداً على مائدة، وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطَّيِّبات وهو يأكل، ورأيت رجلاً قائماً على باب الجنة، يتصفح وجوه الناس،

فيدخل بعضاً، ويرد بعضاً. قال: ثم جاوزتهما إلى حديقة القدس، فرأيت في سرادق العرش رجلاً قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى، لا يطرف، فقلت لرضوان: من هٰذا؟! [قال:] معروف الكرخي عبد الله لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته بل حبّاً له، فأباح له النظر إليه إلى يوم القيامة.

وقال الثوري لرابعة: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً من ناره، ولا حبّاً لجنته، فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حبّاً له وشوقاً إليه.

وقالت في معنى المحبة نظماً(١).

وقال إبراهيم بن أدهم: إلٰهي! إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك»(٢).

* التعليق:

فمن قرأ هٰذا وآمن به؛ فليطرح الكتاب والسنة في مزبلته، ولا يلتفت إليه؛ فإن القرآن من أوله إلى آخره يعظم الجنة ونعيمها، ويخوف من النار وعذابها، وأدعية الرسول ﷺ كلها استعاذة من النار وطلب للجنة.

ولذا جاء بعض الصحابة إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ما تقول في الصلاة؟!». قال: أتشهد ثم أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال ـ أي: الرسول ﷺ ـ: «حولها ندندن»(٣).

---

(١) (٤ / ٣١٠).

(٢) (٤ / ٣٦٠).

(٣) «ابن ماجه» (١ / ٢٩٥).

وهٰـذا الأصـل لا يحتاج إلى برهان، وهناك سور بكاملها خصصت للحديث عن الجنة والنار؛ فسورة الرحمٰن، وسورة الواقعة، وسورة الإنسان، وسورة النبأ، وسورة الغاشية، ومعظم سور القرآن ترغيب وترهيب.

ويأتي هٰؤلاء المفلسـون، ويزهـدون النـاس فيمـا عنـده بتـرهـاتهم وشطحاتهم، ويعلم الله أن هٰذا مخطط لنسف علوم الدين، ورحمة الله على الإمام ابن تيمية إذ يقول في «الإحياء»: «كمن أتى بعدو، فألبسه لباساً إسلامياً».



● **ومن طاماته :**

مدح السياحة والتجول والتيه في المفاوز والخلوات وهي ما يسمى عند التبليغيين (الخروج)

قال الغزالي :

«سمع إبراهيم بن أدهم قائلاً يقول وهو في سياحة وكان على الجبل :

كُلُّ شَيْءٍ مِنْـكَ مَغْفُـورٌ سِوَى الإِعْـرَاضِ عَنَّـا
قَدْ وَهَبْنـا كُلَّ مَا فَاتَ فَهَبْ لَنَـا مَا فَاتَ مِنَّـا

فاضطرب وغشي عليه، فلم يفق يوماً وليلة، وطرأت عليه أحوال، ثم قال: سمعت النداء من الجبل: يا إبراهيم! كن عبداً، فكنت عبداً، واسترحت»[1].

* **التعليق :**

هٰذه الطامة فيها شقان من الباطل :

الشق الأول: السياحة :

وهٰذه السياحة التي يفعلها هٰؤلاء غير مشروعة، وهي من فعل المبتدعة من الهنود وغيرهم، وقد ذكر الأستاذ إحسان إلٰهي ظهيري رحمة الله عليه في كتابه «التصوف: المنشأ والمصادر» تحت عنوان (المذاهب الهندية الفارسية) بعد كلام طويل ذكر فيه المقارنة بين صوفيَّة الهنود والصوفية المنتسبين إلى الإسلام :

«ومنذ القرن الثاني وما بعده، وحين بدأ المسلمون بنقل كتب الشعوب

---

(١) (٤ / ٣٣٥).

الأخرى، واتسعت دائرة العلوم، تُرجم مقدار من آثار البوذية والهندية، ممَّا يدخل في باب التصوف العملي؛ أي: الزهد وترك الدنيا ووصف العادات والتقاليد الهندية والبوذية في هٰذا الباب، ناهيك بنقل كتب هندية وبوذية في القرن الثاني للهجرة، والصلات التجارية والاقتصادية القائمة بين المسلمين والهنود في أوائل الخلافات العباسية، وقد انتشرت طائفة من تاركي الدنيا والسائحين من الهنود والمانيين في العراق وسائر البلاد الإسلامية الأخرى، وكما كانوا يتحدثون في القرن الأول عن الرهبان السائحين مع المسيحيين، كذٰلك أخذوا يتحدثون في القرن الثاني عن رهبان وسياح ممن لم يكونوا مسلمين ولا نصارى، وهم الذين سماهم الجاحظ (رهبان الزنادقة) واعتبرهم من زهاد المانوية.

قال الجاحظ: إن هٰؤلاء سياح، والسياحة بالنسبة لهم في حكم التوقف، واعتزال الساترة في الصوامع والأديرة، وتلك الجماعة يسافرون دائماً اثنين اثنين، ويسيحون بحيث إذا رأى الإنسان واحداً منهم؛ يتيقن أن الثاني ليس ببعيد عنه إلى حد ما، وسيظهر قريباً، ومن عاداتهم أنهم لا ينامون ليلتين في مكان واحد، ولهٰؤلاء السياح خصال أربع: القدس، والطهارة، والصدق، والمسكنة.

وهٰؤلاء السياح تركوا بدورهم أثراً في صوفية المسلمين، كما أثر فيهم أيضاً السياح والمتجولون والمرتاهون من البوذيين الذين أذاعوا قصة بوذا، وقدموه مثالاً للزهد والإعراض عن الدنيا، بحيث إن المرتاضين كانوا يعرفونه في كتاباتهم بالمثال الكامل للزهد، وهو الأمير القوي الشكيمة، الذي رمى الدنيا ظهريّاً وحرر نفسه، أو يقولون: إنه أسير جدير بالثناء، خليق بالاحترام، متزين بزي الفقراء.

وهٰذا الموضوع أوجد قصصاً ذات صور مختلفة، والنقطة الهامة التي يجب ألا تنسى هي أن الديانة البوذية كانت قد انتشرت في شرق إيران ـ أي: بلخ وبخارى ـ وفي ما وراء النهر كذٰلك قبل الإسلام بأكثر من ألف سنة، وكانت لها صوامع ومعابد مشهورة، وكانت معابد بلخ البوذية أكثر شهرة بنوع خاص، وصارت بلخ ونواحيها من أهم المراكز الصوفيَّة في القرون الإسلامية الأولى، وكان صوفيو خراسان يعدون في الرعيل الأول من الصوفية في الشجاعة الفكرية والحرية الشخصية والعقيدة المعروفة بالفناء في الله، المقتبسة من الأفكار الهندية إلى حد ما، والتي انتشرت على الأكثر بواسطة صوفيَّة خراسان، مثل أبي يزيد البسطامي، وأبي سعيد أبي الخير.

وقبل أن ننتقل إلى فكرة أخرى نريد أن نلفت الأنظار إلى أن معتنقي البوذية والجينية والديانات الهندية الأخرى، كان لهم أن يترهبوا ويتجردوا عن الدنيا وما فيها، ويختاروا العزلة والخلوة، ويتيهوا في المفاوز والخلوات، ويعيشوا في المغارات والخانقاوات، ويعذبوا أنفسهم، ويأتوا بالمجاهدات والرياضات، ويتحملوا المشاق، ويتعمقوا في المراقبات والمكاشفات وغير ذٰلك من الأمور؛ لأن قادتهم وزعماءهم وهداتهم ومرشديهم فعلوا مثل ذٰلك؛ لحصول المعرفة، واكتشاف الحق، والوصول إلى طمأنينة الروح والقلب، والاتصال بالخالق والاتحادية حسب زعمهم، تشبهاً لهم واقتداء بهم وتمسكاً بأسوتهم واقتفاء آثارهم ومناهجهم.

فعلى المتبعين أن يسلكوا جميع تلك المراحل التي سلكها سادتهم وكبراؤهم، وأن يكابدوا في هٰذا السبيل تلك الآلام التي تكابدها أولئك، وكذٰلك النصارى:

أولاً: لأنه نقل عن مسيحهم ما يشجعهم على التبتل والعزلة.

ثانياً: أن حواري المسيح وقديسي المسيحية الأوائل تحملوا أنواعاً من العـذاب في سبيل التمسـك بمذهبهم، فأوذوا وأجبروا على ترك المساكن والمواطن، وعاشوا في الصحاري والمغارات؛ فراراً بدينهم، وحفاظاً على إيمـانهم، فَحُبس منهم وقُتِلَ منهم كثيرون وعُذِبَ الآخرون، فتأسياً بهم، وتقديراً لهم، حرموا أنفسهم من ملذات الدنيا ونعيمها، وألزموا عليهم العزبة والجوع والمشاق، وهجروا العيش بين الأهل والأولاد.

وأما المسلمون؛ فلا نبيهم أمرهم بذٰلك، ولا أصحابه ورفاقه الأبرار خيرة خلق الله وأبـرار هٰذه الأمة عملوا به، ودينهم دين الاعتدال، والدين الوسط، الناسخ لجميع الشرائع السماوية منها والأرضية، الإلهامية منها وغير الإلهـامية، ومن يبتـغ غير الإسـلام دينـاً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، والذي كمل قبل انتقال محمد ﷺ إلى الملأ الأعلى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾، وما لم يكن فيهما؛ فهو ابتداع وإحداث فيه، وليس منه ولا له علاقة به.

ولا ندري ممَّن أخذ متصوفة المسلمين ونساكهم من المسلمين هٰذا المنهـج والمسلك، الـذي بنـوا عليه تصوفهم وزهدهم، اللهم؛ إلا ممَّن ذكـرناهم من المسيحية وأصحاب الديانات الهندية، وهٰذه أحوال معتدلي الصوفية ومتقدميهم.

وأمَّا المتطرفون والمتأخرون؛ فقد زادوا على هٰذين المصدرين مصدراً آخر[1]، استقوا منه فلسفتهم، وتشبثوا بآرائه ومقولاته، وهو: الأفلوطينية الحديثة».

---

(١) (ص ١٢٠).

قال جامعه: فالغزالي يريد إحياء الديانات الهندية والمسيحية والأفلوطينية تحت عنوان «إحياء علوم الدين»، ولو لم يضع هٰذا العنوان، واكتشف الناس هٰذه المصادر الخارجة عن الإسلام والمحرفة والمعادية له؛ ما قبلوا منه هٰذا، ولفعلوا بكتابه ما فعله المرابطون يوم أن اكتشفوا هٰذه الحقيقة.

والسياحة المشروعة في الإسلام تتلخص في المسائل الآتية:

١ ـ الجهاد في سبيل الله، وهٰذا يكون تحت راية إمام المسلمين، وليس هو من العمل الفردي، وإذا تعين الخروج؛ كان واجباً؛ إلا من أعذره الشرع، وفيه من الآيات والأحاديث ما هو معروف عند المسلمين من الدين بالضرورة.

٢ ـ الخروج إلى الدعوة إلى الله وإلى تعليم المسلمين أمر دينهم، وهٰذا أيضاً يكون بأمر من إمام المسلمين، إن كان لهم إمام، كما فعل الرسول ﷺ بمعاذ بن جبل لما أرسله إلى اليمن، وبعلي بن أبي طالب وبأبي بكر الصديق وبالقراء وغيرهم ممن أرسلهم إلى تعليم المسلمين أمر دينهم والقضاء بينهم.

وأما إن لم يكن لهم إمام؛ فمن توفرت فيه شروط العلم، وكان أهلاً للتعليم، وكانت البلدة في حاجة إليه، وليس فيها من يقوم بالمهمة، وفي بلدته من يغني عنه؛ تعين خروجه؛ لأن علماء الكتاب والسنة هم مبلغون عن الله بعد رسل الله وأنبيائه، فيجب عليهم البلاغ، وعلى المسلمين أن يتعاونوا معهم ببذل الأموال وتسهيل الطرق وتيسيرها، حتى تبلغ رسالة الرسل إلى خلق الله وعباده.

وأمَّـا خروج العوام؛ فهٰذا يلحق بما ذكر في هٰذه القصة أو في هٰذه الطامة التي ذكرها أبو حامد.

وقد سئل الإمام أحمد رحمة الله عليه عن السياحة، فأنكرها، واعتبرها من الأمر المبتدع.

وأمَّـا ما ورد في الآية: ﴿**التَّـائِبُـونَ العَـابِـدُونَ الحَـامِدُونَ السائِحُونَ الرَّاكِعُونَ**﴾؛ فقد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»:

«بيان أن المراد بالسياحة الصيام، وذكر أقوال السلف في ذٰلك:

قال سفيان الثوري: عن عاصم عن زر عن عبد الله؛ قال: السائحون الصائمون.

وكذا روي عن سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس، وقال علي بن أبي طلحـة عن ابن عبـاس: كلمـا ذكـر الله في القـرآن السياحـة: هم الصائمون.

وكذٰلك قال الضحاك رحمه الله.

وقـال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق: حدثنا أبو أحمد: حدثنا إبراهيم بن يزيد عن الوليد بن عبد الله عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: سياحة هٰذه الأمة الصيام.

وهٰكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وأبو عبد الرحمٰن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين الصائمون.

وقال الحسن البصري: السائحون الصائمون شهر رمضان.

وقال أبو عمرو العبدي: السائحون الذين يديمون الصيام من المؤمنين.

وقد ورد في حديث مرفوع نحو هٰذا.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن يزيع: حدثني حكيم بن حزام: حدثنا سليمان عن أبي صالح، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: السائحون هم الصائمون.

وهٰذا الموقوف أصح.

وقال أيضاً: حدثني يونس عن ابن وهب عن عمر بن الحارث عن عمرو ابن دينار عن عبيد بن عمير؛ قال: سُئِلَ النبي ﷺ عن السائحين؟ فقال: «هم الصائمون».

وهٰذا مرسل جيد؛ فهٰذه أصح الأقوال وأشهرها».

ثم قال بعد كلام رحمه الله:

«وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري؛ فإن هٰذا ليس بمشروع؛ إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين؛ كما ثبت في «صحيح البخاري» عن أبي سعيد رفعه: يوشك أن يكون خير مال المرء غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»[1].

قلت: هٰذا الذي قرره ابن كثير قرره الإمام ابن تيمية.

جاء في «الفتاوى»:

---

(١) «البخاري» (١ / ١١١) و«ابن كثير» (٤ / ١٥٧).

«سُئل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عن رجل تفقه وعلم ما أمر الله به وما نهى عنه، ثم تزهد وترك الدنيا والمال والأهل والأولاد، خائفاً من كسب الحرام والشبهات، وبعث الآخرة، وطلب رضى الله ورسوله، وساح في أرض الله والبلدان؛ فهل يجوز له أن يقطع الرحم ويسيح كما ذكر أم لا؟!

فأجاب: الحمد لله وحده. الزهد المشروع هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله؛ كما في الحديث الذي في الترمذي: «ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك؛ لأن الله تعالى يقول: لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم. فهٰذا صفة القلب. وأما في الظاهر؛ فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذٰلك؛ كما قال الإمام أحمد: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وصبر أيام قلائل.

وجماع ذٰلك خلق رسول الله ﷺ؛ كما ثبت عنه في «الصحيح»: أنه كان يقول: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة».

وكان عادته في المطعم أنه لا يرد موجوداً ولا يتكلف مفقوداً، ويلبس من اللباس ما تيسر من قطن وصوف وغير ذٰلك، وكان القطن أحب إليه.

وكان إذا بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يعتدي، فيزيد في الزهد أو العبادة على المشروع، ويقول: أينا مثل رسول الله ﷺ؟! يغضب لذٰلك، ويقول: «والله إني لأخشاكم لله، وأعلمكم بحدود الله تعالى».

وبلغه أن بعض أصحابه قال: أما أنا؛ فأصوم فلا أفطر، وقال الآخر: أما أنا؛ فأقوم فلا أنام، وقال آخر: أما أنا؛ فلا أتزوج النساء، وقال آخر: أما أنا؛ فلا آكل اللحم. فقال ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي؛ فليس مني».

فأما الإعراض عن الأهل والأولاد؛ فليس ممَّا يحبه الله ورسوله، ولا هو من دين الأنبياء، بل قد قال تعالى: **﴿ولَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وذُرِّيَّةً﴾**.

والإنفـاق على العيال، والكسب لهم، يكـون واجبـاً تارة، ومستحبّاً أخرى؛ فكيف يكون ترك الواجب أو المستحب من الدين؟!

وكـذٰلـك السياحة في البلاد لغير مقصود مشروع؛ كما يعانيه بعض النساك أمر منهي عنه.

قال الإمام أحمد: ليست السياحة من الإسلام في شيء، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين.

وأمـا السياحـة المـذكـورة في القـرآن من قوله: **﴿التَّائِبُونَ العابِدُونَ الحـامِـدُونَ السَّـائِحُـونَ﴾**، ومن قوله: **﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وأَبْكَاراً﴾**.

فليس المـراد بها هٰذه السياحة المبتدعة؛ فإن الله قد وصف النساء اللاتي يتزوجهن رسوله بذٰلك، والمرأة المزوجة لا يشرع لها أن تسافر في البراري سائحة، بل المراد بالسياحة شيئان، أحدهما الصيام.

كما روى عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن النبي ﷺ: أنه قال: «الحـلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من

الناس، فمن ترك الشبهات؛ فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات؛ وقع في الحرام؛ كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت؛ صلح الجسد كله، وإذا فسدت؛ فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». متفق عليه.

لكن إذا ترك الإنسان الحرام أو الشبهة بترك واجب أو مستحب، وكان الإثم أو النقص الذي عليه في الترك أعظم من الإثم الذي عليه في الفعل؛ لم يشرع ذٰلك؛ كما ذكر أبو طالب المكي وأبو حامد الغزالي عن الإمام أحمد ابن حنبل: أنه سُئِلَ عمَّن ترك مالاً فيه شبهة وعليه دين؟ فسأله ولده: أترك هٰذا المال الذي فيه شبهة فلا أقضيه؟ فقال له: أتدع»[1].

٣ ـ الخروج في طلب العلم، وهٰذا أمر ندب إليه الشرع وأمر به.

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهوا في الدِّينِ ولِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وقوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وفعل السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في رحلاتهم المتواترة إلينا، وكتبهم المسجلة إلينا في طلب العلم والحديث، وهٰذا أمر لا مرية فيه، ولا جدال بين المسلمين فيه، بل هو من أسس مناهجهم؛ لأنهم أمة العلم والدعوة إليه.

٤ ـ الخروج إلى الحج والعمرة، وهما من فرائض الإسلام وأركانه.

قال الله تعالى: ﴿ولله عَلى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً

(١) «مجموع الفتاوى».

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾.

وهذا أصل لا ينكره إلا من خرج عن دائرة الإسلام، وقد خصصت كتب الحديث والفقه مساحة كبرى لهذه الفريضة في مؤلفاتها.

٥ ـ الخروج إلى المساجد الثلاثة، وقد جاء النص بذلك عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى؛ كما ثبت في «الصحيح»: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى».

٦ ـ الخروج إلى صلة الرحم، وهذا أمر مقرر عند المسلمين، ومعلوم عندهم من الدين بالضرورة، وآيات القرآن فيه كثيرة، وأحاديث الرسول ﷺ فيه متواترة، خرجها أصحاب الصحاح وغيرهم.

قال تعالى: ﴿فَهَل عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ وتَقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ . أُولٰئِكَ الذينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وأَعْمَى أَبْصارَهُمْ﴾[1].

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها وبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثيراً ونِساءً واتَّقُوا اللهَ الذي تَساءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ﴾[2].

ولقول النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع».

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

٧ ـ الخروج في طلب الرزق والتجارة، وقد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وفعل الرسول وفعل السلف الصالح على ذلك.

---

(١) سورة محمد: ٢٢.

(٢) سورة النساء: ١.

قال الله تعالى: ﴿وإذا ضَرَبْتُمْ في الأرْضِ فلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أنْ تَقْصِرُوا مِنَ الصَّلاةِ إنْ خِفْتُمْ أنْ يفْتِنَكُم الذينَ كفَرُوا إنَّ الكافِرينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبيناً﴾.

وكل خروج ندب إليه الشرع؛ كالإصلاح بين الناس؛ كما قال الله تعالى: ﴿لاَ خَيْرَ في كَثيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أو مَعْروفٍ أو إصْلاحٍ بيْنَ النَّاسِ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿وإنْ طَائِفَتانِ مِنَ المُؤْمنيْنَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما﴾.

وما لم يكن كذٰلك؛ فهو بدعة هندية مسيحية.

فخروج العوام وأشباههم مما لا علاقة لهم بهٰذه المقاصد التي ذكرنا؛ فهم مبتدعة آثمون؛ لأنهم شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، ووزعوا الخروج، ووقتوا له أوقاتاً، ورتبوا لكل وقت مرتبة في التزكية، وهٰذا لا شك أنه أمر مبتدع، ليس له أصل في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ، ولكنه الجهل والعمى والأهواء التي غلبت على النفوس. والله المستعان.

الشق الثاني من هٰذه الطامة: مخاطبة الخالق مباشرة:

وهٰذه فرية كبري، ومصيبة عظمى؛ فالخطاب من الله خاص بالأنبياء والملائكة، ومن ادَّعاه لنفسه؛ فقد ادعى النبوة، أو أنه من الملائكة.

قال الله تعالى: ﴿ومَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وحْياً أَو مِنْ وراءِ حِجَابٍ أو يُرْسِل رَسُولاً فَيُوحِي بِإذْنِهِ ما يَشاءُ﴾.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»:

«هٰذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل، وهو أنه تعالى

تارة يقذف في روع النبي ﷺ لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل؛ كما جاء في «صحيح ابن حبان» عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

وقوله: ﴿من وراء حجاب﴾؛ كما كلم موسى عليه السلام؛ فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها.

وفي «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً»(١)، وكان قد قتل يوم أحد، ولكن هٰذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا.

وقوله: ﴿أَو يُرْسِل رَسُوْلاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ ما يَشَاءُ﴾؛ كما ينزل جبريل وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»(٢).

وقد اختص الله نبيه موسى عليه السلام بكلامه من وراء حجاب، وأصبح يعرف بكليم الله، وقال الله فيه: ﴿وكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾، وقال فيه تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وبِكَلامِي﴾، فمن ادعى أن الله تعالى خاطبه مباشرة؛ فقد زعم أنه شارك موسى فيما اختصه الله به.

وهٰذا الأصل الخبيث الذي ادعاه الصوفيَّة هو نسخة طبق الأصل من دعاوى الشيعة الذين هم الأصل الكبير للصوفيَّة.

جاء في «الكافي» للكليني ـ وهو كالبخاري عند أهل السنة ـ عن جعفر

---

(١) «تحفة الأحوذي» (٨ / ٣٦٠)، وقال الترمذي: «حسن غريب».

(٢) (٧ / ٢٠٤).

الباقر الإمام المعصوم لدى القوم أنه قال:

«ما جاء به علي عليه السلام آخذ به، وما نهى عنه أنتهي عنه، جرى له من الفضل مثل ما جرى لمحمد ﷺ، ولمحمد ﷺ الفضل على جميع من خلق الله عز وجل، المتعقب عليه في شيء من أحكامه كالمتعقب على الله وعلى رسوله، والراد عليه في صغيرة أو كبيرة على حدّ الشرك بالله، كان أمير المؤمنين عليه السلام باب الله الذي لا يؤتى إلا منه، وسبيله الذي من سلك بغيره هلك، وكذٰلك يجري لأئمة الهدى واحداً بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها، وحجته البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى، وكان أمير المؤمنين صلوات الله عليه كثيراً ما يقول: أنا قسيم الله بين الجنة والنار، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا صاحب العصا والميسم، ولقد أقرت لي جميع الملائكة والروح والرسل بمثل ما أقروا به لمحمد ﷺ، ولقد حملت على مثل حمولته، وهي حمولة الرب، وإن الرسول ﷺ يدعى فيكسى، وأدعى فأكسى، ويستنطق وأستنطق فأنطق على حد منطقه، ولقد أُعطيت خصالاً ما سبقني إليها أحد قبلي، علمت المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب، فلم يفتني ما سبقني، ولم يعزب عني ما غاب عني»[1].

والرواية في هٰذا الموضوع كثيرة عن الشيعة.

قال إحسان إلٰهي ظهيري:

«هٰذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يرى الشيعة أن أئمتهم أولٰئك أفضل من الأنبياء، كما صرح بذٰلك الكليني: أن الإمامة فوق النبوة والرسالة والخلة.

---

(١) «الأصول من الكافي» (١ / ١٩٦).

حيث نقـل رواية عن جعفر بن محمد الباقر أنه قال: «إن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً»(١).

وروي أيضاً عن يوسف التمار: أنه سمع جعفر بن الباقر: أنه قال: «ورب الكعبة، ورب البنية؛ ثلاث مرات، لو كنت بين موسى والخضر عليهما السلام؛ لأخبرتهما أني أعلم منهما، ولأنبئهما بما ليس في أيديهما؛ لأن موسى والخضر عليهما السلام أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة»(٢).

وعنه أنه قال: «إني لأعلم ما في السماوات وما في الأرض، وأعلم ما في الجنة وما في النار، وأعلم ما كان وما يكون»(٣).

وقد بوب الحر العاملي صاحب موسوعة حديثية شيعية كبيرة باباً مستقلاً بعنوان: «الأئمة الاثنا عشر أفضل من سائر المخلوقات من الأنبياء والأوصياء السابقين الملائكة وغيرهم»، ثم أورد تحته روايات عديدة، منها ما رواه عن جعفر أنه قال: «إن الله خلق أولي العزم من الرسل، وفضلهم بالعلم، وأورثنا علمهم، وفضلنا عليهم في علمهم، وعلم رسول الله ﷺ ما لم يعلمهم، وعلمنا علم الرسول وعلمهم»(٤).

وعلى ذلك قال الخميني زعيم شيعة إيران في كتاب «ولاية الفقيه» ما

(١) كتاب «الحجة من أصول الكافي» (١ / ١٧٥).

(٢) «الكافي في الأصول» (١ / ٢٦١).

(٣) «الكافي في الأصول» (١ / ٢٦١).

(٤) «الفصول المهمة في أصول الأئمة» (ص ١٥٢).

نصه: «إن من ضروريات مذهبنا أنه لا ينال أحد المقامات المعنوية الروحية للأئمة، حتى ملك مقرب، ولا نبي مرسل؛ كما روي عندنا بأن الأئمة كانوا أنواراً تحت ظل العرش قبل تكوين هٰذا العالم، وأنهم قالوا: إن لنا مع الله أحوالاً لا يبلغها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهٰذا المعتقد من الأسس والأصول التي قام عليها مذهبنا»».

قال إحسان إلٰهي ظهيري:

«فهٰذه هي عقائد الشيعة الاثنا عشرية في أئمتهم بأنه يأتي إليهم جبريل، وينزل عليهم الوحي، ويكلمهم الله من وراء حجاب، ويناجيهم من دون حجاب، وأن النبوة لم تنقطع ولم تختم بمحمد ﷺ، وأن الولاية أعظم وأفضل من النبوة والرسالة، وعلمهم بدون واسطة، فصاروا يعلمون علم ما كان وما يكون، وفضلهم على الخلائق من الأنبياء والرسل، والنصوص والروايات في هٰذا الخصوص جاوزت المئات، وعليها أسست وبنيت الديانة الشيعية؛ نتيجة مؤامرة يهودية للقضاء على الإسلام ودعوة خاتم النبيين الناطق بالوحي ﷺ».

قال: «هٰذا، وبعد هٰذا عندما نرجع إلى آراء الصوفية وأفكارهم وعقائدهم ومعتقداتهم وكتبهم ورسائلهم ورواياتهم ومقولاتهم وتصريحاتهم وعباراتهم؛ نجد معظم هٰذه الأفكار وطابعها واضحاً جليّاً، بل إنها عين هٰذه الترهات والخزعبلات مبثوثة منشورة في كتب الأولين منهم والآخرين، ثم كل النصوص الكثيرة من كتب الصوفية، وهي كثيرة جدّاً، من قرأها لا يجد الفرق بين ما تذكره الشيعة في كتبها وما هو مسجل في كتب وطبقات الصوفية ممن نقل عنهم الغزالي.

قال في «المنقذ من الضلال» ـ وهو كتاب من أصول الضلال ـ:

«ومن أول الطريق تبتدىء المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق نطاق النطق»[1].

ويقول الدباغ في «الإبريز» ـ وهو كتاب كبير في الضلال والخرافات ـ:

«وأما ما ذكروه في الفرق بين النبي والولي من نزول الملك وعدمه؛ فليس بصحيح؛ لأن المفتوح عليه سواء كان وليّاً أو نبيّاً، لا بد أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ما هم عليه، ويخاطبهم ويخاطبونه، وكل من قال: إن الولي لا يشاهد الملك ولا يكلمه؛ فذاك دليل على أنه غير مفتوح عليه»[2].

وجاء في الكتاب المسمى بـ «الوحيد»:

«أن الشيخ تاج الدين بن شعبان كان إذا سأله إنسان في حاجة يقول له: اصبر حتى يجيء جبريل»[3]».

ونكتفي بهٰذا القدر من النقول التي تدل صراحة على تنفيذ المخطط المرسوم من طرق أعداء الله وأعداء رسله لنسف النبوة والرسلات وإحلال المذاهب الكفرية محلها، فكيف يكون هٰذا الأصل من «إحياء علوم الدين» وهو نسف لأصول الدين وفروعه والنقول شاهدة بهٰذا؟! ولا أظن أن من في قلبه مسكة عقل وإنصاف يشك في هٰذا المخطط، بله أن يدافع عن هٰذه الأصول الباطلة، بله أن يتبناها ويجعلها منهاجاً له، بل ربما تجرأ وسماها بالمنهاج النبوي، أو بـ «إحياء علوم الدين»؛ كما فعل الغزالي في كتبه.

---

(١) «المنقذ من الضلال» (ص ١٢٧).

(٢) «الإبريز» للدباغ (ص ١٥١).

(٣) «الأخلاق المتبولية» للشعراني بتحقيق الدكتور منيع عبدالحليم (١ / ٤٥٤).

● ومن طاماته :

افتراء الكذب على الله وعلى أنبيائه

قال الغزالي :

«وقال أبو خالد الصفار: لقي نبي من الأنبياء عابداً، فقال له : إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه، أنتم تعملون على الخوف والرجاء، ونحن نعمل على المحبة والشوق»[1].

*** التعليق :**

فأين سند هٰذه القصة؟! ومن تكلم بها؟! ومن النبي الذي قال هٰذا؟! وما هٰذه المقارنة بين العباد والأنبياء؟! وهل للعبادة طريق غير الأنبياء؟! وهل العباد لهم وحي خاص بهم يختلفون بـه عـن الأنبياء؟! كل هٰذا يحتاج إلى جواب، ولا يعرف الجواب عنه؛ إلا من أخذ بالمقاييس الشرعية، وأما من يريد إضلال الناس؛ فلا يبالي، ويروي كل ما يجد، ولا يسأل عن السند، ولا عن مدلول المتن، كما هو واقع في هٰذه القصة وغيرها. والله المستعان.



---

(١) (٤ / ٣٦١).

● **ومن طاماته :**

وصف أكثر أهل الجنة بالبلاهة، وادعاء أن العامل من أجل الجنة كالأجير السوء، والتنقص من المؤمنين الصالحين

قال الغزالي :

«ونيات الناس في الطاعات أقسام، إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف؛ فإنه يتقي النار، ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء، وهو الرغبة في الجنة، وهٰذا وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه، فهو من جملة النيات الصحيحة؛ لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة، وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن، وموضع قضاء وطرهما الجنة، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه، كالأجير السوء، ودرجته درجة البله، وإنه لينالها بعمله، إذ أكثر أهل الجنة البله.

وأما عبادة ذوي الألباب؛ فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى، والفكر فيه حبّاً لجماله وجلاله، وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف، وهٰؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنة؛ فإنهم لم يقصدوها، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط، وثواب الناس بقدر نياتهم، فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم، ويسخرون ممَّن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممَّن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين، بل أشدّ؛ فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشدُّ وأعظم كثيراً من التفاوت بين جمال

الحـور العين والصور المصنوعة من الطين، بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحِسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم أيضاً هي استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال النساء، فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء، بأنها لا تشعر به أصلاً، ولا تلتفت إليه، ولو كان لها عقل وذكرنا لها لاستحسنت عقل من يلتفت إليهن: ﴿ولا يَزالُونَ مُخْتَلِفِيْنَ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فرِحُوْنَ ولِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

حُكي أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام، فقال له: كل الناس يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبني.

ورأى أبو يزيد ربه في المنام، فقال: يا رب! كيف الطريق إليك؟! فقال: اترك نفسك وتعال إلي.

رؤي الشبلي بعد وفاته في المنام، فقيل: ما فعل الله بك؟! فقال: لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان؛ إلا على قول واحد، قلت يوماً: أي خسارة أعظم من خسران الجنة؟ فقال: أي خسارة أعظم من خسران لقائي»[1].



(١) (٤ / ٣٧٥).

● **ومن طاماته:**

الرد على الله تعالى والرسول ﷺ

قال الغزالي:

«وقيل لبعضم وهو في النزع: قل الله، فقال: إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله.

وقال بعضهم: كنت عند ممشاد الدينوري، فقدم فقير وقال: السلام عليكم، هل ها هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه؟ قال: فأشاروا إليه بمكان ـ وكان ثم عين ماء ـ، فجدد الفقير الوضوء، وركع ما شاء الله، ومضى إلى ذلك المكان، ومد رجليه، ومات.

وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه، فصاحت امرأة تواجداً، فقال لها: موتي. فقامت المرأة، فلما بلغت الدار؛ التفتت إليه، وقالت: قد مت، ووقعت ميتة.

ويُحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروذباري؛ قالت: لما قرب أجل أبي علي، وكان رأسه في حجري؛ فتح عينيه، وقال: هٰذه أبواب السماء قد فتحت، وهٰذه الجنان قد زينت، وهٰذا قائل يقول: يا أبا علي! قد بلغناك الرتبة القصوى، وإن لم تردها، ثم أنشأ يقول:

وَحَقِّكَ لا نَظَرْتُ إلى سِوَاكَ ... بعَينِ مَوَدَّةٍ حَتّى أَرَاكَ
أَرَاكَ مُعَذِّبي فَتُورَ لَحْظٍ ... وبالخَدِّ المُوَرَّدِ مِنْ حَياكَ

وقيل للجنيد: قل لا إلٰه إلا الله. فقال: ما نسيته فأذكره[1].

---

(١) (٤ / ٤٨٢).

* **التعليق:**

وهٰكذا نعيش مع هٰذه الطامات، ونأسف على حال المسلمين حيث نزل إلى هٰذا الحد، فصحابة رسول الله ﷺ على جلالتهم وإمامتهم لم يصدر من أحد منهم ما صدر عن هٰؤلاء من دعاوى طويلة عريضة، وهم أجل الناس جميعهم عند خالقهم، وهٰذا الأصل قرره القرآن أحسن تقرير.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلمُ السَّاعَةِ ويُنَزِّلُ الغَيْثَ ويَعْلَمُ ما في الأَرْحامِ وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَداً ومَا تَدْرِي نَفْسٌ بأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَليمٌ خَبِيْرٌ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً ولا ضَرّاً إلَّا ما شاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ**﴾.

فخرق هٰذا الأصل هو شرك بالله بإجماع المسلمين؛ إلا هٰؤلاء الدجاجلة. هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرى: تزهيد المسلمين في التوحيد، فما معنى الأحاديث التي وردت في فضيلة الذكر بـ (لا إلٰه إلا الله)، وهل فيها فرق بين الذاكر لله والناسي، أم الأمر مجرد عبادة يتعبد بها المسلمون؟! والإطالة في التعريف بهٰذا الموضوع أراه لا يحتاج إلى تطويل، فذكر المسلم لـ (لا إلٰه إلا الله)، أمر يقدره من يعرف معنى هٰذه الكلمة، وأن الأنبياء والرسل ما بعثوا إلا لتحقيقها، فكيف بهٰؤلاء يزهدون الناس فيها ويعتبرون ذٰلك كمالاً؟! وهو لعمر الله هو المصيبة العظمى.



● **ومن طاماته :**

التَّهْوينُ من محبة النبي ﷺ

قال الغزالي :

«وكذٰلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول (لا إلٰه إلا الله) صادقاً، ومعنى صدقه ألا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره، ومن اتخذ إلهه هواه؛ فهو بعيد من الصدق في توحيده، وأمره مخطر في نفسه، فإن عجزت عن ذٰلك كله؛ فكن محبّاً لرسول الله ﷺ، حريصاً على تعظيم سنته، ومتشوقاً إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته، ومتبركاً بأدعيتهم؛ فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم، فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة»[1].

*** التعليق :**

هٰكذا يفسر الغزالي الصدق والإخلاص، ويجعله في الدرجة الأولى، وهٰذا أمر صحيح، ولكن يرى الغزالي أن الذي لا يتحقق له ذٰلك؛ فليكن محبّاً للنبي ﷺ، وفي هٰذا من الخطر ما فيه؛ فالإخلاص لله لا يتحقق؛ إلا بمحبة النبي ﷺ؛ فهما شيئان لا ينفصلان؛ فلا إخلاص ولا توحيد إلا بمحبة النبي.

ولكن مذهب الفلاسفة والصوفيَّة التهوين من شأن النبوة، وأن التوحيد يمكن أن يحصل بغير النبوة؛ لأن النبوة عندهم أمر مكتسب يدرك بالمجاهدة وقوة الذكاء والمخيلة، ولهٰذا كان الكثير من الصوفيَّة ينتظر أن تنزل عليه الرسالة، ولهٰذا كان عبد الحق بن سبعين منهم يقول: «لقد حجر ابن آمنة واسعاً؛ إذ يقول: لا نبي بعدي»، وفي لفظ آخر له: «فقد زرب ابن آمنة».

---

(١) (٤ / ٥٢٦).

فضـلال الصوفية في باب النبوة أمر معروف، وللغزالي في ذٰلك من الكلام ما فضحه به العلماء، على رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه.

فما يقرره الغزالي ها هنا أصل خطير، يلزم منه الاستغناء عن النبوة، فمن حقق التوحيد؛ فلا حاجة به إلى النبي وإلى محبته، وكلامه في ذٰلك واضـح لا غبـار عليه، وهل بعد هٰذا الضلال من ضلال؟! وهل بعد هٰذه المصيبة من مصيبة؟! فأين «إحياء علوم الدين»؟! بل هٰذا ضرب أصولها وفروعها.



● ومن طاماته :

تحريف الكلم عن مواضعه

قال الغزالي :

«وكـذلـك قولـه تعـالى : ﴿وكَذٰلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ والأَرْضِ﴾، وما أراد به الرؤية الظاهرة؛ فإن ذٰلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام، حتى يعرض في معرض الامتنان»[1].

* التعليق :

هٰكذا يحرف الغزالي كتاب الله، ويحمل آياته على ما لا تدل عليه، وجـره إلى هٰذا ضلاله الفلسفي المعروف، فاقرأ تفاسير السلف الذين هـم القـدوة، هل تجـد أحـداً منهم قد ذهب هٰذا المذهب الباطل الذي يقرره الغزالي بوقاحة واضحة؟!



(١) (٣ / ١٧).

● **ومن طاماته :**

ادعاء علم الغيب الذي اختص الله به

قال الغزالي :

«وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذي يحفظ من كتاب، فإذا نسي ما حفظه؛ صار جاهلاً، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أيَّ وقت شاء بلا حفظ ولا درس»(١).

وعن أبي سعيد الخراز؛ قال: دخلت المسجد الحرام، فرأيت فقيراً عليه خرقتان، فقلت في نفسي: هٰذا وأشباهه كل على الناس، فناداني وقال: والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه. فاستغفرت الله في سري، فناداني، وقال: وهو الذي يقبل التوبة عن عباده. ثم غاب عني ولم أره.

وقال زكرياء بن داود: دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي وهو عليل، وكان ذا عيال، ولم يعرف له سبب يعيش به؛ قال: فلما قمت؛ قلت في نفسي: من أين يأكل هٰذا الرجل؟! قال: فصاح بي: يا أبا العباس! رد هٰذه الهمة الدنية؛ فإن لله تعالى ألطافاً خافية.

وقال أحمد النقيب: دخلت على الشبلي، فقال: مفتوناً يا أحمد، فقلت: ما الخبر؟ قال: كنت جالساً، فجرى بخاطري أنك بخيل. فقلت: ما أنا بخيل. فعاد مني خاطري وقال: بل أنت بخيل. فقال: ما فتح علي اليوم بشيء إلا دفعته إلى أول فقير يلقاني. قال: فما استتم الخاطر، حتى دخل علي صاحب لمؤنس الخادم ومعه خمسون ديناراً. فقال: اجعلها في مصالحك. قال: وقمت فأخذتها وخرجت، وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزين

---

(١) (٣ / ٢٤).

يحلق رأسه، فتقدمت إليه، وناولته الدنانير، فقال: أعطها المزين، فقلت: إن جملتها كذا وكذا. قال: أو ليس قد قلنا لك: إنك بخيل؟ قال: فناولتها المزين. فقال: قد عقدنا لما جلس هٰذا الفقير بين أيدينا ألا نأخذ عليه أجراً. قال: فرميت بها في دجلة، وقلت: ما أعزك أحد إلا أذله الله عز وجل.

وقال حمزة بن عبد الله العلوي: دخلت على أبي الخير النيناني، واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاماً، فلما خرجت من عنده، إذا به قد لحقني وقد حمل طبقاً فيه طعام، وقال: يا فتى! كُلْ، فقد خرجت الساعة من اعتقادك.

وقال إبراهيم الرقي: قصدته مسلماً عليه، فحضرت صلاة المغرب، فلم يكد يقرأ الفاتحة مستوياً، فقلت في نفسي: ضاعت سفرتي، فلما سلم؛ خرجت إلى الطهارة، فقصدني سبع، فعدت إلى أبي الخير، وقلت: قصدني سبع، فخرج وصاح به، وقال: ألم أقل لك: لا تتعرض لضيفاني؟ فتنحى الأسد، فتطهرت، فلما رجعت، قال: اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم الباطن فخافنا الأسد».

قال الغزالي:

«والدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جحده أمران:

أحدهما: عجائب الرؤية الصادقة؛ فإنه ينكشف بها الغيب، وإذا جاز ذٰلك في النوم؛ فلا يستحيل أيضاً في اليقظة، فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه.

الثاني: إخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور في المستقبل كما

اشتمل عليه القرآن، وإذا جاز ذٰلك للنبي ﷺ؛ جاز لغيره، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور»[1].

قال الغزالي:

«اعلم أن العلوم ليست ضرورية، وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال، تختلف الحال في حصولها، فتارة تهجم على القلب كأنه أُلقي فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعليم، فالذي يحصل لا بطريقة الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاماً، والذي يحصل بطريق الدليل يسمى اعتباراً واستبصاراً، ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل، وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذٰلك العلم، وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب، والأول يسمى إلهاماً ونفثاً في الروع، والثاني يسمى وحياً، وتختص به الأنبياء، والأول يختص به الأنبياء والأصفياء، والذي قبله وهو المكتسب بطريق الاستدلال يختص به العلماء.

وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لأن تتجلى فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها، وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة التي سبق ذكرها، فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة.

وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها، والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه، وكذٰلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب

---

(١) (٣ / ٢٥).

عن أعين القلوب، فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ، ويكون ذٰلك تارة عند المنام، فيعلم به ما يكون في المستقبل، وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فيه ينكشف الغطاء، وينكشف أيضاً في اليقظة، حتى ينكشف الحجاب بلطف خفي من الله تعالى، فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم، تارة كالبرق الخاطف، وأخرى على التوالي إلى حدٍّ ما، ودوامه في غاية الندرة، فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم، ولا في محله، ولا في سببه، ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب، فإن ذٰلك ليس باختيار العبد، ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذٰلك، بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْياً أَو مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوْحِي بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾[1].

* التعليق:

هٰذا الذي نقلناه عن الغزالي هو صريح في علم الغيب والاطلاع على اللوح المحفوظ، وهٰذا الأمر أخذته الصوفيَّة مباشرة عن الشيعة؛ إلا أنهم وضعوا له بعض الحيثيات التي نهايتها الرجوع إلى مصدرهم الأساسي الذي مثلوه أحسن تمثيل كما سبق أن ذكرت.

ونظرة وجيزة إلى كتاب الكليني المسمى بـ «الكافي»، وهو عندهم بمنزلة «صحيح البخاري» عندنا، نجد النسخ متطابقة، ولا فرق بين العقيدة الشيعية والعقيدة الصوفيَّة، التي عنون لها أبو حامد بهٰذا العنوان الكبير، الذي روج لها طيلة هٰذه العصور، والمسلمون في سبات عميق، ما بين مؤيد ومتأول لما ورد في «الإحياء» من طامات وبلايا؛ إلا من انتبه إلى الخطر، وأدلى بما

(١) (٣ / ١٩).

عنده من النصح للأمة، وكان المثال لذٰلك هو ابن تاشفين رحمه الله.

وهاك بعض النماذج من كتاب الشيعة المعتمد عندهم، حتى تعلم ما ينبغي أن تعلمه عن عقيدتهم، وأن الشيعة تعاقدوا مع الصوفيَّة عقداً مؤبداً في نشر ضلالهم، ولكن باسم جديد وبطرق مختلفة.

والإمام علي رضي الله عنه من خيرة أولياء الله وعباده، بل هو رابع الخلفاء الراشدين في الفضل والمكانة، بل لا يشك أحد في فضله؛ إلا من في قلبه مرض؛ كالنواصب والخوارج وأضرابهم من مرضى القلوب، لما سُئِلَ: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ قال: لا؛ إلا فهمٌ يؤتاه الرجل في كتاب الله وما في هٰذه الصحيفة، فأخرج صحيفة من قراب سيفه، فيها أحكام الديات والقصة في «صحيح البخاري»، ومنهاج أهل السنة والجماعة هو تتبع النصوص وجمعها إلى بعضها ورد المتشابه إلى المحكم.

وأما الذين في قلوبهم مرض فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء نشر البدعة، وابتغاء مخالفة النصوص الصريحة.

والثالث: ما ذكره الغزالي من الطرق التي توصل إلى الكشف والوصول إلى ذٰلك الكشف الذي يذكره هو وأضرابه، فهو أكثر من علم النبوة، فالأنبياء ما ذكروا عن أنفسهم أنهم كانوا ينظرون إلى اللوح المحفوظ، وإنما كانوا يخبرون عن طريق الملك، ولم يدع نبينا ﷺ وهو إمام الأنبياء وسيدهم أنه اطلع على اللوح المحفوظ، وحسبك ضلالاً أن تدعي ما لم يذكر لنبي من الأنبياء، والحكم عند أهل العلم في مثل هٰذه القضايا معروف؛ فالاستتابة وإلا القتل.

والرابع: معلوم عند أئمة السير والعقيدة والحديث والفقه: أن من آيات

النبوة الإخبار بالمغيبات ماضيها ومستقبلها، فإذا كان هٰؤلاء الدجاجلة يزعمون لأنفسهم هـٰذه الآية؛ فما فائدة اختصاص الأنبياء بهٰذه المعجزة.

والخامس: ما ورد من آيات القرآن وكلام النبي ﷺ في اختصاص الله تعالى بعلم الغيب وكلام أهل العلم.

جاء في «غاية الأماني» في الرد عى النبهاني:

«اعلم أن الغيب قسمان:

قسم استأثر الله تعالى به، فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبي ولا رسول ولا صفي ولا ولي ولا منجم ولا كاهن ولا عراف ولا غيرهم، وهو المذكور في قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحَامِ وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَداً وما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾**(١)؛ فكل من هٰذه الأمور لم يطلع الله عليه أحداً من أنبيائه وأصفيائه، والكلام على هٰذه الآية مفصل في كتب التفاسير، ولا مجال لنا لذكره في هٰذا المقام.

وأما القسم الثاني: فهو الذي يجوز أن يعرفه غير الله ويطلع عليه، وهو ما عدا الخمسة السابقة، وله أسباب كثيرة؛ منها: الوحي، والكهانة، والطرق، والزجر. . . ونحو ذٰلك.

وبالجملة؛ علم الغيب لله سبحانه، فلا يقال لغيره: عالم الغيب، ومن اطلع على شيء منه بواسطة وحي أو غيره؛ يقال: أطلعه الله، وما من أحد من المسلمين؛ إلا ويعرف غيوباً كثيرة ـ كالأخبار التي وردت في أحوال البرزخ والحساب والجنة والنار ـ، ولا يقال لأحد منهم: عالم الغيب، وكثير من المتصوفة يدعون أن مشائخهم يعلمون الغيب، وهٰذا تعبير شنيع، وربما

(١) سورة لقمان: ٢٤.

قالوا بالكشف، وكل ذٰلك ممَّا لا أصل له.

هٰذا رسول الله ﷺ قال: ﴿**وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي ولا بِكُمْ**﴾[1]، وما أخبر به من الغيوب فبوحي من الله: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوى . إِنْ هو إلا وَحْيٌ يُوْحَى**﴾[2].

وهٰكـذا الأنبياء والـرسـل: وهٰذا نوح: لما أمره الله تعالى أن يصنع الفلك، لم يعلم السبب في صنعها. وموسى لم يدر قبل لقي فرعون ماذا يكـون من أمـره، حتى قال: ﴿**وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَـافُ أَنْ يَقْتُلُونِ**﴾[3]. وإبراهيم أعلمه الله وأوحى إليه أن يذبح إسماعيل، فبادر إلى ذٰلك، فلم يعلم هو ولا إسماعيل أن الله ينسخ هٰذا الحكم. ويعقوب بقي يبكي على ولده يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن ولم يعلم بحال يوسف. وداود لم يعلم بحقيقـة من تسـوروا المحـراب وقـالـوا: ﴿**خَصْمـانِ بَغى بَعْضُنـا على بَعْضٍ . . .**﴾ القصـة، ومـا حكم به في مسألة الحرث وتفهيم سليمان لها دونـه. وما كان من ضيف لوط وقومه ولم يعلم بحقيقتهم حتى قال: هٰؤلاء ضيفي، فلا تخزون. وما كان من قصة يونس حين ذهب مغاضباً، فكان من أمـره ما كان، ولـو كان له اطلاع على العاقبة، وكشفٌ على الحقيقة؛ لما ذهب، حتى ألقي في البحر، وساهم، وكان من المدحضين. . . ولو استوعبنا ذٰلك لطال الكلام.

انظر إلى القرآن الكريم وما أخبر فيه سبحانه عن أنبيائه ورسله؛ تجد الأمر واضحاً:

---

(١) سورة الأحقاف: ٩.

(٢) سورة النجم: ٢ ـ ٤.

(٣) سورة الشعراء: ١٤.

قال تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ (١).

﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْواجِكَ﴾(٢).

﴿ما كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حتى يُثْخِنَ في الأَرْضِ﴾ (٣).

إلى غير ذٰلك من الآيات الناصة على عدم علم الأنبياء بما لم يعلمهم الله به.

وفي كتاب «الحيوان» للجاحظ:

«قال الله عز وجل: ﴿وتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لا أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِيْنَ . لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَو لأَذْبَحَنَّهُ أَو لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبينٍ﴾ (٤)، ثم قال: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٤)؛ يعني: الهدهد، فقال سليمان المتوعد له بالذبح عقوبة له، والعقوبة لا تكون إلا على المعصية لبشري آدمي لم تكن عقوبته الذبح، فدل ذٰلك على أن المعصية إنما كانت له، ولا تكون المعصية لله إلا ممَّن يعرف الله، أو ممِّن كان يمكنه أن يعرف الله تعالى، فترك ما يجب عليه من المعرفة.

وفي قوله لسليمان: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ . إِنِّي وجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ولَهَا عَرْشٌ عَظِيْمٌ﴾ (٤).

ثم قال بعد أن عرف فضل ما بين الملوك والسوقة، وما بين النساء

---

(١) سورة التوبة: ٤٣.

(٢) التحريم: ١.

(٣) سورة الأنفال: ٦٧.

(٤) سورة النمل: ٢١ ـ ٢٣.

والـرجال، وعرف عظيم عرشها وكثرة ما أوتيت في ملكها؛ قال: ﴿وجَدْتُها وقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ (١)، فعرف السجود للشمس، وأنكر المعاصي.

ثم قال: ﴿أَلا يَسْجُـدُوا للهِ الـذي يُخْـرِجُ الخَبْءَ في السَّمَـاواتِ والأَرْضِ ويَعْلَمُ ما تُخْفُـونَ وما تُعْلِنُونَ﴾ (٢)، ويتعجب من سجودهم لغير الله، ثم علم أن الله يعلم غيب السماوات والأرض ويعلم السر والعلانية.

ثم قال: ﴿اللهُ لا إِلَهَ إلا هو رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾ (٣).

وهٰذا يدل على أنه أعلم من ناس كثير من المميزين المستدلين الناظرين.

قال سليمان: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ (٤).

ثم قال: ﴿اذْهَبْ بِكِتَـابِي هٰذا فَأَلْقِـهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذا يَرْجِعُونَ . قَالَتْ يا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِنْ سُلَيمانَ وإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُونِي مُسْلِمِيْنَ﴾ (٥).

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيمانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتَانِي اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (٦)، وذٰلك أنها: ﴿قَالَتْ إِنَّ المُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً

---

(١) سورة النمل: ٢٤.

(٢) سورة النمل: ٢٥.

(٣) سورة النمل: ٢٦.

(٤) سورة النمل: ٢٧.

(٥) سورة النمل: ٢٨.

(٦) سورة النمل: ٣٦.

أَفْسَدُوهَا وجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وكذٰلك يَفْعَلُونَ . وإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ﴾ [1] .

قال سليمان للهدهد: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ولَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وهُمْ صَاغِرُونَ . قالَ يا أَيُّها المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمينَ . قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وإِنِّي عَلَيهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ومَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُر لِنَفْسِهِ ومَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [2] » .

وأطال الجاحظ الكلام على هٰذه الآيات، إلى أن قال:

«ثم طعن في ملك سليمان ناس من الدهرية، وقال: زعمتم أن سليمان سأل ربه: ﴿رَبِّي هَبْ لِي مُلكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [3] ، وأن الله تعالى أعطاه ذٰلك، فملكه على الجن فضلاً عن الإنس، وعلمه منطق الطير، وسخر له الريح، فكانت الجن له خيولاً، والرياح له مسخرة، ثم زعمتم ـ وهو إما بالشام وإما بسواد العراق ـ أنه لا يعرف باليمن ملكة هٰذه صفتها، وملوكنا اليوم دون سليمان في القدرة، لا يخفى عليهم صاحب الخزر، ولا صاحب الروم، ولا صاحب الترك، ولا صاحب النوبة، وكيف يجهل سليمان موضع هٰذه الملكة مع قرب دارها واتصال بلادها، وليس دونها بحار ولا أوعار، والطريق نهج الخف والحافر والقدم؟! فكيف والجن والإنس

(١) سورة النمل: ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) سورة النمل: ٣٧.

(٣) (ص ٣٥).

طوع يمينه؟! ولو كان حين أخبره الهدهد بمكانها أضرب عنها صفحاً؛ لكان لقائل أن يقول ما أتاه الهدهد إلا بأمر يعرفه؛ فهٰذا وما أشبه دليل على فساد أخباركم».

فأجاب الجاحظ بقوله:

«قلنا: إن الدنيا إذا خلاها الله وتدبير أهلها ومجاري أمورها وعاداتها كان لعمري كما تقولون، ونحن نزعم أن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان أنبه أهل زمانه؛ لأنه نبي ابن نبي، وكان يوسف وزير ملك مصر ومن النباهة بالموضع الذي لا يدفع، وله البرد، وإليه يرجع جواب الأخبار، ثم لم يعرف يعقوب مكان يوسف، ولا يوسف مكان يعقوب دهراً من الدهور، مع النباهة والقدرة واتصال الدار.

وكذٰلك القول في موسى بن عمران ومن كان معه في التيه؛ فقد كانوا أمة من الأمم، يكسعون أربعين عاماً في مقدار فراسخ يسيرة، ولا يهتدون إلى المخرج، وما كانت بلاد التيه إلا من ملاعبهم ومنتزهاتهم، ولا يعدم مثل العسكر الأدلاء والجمالين والمكارين والفيوح والرسل والتجار، ولكن الله صرف أوهامهم، ورفع ذٰلك القصد من صدورهم.

وكذٰلك القول في الشياطين، الذين يسترقون السمع في كل ليلة، فنقول: إنهم لو كان كلما أراد مريد منهم أن يصعد، ذكر أنه قد رجم، أو رجم صاحبه، وأن ذٰلك منذ كان لم يصل معه أحد إلى استراق السمع؛ كان محالاً أن يروم ذٰلك أحد منهم، مع الذكر والعيان. . . » إلى آخر ما قال [1].

والكلام في هٰذه المسائل طويل الذيل، وما ذكرناه كافٍ في المرام،

(١) «غاية الأماني».

وما نقله عن مشايخه من الكشف لا أصل له.

والسادس: نسأل الغزالي ومحبيه: هل كان النبي ﷺ صاحب كشف أو لم يكن؟ وهل سلك الطرق التي ذكروها؟ فإن كان صاحب كشف؛ فلماذا لم يكشف قضايا أحد وترك أصحابه يموتون واحداً واحداً، ويختلف مع أصحابه في الخروج، وفي الأخير يقرر الخروج؟ ولماذا لم يكشف قصة حنين ورجوع الصحابة عنه؟ وكذا حديث الإفك الذي تحير فيه مدة حتى جاءه الوحي من الله؟ ومن هٰذه الأمثلة كثير؛ فالنبي ﷺ ما أخبره به جبريل عن ربه أخبر به، وما أخفاه عنه خفي عنه، والمتتبع لسيرته ﷺ يعلم ذٰلك علم اليقين.

وهٰؤلاء الدجاجلة يزعمون لأنفسهم ما لم يكن للنبي ﷺ، وهو خير الأتقياء وسيد المحسنين والمتقين، وما كنت أظن أن يصل المسلمون إلى هٰذه الدرجة من الوقاحة على الله وعلى رسوله حتى رأيتها في كتب الصوفيَّة، وخصوصاً ما يسمى بـ «إحياء علوم الدين»، وهو لعمر الله الإجهاز على الدين كله أصوله وفروعه، ولو لم تكن فيه إلا هٰذه القضية؛ لكان كافياً في طرحه وإحراقه كما فعل المرابطون جزاهم الله خيراً.



● ومن طاماته :

الدعوة إلى الربط والزوايا والخلوات

قال الغزالي :

«وأما حياة الخلوة؛ ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر، فإنها دهليز القلب، والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها؛ ليتفجر أصل الحوض، فيخرج منه الماء النظيف الطاهر، وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص، فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة، وليس يتم ذٰلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم؛ فليلفَّ رأسه في جيبه، أو يتدثر بكساء أو إزار؛ ففي مثل هٰذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال حضرة الربوبية.

أما ترى أن نداء رسول الله ﷺ بلغه وهو على مثل هٰذه الصفة، فقيل له : ﴿يا أَيُّها المُزَّمِّلُ﴾ ﴿يا أَيُّها المُدَّثِّرُ﴾»[1].

وقال في موضع آخر من الجزء نفسه :

«فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم النور، لا بالتعلم والدارسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، فمن كان لله كان الله له، وزعموا أن الطريق في ذٰلك أولاً من قطع علائق الدنيا

---

(١) (٣ / ٧٦).

بالكلية وتفريغ القلب منها، ويقطع الهمة على الأهل والمال والولد والوطن، وعن العلم والـولاية والجاه، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن، ولا بالتأمل في تفسير، ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد ألا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه: الله! الله! على الدوام، مع حضور القلب، حتى ينتهي إلى حالة ينتهي تحريك اللسان، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه، ثم يصبر عليه إلى أن ينمحي أثره على اللسان ويواظب قلبه على الذكر، ثم يواظب عليه إلى أن ينمحي عن القلب صورة اللفظ وحـروفـه وهيئـة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه، وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هٰذا الحد، واختيار في استـدامـة هٰذه الحـالـة بدفـع الـوساوس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة الله، فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة؛ كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهٰذه الطريق.

وعنـد ذٰلك؛ إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته، فلم تجاذبه شهواته، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا؛ تلمع لوامع الحق في قلبه، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت، ثم يعود، وقد يتأخر، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفاً، وإن ثبت قد يطوُل ثباته وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق، وقد يقتصر على فن واحد، ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم، وقد رجع هٰذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء، ثم استعداد

وانتظار»[1].

ثم استرسل الغزالي في ذكر هٰذا الهذيان بما يثقل ذكره وتسود به الصحائف، فعليهم ما يستحقون من ربهم؛ فقد أفسدوا الدين أيما إفساد.

* التعليق:

أقول: بأن هٰذه الخلوات والزوايا التي هي من العمد الصوفية إذا لم تكن هي مساجد الضرار التي قال الله تعالى فيها للنبي ﷺ: ﴿والذين اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وكُفْراً وتَفْرِيقاً بينَ المُؤْمِنِينَ وإرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ ورَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ولَيَحْلِفُنَّ إنْ أَرَدْنا إلا الحُسْنى واللهُ يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكاذِبُونَ . لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَومٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فيهِ فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ على تَقْوى مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ خَيرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ على شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهار بهِ في نارِ جَهَنَّمَ واللهُ لا يَهْدي القَومَ الظَّالِمينَ . لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الذي بَنَوا رِيبَةً في قُلوبِهِمْ إلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ﴾[2].

قال الحافظ ابن كثير:

«سبب نزول هٰذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر؛ شرق

(١) (٣ / ١٩ ـ ٢٠).

(٢) سورة التوبة: ١١٠.

اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فارّاً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هٰذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذٰلك اليوم، فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله عليه وسلامه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه؛ قالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه، وسبوه، فرجع وهو يقول: والله؛ لقد أصاب قومي بعدي شر.

وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هٰذه الدعوة، وذٰلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور؛ ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومنـاه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والـريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عمّا هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذٰلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه، وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا، فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم، فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه،

فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»، فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم؛ نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أُسس من أول يوم على التقوى، فبعث الرسول ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة.

كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً وساعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح؛ فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، وأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم؛ أتوا النبي ﷺ، فقالوا له: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله عز وجل: ﴿**لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً**...﴾ إلى قوله: ﴿**الظَّالِمِينَ**﴾.

وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله ابن أبي بكر وعاصم بن عمرو بن قتادة وغيرهم؛ قالوا: أقبل رسول الله ﷺ ـ يعني: من تبوك ـ حتى نزل بذي أوان ـ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ـ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله! إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: «إني على جناح سفر وحال شغل (أو كما قال رسول الله ﷺ)، ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى؛ أتيناكم فصلينا لكم فيه»، فلما نزل بذي أوان؛ أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي

أو أخاه عامر بن عدي أخا بلعجلان، فقال: «انطلقا إلى هٰذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه»، فخرجا سريعين، حتى أتيا بني سالم بن عوف ـ وهم رهط مالك بن الدخشم ـ، فقال مالك لمعن: انظرني حتى أخرج إليه بنار من أهلي، فدخل أهله، فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿والذين اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وكُفْراً﴾ . . . إلى آخر القصة.

وكان الذين بنوه اثني عشر رجلا: خدام بن خالد من بني عبد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بني عبيد، وموالي بني أمية بن زيد، ومعتب بن قشير من بني ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأزعر من بني ضبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف أخو سهل ابن حنيف من بني عمرو بن عوف، وحارثة بن عامر وابناه مجمع بن حارثة وزيد بن حارثة، ونبتل الحارث، وهم من بني ضبيعة، ومخرج وهو من بني ضبيعة، وبجاد بن عمران وهو من بني ضبيعة، ووديعة بن ثابت، وموالي بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر.

وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾؛ أي: الذين بنوه: ﴿إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الحُسْنَى﴾؛ أي: ما أردنا ببنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس.

قال الله تعالى: ﴿واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾؛ أي: فيما قصدوا وفيما نووا، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق، الذي يقال له الراهب، لعنه الله.

وقوله: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾: نهي له صلى الله عليه وآله وسلم، والأمة

تبع له في ذٰلك، عن أن يقوم فيه ـ أي: يصلي ـ أبداً.

ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذي أُسس من أول يوم بنائه على التقـوى، وهي طاعـة الله وطـاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين، ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله، ولهٰذا قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقَوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾.

والسياق إنمـا هو في معـرض مسجـد قباء، ولهٰذا جاء في الحديث الصحيح: أن رسـول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة». وفي «الصحيح»: أن رسـول الله ﷺ كان يزور مسجـد قباء راكباً وماشياً. وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو ابن عوف؛ كان جبريل هو الذي عين له جهة القبلة. فالله أعلم[1].

ومن قرأ الآية وسبب نزولها ممَّا ذكره الحافظ ابن كثير؛ يجد أنه لا فرق بين ما ذكـر في الآية وفي سبب نزولها، وبين ما ذكره الصوفيَّة في إحداث الخلوة التي جعلوها مكاناً للعبادة، وذكروا لها من الشروط والأوصاف ما زادوا به على المنـافقين الـذين بنـوا مسجـد الضرار بما أخذوه عن جهلة الهنود وعبادهم الوثنيين الذين لا نبي لهم ولا رسول.

وفي كلام الغزالي من الباطل ما يجب دفعه ورده، وكل جملة من جمله تحمل ضلالاً كبيراً، فلذا سنقتصر في كلمتنا هٰذه على ما سماه بالخلوة، ونترك بقية الأمور إلى حينها، ما لم يتقدم بعضها، فنقول وبالله التوفيق:

إن الذي يستقرىء نصوص الكتاب والسنة يجد أن من خصائص هٰذه الأمـة أن الأرض كلها جعلت لها مسجداً، وأينما أدركت المصلي الصلاة

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢ / ٣٨٩).

صلاهـا، وذٰلـك رفعـاً للحـرج والتوسيع على الأمة، وخصصت المساجد للاجتمـاع في الصلوات الفرائض للرجال، على طريق الوجوب في أرجح الأقوال، من تمكن منهم من ذٰلك، ولصلاة الجمعة؛ إلا للمسافر والمريض ومن استثني في الحديث، وجعلت المساجد الثلاثة أفضل بيوت الله على الإطلاق، وصحت النصوص في شدّ الرحال إليها والاعتكاف فيها والصلاة على أرضهـا وما يتبع ذٰلك من ذكر وتلاوة وصلاة على النبي ﷺ، وجعلت البيوت كلها مَحَلًّا لأداء النوافل بالليل والنهار، وصح عنه ﷺ فضيلة الصلاة فيها؛ إلا المكتوبة، وهي خلوة المسلم وصومعته؛ أي: محل عبادته الفردية طيلة عمره.

أمـا تخصيص مكان معين للعبادة بشروط هندية مفتعلة في البراري والقفار والجبال والسهول والأمكنة البعيدة؛ فهٰذا أمر ليس من الإسلام في شيء، والهـدي هدي محمـد ﷺ، وبعـد نزول الوحي عليه عليه الصلاة والسلام لم يثبت عنه أنه ذهب إلى مكان معين في جبل أو غار ليتضرع فيه إلى العبادة، والمنقول عنه بالتواتر هو: الصلاة في المسجد وفي البيت وفي سفره وحضره وعن أصحابه كذٰلك وخلفائه، والهدي هديه، والأسوة أسوته، والاقتداء به هو المتعين، وأما عباد الهنود وجهالهم؛ فتجب علينا محاربتهم.

وها هي كتب الحديث بين أيدينا والآثار والفقه، لم يذكر واحد منهم هٰذا الأصل الباطل الذي دندن حوله الغزالي، والذي تلقفه عنه المعاصرون وأثبتوه في كتبهم.

وقد سُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هٰذا الباطل الذي ذكره الغزالي، فأجاب رحمه الله جواباً كافياً، فأفاد وأجاد؛ قال رحمه الله:

«وأما الخلوات؛ فبعضهم يحتج فيها بتحنثه بغار حراء قبل الوحي،

وهٰذا خطأ؛ فإن ما فعله ﷺ قبل النبوة، إن كان قد شرعه بعد النبوة؛ فنحن مأمورون باتباعه فيه، وإلا؛ فلا، وهو من حين نبأه الله تعالى لم يصعد بعد ذٰلك إلى غار حراء، ولا خلفاؤه الراشدون، وقد أقام صلوات الله عليه بمكة قبل الهجرة بضع عشرة سنة، ودخل مكة في عمرة القضاء وعام الفتح، أقام بها قريباً من عشرين ليلة، وأتاها في حجة الوداع، وأقام بها أربع ليال، وغار حراء قريب منه، ولم يقصده، وذٰلك أن هٰذا كانوا يأتونه في الجاهلية، ويقال: إن عبد المطلب هو سن لهم إتيانه؛ لأنه لم تكن لهم هٰذه العبادات الشرعية التي جاء بها بعد النبوة صلوات الله عليه؛ كالصلاة والاعتكاف في المساجد؛ فهٰذه تغني عن إتيان حراء؛ بخلاف ما كانوا عليه قبل نزول الوحي؛ فإنه لم يكن يقرأ، بل قال له الملك عليه السلام: اقرأ. قال صلوات الله وسلامه عليه: «فقلت: لست بقارىء». ولا كانوا يعرفون هٰذه الصلاة، ولهٰذا لما صلاها النبي ﷺ؛ نهاه عنها من نهاه من المشركين؛ كأبي جهل.

قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الذي يَنْهَى . عَبْداً إذا صَلَّى . أَرَأَيتَ إِنْ كَانَ على الهُدى . أَو أَمَرَ بالتَّقْوى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وتَوَلَّى . أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرى . كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لِنَسْفَعَنْ بالنَّاصِيةِ . نَاصِيةٍ كَاذِبةٍ خَاطِئةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ . كَلَّا لا تُطِعْهُ واسْجُدْ واقْتَرِب﴾.

وطائفة يجعلون الخلوة أربعين يوماً، ويعظمون أمر الأربعينية، ويحتجون فيها بأن الله تعالى واعد موسى عليه السلام ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر.

وقد روي أن موسى عليه السلام صامها، وصام المسيح أيضاً أربعين لله تعالى، وخوطب بعدها، فيقولون: يحصل بعدها الخطاب والتنزل، كما

يقولون في غار حراء: حصل بعده نزول الوحي.

وهٰذا أيضاً غلط؛ فإن هٰذه ليست من شريعة محمد ﷺ، بل شرعت لموسى عليه السلام كما شرع له السبت، والمسلمون لا يسبتون، وكما حرم في شرعه أشياء لم تحرم في شرع محمد ﷺ؛ فهٰذا تمسك بشرع منسوخ، وذاك تمسك بما كان قبل النبوة.

وقد جرب أن من سلك هٰذه العبادات البدعية؛ أتته الشياطين، وحصل له تنزل شيطاني، وخطاب شيطاني، وبعضهم يطير به شيطانه، وأعرف من هٰؤلاء عدداً طلبوا أن يحصل لهم من جنس ما حصل للأنبياء من التنزل، فنزلت عليهم الشياطين؛ لأنهم خرجوا عن شريعة النبي ﷺ التي أُمِروا بها.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ على شَرِيعَةٍ مِنَ الأمْرِ فَاتَّبِعْها ولا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الذينَ لا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً وإِنَّ الظَّالِمينَ بَعْضُهُمْ أَولِياءُ بَعْضٍ واللهُ ولِيُّ المُتَّقِينَ﴾.

وكثير منهم لا يجد للخلوة مكاناً ولا زماناً، بل يأمر الإنسان أن يخلوا في الجملة.

ثم صار أصحاب الخلوات فيهم من يتمسك بجنس العبادات الشرعية: الصلاة والصيام والزكاة والذكر، وأكثرهم يخرجون إلى أجناس غير مشروعة، فمن ذٰلك طريقة أبي حامد ومن تبعه، وهٰؤلاء يأمرون صاحب الخلوة أن لا يزيد على الفرض لا قراءة ولا نظراً في حديث نبوي ولا غير ذٰلك، بل قد يأمرونه بالذكر، ثم قد يقولون ما يقوله أبو حامد: ذكر العامة: لا إله إلا الله، وذكر الخاصة: الله، الله، وذكر خاصة الخاصة: هو، هو.

والذكر بالاسم المفرد مظهراً ومضمراً بدعة في الشرع، وخطأ في القول واللغة؛ فإن الإسم المجرد ليس هو كلاماً لا إيماناً ولا كفراً.

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ: أنه قال: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع، وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر».

وفي حديث آخر: «أفضل الذكر لا إلٰه إلا الله».

وقال: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

والأحاديث في فضل هٰذه الكلمات كثيرة صحيحة.

وأما ذكر الاسم المفرد؛ فبدعة لم يشرع، وليس هو بكلام يعقل، ولا فيه إيمان، ولهٰذا صار بعض من يأمر به من المتأخرين يبين أنه ليس قصدنا ذكر الله تعالى، ولكن جمع القلب على شيء معين، حتى تستعد النفس لما يرد عليها، فكان يأمر مريده بأن يقول هٰذا الاسم مرات، فإذا اجتمع قلبه؛ ألقى عليه حالاً شيطانيّاً، فيلبسه الشيطان، ويخيل إليه أنه قد صار في الملأ الأعلى، وأنه أُعطي ما لم يعطه محمد ﷺ ليلة المعراج، ولا موسى عليه السلام يوم الطور، وهٰذا وأشباهه وقع لبعض من كان في زماننا.

وأبلغ من ذٰلك من يقول: ليس مقصودنا إلا جمع النفس بأي شيء كان، حتى يقول: لا فرق بين قولك: يا حي! وقولك: يا جحش! وهٰذا مما قاله لي شخص منهم، وأنكرت ذٰلك عليه، وودهم بذٰلك أن تجتمع النفس حتى يتنزل عليها الشيطان.

ومنهم من يقـول: إذا كان قصـد وقـاصد ومقصود؛ فاجعل الجميع

واحداً، فيدخله في أول الأمر في وحدة الوجود.

وأما أبو حامد وأمثاله ممن أمروا بهٰذه الطريقة؛ فلم يكونوا يظنون أنها تفضي إلى الكفر ـ لكن ينبغي أن يعرف أن البدع بريد الكفر ـ، ولكن أمروا المريد أن يفرغ قلبه من كل شيء، حتى قد يأمروه أن يقعد في مكان مظلم، ويغطي رأسه، ويقول: الله الله، وهم يعتقدون أنه إذا فرغ قلبه؛ استعد بذٰلك، فينزل على قلبه من المعرفة ما هو المطلوب، بل قد يقولون: إنه يحصل له من جنس ما يحصل للأنبياء.

ومنهم من يزعم أنه حصل له أكثر ممَّا حصل للأنبياء، وأبو حامد يكثر من مدح هٰذه الطريقة في «الإحياء» وغيره، كما أنه يبالغ في مدح الزهد، وهٰذا من بقايا الفلسفة عليه، فإن المتفلسفة كابن سينا وأمثاله يزعمون أن كل ما يحصل في القلوب من العلم للأنبياء وغيرهم؛ فإنما هو من العقل الفعال، ولهٰذا يقولون: النبوة مكتسبة، فإذا تفرغ؛ صفى قلبه ـ عندهم ـ وفاض على قلبه من جنس ما فاض على الأنبياء.

وعندهم أن موسى بن عمران عليه السلام كُلِّمَ من سماء عقله، لم يسمع الكلام من خارج؛ فلهٰذا يقولون: إنه يحصل لهم مثل ما حصل لموسى وأعظم ممَّا حصل لموسى.

وأبو حامد يقول: إنه سمع الخطاب كما سمعه موسى عليه السلام، وإن لم يقصد هو بالخطاب، وهٰذا كله لنقص إيمانهم بالرسل، وأنهم آمنوا ببعض ما جاءت به الرسل وكفروا ببعض، وهٰذا الذي قالوه باطل من وجوه:

الأول: أن هٰذا الذي يسمونه العقل الفعال باطل لا حقيقة له؛ كما قد بسط هٰذا في موضع آخر.

الثاني: أن ما يجعله الله في القلوب يكون تارة بواسطة الملائكة - إن كان حقاً - وتارة بواسطة الشياطين - إذا كان باطلاً -، والملائكة والشياطين أحياء ناطقون، كما قد دلت على ذٰلك الدلائل الكثيرة من جهة الأنبياء، وكما يدعي ذٰلك من باشره من أهل الحقائق، وهم يزعمون أن الملائكة والشياطين صفات لنفس الإنسان فقط، وهٰذا ضلال عظيم.

الثالث: أن الأنبياء جاءتهم الملائكة من ربهم بالوحي، ومنهم من كلمه الله تعالى فقربه وناداه كما كلم موسى عليه السلام، لم يكن ما حصل لهم مجرد فيض كما يزعمه هٰؤلاء.

الرابع: أن الإنسان إذا فرغ قلبه من كل خاطر، فمن أين يعلم أن ما يحصل فيه حق؟ هٰذا إما أن يعلم بعقل أو سمع، وكلاهما لم يدل على ذٰلك.

الخامس: أن الذي قد علم بالسمع والعقل أنه فرَّغ قلبه من كل شيء؛ حلت فيه الشياطين، ثم تنزلت عليه الشياطين، كما كانت تتنزل على الكهان؛ فإن الشيطان إنما يمنعه من الدخول إلى قلب ابن آدم ما فيه من ذكر الله الذي أرسل به رسله، فإذا خلا من ذٰلك؛ تولاه الشيطان.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبيلِ ويَحْسَبونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدونَ**﴾.

وقال الشيطان فيما أخبر الله عنه: ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين . إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ عِبادِي لَيسَ لَكَ عَليهِمْ سُلطَانٌ إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوينَ**﴾.

والمخلصون هم الذين يعبدونه وحده لا يشركون به شيئاً، وإنما يعبد

الله بما أمر به على ألسنة رسله، فمن لم يكن كذٰلك؛ تولته الشياطين.

هٰذا باب دخل فيه أمر عظيم على كثير من السالكين، واشتبهت عليهم الأحوال الرَّحمانية بالأحوال الشَّيطانية، وحصل لهم من جنس ما يحصل للكهان والسحرة، وظنوا أن ذٰلك من كرامات أولياء الله المتقين، كما قد بسط الكلام على هٰذا في غير هٰذا الموضع.

السادس: أن هٰذه الطريقة لو كانت حقّاً؛ فإنما تكون في حق من لم يأته رسول، فأما من أتاه رسول وأمر بسلوك طريق؛ فمن خالفه ضل، وخاتم الرسل ﷺ قد أمر أمته بعبادات شرعية؛ من: صلاة، وذكر، ودعاء، وقراءة، لم يأمرهم قط بتفريغ القلب من كل خاطر وانتظار ما ينزل.

فهٰذه الطريقة لو قدر أنها طريق لبعض الأنبياء؛ لكانت منسوخة بشرع محمد ﷺ، فكيف وهي طريقة جاهلية لا توجب الوصول إلى المطلوب إلا بطريق الاتفاق؟ بأن يقذف الله تعالى في قلب العبد إلهاماً ينفعه، وهٰذا قد يحصل لكل أحد، ليس هو من لوازم هٰذه الطريق.

ولكن التفريغ والتخلية التي جاء بها الرسول: أن يفرغ قلبه مما لا يحبه الله، ويملؤه بما يحبه الله، فيفرغه من عبادة غير الله ويملؤه بعبادة الله، وكذٰلك يفرغه عن محبة غير الله ويملؤه بمحبة الله، وكذٰلك يخرج عنه خوف غير الله ويدخل فيه خوف الله تعالى، وينفي عنه التوكل على غير الله ويثبت فيه التوكل على الله، وهٰذا هو الإسلام المتضمن للإيمان الذي يمده القرآن ويقويه، لا يناقضه وينافيه، كما قال جندب وابن عمر: «تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً».

وأما الاقتصار على الذكر المجرد الشرعي؛ مثل قول: «لا إلٰه إلا

الله»، فهٰذا قد ينتفع به الإنسان أحياناً، لكن ليس هٰذا الذكر وحده هو الطريق إلى الله تعالى دون ما عداه، بل أفضل العبادات البدنية الصلاة، ثم القراءة، ثم الذكر، ثم الدعاء، والمفضول في وقته الذي شرع فيه أفضل من الفاضل؛ كالتسبيح في الركوع والسجود؛ فإنه أفضل من القراءة، وكذٰلك الدعاء في آخر الصلاة أفضل من القراءة، ثم قد يفتح على الإنسان في العمل المفضول ما لا يفتح عليه في العمل الفاضل، وقد ييسر عليه هٰذا دون هٰذا، فيكون هٰذا أفضل في حقه؛ لعجزه عن الأفضل؛ كالجائع إذا وجد الخبز المفضول متيسراً عليه والفاضل متعسراً عليه؛ فإنه ينتفع بهٰذا الخبز المفضول، وشبعه واغتذاؤه به حينئذ أولى به.

السابع: أن أبا حامد يشبه ذٰلك بنقش أهل الصين والروم على تزويق الحائط، وأولٰئك صقلوا حائطهم حتى تمثل فيه ما صقله هٰؤلاء، وهٰذا قياس فاسد؛ لأن هٰذا الذي فرغ قلبه لم يكن هناك قلب آخر يحصل له به التحلية كما حصل لهٰذا الحائط من هٰذا الحائط، بل هو يقول: إن العلم منقوش في النفس الفلكية، ويسمي ذٰلك اللوح المحفوظ؛ تبعاً لابن سينا.

وقد بينا في غير هٰذا الموضع أن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله ورسوله ليس هو النفس الفلكية، وابن سينا ومن تبعه أخذوا أسماء جاء بها الشرع، فوضعوا لها مسميات مخالفة لمسميات صاحب الشرع، ثم صاروا يتكلمون بتلك الأسماء، فيظن الجاهل أنهم يقصدون بها ما قصده صاحب الشرع، فأخذوا مخ الفلسفة، وكسوه لحاء الشريعة.

وهٰذا كلفظ الملك والملكوت والجبروت واللوح المحفوظ والملك والشيطان والحدوث والقدم... وغير ذٰلك.

وقد ذكرنا من ذٰلك طرقاً في الرد على الاتحادية، لما ذكرنا قول ابن

سبعين وابن عربي وما يوجد في كلام أبي حامد ونحوه من أصول هٰؤلاء الفلاسفة الملاحدة الذين يحرفون كلام الله ورسوله عن مواضعه؛ كما فعلت طائفة القرامطة الباطنية.

والمقصود هنا: أنه لو كانت العلوم تنزل على القلوب من النفس الفلكية كما يزعم هٰؤلاء؛ فلا فرق في ذٰلك بين الناظر والمستدل والمفرغ قلبه، فتمثيل ذٰلك بنقش أهل الصين والروم تمثيل باطل.

ومن أهل هٰذه الخلوات من لهم أذكار معينة وقوت معين، ولهم تنزلات معروفة، وقد بسط الكلام عليها ابن عربي الطائي ومن سلك سبيله كالتلمساني، وهي تنزلات شيطانية، قد عرفتها وخبرت ذٰلك من وجوه متعددة، لكن ليس هٰذا موضع بسطها، وإنما المقصود التنبيه على هٰذا الجنس.

وممَّا يأمرون به الجوع والسهر والصمت مع الخلوة بلا حدود شرعية، بل سهر مطلق، وجوع مطلق، وصمت مطلق، مع الخلوة، كما ذكر ذٰلك ابن عربي وغيره، وهي تولد لهم أحوالاً شيطانية.

وأبو طالب قد ذكر بعض ذٰلك، لكن أبو طالب أكثر اعتصاماً بالكتاب والسنة من هٰؤلاء، ولكن يذكر أحاديث كثيرة ضعيفة بل موضوعة من جنس أحاديث المسبعات التي رواها عن الخضر عن النبي ﷺ، وهو كذب محض، وإن كان ليس فيه إلا قراءة قرآن، ويذكر أحياناً عبادات بدعية من جنس ما بالغ في مدح الجوع هو وأبو حامد وغيرهما وذكروا أنه يزن الخبز بخشب رطب، كلما جف نقص الأكل.

وذكروا صلوات الأيام والليالي، وكلها كذب موضوعة، ولهٰذا قد

يذكرون مع ذٰلك شيئاً من الخيالات الفاسدة، وليس هٰذا موضع بسط ذٰلك.

وإنما الغرض التنبيه بهٰذا على جنس من العبادات البدعية، وهي الخلوات البدعية، سواء قدرت بزمان أو لم تقدر؛ لما فيها من العبادات البدعية: إما التي جنسها مشروع ولكن غير مقدرة، وإما ما كان جنسه غير مشروع، فأما الخلوة والعزلة والانفراد المشروع؛ فهو ما كان مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب.

فالأول: كاعتزال الأمور المحرمة ومجانبتها؛ كما قال تعالى: ﴿**وإذا رأَيْتَ الذينَ يَخُوضونَ في آياتِنا فأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتَّى يَخوضوا في حَديثٍ غَيْرِهِ**﴾.

ومنه قوله تعالى عن الخليل: ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ ومَا يَعْبُدُونَ مِنْ دَونِ اللهِ وهَبْنا لَهُ إِسحاقَ ويَعْقُوبَ وكُلاًّ جَعَلْنا نَبِيّاً**﴾.

وقوله عن أهل الكهف: ﴿**وإذ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ومَا يَعْبُدُونَ إلاَّ اللهَ فَأْووا إلى الكَهْفِ**﴾.

فإن أولٰئك لم يكونوا في مكان فيه جمعة ولا جماعة، ولا من يأمر لشرع نبي؛ فلهٰذا أووا إلى الكهف.

وقد قال موسى: ﴿**وإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ**﴾.

وأمَّا اعتزال الناس في فضول المباحات وما لا ينفع، وذٰلك بالزهد فيه؛ فهو مستحب، وقد قال طاووس: نعم صومعة الرجل بيته، يكف فيه بصره وسمعه.

وإذا أراد الإنسان تحقيق علم أو عمل، فتخلى في بعض الأماكن، مع محافظته على الجمعة والجماعة؛ فهٰذا حق؛ كما في «الصحيحين»: إن

النبي ﷺ سُئِلَ: أي الناس أفضل؟ قال: «رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيعة؛ طار إليها، يتتبع الموت مظانه، ورجل معتزل في شعب من الشعاب، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويدع الناس؛ إلا من خير».

وقوله: «يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة»: دليل على أن له مالاً يزكيه، وهو ساكن مع ناس يؤذن بينهم وتقام الصلاة فيهم.

فقد قال ﷺ: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة جماعة؛ إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان».

وقال: «عليكم بالجماعة؛ فإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم».

فصل

وهٰذه الخلوات، قد يقصد أصحابها الأماكن التي ليس فيها أذان ولا إقامة ولا مسجد يصلى فيه الصلوات الخمس: إما مساجد مهجورة، وإما غير مساجد؛ مثل: الكهوف والغيران التي في الجبال، ومثل المقابر، لا سيما قبر من يحسن به الظن، ومثل المواضع التي يقال: إن بها أثر نبي أو رجل صالح، ولهٰذا يحصل لهم في هٰذه المواضع أحوال شيطانية يظنون أنها كرامات رحمانية.

فمنهم من يرى أن صاحب القبر قد جاء إليه، وقد مات من سنين كثيرة، ويقول: أنا فلان، وربما قال له: نحن إذا وضعنا في القبر خرجنا؛ كما جرى للتونسي مع نعمان السلامي.

والشياطين كثيراً ما يتصورون بصورة الإنس في اليقظة والمنام، وقد تأتي لمن لا يعرف، فتقول: أنا الشيخ فلان، أو العالم فلان، وربما قالت:

أنا أبو بكر وعمر، وربما أتى في اليقظة دون المنام، وقال: أنا المسيح أنا موسى أنا محمد... وقد جرى مثل ذٰلك أنواع أعرفها، وثم من يصدق بأن الأنبياء يأتون في اليقظة في صورهم، وثم شيوخ لهم زهد وعلم وورع ودين يصدقون بمثل هٰذا.

ومن هٰؤلاء من يظن أنه حين يأتي إلى قبر نبي: أن النبي يخرج من قبره في صورته فيكلمه.

ومن هٰؤلاء من رأى في دائرة ذرى الكعبة صورة شيخ قال: إنه إبراهيم الخليل.

ومنهم من يظن أن النبي ﷺ خرج من الحجرة وكلمه، وجعلوا هٰذا من كراماته.

ومنهم من يعتقد أنه إذا سأل المقبور أجابه.

وبعضهم كان يحكي أن ابن منده كان إذا أشكل عليه حديث جاء إلى الحجرة النبوية ودخل فسأل النبي ﷺ عن ذٰلك فأجابه.

وآخر من أهل المغرب حصل له مثل ذٰلك، وجعل ذٰلك من كراماته.

حتى قال ابن عبد البر لمن ظن ذٰلك: «ويحك أترى هٰذا أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار؟ فهل في هٰؤلاء من سأل النبي ﷺ بعد الموت وأجابه؟ وقد تنازع الصحابة في أشياء؛ فهلا سألوا النبي ﷺ فأجابهم، وهٰذه ابنته فاطمة تنازع في ميراثه؛ فهلا سألته فأجابها؟»[1].



(١) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٤٠٧).

● **ومن طاماته :**

الشيخ المربي معتصَم المريد وهو بمثابة النبي

قال الغزالي :

«فإذا قدم هٰذه الشروط الأربعة، وتجرد عن المال والجاه؛ كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحاً للصلاة، فيحتاج إلى إمام يقتدي به، فكذٰلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة؛ ليهديه إلى سواء السبيل؛ فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه؛ قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير؛ فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها؛ فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر، فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه، فليتسمك به تمسك الأعمى على شاطىء النهر بالقائد، بحيث يفوض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في ورده ولا صدره، ولا يبقي في متابعته شيئاً ولا يذر، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب، فإذا وجد مثل هٰذا المعتصم؛ وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمهَ بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق، وهو أربعة أمور[1]: الخلوة، والصمت، والجوع، والسهر، وهٰذا تحصن من القواطع؛ فإن مقصود المريد إصلاح قلبه؛ ليشاهد به ربه، ويصلح لقربه. . .».

واسترسل الغزالي في هذيانه بما لا نثقل به قراءنا؛ فإن في هٰذا الضلال كفاية لمن أراد أن يعرف الحق.

---

(١) (٣ / ٧٦).

● **مقارنة بين الروافض أعداء الله وبين الصوفية:**

حيل الصوفية كثيرة لا تنتهي إلا بالقضاء على مناهجهم ومصادرهم، وهٰذه منها، فمن أين جاء الصوفيَّة بهٰذه المشيخة المزعومة؟ والجواب: إنهم أخذوها مباشرة من الشيعة الروافض حذو القذة بالقذة، وإن كذبت؛ فهاك أبواباً ونصوصاً من كتاب «الكافي» للكليني إن قرأتها وأمعنت فيها النظر؛ لا تجد الفرق لا في قليل ولا في كثير؛ كما قرر أبو حامد الغزالي، وكما قال صاحب «الإحسان» بعد حكايته لكلام الغزالي في المشيخة العمياء التي عبر عنها هنا في «الإحياء».

قال ياسين في «الإحسان»:

«إن إسلاس القياد لولي مرشد يدلك على الطريق شرط في السلوك، وما كان لولي أن يأمر إلا بحق.

قال أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني مصنف هٰذا الكتاب رحمه الله: حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن العباس بن عمر الفُقيمي عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام: أنه قال للزنديق الذي سأله: من أين أثبت الأنبياء والرسل؟ قال: إنا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذٰلك الصانع حكيماً متعالياً؛ لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه، فيباشرهم ويباشروه، ويحاجهم ويحاجوه؛ ثبت أن له سفراء في خلقه، يعبرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم، وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، والمعبرون عنه جل وعز، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس ـ على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب ـ في شيء من

أحوالهم، مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان ممَّا أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين؛ لكيلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته.

حدثنا محمد بن إسماعيل عن الفضل بن شاذان عن صفوان بن يحيى عن منصور بن حازم؛ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الله أجل وأكرم من أن يعرف بخلقه، بل الخلق يعرفون بالله. قال: صدقت. قلت: إن من عرف أن له ربّاً؛ فينبغي له أن يعرف أن لذلك الرب رضىً وسخطاً، وأنه لا يعرف رضاه وسخطه إلا بوحي أو رسول، فمن لم يأته الوحي؛ فقد ينبغي له أن يطلب الرسل، فإذا لقيهم؛ عرف أنهم الحجة، وأن لهم الطاعة المفترضة.

وقلت للناس: تعلمون أن رسول الله ﷺ كان هو الحجة من الله على خلقه؟ قالوا: بلى. قلت: فحين مضى رسول الله ﷺ من كان الحجة على خلقه؟ فقالوا: القرآن. فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم به المرجيُّ والقدريُّ والزنديق الذي لا يؤمن به، حتى يغلب الرجال بخصومته، فعرفت أن القرآن لا يكون حجة إلا بقيم، فما قال فيه من شيء؛ كان حقّاً. فقلت لهم: من قيم القرآن؟ فقالوا: ابن مسعود قد كان يعلم. وعمر يعلم. وحذيفة يعلم. قلت: كله؟ قالوا: لا. فلم أجد أحداً يقال: إنه يعرف ذلك كله؛ إلا عليّاً عليه السلام، وإذا كان الشيء بين القوم، فقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري، وقال هذا: أنا أدري؛ فأشهد أن عليّاً عليه السلام كان قيم القرآن، وكانت طاعته مفترضة، وكان الحجة على الناس بعد رسول الله ﷺ، وأن ما قال في القرآن؛ فهو حق. فقال: رحمك الله.

حدثنا عليُّ بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن إبراهيم عن يونس بن

يعقوب؛ قال: كان عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة من أصحابه، منهم: حمران بن أعين، ومحمد بن النعمان، وهشام بن سالم، والطيبار، وجماعة فيهم هشام بن الحكم وهو شاب، فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا هشام! ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته؟ فقال هشام: يا ابن رسول الله! إني أجلك وأستحييك ولا يعمل لساني بين يديك. فقال أبو عبد الله: إذا أمرتكم بشيء فافعلوا.

قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة، فعظم ذٰلك علي، فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة، فأتيت مسجد البصرة، فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء متزر بها من صوف وشملة مرتد بها، والناس يسألونه، فاستفرجت الناس، فأفرجوا لي، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتيّ، ثم قلت: أيها العالم! إني رجل غريب، تأذن لي في مسألة؟ فقال لي: نعم. فقلت له: ألك عينٌ؟ فقال: يا بني! أي: شيء هٰذا من السؤال؟ وشيء تراه كيف تسأل عنه؟ فقلت: هٰكذا مسألتي. فقال: يا بني! سل وإن كانت مسألتك حمقاء. قلت: أجبني فيها. قال لي: سل. قلت: ألك عينٌ؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع بها؟ قال: أرى بها الألوان والأشخاص. قلت: فلك أنف؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أشم به الرائحة. قلت: ألك فمٌ؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أذوق به الطعم. قلت: فلك أذنٌ؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع بها؟ قال: أسمع بها الصوت. قلت: ألك قلب؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أميز به كلما ورد على هٰذه الجوارح والحواس. قلت: أو ليس في هذه الجوراح غنى عن القلب؟ فقال: لا. فقلت: وكيف ذٰلك وهي صحيحة سليمة؟ قال: يا بنيَّ! إن الجوارح إذا

شكت في شيء شمَّته أو رأته أو ذاقته أو سمعته؛ ردَّته إلى القلب، فيستيقن اليقين ويبطل الشك. قال هشام: فقلت له: فإنما أقام الله القلب لشك الجوارح؟ قال: نعم. قلت: لا بد من القلب، وإلا لم تستيقن الجوارح. قال: نعم. فقلت له: يا أبا مروان! فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح ويتيقن به ما شك فيه، ويترك هٰذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك تردُّ إليه حيرتك وشكك؟!

قال: فسكت ولم يقل لي شيئاً. ثم التفت إلي فقال لي: أنت هشام ابن الحكم؟فقلت: لا. قال: أمن جلسائه؟ قلت: لا. قال: فمن أين أنت؟ قال: قلت: من أهل الكوفة. قال: فأنت إذاً هو، ثم ضمني إليه، وأقعدني في مجلسه، وزال عن مجلسه وما نطق حتى قمت. قال: فضحك أبو عبد الله عليه السلام، وقال: يا هشام! من علمك هٰذا؟ قلت: شيء أخذته منك وألفته. فقال: هٰذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى.

حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عمَّن ذكره عن يونس بن يعقوب؛ قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام، فورد عليه رجل من أهل الشام، فقال: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرائض، وقد جئت لمناظرة أصحابك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: كلامك من كلام رسول الله ﷺ أو من عندك؟ فقال: من كلام رسول الله ﷺ ومن عندي. فقال أبو عبد الله عليه السلام: فأنت إذاً شريك رسول الله؟ قال: لا. قال: فسمعت الوحي عن الله عز وجل يخبرك. قال: لا. قال: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله ﷺ. قال: لا. فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إليَّ، فقال: يا يونس بن يعقوب! هٰذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم. ثم قال: يا يونس! لو كنت تحسن الكلام

كلمته. قال يونس: فيا لها من حسرة. فقلت: جعلت فداك، إني سمعتك تنهى عن الكلام، وتقول: ويل لأصحاب الكلام، يقولون: هٰذا ينقاد وهٰذا لا ينقاد، وهٰذا ينساق وهٰذا لا ينساق، وهٰذا نعقله وهٰذا لا نعقله. فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنما قلت: فويل لهم إن تركوا ما أقول وذهبوا إلى ما يريدون.

ثم قال لي: اخرج إلى الباب فانظر من ترى من المتكلمين فأدخله. قال: فأدخلت حمران بن أعين وكان يحسن الكلام، وأدخلت الأحول وكان يحسن الكلام، وأدخلت هشام بن سالم، وكان يحسن الكلام، وأدخلت قيس بن الماصر، وكان عندي أحسنهم كلاماً، وكان قد تعلم الكلام من علي ابن الحسين عليه السلام، فلما استقر بنا المجلس ـ وكان أبو عبد الله عليه السلام قبل الحج يستقر أياماً في جبل في طرف الحرم في فازة له مضروبة ـ. قال: فأخرج أبو عبد الله عليه السلام رأسه من فازته، فإذا هو ببعير يخبُّ. فقال: هشام ورب الكعبة. قال: فظننا أن هشاماً رجل من ولد عقيل كان شديد المحبة له.

قال: فورد هشام بن الحكم، وهو أول ما اختطت لحيته، وليس فينا إلا من هو أكبر سنّاً منه. قال: فوسع له أبو عبد الله عليه السلام، وقال: ناصرنا بقلبه ولسانه ويده. ثم قال: يا حمران! كلِّم الرجل، فكلمه، فظهر عليه حمران. ثم قال: يا طاقي! كلمه، فكلمه، فظهر عليه الأحول. ثم قال: يا هشام بن سالم! كلمه، فتعارفا. ثم قال أبو عبد الله عليه السلام لقيس الماصر: كلمه. فكلمه، فأقبل أبو عبد الله عليه السلام يضحك من كلامهما ممَّا قد أصاب الشامي.

فقال للشامي: كلم هٰذا الغلام ـ يعني: هشام بن الحكم ـ. فقال:

نعم. فقال لهشام: يا غلام! سلني في إمامة هٰذا. فغضب هشام حتى ارتعد، ثم قال للشامي: يا هٰذا! أربك أنظر لخلقه أم خلقه لأنفسهم؟ فقال الشاميُّ: بل ربي أنظر لخلقه. قال: ففعل بنظره لهم ماذا؟ قال: أقام لهم حجة ودليلاً كي لا يتشتتوا أو يختلفوا يتألفهم ويقيم أودهم ويخبرهم بفرض ربهم. قال: فمن هو؟ قال: رسول الله ﷺ. قال هشام: فبعد رسول الله ﷺ. قال: الكتاب والسنة. قال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في رفع الاختلاف عنَّا؟ قال الشامي: نعم. قال: فلم اختلفنا أنا وأنت وصرت إلينا من الشام في مخالفتنا إياك؟ قال: فسكت الشاميٍّ. فقال أبو عبد الله عليه السلام للشامي: ما لك لا تتكلم؟ قال الشامي: إن قلت: لم نختلف؛ كذبت، وإن قلت: إنَّ الكتاب والسنة يرفعان عنَّا الاختلاف؛ أبطلت؛ لأنهما يحتملان الوجوه، وإن قلت: قد اختلفنا، وكل واحد منا يدعي الحق، فلم ينفعنا إذن الكتاب والسنة؛ إلا أن لي عليه هٰذه الحجة. فقال أبو عبد الله عليه السلام: سَلْهُ تجدْه مليّاً. فقال الشامي: يا هٰذا! من أنظر للخلق أربهم أو أنفسهم؟ فقال هشام: ربهم أنظر لهم منهم لأنفسهم. فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع لهم كلمتهم ويقيم أودهم ويخبرهم بحقهم من باطلهم؟ قال هشام: في وقت رسول الله ﷺ أو الساعة. قال الشامي: في وقت رسول الله ﷺ والساعة من؟ فقال هشام: هٰذا القاعد الذي تشد إليه الرحال، ويخبرنا بأخبار السماء والأرض، وراثة عن أب عن جد. قال الشامي: فكيف لي أن أعلم ذٰلك؟ قال هشام: سله عمَّا بَدا لك. قال الشامي: قطعت عذري فعلي السؤال.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا شاميُّ! أخبرك كيف كان سفرك؟ وكيف كان طريقك؟ كان كذا وكذا. فأقبل الشامي يقول: صدقت، أسلمت

لله الساعة. فقال أبو عبد الله عليه السلام: بل آمنت بالله الساعة، إن الإسلام قبل الإيمان، وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يُثَابون. فقال الشامي: صدقت؛ فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وأنك وصي الأوصياء.

ثم التفت أبو عبد الله عليه السلام إلى حمران، فقال: تجري الكلام على الأثر فتصيب، والتفت إلى هشام بن سالم، فقال: تريد الأثر ولا تعرفه، ثم التفت إلى الأحول، فقال: قيَّاس روّاغ، تكسر باطلاً بباطل؛ إلا أن باطلك أظهر، ثم التفت إلى قيس الماصر، فقال: تتكلم وأقرب ما تكون من الخبر عن رسول الله ﷺ أبعد ما تكون منه، تمزج الحق مع الباطل، وقليل الحق يكفي عن كثير الباطل، أنت والأحول قفازان حاذقان. قال يونس: فظننت والله أنه يقول لهشام قريباً ممَّا قال لهما، ثم قال: يا هشام! لا تكاد تقع تلوي رجليك، إذا هممت بالأرض طرت مثلك، فليكلم الناس، فاتق الزلة، والشفاعة من ورائها، إن شاء الله.

حدثنا عدَّةٌ من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن عيسى عن علي بن الحكم عن أبان؛ قال: أخبرني الأحول: أن زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام، بعث إليه وهو مستخف، قال: فأتيته، فقال لي: يا أبا جعفر! ما تقول إن طرقك طارق منا، أتخرج معه؟ قال: فقلت له: إن كان أباك أو أخاك خرجت معه. قال: فقال لي: فأنا أريد أن أخرج أجاهد هؤلاء القوم؛ فاخرج معي. قال: قلت: لا ما أفعل جُعلت فداك. قال: فقال لي: أترغب بنفسك عني؟ قال: قلت له: إنما هي نفس واحدة، فإن كان لله في الأرض حجة؛ فالمتخلف عنك ناج والخارج معك هالك، وإن لا تكن لله حجة في الأرض؛ فالمتخلف عنك والخارج معك سواء.

قال: فقـال لي: يا أبـا جعفـر! كنت أجلس مع أبي على الخوان، فيلقمني البضعة السمينة، ويبرد لي اللقمة الحارة حتى تبرد شفقة علي، ولم يشفق عليَّ من حر النـار إذ أخبرك بالدين ولم يخبرني به؟ فقلت له: جُعِلْتُ فداك، من شفقته عليك من حر النار لم يخبرك، خاف عليك أن لا تقبله فتدخل النار، وأخبرني أنا، فإن قبلت؛ نجوت، وإن لم أقبل؛ لم يبال أن أدخـل النار. ثم قلت له: جُعلت فداك، أنتم أفضل أم الأنبياء؟ قال: بل الأنبياء. قلت: يقول يعقوب ليوسف: يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً، لِمَ لَمْ يخبرهم حتى كانوا لا يكيدونه. ولكن كتمهم ذٰلك، فكذا أبوك كتمك؛ لأنه خاف عليك. قال: فقال: أما والله، لئن قلت ذٰلك؛ لقد حدثني صاحبك بالمدينة أني أقتل وأصلب بالكناسة وأن عنده لصحيفة فيها قتلي وصلبي.

فحججت، فحدثت أبا عبد الله عليه السلام بمقالة زيد وما قلت له، فقال لي: أخذته من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوق رأسه ومن تحت قدمية ولم تترك له مسلكاً يسلكه.

باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة:

حدَّثنا محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن أبي يحيى الواسطي عن هشام بن سالم ودرست بن أبي منصور عنه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات: فنبي منبأ في نفسه لا يعدو غيرها، ونبي يرى في النوم ويسمع الصوت ولا يعاينه في اليقظة، ولم يبعث إلى أحد، وعليه إمام مثلما كان إبراهيم على لوط عليهما السلام، ونبي يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك، وقد أرسل إلى طائفة قلوا أو كثروا كيونس، قال الله ليونس: ﴿وأَرْسَلْنـاهُ إلى مِئَـةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيـدونَ﴾؛ قال:

يزيدون ثلاثين ألفاً، وعليه إمام، والذي يرى في نومه ويسمع الصوت ويعاين في اليقظة، وهو إمام، مثل أولي العزم، وقد كان إبراهيم عليه السلام نبيّاً وليس بإمام، حتى قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إماماً قالَ ومِنْ ذُرِّيَّتي﴾، فقال الله: ﴿لا يَنالُ عَهْدي الظَّالِمينَ﴾، من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً.

حدَّثنا محمد بن الحسن عمَّن ذكره عن محمد بن خالد عن محمد بن سنان عن زيد الشحام؛ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبيّاً، وإن الله اتخذه نبيّاً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء؛ قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾، قال: فمن عظمها في عين إبراهيم؛ قال: ﴿ومِنْ ذُرِّيَّتي قالَ لا ينالُ عَهْدي الظَّالِمينَ﴾. قال: لا يكون السفيه إمام التقيِّ.

حدَّثنا عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن محمد بن يحيى الخثعمي عن هشام عن ابن أبي يعفور؛ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: سادة النبيين والمرسلين خمسة، وهم أولو العزم من الرسل، وعليهم دارت الرحى: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلىٰ الله عليه وعلى آله وعلى جميع الأنبياء.

حدثنا علي بن محمد عن سهل بن زياد عن محمد بن الحسين عن إسحاق بن عبد العزيز أبي السفاتج عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام؛ قال: سمعته يقول: إن الله اتَّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبيّاً، واتَّخذه نبيّاً قبل أن يتخذه رسولاً، واتَّخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، واتَّخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له هٰذه الأشياء ـ وقبض يده ـ؛ قال له: يا إبراهيم! إني جاعلك للناس إماماً، فمن عظمها في عين إبراهيم عليه السلام؛ قال:

يا رب! ومن ذريتي. قال: لا ينال عهدي الظَّالمين.

الفرق بين الرسول والنبي والمحدث:

حدَّثنا عدَّةٌ من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن ثعلبة بن ميمون عن زرارة؛ قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**وكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً**﴾؛ ما الرسول وما النبي؟ قال: النبي: الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول: الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين الملك. قلت: الإمام ما منزلته؟ قال: يسمع الصوت ولا يرى ولا يعاين الملك، ثم تلا هٰذه الآية: ﴿**وما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نَبِيٍّ** (ولا محدَّث)﴾.

حدَّثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن إسماعيل بن مرَّار؛ قال: كتب الحسن بن العباس المعروفي إلى الرِّضى عليه السلام: جُعِلت فداك، أخبرني ما الفرق بين الرسول والنبي والإمام؟ فكتب، أو قال: الفرق بين الرَّسول والنبي والإمام: أن الرسول: الذي ينزل عليه جبرائيل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحي، وربما رأى في منامه نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام، والنبي ربما سمع الكلام وربما رأى الشخص ولم يسمع، والإمام: هو الذي يسمع الكلام ولا يرى الشخص.

حدَّثنا محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن الحسن بن محبوب عن الأحول؛ قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الرسول والنبي والمحدث؟ قال: الرسول: الذي يأتيه جبرئيل قبلاً فيراه ويكلمه فهٰذا الرسول. وأما النبي: فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا إبراهيم، ونحو ما كان رأى رسول الله ﷺ من أسباب النبوة قبل الوحي، حتى أتاه جبرئيل عليه

السلام من عند الله بالرسالة، وكان محمد ﷺ حين جمع له النبوة وجاءته الرسالة من عند الله يجيئه بها جبرئيل ويكلمه بها قبلاً، ومن الأنبياء من جمع له النبوة، ويرى في منامه، ويأتيه الروح ويكلمه ويحدثه، من غير أن يكون يرى في اليقظة، وأما المحدث فهو الذي يحدث فيسمع ولا يعاين ولا يرى في منامه.

حدَّثنا ابن محمد ومحمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن علي بن حسان عن ابن فضال عن علي بن يعقوب الهاشمي عن مروان بن مسلم عن بريد عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نَبِيٍّ (ولا محدَّث)﴾. قلت: جُعِلتُ فداك، ليست هٰذه قراءتنا فما الرسول والنبي والمحدَّث؟ قال: الرسول: الذي يظهر له الملك فيكلمه، والنبي: هو الذي يرى في منامه، وربما اجتمعت النبوة والرسالة لواحد، والمحدَّث: الذي يسمع الصوت ولا يرى الصورة. قال: قلت: أصلحك الله! كيف يعلم أن الذي رأى في النوم حقٌّ، وأنه من الملك؟ قال: يوفق لذٰلك حتى يعرفه، لقد ختم الله بكتابكم الكتب، وختم بنبيكم الأنبياء.

أن الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام:

حدَّثنا محمد بن يحيى العطار عن أحمد بن محمد بن عيسى عن ابن أبي عمير عن الحسن بن محبوب عن داود الرقي عن العبد الصالح عليه السلام؛ قال: إن الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام حتى يُعرف.

حدَّثنا الحسين بن محمد عن معلَّى بن محمد عن الحسين بن علي الوشَّاء؛ قال: سمعت الرِّضى عليه السلام يقول: إن أبا عبد الله عليه

السلام؛ قال: إن الحجة لا تقوم لله عز وجل على خلقه إلا بإمام حتى يُعرف.

حدَّثنا أحمد بن محمد عن محمد بن الحسن عن عباد بن سليمان عن سعد بن سعد عن محمد بن عمارة عن أبي الحسن الرِّضى عليه السلام؛ قال: إن الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام حتى يُعرف.

حدَّثنا ابن يحيى عن أحمد بن محمد عن البرقي عن خلف بن حماد عن أبان بن تغلب؛ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق.

أن الأرض لا تخلو من حجة:

حدَّثنا عدَّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن أبي عمير عن الحسين بن أبي العلاء؛ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: تكون الأرض ليس فيها إمام؟ قال: لا. قلت: يكون إمامان؟ قال: لا؛ إلا وأحدهما صامت.

حدَّثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن محمد بن أبي عمير عن منصور بن يونس وسعدان بن مسلم عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام؛ قال: سمعته يقول: إن الأرض لا تخلو إلا وفيها إمام، كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردهم، وإن نقصوا شيئاً أتمه لهم.

حدَّثنا محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن علي بن الحكم عن ربيع بن محمد المسلِّي عن عبد الله بن سليمان العامري عن أبي عبد الله عليه السلام؛ قال: ما زالت الأرض إلا ولله فيها الحجة، يعرّف الحلال والحرام، ويدعو الناس إلى سبيل الله.

حدَّثنا ابن مهران عن محمد بن علي عن الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام؛ قال: «قلت له: تبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لا».

حدَّثنا علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام؛ قال: «إن الله لم يدع الأرض بغير عالم، ولولا ذلك؛ لم يعرف الحق من الباطل».

حدَّثنا محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن القاسم بن محمد عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام؛ قال: «إن الله أجل وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل».

حدَّثنا علي بن محمد عن سهل بن زياد عن الحسن بن محبوب عن أبي أسامة وعلي بن إبراهيم عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن أبي أسامة وهشام بن سالم عن أبي حمزة عن أبي إسحاق عمن يثق به من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «اللهم إنك لا تخلي أرضك من حجة لك على خلقك».

حدَّثنا علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن محمد بن الفضيل عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام؛ قال: «والله ما ترك الله أرضاً منذ قبض آدم عليه السلام؛ إلا وفيها إمام يهتدى به إلى الله، وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده».

حدَّثنا الحسين بن محمد عن معلّى بن محمد عن بعض أصحابنا عن أبي علي بن راشد؛ قال: قال أبو الحسن عليه السلام إن الأرض لا تخلو من حجة وأنا والله ذلك الحجة.

حدَّثنا علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن محمد بن الفضيل عن أبي حمزة؛ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت.

حدَّثنا علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضى عليه السلام؛ قال: «قلت له: أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لا. قلت: فإنا نروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنها لا تبقى بغير إمام؛ إلا أن يسخط الله تعالى على أهل الأرض أو على العباد. فقال: لا، لا تبقى، إذاً لساخت».

حدثنا عليٌّ عن محمد بن عيسى عن أبي عبد الله المؤمن عن أبي هراسة عن أبي جعفر عليه السلام؛ قال: لو أن الإمام رفع من الأرض ساعة لَماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله.

حدَّثنا الحسين بن محمد عن معلَّى بن محمد عن الوشَّاء؛ قال: «سألت أبا الحسن الرضى عليه السلام: هل تبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لا. قلت: إنا نروي أنها لا تبقى؛ إلا أن يسخط الله عز وجل على العباد. قال: لا تبقى إذاً لساخت».

أنه لو لم يبق في الأرض إلا رجلان لكان أحدهما الحجة:

حدَّثنا محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن محمد بن سنان عن ابن الطيار؛ قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لو لم يبق في الأرض إلا اثنان؛ لكان أحدهما الحجة».

حدَّثنا أحمد بن إدريس ومحمد بن يحيى جميعاً عن أحمد بن محمد عن محمد بن عيسى بن عبيد عن محمد بن سنان عن حمزة بن الطيار عن

أبي عبد الله عليه السلام؛ قال: «لو بقي اثنان؛ لكان أحدهما الحجة على صاحبه».

محمد بن الحسن عن سهل بن زياد عن محمد بن عيسى مثله.

حدَّثنا محمد بن يحيى عمن ذكره عن الحسن بن موسى الخشاب عن جعفر بن محمد عن كرام؛ قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: لو كان الناس رجلين؛ لكان أحدهما الإمام»، وقال: «إن آخر من يموت الإمام؛ لئلا يحتجَّ أحد على الله عز وجل، أنه تركه بغير حجة لله عليه».

حدَّثنا عدَّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد البرقيِّ عن علي بن إسماعيل عن ابن سنان عن حمزة بن الطيار؛ قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لو لم يبق في الأرض إلا اثنان؛ لكان أحدهما الحجة ـ أو الثاني الحجة ـ الشكُّ من أحمد بن محمد».

حدَّثنا أحمد بن محمد عن محمد بن الحسن عن النهدي عن أبيه عن يونس بن يعقوب عن أبي عبدالله عليه السلام؛ قال: «سمعته يقول: لو لم يكن في الأرض إلا اثنان؛ لكان الإمام أحدهما».

معرفة الإمام والرد إليه:

حدَّثنا الحسين بن محمد عن معلَّى بن محمد عن الحسن بن علي الوشاء؛ قال: حدَّثنا: محمد بن الفضيل عن أبي حمزة؛ قال: «قال لي أبو جعفر عليه السلام: إنَّما يعبد الله من يعرف الله، فأما من لا يعرف الله؛ فإنما يعبده هٰكذا ضلالاً. قلت: جُعِلتُ فداك فما معرفة الله؟ قال: تصديق الله عز وجل وتصديق رسوله ﷺ وموالاة عليٍّ عليه السلام والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم، هٰكذا يعرف الله

عز وجل».

حدَّثنا الحسين عن معلَّى عن الحسن بن علي عن أحمد بن عائذ عن أبيه عن ابن أذينة؛ قال: حدَّثنا غير واحد عن أحدهما عليهما السلام: أنه قال: «لا يكون العبد مؤمناً حتى يعرف الله ورسوله والأئمة كلهم وإمام زمانه ويردُّ إليه، ويسلِّم له». ثم قال: «كيف يعرف الآخر وهو يجهل الأول؟!».

حدَّثنا محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن الحسن بن محبوب عن هشام بن سالم عن زرارة؛ قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: أخبرني عن معرفة الإمام منكم واجبة على جميع الخلق؟ فقال: إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ إلى الناس أجمعين رسولاً وحجة لله على جميع خلقه في أرضه، فمن آمن بالله وبمحمد رسول الله واتبعه وصدَّقه؛ فإن معرفة الإمام منا واجبة عليه، ومن لم يؤمن بالله وبرسوله ولم يتبعه ولم يصدقه ويعرف حقهما؛ فكيف يجب عليه معرفة الإمام وهو لا يؤمن بالله ورسوله ويعرف حقهما؟! قال: قلت: فما تقول فيمن يؤمن بالله ورسوله ويصدق رسوله في جميع ما أنزل الله يجب على أولٰئك حق معرفتكم؟ قال: نعم، أليس هٰؤلاء يعرفون فلاناً وفلاناً؟ قلت: بلى. قال: أترى أن الله هو الذي أوقع في قلوبهم معرفة هٰؤلاء؟ والله ما أوقع ذٰلك في قلوبهم إلا الشيطان، لا والله ما ألهم المؤمنين حقنا إلا الله عز وجل».

حدَّثنا عنه عن أحمد بن محمد عن الحسن بن محبوب عن عمرو بن أبي المقدام عن جابر؛ قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنما يعرف الله عز وجل ويعبده من عرف الله وعرف إمامه منَّا أهل البيت، ومن لا يعرف الله عز وجل ولا يعرف الإمام من أهل البيت؛ فإنما يعرف ويعبد غير الله هٰكذا والله ضلالاً».

حدثنا الحسن بن محمد عن معلّى بن محمد عن محمد بن جمهور عن فضالة بن أيوب عن معاوية بن وهب عن ذريح ؛ قال : «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الأئمة بعد النبي ﷺ ، فقال : كان أمير المؤمنين عليه السلام إماماً، ثم كان الحسن عليه السلام إماماً، ثم كان الحسين عليه السلام إماماً، ثم كان علي بن الحسين إماماً، ثم كان محمد بن علي إماماً، من أنكر ذٰلك كان كمن أنكر معرفة الله تبارك وتعالى ومعرفة رسوله ﷺ ، ثم قال : قلت : ثم أنت جُعِلتُ فداك؟ ـ فأعدتها عليه ثلاث مرات ـ. فقال لي : إني إنما حدثتك لتكون من شهداء الله تبارك وتعالى في أرضه» .

حدثنا عدَّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبيه عمن ذكره عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام ؛ قال : «إنكم لا تكونون صالحين حتى تعرفوا، ولا تعرفوا حتى تصدقوا، ولا تصدقوا حتى تسلموا أبواباً أربعة لا يصلح أولها إلا بآخرها، ضل أصحاب الثلاثة وتاهوا تيهاً بعيداً، إن الله تبارك وتعالى لا يقبل إلا العمل الصالح، ولا يقبل الله إلا الوفاء بالشروط والعهود، فمن وفى لله عز وجل بشرطه، واستعمل ما وصف في عهده؛ نال ما عنده، واستكمل ما وعده، إن الله تبارك وتعالى أخبر العباد بطرق الهدى، وشرع لهم فيها المنار، وأخبرهم كيف يسلكون، فقال : ﴿**وإنِّي لَغفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى**﴾، وقال : ﴿**إنَّمَا يتَقبلُ اللهُ مِنْ المُتَّقِينَ**﴾، فمن اتقى الله فيما أمره؛ لقي الله مؤمناً بما جاء به محمد ﷺ ، هيهات هيهات، فات قومٌ وماتوا قبل أن يهتدوا، وظنوا أنهم آمنوا وأشركوا من حيث لا يعلمون.

إنه من أتى البيوت من أبوابها؛ اهتدى، ومن أخذ في غيرها؛ سلك طريق الردى، وصل الله طاعة ولي أمره بطاعة رسوله، وطاعة رسوله بطاعته،

فمن ترك طاعة ولاة الأمر؛ لم يطع الله ولا رسوله، وهو الإقرار بما أنزل من عند الله عز وجل: خذوا زينتكم عند كل مسجد، والتمسوا البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه؛ فإنه أخبركم أنهم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، إن الله قد استخلص الرُّسل لأمره، ثم استخلصهم مصدقين بذلك في نُذُره، فقال: ﴿وإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾، تاه من جهل، واهتدى من أبصر وعقل، إن الله عز وجل يقول: ﴿**فَإنَّها لا تعْمى الأبْصَارُ ولٰكِنْ تَعْمى القُلُوبُ الَّتي في الصُّدُورِ**﴾، وكيف يهتدي من لم يبصر؟ وكيف يبصر من لم يتدبر؟ اتبعوا رسول الله وأهل بيته، وأقرُّوا بما نزل من عند الله، واتبعوا آثار الهدى؛ فإنهم علامات الأمانة والتقى، واعلموا أنه لو أنكر رجلٌ عيسى بن مريم عليه السلام وأقر بمن سواه من الرسل؛ لم يؤمن، اقتصوا الطريق بالتماس المنار، والتمسوا من وراء الحجب الآثار؛ تستكملوا أمر دينكم وتؤمنوا بالله ربكم.

حدثنا عدَّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن محمد بن الحسين بن صغير عمَّن حدثه عن ربعي بن عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام: أنه قال: أبى الله أن يُجري الأشياء إلا بالأسباب، فجعل لكل شيء سبباً، وجعل لكل سبب شرحاً، وجعل لكل شرح علماً، وجعل لك علم باباً ناطقاً، عرفه من عرفه، وجهله من جهله، ذاك رسول الله ﷺ ونحن.

حدثنا محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن صفوان بن يحيى عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم؛ قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: كلُّ من دان الله عزَّ وجلَّ بعبادة يجهد فيها نفسه، ولا إمام له من الله؛

فسعيه غير مقبول، وهو ضال متحير، والله شانىء لأعماله، ومثله كمثل شاة ضلت عن راعيها وقطيعها، فهجمت ذاهبة وجائية يومها، فلما جنها الليل؛ بصرت بقطيع غنم مع راعيها، فحنَّت إليها، واغترَّت بها، فباتت معها في مربضهـا، فلما أن ساق الراعي قطيعه، أنكرت راعيها وقطيعها، فهجمت متحيرة تطلب راعيها وقطيعها، فبصرت بغنم مع راعيها، فحنت إليها واغترت بها، فصاح بها الراعي: الحقي براعيك وقطيعك، فأنت تائهة متحيرة عن راعيك وقـطيعـك، فهجمت ذَعِرة متحيّرة تائهة، لا راعي لها يرشدها إلى مرعـاهـا أو يردُّهـا، فبينما هي كذٰلك؛ إذ اغتنم الذئب ضيعتها، فأكلها، وكذٰلك والله يا محمد! من أصبح من هٰذه الأمة لا إمام له من الله عزَّ وجلَّ طاهر عادل؛ أصبح ضالاً تائهاً، وإن مات على هٰذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق، واعلم يا محمد أن أئمّة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله، قد ضلوا وأضلوا، فأعمـالهم التي يعملونهـا كرمـاد اشتـدَّت به الريح في يوم عاصف، لا يقدرون ممَّا كسبوا على شيء، ذٰلك هو الضلال البعيد.

حدثنا الحسين بن محمد عن معلَّى بن محمد عن محمد بن جمهور عن عبد الله بن عبد الرحمن عن الهيثم بن واقد عن مقرن؛ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: جاء ابن الكوَّاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقـال: يا أمير المؤمنين ﴿**وعلى الأعـراف رجال يعرفون كلا بسيماهم**﴾؟ فقال: نحن على الأعراف نعرف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الذي لا يُعرف الله عز وجل إلا بسبيل معرفتنا، ونحن الأعراف يعرفنا الله عز وجل يوم القيامة على الصراط، فلا يدخل الجنة إلا من عرفنا وعرفناه، ولا يدخل النار إلا من أنكرنا وأنكرناه.

إن الله تبـارك وتعالى لو شاء لعرَّف العباد نفسه، ولكن جعلنا أبوابه

وصراطه وسبيله والوجه الذي يؤتى منه، فمن عدل عن ولايتنا أو فضل علينا غيرنا؛ فإنهم عن الصراط لناكبون، فلا سواء من اعتصم الناس به، ولا سواء حيث ذهب الناس إلى عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض، وذهب من ذهب إلينا إلى عيون صافية تجري بأمر ربِّها، لا نفاد لها ولا انقطاع.

حدثنا الحسين بن محمد عن معلَّى بن محمد عن علي بن محمد عن بكر بن صالح عن الرَّيان بن شبيب عن يونس عن أبي أيوب الخزَّاز عن أبي حمزة؛ قال: قال أبو جفعر عليه السلام: يا أبا حمزة! يخرج أحدكم فراسخ، فيطلب لنفسه دليلاً، وأنت بطرق السماء أجهل منك بطرق الأرض، فاطلب لنفسك دليلاً.

حدثنا علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس عن أيوب بن الحرّ عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز جل: ﴿**وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً**﴾، فقال: طاعة الله ومعرفة الإمام.

حدثنا ابن يحيى عن عبد الله بن محمد عن علي بن الحكم عن أبان عن أبي بصير؛ قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: هل عرفت إمامك؟ قال: قلت: إي والله، قبل أن أخرج من الكوفة. فقال: حسبك إذاً.

حدثنا محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن محمد بن إسماعيل عن منصور بن يونس عن بريد؛ قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله تبارك وتعالى: ﴿**أَوَ مَنْ كَانَ مَيِّتاً فَأَحْيَيْناهُ وجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾، فقال: ميت لا يعرف شيئاً، ونوراً يمشي به في الناس إماماً يؤتم به، ﴿**كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**﴾ قال: الذي لا يعرف الإمام.

حدثنا الحسين بن محمد عن معلى بن محمد عن محمد بن أورمة ومحمد بن عبد الله عن علي بن حسان عن عبد الرحمٰن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام؛ قال: قال أبو جفعر عليه السلام: دخل أبو عبدالله الجدليُّ على أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: يا أبا عبد الله! ألا أخبرك بقول الله عز وجل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خيْرٌ مِنْها وهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئذٍ آمِنُونَ ومَنْ جَاءَ بالسَّيِّئةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ في النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. قال: بلى يا أمير المؤمنين جُعِلتُ فداك. فقال: الحسنة معرفة الولاية وحبّنا أهل البيت، والسيئة إنكار الولاية وبغضنا أهل البيت، ثم قرأ عليه هٰذه الآية.

باب فرض طاعة الأئمة:

حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن حريز عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام؛ قال: ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضى الرحمٰن تبارك وتعالى الطاعة للإمام، بعد معرفته، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ومَنْ تولَّى فَما أَرْسَلْنَاكَ عليهِمْ حَفِيظاً﴾.

حدثنا الحسين بن محمد الأشعري عن معلّى بن محمد عن الحسن ابن علي الوشاء عن أبان بن عثمان عن أبي الصباح؛ قال: أشهد أني سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «أشهد أن عليّاً إمام فرض الله طاعته، وأن الحسن إمام فرض الله طاعته، وأن محمد بن علي إمام فرض الله طاعته».

وبهٰذا الإسناد عن معلّى بن محمد عن الحسن بن علي؛ قال: حدثنا حماد بن عثمان عن بشير العطار؛ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «نحن قوم فرض الله طاعتنا، وأنتم تأتمون بمن لا يعذر الناس بجهالته».

حدثنا محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن حمان بن عيسى عن الحسين بن المختار عن بعض أصحابنا عن أبي جعفر عليه السلام في قوله الله عز وجل: ﴿وآتَيْنَاهُمْ مُلكاً عَظِيمَاً﴾؛ قال: «الطاعة المفروضة».

حدثنا عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن محمد بن سنان عن أبي خالد القمّاط عن أبي الحسن العطار؛ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «أشرك بين الأوصياء والرسل في الطاعة».

حدثنا أحمد بن محمد عن محمد بن أبي عمير عن سيف بن عميرة عن أبي الصباح الكناني؛ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «نحن قوم فرض الله عزَّ وجلَّ طاعتنا، لنا الأنفال، ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم، ونحن المحسودون، الذين قال الله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ على مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

حدثنا أحمد بن محمد عن علي بن الحكم عن الحسين بن أبي العلاء؛ قال: ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام قولنا في الأوصياء إن طاعتهم مفترضة. قال: فقال: نعم، هم الذين قال الله تعالى: ﴿أَطيعوا اللهَ وأَطيعوا الرَّسولَ وأُولي الأَمْرِ مِنْكُم﴾، وهم الذين قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ورَسولُهُ والَّذينَ آمَنوا﴾.

وبهٰذا الإسناد عن أحمد بن محمد عن معمر بن خلاد؛ قال: سأل رجل فارسي أبا الحسن عليه السلام، فقال: طاعتك مفترضة؟ فقال: نعم. مثل طاعة علي بن أبي طالب عليه السلام؟ فقال: نعم.

وبهٰذا الإسناد عن أحمد بن محمد عن علي بن الحكم عن علي بن

أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام؛ قال: سألته عن الأئمة هل يجرون في الأمر والطاعة مجرى واحد؟ قال: نعم.

وبهٰذا الإسناد عن مروك بن عبيد عن محمد بن زيد الطبري؛ قال: كنت قائماً على رأس الرضى عليه السلام بخراسان وعنده عدة من بني هاشم وفيهم إسحاق بن موسى بن عيسى العباسي، فقال: يا إسحاق! بلغني أن الناس يقولون: إنا نزعم أن الناس عبيد لنا، لا وقرابتي من رسول الله ﷺ ما قلته قط ولا سمعته من آبائي. قال: ولا بلغني عن أحد من آبائي قاله، ولكني أقول: الناس عبيد لنا في الطاعة، موال لنا في الدين؛ فليبلغ الشاهد الغائب.

حدثنا علي بن إبراهيم عن صالح بن السندي عن جعفر بن بشير عن أبي سلمة عن أبي عبد الله عليه السلام؛ قال: سمعته يقول: نحن الذين فرض الله طاعتنا، لا يسع الناس إلا معرفتنا، ولا يعذر الناس بجهالتنا، من عرفنا؛ كان مؤمناً، ومن أنكرنا؛ كان كافراً، ومن لم يعرفنا ولم ينكرنا؛ كان ضالاً، حتى يرجع إلى الهدى الذي افترض الله عليه من طاعتنا الواجبة، فإن يمت على ضلالته؛ يفعل الله به ما يشاء.

حدثنا علي عن محمد بن عيسى عن يونس عن محمد بن الفضيل؛ قال: سألته عن أفضل ما يتقرب به العباد إلى الله عزَّ وجلَّ؟ قال: أفضل ما يتقرب به العباد إلى الله عزَّ وجلَّ طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر، قال أبو جعفر عليه السلام: حبُّنا إيمانٌ وبغضنا كفرٌ.

حدثنا محمد بن الحسن عن سهل بن زياد عن محمد بن عيسى عن فضالة بن أيوب عن أبان عن عبد الله بن سنان عن إسماعيل بن جابر؛ قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أعرض عليك ديني الذي أدين الله عزَّ وجلَّ

به؟ قال: فقال: هات. قال: فقلت: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وأن عليّاً كان إماماً فرض الله طاعته، ثم كان بعده الحسن إماماً فرض الله طاعته، ثم كان بعده الحسين إماماً فرض الله طاعته، ثم كان بعده علي بن الحسين إماماً فرض الله طاعته حتى انتهى الأمر إليه، ثم قلت: أنت يرحمك الله؟ قال: فقال: هٰذا دين الله ودين ملائكته.

حدثنا ابن إبراهيم عن أبيه عن ابن محبوب عن هشام بن سالم عن أبي حمزة عن أبي إسحاق عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام؛ قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: اعلموا أن صحبة العالم واتباعه دين يدان الله به، وطاعته مكسبة للحسنات ممحاة للسيئات وذخيرة للمؤمنين ورفعة فيهم في حياتهم وجميل بعد مماتهم.

حدثنا محمد بن إسماعيل عن الفضل بن شاذان عن صفوان بن يحيى عن منصور بن حازم؛ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الله أجل وأكرم من أن يعرف بخلقه، بل الخلق يعرفون بالله. قال: صدقت. قلت: إن من عرف أن له ربّاً؛ فقد ينبغي له أن يعرف أن لذٰلك الرب رضىً وسخطاً، وأنه لا يعرف رضاه وسخطه إلا بوحي أو رسول، فمن لم يأته الوحي؛ فينبغي له أن يطلب الرسل، فإذا لقيهم؛ عرف أنهم الحجة، وأن لهم الطاعة المفترضة، فقلت للناس: أليس تعلمون أن رسول الله ﷺ كان هو الحجة من الله على خلقه؟ قالوا: بلى. قلت: فحين مضى ﷺ من كان الحجة؟ قالوا: القرآن. فنظرت في القرآن؛ فإذا هو يخاصم به المرجيُّ والقدريُّ والزنديق الذي لا يؤمن به حتى يغلب الرجال بخصومته، فعرفت أن القرآن لا يكون حجة إلا بقيم، فما قال فيه من شيء كان حقّاً، فقلت لهم: من قيم

القرآن؟ قالوا: ابن مسعود قد كان يعلم وعمر يعلم وحذيفة يعلم. قلت: كله؟ قالوا: لا. فلم أجد أحداً يقال: إنه يعلم القرآن كله؛ إلا عليّاً صلوات الله عليه، وإذا كان الشيء بين القوم، فقال هٰذا: لا أدري، وقال هٰذا: لا أدري، وقال هٰذا: لا أدري، وقال هٰذا: أنا أدري؛ فأشهد أن عليّاً عليه السلام كان قيِّم القرآن، وكانت طاعته مفترضة، وكان الحجة على الناس بعد رسول الله ﷺ، وأن ما قال في القرآن فهو حقٌّ. فقال: رحمك الله. فقلت: إن عليّاً عليه السلام لم يذهب حتى ترك حجة من بعده كما ترك رسول الله ﷺ، وإن الحجة بعد علي الحسن بن علي، وأشهد على الحسن أنه لم يذهب حتى ترك حجة من بعده كما ترك أبوه وجده، وأن الحجة بعد الحسن الحسين، وكانت طاعته مفترضة، فقال: رحمك الله. فقبَّلت رأسه، وقلت: وأشهد على الحسين عليه السلام أنه لم يذهب حتى ترك حجة من بعده، عليَّ بن الحسين، وكانت طاعته مفترضة، فقال: رحمك الله، فقبَّلت رأسه، وقلت: وأشهد على علي بن الحسين أنه لم يذهب حتى ترك حجة من بعده، محمد بن علي، أبـا جعفـر، وكانت طاعته مفترضة. فقال: رحمك الله، قلت: أعطني رأسك حتى أقبله، فضحك، قلت: أصلحك الله قد علمت أن أباك لم يذهب حتى ترك حجة من بعده كما ترك أبوه، وأشهد بالله أنك أنت الحجة وأن طاعتك مفترضة، فقال: كفَّ رحمك الله. قلت: أعطني رأسك أقبله، فقبلت رأسه، فضحك، وقال: سلني عما شئت، فلا أنكرك بعد اليوم أبداً.

حدثنا محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن خالد البرقي عن القاسم بن محمد الجوهري عن الحسين بن أبي العلاء؛ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «الأوصياء طاعتهم مفترضة؟». قال: نعم، هم الذين قال الله عز وجل: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُوْلِي الأَمْرِ**

منْكُمْ﴾[1]، وهم الذين قال الله عز وجل: **﴿إنَّما ولِيُّكُمُ اللهُ ورَسُولُهُ والذينَ آمَنُوا الذين يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهُمْ رَاكِعُونَ﴾**[2].

حدثنا ابن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس بن عبدالرحمن عن حمَّاد عن عبد الأعلى؛ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: السمع والطاعة أبواب الخير، السامع المطيع لا حجة عليه، والسامع العاصي لا حجة له، وإمام المسلمين تمت حجته واحتجاجه يوم يلقى الله عزَّ وجلَّ. ثم قال: يقول الله تبارك وتعالى: **﴿يَومَ نَدْعُو كُلَّ أُناسٍ بإمامِهِمْ﴾**[3].

في أن الأئمة شهداء الله عز وجل على خلقه:

حدثنا علي بن محمد عن سهل بن زياد عن يعقوب بن يزيد عن زياد القنديّ عن سماعة؛ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: **﴿فَكَيْفَ إذا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بشهيدٍ وجِئْنا بك على هٰؤلاءِ شَهيداً﴾**[4] قال: نزلت في أمة محمد ﷺ خاصة في كل قرن منهم إمام منا شاهد عليهم ومحمد ﷺ شاهد علينا.

حدثنا الحسين بن محمد عن معلَّى بن محمد عن الحسن بن علي الوشاء عن أحمد بن عائذ عن عمر بن أذينة عن بريد العجلي؛ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: **﴿وكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ على النَّاسِ﴾**[5]، قال: نحن الأمة الوسطى، ونحن شهداء

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) سورة المائدة: ٥٥.

(٣) سورة الإسراء: ٧٤.

(٤) سورة النساء الآية.

(٥) سورة البقرة: ١٣٨.

الله على خلقه وحججه في أرضه. قلت: قول الله عز وجل: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾. قال: إيانا عنى خاصة، و﴿هُو سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ في الكتب التي مضت، ﴿وفي هٰذا﴾ القرآن؛ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[1]، فرسول الله ﷺ الشهيد علينا بما بلغنا عن الله عز وجل، ونحن الشهداء على الناس، فمن صدق؛ صدَّقناه يوم القيامة، ومن كذَّب؛ كذبناه يوم القيامة.

وبهٰذا الإسناد عن معلَّى بن محمد عن الحسن بن علي عن أحمد بن عمر الحلال؛ قال: سألت أبا الحسن ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ كَانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ ربِّهِ ويَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾[2]؟ فقال أمير المؤمنين صلوات الله عليه الشاهد على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ على بينة من ربه.

حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن محمد بن أبي عمير عن ابن أذينة عن بريد العجليّ؛ قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وكَذٰلِكَ جَعَلنَاكُمْ أُمَّةً وسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ على النَّاسِ ويكُونَ الرَّسُولُ عَليكُمْ شَهِيداً﴾؟ قال: نحن الأمة الوسط، ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه، وحججه في أرضه. قلت: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا واعْبُدُوا رَبَّكُمْ وافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وجَاهِدُوا في اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هو اجْتَبَاكُمْ﴾[3]. قال: إيانا عنى، ونحن المجتبون، ولم يجعل الله تبارك وتعالى في الدين ﴿من حرج﴾، فالحرج أشدُّ من الضيق، ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ إيانا عنى خاصة، و﴿سماكم

---

(١) سورة الحج: ٧٨ ـ ٧٩، وفي المصحف: «شهيداً عليكم».

(٢) سورة هود: ١٧.

(٣) سورة الحج: ٧٨ ـ ٧٩.

المسلمين﴾: الله سمانا المسلمين من قبل في الكتب التي مضت ﴿وفي هٰذا﴾ القرآن؛ ﴿ليكون الرسول عليكم شهيداً[1] وتكونوا شهداء على الناس﴾، فرسول الله ﷺ الشهيد علينا بما بلغنا عن الله تبارك وتعالى، ونحن الشهداء على الناس، فمن صدَّق يوم القيامة صدَّقناه، ومن كذَّب كذَّبناه.

حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن إبراهيم بن عمر اليماني عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه؛ قال: إن الله تبارك وتعالى طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه وحجته في أرضه، وجعلنا مع القرآن، وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا.

أن الأئمة عليهم السلام هم الهداة:

حدثنا عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن النضر بن سويد وفضالة بن أيوب عن موسى بن بكر عن الفضيل؛ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[2]، فقال: كل إمام هاد للقوم الذي هو فيهم.

حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن محمد بن أبي عمير عن ابن أذينة عن بريد العجلي عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾، فقال: رسول الله ﷺ المنذر، ولكل زمان منا هاد، يهديهم إلى ما جاء به نبي الله ﷺ، ثم الهداة من بعده عليٌّ، ثم الأوصياء واحدٌ بعد واحد.

حدثنا الحسين بن محمد الأشعري عن معلَّى بن محمد، عن محمد

---

(١) في المصحف: «شهيداً عليكم».

(٢) سورة الرعد: ٩.

ابن جمهور عن محمد بن إسماعيل عن سعدان عن أبي بصير؛ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾؟ فقال: رسول الله ﷺ المنذر، وعلي الهادي، يا أبا محمد! هل من هاد اليوم؟ قلت: بلى جُعلت فداك، مازال منكم هاد بعد هاد، حتى دفعت إليك. فقال: رحمك الله يا أبا محمد! لو كانت إذا نزلت آية على رجل، ثم مات ذٰلك الرجل، ماتت الآية، مات الكتاب، ولكنه حي يجري فيمن بقي كما جرى فيمن مضى.

حدثنا محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن صفوان عن منصور عن عبد الرحيم القصير عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وِلِكُلِّ قَوم ٍ هَادٍ﴾، فقال: رسول الله ﷺ المنذر، وعلي الهادي، أما والله ما ذهبت منا وما زالت فينا إلى الساعة.

أن الأئمة عليهم السلام ولاة أمر الله وخزنة علمه:

حدثنا محمد بن يحيى العطار عن أحمد بن أبي زاهر عن الحسن بن موسى عن علي بن حسان عن عبد الرحمٰن بن كثير؛ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: نحن ولاة أمر الله، وخزنة علم الله، وعيبة وحي الله.

حدثنا عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن علي بن أسباط عن أبيه أسباط عن سورة بن كليب؛ قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «والله إنا لخزّان الله في سمائه وأرضه، لا على ذهب ولا على فضة إلا على علمه.

حدثنا علي بن موسى عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد ومحمد بن خالد البرقي عن النضر بن سويد رفعه عن سدير عن أبي جعفر عليه السلام؛ قال: قلت له: جُعلت فداك، ما أنتم؟ قال: نحن خزان علم

الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض.

حدثنا محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن النضر بن شعيب عن محمد بن الفضيل عن أبي حمزة؛ قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: «استكمال حجَّتي على الأشقياء من أمَّتك، من ترك ولاية علي، والأوصياء من بعدك، فإن فيهم سنَّتك وسنة الأنبياء من قبلك، وهم خزاني على علمي من بعدك». ثم قال رسول الله ﷺ: «لقد أنبأني جبرئيل عليه السلام بأسمائهم وأسماء آبائهم».

حدثنا أحمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبار عن محمد بن خالد عن فضالة بن أيوب عن عبد الله بن أبي يعفور؛ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا ابن أبي يعفور! إن الله واحد متوحد بالوحدانية، متفرد بأمره، فخلق خلقاً هم حجج الله في عباده، وخزَّانه على علمه، والقائمون بذلك، فنحن حجج الله في عباده، وخزَّانه على علمه، والقائمون بذلك.

حدثنا علي بن محمد عن سهل بن زياد عن موسى بن القاسم بن معاوية ومحمد بن يحيى عن العمركيّ بن علي جميعاً عن علي بن جعفر عن أبي الحسن موسى عليه السلام؛ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله عز وجل خلقنا فأحسن خلقنا، وصورنا فأحسن صورنا، وجعلنا خزانه في سمائه وأرضه، ولنا نطقت الشجرة، وبعبادتنا عبد الله عز وجل، ولولانا ما عُبد الله.

أن الأئمة (ع) خلفاء الله عزَّ وجلَّ في أرضه وأبوابه التي منها يؤتى:

حدثنا الحسين بن محمد الأشعري عن معلَّى بن محمد عن أحمد بن محمد عن أبي مسعود عن الجعفري؛ قال: سمعت أبا الحسن الرضى عليه

السلام يقول: الأئمة خلفاء الله عزَّ وجلَّ في أرضه.

حدثنا عنه عن معلَّى عن محمد بن جمهور عن سليمان بن سماعة عن عبد الله بن القاسم عن أبي بصير؛ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: الأوصياء هم أبواب الله عزَّ وجلَّ التي يؤتى منها، ولولاهم ما عُرف الله عزَّ وجلَّ، وبهم احتج الله تبارك وتعالى على خلقه.

حدثنا الحسين بن محمد عن معلَّى بن محمد عن الوشَّاء عن عبد الله ابن سنان؛ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله جل جلاله: **﴿وعَدَ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ كَما اسْتَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾**؛ قال: هم الأئمة.

أن الأئمة عليهم السلام نور الله عزَّ وجلَّ:

حدثنا الحسين بن محمد عن معلَّى بن محمد عن علي بن مرداس؛ قال: حدثنا صفوان بن يحيى والحسن بن محبوب عن أبي أيوب عن أبي خالد الكابلي؛ قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجلَّ: **﴿فَآمِنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ والنُّورِ الذي أَنْزَلْنا﴾**، فقال: يا أبا خالد! النور والله نور الأئمة من آل محمد ﷺ إلى يوم القيامة، وهم والله نور الله الذي أنزل، وهم والله نور الله في السماوات وفي الأرض، والله يا أبا خالد لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار، وهم والله ينورون قلوب المؤمنين، ويحجب الله عزَّ وجلَّ نورهم عمَّن يشاء فتظلم قلوبهم، والله يا أبا خالد لا يحبنا عبدٌ ويتولانا حتى يطهر الله قلبه، ولا يطهر الله قلب عبد حتى يسلم لنا ويكون سلماً لنا، فإذا كان سلماً لنا؛ سلّمه الله من شديد الحساب، وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر.

حدثنا علي بن إبراهيم بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿الذينَ يَتَّبِعُون الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ في التَّوارةِ والإنْجيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعرُوفِ ويَنْهاهُمْ عنِ المُنْكَرِ ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ ويُحَرِّمُ عَليهِمُ الخَبائِثَ...﴾ إلى قوله: ﴿واتَّبَعُوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ﴾؛ قال: النور في هٰذا الموضع عليٌّ أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام.

حدثنا أحمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبار عن ابن فضَّال عن ثعلبة بن ميمون عن أبي الجارود؛ قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: لقد آتى الله أهل الكتاب خيراً كثيراً. قال: وما ذاك؟ قلت: قول الله تعالى: ﴿الذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ من قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ...﴾ إلى قوله: ﴿أُولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَينِ بِمَا صَبَرُوا﴾؛ قال: فقال: قد آتاكم الله كما آتاهم، ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا برَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ويَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمشُونَ بِهِ﴾ (١)؛ يعني: إماماً تأتمون به.

حدثنا أحمد بن مهران عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني عن علي بن أسباط والحسن بن محبوب عن أبي أيوب عن أبي خالد الكابلي؛ قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ ورَسُولِهُ والنُّورِ الذي أَنْزَلْنَا﴾ (٢)؟ فقال: يا أبا خالد! النور والله الأئمة عليهم السلام، يا أبا خالد! لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار، وهم الذين ينورون قلوب المؤمنين، ويحجب الله نورهم عمَّن يشاء، فتظلم قلوبهم ويغشاهم بها.

---

(١) سورة الحديد: ٢٩.

(٢) سورة التغابن: ٨.

حدثنا علي بن محمد ومحمد بن الحسن عن سهل بن زياد عن محمد ابن الحسن بن شمون عن عبد الله بن عبد الرحمٰن الأصمّ عن عبد الله بن القاسم عن صالح بن سهل الهمداني ؛ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ﴾: فاطمة عليها السلام، ﴿فيها مصباح﴾: الحسن، ﴿المصبَاحُ في زجاجةٍ﴾: الحسين، ﴿الزُّجَاجَةُ كأَنَّها كوكبٌ دريٌّ﴾: فاطمة كوكبٌ دري بين نساء أهل الدنيا، ﴿تُوقَدُ مِنْ شَجَرةٍ مُباركةٍ﴾: إبراهيم عليه السلام، ﴿زيتونةٍ لا شَرقيةٍ ولا غَربيةٍ﴾: لا يهودية ولا نصرانية، ﴿يَكادُ زَيْتُها يُضيءُ﴾: يكاد العلم ينفجر بها، ﴿ولو لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ على نورٍ﴾: إمامٌ منها بعد إمام، ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: يهدي الله للأئمة من يشاء، ﴿ويضرب اللهُ الأمْثَالَ للنَّاسِ﴾. قلت: ﴿أو كظُلُمَاتٍ﴾؟ قال: الأول وصاحبه ﴿يغشاه موج﴾ الثالث ﴿من فوقه موجٌ﴾ ﴿ظلمات﴾ الثاني ﴿بَعْضها فَوقَ بعضٍ﴾ معاوية لعنه الله وفتن بني أمية، ﴿إذا أَخرجَ يَدهُ﴾ المؤمن في ظلمة فتنتهم، ﴿لم يَكَدْ يَراها ومَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لهُ نُوراً﴾ إماماً من ولد فاطمة عليها السلام، ﴿فَما لهُ مِنْ نُورٍ﴾ إمام يوم القيامة.

وقال في قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيدِيهِمْ وبأَيْمَانِهِمْ﴾: أئمة المؤمنين يوم القيامة تسعى بين يدي المؤمنين وبأيمانهم حتى ينزلوهم منازل أهل الجنة.

حدثنا علي بن محمد ومحمد بن الحسن عن سهل بن زياد عن موسى بن القاسم البجلي ومحمد بن يحيى عن العمركي بن علي جميعاً عن علي بن جعفر عليه السلام عن أخيه موسى عليه السلام مثله.

حدثنا أحمد بن إدريس عن الحسين بن عبيد الله عن محمد بن

الحسن وموسى بن عمر عن الحسن بن محبوب عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام؛ قال: سألته عن قول الله تبارك وتعالى: **﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾**[1]؛ قال: يريدون ليطفئوا ولاية أمير المؤمنين عليه السلام بأفواههم. قلت: قوله تعالى: **﴿واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾**؛ قال: يقول: والله متم الإمـامة، والإمامة هي النور، وذلك قوله عزَّ وجلَّ: **﴿آمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ والنُّورِ الذي أَنْزَلْنا﴾**؟ قال: النور هو الإمام.

باب أن الأئمة هم أركان الأرض:

حدثنا أحمد بن مهران عن محمد بن علي ومحمد بن يحيى عن أحمد بن محمد جميعاً عن محمد بن سنان عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام؛ قال: ما جاء به علي عليه السلام آخذ به، وما نهى عنه أنتهي عنه، جرى له من الفضل مثل ما جرى لمحمد ﷺ، ولمحمد ﷺ الفضل على جميع من خلق الله عزَّ وجلَّ، المتعقب عليه في شيء من أحكامه، كالمتعقب على الله وعلى رسوله، والراد عليه في صغيرة أو كبيرة على حد الشرك بالله. كان أمير المؤمنين عليه السلام باب الله الذي لا يؤتى؛ إلا منه، وسبيله الذي من سلك بغيره هلك، وكذلك يجري لأئمة الهدى واحداً بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها، وحجته البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى، وكان أمير المؤمنين صلوات الله عليه كثيراً ما يقول: أنا قسيم الله بين الجنة والنار، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا صاحب العصا والميسم، ولقـد أقرَّت لي جميع الملائكة والروح والرسل بمثل ما أقروا به لمحمد ﷺ، ولقد حملت على مثل حمولته، وهي حمولة الرب، وإن رسول

---

(١) سورة الصف: ٨.

الله ﷺ يدعى فيكسى وأدعى فأكسى، ويستنطق وأستنطق فأنطق على حد منطقه، ولقد أعطيت خصالاً ما سبقني إليها أحد قبلي، علمت المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب، فلم يفتني ما سبقني، ولم يعزب عني ما غاب عني، أبشر بإذن الله، وأؤدي عنه، كل ذٰلك من الله، مكنني فيه بعلمه.

حدثنا الحسين بن محمد الأشعري عن معلّى بن محمد عن محمد بن جمهور العمي عن محمد بن سنان؛ قال: حدثنا المفضل؛ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ثم ذكر الحديث الأول.

علي بن محمد ومحمد بن الحسن وعن سهل بن زياد عن محمد بن الوليد شباب الصيرفي؛ قال: حدثنا سعيد الأعرج؛ قال: دخلت أنا وسليمان بن خالد على أبي عبد الله عليه السلام، فابتدأنا، فقال: يا سليمان! ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام يؤخذ به، وما نهى عنه ينتهى عنه، جرى له من الفضل ما جرى لرسول الله ﷺ، ولرسول الله ﷺ الفضل على جميع من خلق الله، المعيب على أمير المؤمنين عليه السلام في شيء من أحكامه كالمعيب على الله عز وجل وعلى رسوله ﷺ، والراد عليه في صغيرة أو كبيرة على حد الشرك بالله، كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه باب الله الذي لا يؤتى إلا منه وسبيله، من سلك بغيره هلك، وبذٰلك جرت الأئمة عليهم السلام واحد بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بهم، والحجة البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى.

وقال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: أنا قسيم الله بين الجنة والنار، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا صاحب العصا والميسم، ولقد أقرّت لي جميع الملائكة والروح بمثل ما أقرت لمحمد ﷺ، ولقد حملت على مثل حمولة محمد ﷺ، وهي حمولة الرب، وإن محمداً ﷺ يُدعى فيُكسى ويستنطق، وأدعى

فأكسى وأستنطق فأنطق على حد منطقه، ولقد أعطيت خصالاً لم يعطهن أحد قبلي، علمت علم المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب، فلم يفتني ما سبقني، ولم يعزب عني ما غاب عني، أبشر بإذن الله، وأؤدي عن الله عزَّ وجلَّ، كل ذٰلك مكنني الله فيه بإذنه.

حدثنا محمد بن يحيى وأحمد بن محمد جميعاً عن محمد بن الحسن عن علي بن حسان؛ قال: حدثني أبو عبد الله الرياحي عن أبي الصامت الحلواني عن أبي جعفر عليه السلام؛ قال: فضل أمير المؤمنين عليه السلام: ما جاء به آخذ به، وما نهى عنه أنتهي عنه، جرى له من الطاعة بعد رسول الله ﷺ ما لرسول الله ﷺ والفضل لمحمد ﷺ، المتقدم بين يديه كالمتقدم بين يدي الله ورسوله، والمتفضل عليه كالمتفضل على رسول الله ﷺ، والراد عليه في صغيرة أو كبيرة على حدَّ الشرك بالله، فإن رسول الله ﷺ باب الله الذي لا يؤتى إلا منه، وسبيله الذي من سلكه وصل إلى الله عزَّ وجلَّ، وكذٰلك كان أمير المؤمنين عليه السلام من بعده، وجرى للأئمة عليهم السلام واحداً بعد واحد، جعلهم الله عز وجل أركان الأرض أن تميد بأهلها، وعمد الإسلام، ورابطة على سبيل هداه، لا يهتدي هاد إلا بهداهم، ولا يضل خارج من الهدى إلا بتقصير عن حقهم، أمناء الله على ما أهبط من علم أو عذر أو نذر، والحجَّة البالغة على من في الأرض، يجري لآخرهم من الله مثل الذي جرى لأولهم، ولا يصل أحد إلى ذٰلك؛ إلا بعون الله.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: أنا قسيم الله بين الجنة والنار، لا يدخلها داخلٌ إلا على حد قسمي، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا الإمام لمن بعدي، والمؤدي عمن كان قبلي، لا يتقدمني أحد إلا أحمد ﷺ، وإني وإياه لعلى سبيل واحد؛ إلا أنه هو المدعوُّ باسمه، ولقد أعطيت الستَّ: علم

المنايا، والبلايا، والوصايا، وفصل الخطاب، وإني لصاحب الكرَّات، ودواة الدول، وإني لصاحب العصا والميسم، والدابَّة التي تكلم الناس»[1].

وبعد قراءتنا للنصوص التي ساقها الرافضي الكليني في كتابه «الكافي» نقول: ما بال هٰؤلاء يدعون لأنفسهم من العصمة ويقررون لمشايخهم من الطاعة التي لا تتقيد بما قيّد به رسول الله ﷺ طاعة أمرائه؟

وإليكم بعض النصوص من كتب الحديث وكلام وأعمال خيرة خلق الله بعد رسوله، فهم أحقُّ بكل خير، فإن كان الصواب فهم أهله، وإن كان العلم فهم نقلته، ولا علم لأمة محمد ﷺ بغير طريقهم، ولكن الصوفيَّة الذين أخذوا أصولهم عن الروافض لا يعتبرون بهٰذا ويضربون عنه صفحاً، ويدعون لمشايخهم ما خص الله به رسله من عصمة كاملة وتسديد في القول والفعل؛ لأنهم مبلغون عن الله، والقرآن قد ذكر لنا نماذج من ذٰلك، وهي محفوظة بحمد الله عند جميع المسلمين.

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: «باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبيد الله؛ قال: حدثني نافع، عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية؛ فلا سمع ولا طاعة».

وحدثني عمر بن حفص بن غياث؛ قال: حدثنا أبي؛ قال: حدثنا الأعمش؛ قال: حدثنا سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمٰن عن علي رضي الله عنه؛ قال: بعث النبي ﷺ سرية، وأمر عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم

---

(١) «الكافي» الكليني (١ / ١٩٨).

أن يطيعـوه، فغضب عليهم، وقـال: أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالـوا: بلى. قال: قد عزمت عليكم لما جمعتم حطباً، وأوقدتم ناراً، ثم دخلتم فيها، فجمعوا حطباً، فأوقدوا ناراً، فلما هموا بالدخول، فقاموا ينظر بعضهم إلى بعض، فقـال بعضهم: إنمـا تبعنـا النبي ﷺ فراراً من النار، أفندخلها؟ فبينما هم كذلك، إذ خمدت النار، وسكن غضبه، فذكر للنبي ﷺ، فقال: «لو دخلوها؛ ما خرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف»[1].

وصح عنه ﷺ كما في «مسند أحمد» بسنده إلى عمران بن حصين عن النبي ﷺ؛ قال: «لا طاعة في معصية الله تبارك وتعالى»[2].

ولشيخنـا العلامة مفخرة السلفيين كلمة جيدة عند هٰذا الحديث في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»؛ قال حفظه الله ما لفظه:

«وفي الحديث فوائد كثيرة:

أهمها: أنه لا يجوز إطاعة أحد في معصية الله تبارك وتعالى، سواء في ذٰلك الأمراء والعلماء والمشايخ، ومنه يعلم ضلال طوائف من الناس:

الطائفة الأولى: بعض المتصوفة الذين يطيعون شيوخهم ولو أمرهم بمعصية ظاهرة، بحجة أنها في الحقيقة ليست بمعصية، وأن الشيخ يرى ما لا يرى المريد، وأعرف شيخاً من هٰؤلاء نصب نفسه مرشداً، قص على أتباعه في بعض دروسه في المسجد قصة خلاصتها: أن أحد مشايخ الصوفية أمر ليلة أحد مريديه بأن يذهب إلى أبيه فيقتله على فراشه بجانب زوجته، فلما قتله؛ عاد إلى شيخه مسروراً لتنفيذ أمر الشيخ! فنظر إليه الشيخ، وقال: أتظن

---

(١) «فتح الباري» (١٣ / ١٢٢).

(٢) (٤ / ٤٢٦).

أنك قتلت أباك حقيقة؟ إنما هو صاحب أمك؟ وأما أبوك فهو غائب! ثم بنى على هٰذه القصة حكماً شرعيّاً ـ بزعمه ـ، فقال لهم: إن الشيخ إذا أمر مريده بحكم مخالف للشرع في الظاهر؛ إن على المريد أن يطيعه في ذٰلك. قال: ألا ترون إلى هٰذا الشيخ أنه في الظاهر أمر الولد بقتل والده، ولكنه في الحقيقة إنما أمره بقتل الزاني بوالدة الولد، وهو يستحق القتل شرعاً!

ولا يخفى بطلان هٰذه القصة شرعاً من وجوه كثيرة:

أولاً: أن تنفيذ الحد ليس من حق الشيخ مهما كان شأنه، وإنما هو من حق الأمير أو الوالي.

ثانياً: أنه لو كان ذٰلك فلماذا نفذ الحد بالرجل دون المرأة وهما في ذلك سواء؟

ثالثاً: أن الزاني المحصن حكمه شرعاً القتل رجماً، وليس القتل بغير الرجم.

ومن ذٰلك يتبين أن ذٰلك الشيخ قد خالف الشرع من وجوه، وكذٰلك شأن ذٰلك المرشد الذي بنى على القصة ما بنى من وجوب إطاعة الشيخ ولو خالف الشرع ظاهراً، حتى لقد قال لهم: إذا رأيتم الشيخ على عنقه الصليب؛ فلا يجوز لكم أن تنكروا عليه!

ومع وضوح بطلان مثل هٰذا الكلام، ومخالفته للشرع والعقل معاً؛ نجد في الناس من ينطلي عليه كلامه، وفيهم بعض الشباب المثقف، ولقد جرت بيني وبين أحدهم مناقشة حول تلك القصة، وكان قد سمعها من ذٰلك المرشد، وما بني عليها من حكم، ولكن لم تجد المناقشة معه شيئاً، وظل مؤمناً بالقصة؛ لأنها من باب الكرامات في زعمه. قال: وأنتم تنكرون

الكرامة. ولما قلت له: لو أمرك شيخك بقتل والدك؛ فهل تفعل؟ فقال: إنني لم أصل بعد إلى هٰذه المنزلة!

فتبّاً لإرشاد يؤدي إلى تعطيل العقول والاستسلام للمضلين إلى هٰذه المنزلة، فهل من عتب بعد ذٰلك على من يصف دين هٰؤلاء بأنه أفيون الشعب؟!

الطائفة الثانية: وهم المقلدة الذي يؤثرون اتباع كلام المذهب على كلام النبي ﷺ، مع وضوح ما يؤخذ منه، فإذا قيل لأحدهم مثلاً: لا تصل سنة الفجر بعد أن أقيمت الصلاة؛ لنهي النبي ﷺ عن ذٰلك صراحة؛ لم يطع، وقال: المذهب يجيز ذٰلك، وإذا قيل له: إن نكاح التحليل باطل؛ لأن النبي ﷺ لعن فاعله؛ أجابك بقوله: لا، بل هو جائز في المذهب الفلاني! وهٰكذا إلى مئات المسائل.

ولهٰذا ذهب كثير من المحققين إلى أن أمثال هٰؤلاء المقلدين ينطبق عليهم قول الله تبارك وتعالى في النصارى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ**﴾؛ كما بين ذٰلك الفخر الرازي في «تفسيره».

الطائفة الثالثة: وهم الذين يطيعون ولاة الأمور فيما يشرعونه للناس من نظم وقرارات مخالفة للشرع؛ كالشيوعية وما شابهها، وشرهم من يحاول أن يظهر أن ذٰلك موافق للشرع غير مخالف له، وهٰذه مصيبة شملت كثيراً ممن يدعي العلم والإصلاح في هٰذا الزمان، حتى اغتر بذٰلك كثير من العوام، فصح فيهم وفي متبوعيهم الآية السابقة: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ**﴾، نسأل الله الحماية والسلامة[1].

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١/).

وأنت إذا قرأت هٰذه النصوص الصحيحة الصريحة؛ علمت تعمد الصوفية لمخالفة رسول الله ﷺ؛ لأن هٰذه النصوص هي عند المسلمين معروفة ومحفوظة، وهي في مصنفاتهم الأولى، وبعد هٰذه النصوص ننقل لك نماذج من خيرة خلق الله، يصرحون فيها بأنهم يخطئون ويصيبون، وهم الذين رووا لنا هٰذه الأحاديث، والحديث الذي عمم الخطأ على بني آدم كلهم، ولم يستثن واحداً منهم؛ كما جاء في «الترمذي» وغيره:

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ؛ قال: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»(١).

قال في «سبل السلام»: والحديث دال على أنه لا يخلو من الخطيئة إنسان؛ لما جبل عليه هٰذا النوع من الضعف وعدم الانقياد لمولاه في فعل ما إليه دعاه وترك ما عنه نهاه، ولكنه تعالى بلطفه فتح باب التوبة لعباده، وأخبر أن خير الخطائين التوابون المكثرون للتوبة على قدر كثرة الخطأ(٢).

قال الإمام الحافظ ابن كثير في «بدايته» في بيعة الصديق: «وقال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني الزهري: حدثني أنس بن مالك؛ قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة، وكان الغد؛ جلس أبو بكر، فقام عمر، فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس! إني قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كان وما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهداً عهده إليَّ رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا ـ يقول: يكون آخرنا ـ، وإن الله قد أبقى فيكم الذي به هدى رسول الله ﷺ، فإن

(١) (٤ / ٦٥٩)، قال ابن حجر في «البلوغ»: «وسنده قوي» (٤ / ٢٤٥) «سبل الإسلام».

(٢) «سبل الإسلام» (٤ / ٢٤٥).

اعتصمتم به؛ هداكم الله لما كان هداه الله، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه. فبايع الناس أبا بكر بعد بيعة السقيفة.

ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله، وأثنى عليه الذي هو أهله، ثم قال: أما بعـد، أيها النـاس؛ فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع القوم الجهاد في سبيل الله؛ إلا خذلهم الله بالـذل، ولا تشيع الفـاحشـة في قوم؛ إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعـوني ما أطعت الله ورسـوله، فإذا عصيت الله ورسوله؛ فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله. وهٰذا إسناد صحيح.

فهٰذا الصديق رضي الله عنه يعلنها صريحة في أول خطبة يخطبها على سادة المهـاجـرين والأنصـار، ويبين لهم أن أعماله وأقواله أمران: أمر فيه صواب؛ فعليهم متـابعتـه عليه، وأمر فيه خطأ؛ فعليهم نصيحته وتقويمه، وهٰكذا كان كل الخلفاء بعده، بل كل صحابة رسول الله ﷺ، بل كل السلف الصالح؛ فما منهم إلا مخطىء ومصيب، وحسبهم فخراً أن تعد أخطاؤهم، وما يزال الصحابة ومن بعدهم يرد بعضهم على بعض، وينبه المصيب منهم المخطىء، ويرجعه إلى الحق والصواب، ويشكر المخطىء للمصيب ذٰلك، وأجمـع الأئمـة الأربعة مالك والشافعي وأحمد وأبو حنيفة على النهي عن تقليدهم، وما من أحد منهم إلا رويت عنه في ذٰلك أقوال، وللعلامة شيخ الإسـلام ابن تيمية رسـالة قيمة في هٰذا الموضوع «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، وللإمام ابن حزم بحث هام في كتاب «إحكام الأحكام» نقتطف منه

بعض الفوائد، وإلا؛ فالكتاب فيه إسهاب في الموضوع؛ فهو جدير وحري بالقراءة.

قال أبو محمد: كيف وقد أغنانا الله تعالى عن قولهم في ذٰلك بما نص في كتابه من إبطال التقليد مثل قول الله عز وجل: **﴿مَثَلُ الذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أولياءَ كَمَثَلِ العَنكَبوتِ اتَّخَذَتْ بَيتاً وإنَّ أوهَنَ البُيوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ﴾**، ثم قال الله تعالى على إثر هٰذه الآية: **﴿وتِلكَ الأمْثالُ نَضرِبُها للنَّاسِ وما يَعْقِلُها إلاَّ العَالِمُونَ﴾**.

قال أبو محمد: فمن اتخذ رجلاً إماماً يعرض عليه قول ربه تعالى وقول نبيه عليه السلام، فما وافق ذٰلك الرجل قبله، وما خالفه ترك قول ربه تعالى وقول نبيه ﷺ، وهو يقر أن هٰذا قول الله عز وجل وقول رسوله ﷺ، والتزم قول إمامه؛ فقد اتخذ من دون الله تعالى وليّاً، ودخل في جملة الآية المذكورة.

اللهم إننا نبرأ إليك من هٰذه الفعلة؛ فلا كبيرة أعظم منها.

قلت: هٰذا الذي يذكره أبو محمد رحمه الله فيمن يعرض نصوص القرآن والسنة على قول إمامه كمقلدة المذاهب وأشباههم.

أما الصوفية؛ فلا كتاب ولا سنة ولا أثر ولا قول لصاحب من الصحابة ولا لتابعي من التابعين ولا غيرهم ومن أهل العلم، وإنما الطاعة العمياء التي تسمى عندهم بالمشيخة، وأن التلميذ لا وصول له إلا بهٰذه الطاعة العمياء، وأن خطأ الشيخ خير من صوابه، وهو كالميت مع غاسله، وكالأعمى مع قائده، كما ذكر الغزالي في «إحيائه» فيما نحن في الرد عليه، فما ذكره أبو محمد وتبرأ منه واعتبره من أعظم الكبائر هو أيسر وأسهل من هٰذه المشيخة المعصومة التي لا توزن ولا تعرض على أي ميزان شرعي؛ إلا الطاعة العمياء كما قدمنا.

ثم استرسل أبو محمد في ذكر الآيات والتعليق عليها، رادّاً في ذلك على مقلدة الفقهاء، وكل ما ذكره عنهم، فمن نرد عليه أعظم وأطم، فمخالفة هؤلاء لصريح النصوص أمر لا يشك فيه من تتبع أحوالهم.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ولَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ ولا رَسُولِهِ ولا المُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾.

وقال أبو محمد: ولا وليجة أعظم ممن جعل رجلاً بعينه عياراً على كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وكلام سائر علماء الأمة.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وجوهُهُمْ في النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وأَطَعْنَا الرَّسُولا. وقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنا وكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾.

وقال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال أبو محمد: فمن لم يأت بكتاب الله تعالى شاهداً لقوله، أو ببرهان على صدق قوله، وإلا فليس صادقاً، لكنه كاذب آفك، مفتر على الله عز وجل، ومن أطاع سادته وكبراءه، وترك ما جاءه عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ؛ فقد ضل بنص القرآن، واستحق الوعيد بالنار، نعوذ بالله منها ومما أدى إليها.

وقال تعالى حاكياً عن الجن الذين أسلموا مصدقاً لهم ومثنياً عليهم: ﴿وأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنسُ والجِنُّ على اللهِ كَذِباً﴾.

فبطل ظن من ظن ذلك في رئيس قلده لم يأمر الله تعالى بأن يقلده.

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا ورَأَوُا العَذَابَ وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسبابُ﴾.

قال أبو محمد: هكذا والله يقول هؤلاء الفضلاء الذين قلدهم أقوام قد

نهوهم عن تقليدهم، فإنهم رحمهم الله تبرؤوا في الدنيا والآخرة من كل من قلدهم، وفاز أولٰئك الأفاضل الأخيار، وهلك المقلدون لهم بعدما سمعوا من الوعيد الشديد والنهي عن التقليد، وعلموا أن أسلافهم الذين قلدوا قد نهوهم عن تقليدهم، وتبرؤوا منهم إن فعلوا ذٰلك.

ومن ذٰلك ما حدثنا أحمد بن عمر: ثنا علي بن الحسن بن فهر: حدثنا أبو الطاهر محمد بن أحمد الذهلي: ثنا جعفر بن محمد الفريابي: ثنا محمد ابن إسماعيل: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأويسي: ثنا مالك؛ قال: كان ربيعة يقول لابن شهاب: إن حالي ليس يشبه حالك، أنا أقول برأيي، من شاء أخذه وعمل به، ومن شاء تركه. وقد ذكرنا قول مالك وندامته على القول به.

وقال أبو حنيفة: علمنا هٰذا رأي، من أتانا بخير منه؛ قبلناه منه.

وقال عز وجل: ﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنا عَليهِ آبَاءَنا أَوَلَو كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلونَ شَيئاً ولا يَهْتَدُونَ﴾.

قال أبو محمد: وهٰذا نص ما فعل خصومنا بلا تأويل ولا تدبر، بل تعرض عليهم الآية والحديث الصحيح ـ الذي يقرون بصحته، وكلاهما مخالف لمذاهب لهم فاسدة ـ فيأبون من قبولها، لا نفارق ما وجدنا عليه آباءنا وكبراءنا، فقد أجابهم تعالى جواباً كافياً، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وقال تعالى: ﴿ومَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيرِ هُدىً مِنَ اللهِ﴾.

وقال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وأَضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ وخَتَمَ على سَمْعِهِ وقَلْبِهِ وجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوةً فَمَنْ يَهْديهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرونَ﴾.

قال أبو محمد: هٰذه صفة ظاهرة من كل مقلد، يعرفها من نفسه

ضرورة؛ لأنه هوي تقليد فلان، فقلده بغير علم، ووجدناه لا ينتفع بسمعه فيما يسمع من الآي والسنن المخالفة لمذهبه، ولا انتفع ببصره فيما رأى من ذٰلك، ولا بعقله فيما علم من ذٰلك، ووجدناه ترك طلب الهدى من كتاب الله تعالى وكتب نبيه ﷺ، وطلب الهدى ممن دون الله تعالى، فضل ضلالاً بعيداً، فوا حسرتاه عليهم ووا أسفا لهم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنَا ولا يَضُرُّنَا ونُرَدُّ على أَعْقَابِنَا بَعْدَ إذ هَدَانَا اللهُ كالذي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ في الأرضِ حَيرَانَ لَهُ أَصحَابٌ يَدْعُونَه إلى الهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدى اللهِ هُوَ الهُدى﴾.

قال أبو محمد: وهٰذا نص فعل المقلد؛ لأنه التزم اتباع من لا ينفعه، ولا يضره، ولا يشفع له يوم القيامة، ولا ينيله من حسناته حسنة، ولا يحط عنه من سيئاته سيئة، وكذٰلك دعاه أصحابه إلى الهدى بزعمهم، فأكذبهم تعالى، وقال: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى﴾، فلم يجعل هدى إلا ما جاء من عنده تعالى.

وقال تعالى: ﴿وإذا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالوا وجَدْنَا عليها آبَاءَنَا واللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وهٰكذا فعل المقلدون؛ فإنهم أباحوا لحوم السباع والحمر الأهلية، وقد جاء أمر الرسول عليه السلام بتحريمها، وآخذوا الناسي، وألزموا شريعة الكفارة المخطىء، وقد جاء نص القرآن والسنة بإسقاط ذٰلك كله، فلما أخبروا أن ذٰلك كله فواحش؛ قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها.

وقال تعالى ذامّاً لقوم قلدوا أسلافهم وحاكياً عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ وإِنَّا على آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ . وكذٰلِكَ ما أَرْسَلنَا مِنْ قَبْلِكَ في قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإِنَّا على آثَارِهِمْ مُقْتَدونَ . قُلْ أَوَلَو جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وجَدْتُمْ عَليهِ آبَاءَكُمْ﴾.

وقال تعالى : ﴿وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالوا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ قَالوا حَسْبُنَا مَا وجَدْنَا عَليهِ آبَاءَنَا أَوَلو كانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلمُونَ شَيئاً ولا يَهْتَدُونَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بالسُّوءِ والفَحْشَاءِ وأَنْ تَقولُوا على اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ . وإذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَينَا عَليهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلونَ شَيئاً ولا يَهْتَدونَ﴾ .

ومن قلد فقد قال على الله ما لا يعلم، وهذا نص كلام رب العالمين الذي إليه معادنا، وبين يديه موقفنا، وهو سائلنا عما أمرنا به من ذٰلك ،ومجازينا بحسب ما أطعنا أو عصينا، فليتق الله على نفسه امرؤ يعلم أن وعد الله، حق وأن هٰذه عهود ربه إليه وليتب عن التقليد، وليفتش حاله، فإن رأى فيها هٰذه الصفات التي ذمها الله تعالى؛ فليتدارك نفسه بالتوبة من ذٰلك، وليرجع إلى بشرى قبول قول ربه تعالى؛ إذ يقول: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِيَ الذينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِكَ الذينَ هَدَاهُمُ اللهُ وأُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا الألبَابِ﴾؛ فالمحروم من حرم هٰذه البشرى، وخرج عن هٰذه الصفة المحمودة، نسأل الله أن يكتبنا في عداد أهلها، وأن يثبتنا في جملتهم آمين؛ فقد فاز من وصفه الله تعالى بأنه هداه، وبأنه مبشر، وأنه من أولي الألباب، وهٰذه صفة من استمع الأقوال فلم يقلد، واختار أحسنها، والأحسن هو ما شهد الله عز وجل ورسوله ﷺ له بالحسنى، مما وافق القرآن والسنة، وبالله تعالى التوفيق.

فقد صح بنص كلام الله تعالى ببطلان تقليد الرجال والنساء جملة، وتحريم اتباع الآباء والرؤساء ألبتة، وعلى هٰذا كله السلف الصالح[1].

---

(١) «إحكام الأحكام» لابن حزم (٢ / ١١٠٠).

وقال أبومحمد في موضع آخر:

وقد صح عن الصحابة أنهم قالوا بآرائهم، صح ذٰلك عن أبي بكر وابن مسعود وعمر وعلي وغيرهم، وكلهم يقول: أقول في هٰذا برأيي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني، وزاد بعضهم: ومن الشيطان والله ورسوله بريئان، وفعل ذٰلك أيضاً من بعدهم، فإذا صح ذٰلك صح أنهم تبرؤوا من ذٰلك الرأي، ولم يروه على الناس ديناً؛ فحرام على كل من بعدهم أن يأخذ من فتاويهم بشيء يتدين به؛ إلا أن يصح به نص عن الله تعالى أو عن رسوله ﷺ(١).

قلت: هٰؤلاء أولياء الصحابة وخيرتهم، يصرحون بأن لهم صواباً وخطأ، فصوابهم بتوفيق الله وخطؤهم من زلاتهم ومن تضليل الشيطان لهم، فكيف بالمتأخرين الذين لم يشموا رائحة الكتاب والسنة، ولم يجالسوا رسول الله؟! وأين علمهم من علم أولٰئك، ومع ذٰلك يدعون لمشايخهم ما لم يدعه هٰؤلاء الأولياء، حقاً هٰذا هو البهتان، وهٰذا هو الضلال البعيد، فإن كان خيراً؛ سبق إليه صحابة رسول الله، وإن كان غير ذٰلك؛ فهم أحق بالابتعاد عنه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، ما تركوا باباً للشر إلا وسدوه، ولا باباً للخير إلا فتحوه، فمن أراد الولوج؛ فمن بابهم، ومن أراد غير ذٰلك؛ فليعلم أنه قيض له شيطان يتبعه في خطواته ﴿ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

ولأبي عمر بن عبد البر في كتابه النفيس «جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله» فصل جيد ملأه بالحكم القرآنية والنبوية والسلفية،

---

(١) (٦ / ١٠٧٤) من «إحكام الأحكام» لابن حزم.

جدير بالقـراءة والـدرس، نقتطف منه بعض ما يدل على موضوعنا، وننقل قصيدته العظيمة في هٰذا الباب، حتى يُعْلَمَ أن علماء الكتاب والسنة قد ردوا هٰذه الفضيحة من قديم الزمان، وكتبوا فيها البحوث القيمة التي تدل على إمـامتهم وعقيدتهم وتعلقهم بالكتـاب والسنة، وبقراءتها يتضح للقارىء ما يخـططه الصـوفية للمسلمين في كل زمـان من صرف عن الكتـاب والسنة السليمة والعقل الصحيح، وينقلونه مباشرة إلى أصول الروافض أعداء الله الذين جاؤوا لهدم الإسلام.

باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع:

قد ذم الله تبـارك وتعـالى التقليد في غير موضـع من كتابه، فقال: **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾**.

وروي عن حذيفة وغيره؛ قالوا: لم يعبدوهم من دون الله، ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم.

وقال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب، فقال لي: «يا عدي! ألق هٰذا الوثن من عنقك»، وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة، حتى أتى على هٰذه الآية: **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾**. قال: قلت: يا رسول الله! إنا لم نتخذهم أرباباً. قال: «بلى، أليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه». فقلت: بلى. فقال: «تلك عبادتهم».

حدثنـا عبد الوارث بن سفيان؛ قال: حدثنا قاسم بن أصبغ؛ قال: حدثنا ابن وضاح؛ قال: حدثنا يوسف بن عدي؛ قال: حدثنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن أبي البختري في قوله عز وجل: **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ**

ورُهبانَهُمْ أَرباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾؛ قال: أما إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكنهم أمروهم، فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله، فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية.

قال: وحدثنا ابن وضاح: حدثنا موسى بن معاوية: حدثنا وكيع: حدثنا سفيان والأعمش جميعاً عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي البختري؛ قال: قيل لحذيفة في قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ ورُهْبانَهُمْ أَرباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾: أكانوا يعبـدونهم؟ فقال: لا. ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه، ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه.

وقال جل وعز: ﴿وكذٰلك ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ في قَرْيَةٍ مِنْ نَذيرٍ إلَّا قالَ مُتْرَفوها إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارِهِمْ مُقْتَدونَ قُلْ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْـدى مِمَّـا وَجَـدْتُم عَلَيْـهِ آبـاءَكُمْ﴾، فمنعهم الاقتـداء بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا: ﴿إنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرونَ﴾.

وفي هٰؤلاء ومثلهم قال الله عز وجل: ﴿إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذينَ لا يَعْقِلُونَ﴾.

وقال: ﴿إذْ تَبَرَّأَ الذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا ورَأَوُا العَذابَ وتَقَطَّعَتْ بهِمُ الأَسْبَابُ . وقَالَ الذينَ اتَّبَعُوا لو أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤوا مِنَّا كَذٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمالَهُمْ حَسراتٍ عَلَيْهِمْ﴾.

وقال جل وعز عائباً لأهل الكفر وذاماً لهم: ﴿ما هٰذه التَّماثِيلُ التي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنا آباءَنا كَذٰلِكَ يَفْعَلونَ﴾.

وقال: ﴿إنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وكُبَراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا﴾.

ومثـل هٰذا في القـرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء، وقد احتج

العلماء بهٰذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولٰئك من الاحتجاج بهـا؛ لأن التشبيه لـم يقـع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد؛ كما لو قلد رجل فكفر، وقلد آخر فأذنب، فقلد آخر في مسألة دنياه فأخطأ وجهها؛ كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة؛ لأن كل ذٰلك تقليد يشبه بعضه بعضاً، وإن اختلفت الآثام فيه.

وقال الله جل وعز: ﴿وما كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قوماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ﴾.

وقـد ثبت الاحتجاج بما قدمنا في الباب قبل هٰذا، وفي ثبوته إبطال التقليد أيضاً، فإذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا؛ وجب التسليم للأصول التي يجب التسليم لها، وهي الكتاب والسنة أو ما كان في معناهما؛ بدليل جامع بين ذٰلك.

أخبـرنا عبد الوارث بن سفيان؛ قال: حدثنا قاسم بن أصبغ؛ قال: حدثنـا أبـو بكـر عبـد الله بن عمـرو بن محمـد العثماني بالمدينة؛ قال: حدثنا عبد الله بن مسلمة؛ قال: حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأخاف على أمتي من بعدي من أعمال ثلاثة». قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «أخاف عليهم من زلة العالم، ومن حكم جائر، ومن هوى متبع».

وبهٰذا الإسناد عن النبي ﷺ: أنه قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله».

حدثنا سعيد بن نصر؛ قال: حدثنا قاسم بن أصبغ؛ قال: حدثنا ابن وضاح؛ قال: حدثني موسى؛ قال: حدثنا ابن مهدي عن إسرائيل عن أبي

حصين عن الشعبي عن زياد بن جدير؛ قال: قال عمر: «ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون».

وبه عن ابن مهدي عن جعفر بن حيان عن الحسن؛ قال: قال أبو الدرداء: «إن فيما أخشى عليكم: زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، والقرآن حق، وعلى القرآن منار كأعلام الطريق».

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن؛ قال: حدثنا أبو الحسن أحمد بن عثمان الآدمي؛ قال: حدثنا عباس الدوري؛ قال: حدثنا محمد ابن بشر العبدي؛ قال: حدثنا مجالد عن عامر عن زياد بن جدير؛ قال: قال عمر بن الخطاب: «ثلاث يهدمن الدين: زيغة العالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون».

وذكر ابن مزين عن أصبغ عن جرير الضبي عن المغيرة عن الشعبي عن زياد بن جدير؛ قال: أتيت عمر بن الخطاب فذكر معناه.

وحدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثنا الليث بن سعد عن ابن عجلان عن ابن شهاب: أن معاذ ابن جبل كان يقول في مجلسه كل يوم قلما يخطئه أن يقول ذٰلك: «الله حكم قسط، هلك المرتابون، إن وراءكم فتناً، يكثر المال، ويفتح فيها القرآن، حتى يقرأه المؤمن والمنافق والمرأة والصبي والأسود والأحمر، فيوشك أحدهم أن يقول: قد قرأت، فما أظن أن يتبعوني حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع؛ فإن كل بدعة ضلالة، وإياكم وزيغة الحكيم؛ فإن الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة، وإن المنافق قد يقول كلمة الحق، فتلقوا الحق عمن جاء به؛ فإن على الحق نوراً. قالوا: وكيف زيغة الحكيم؟ قال: هي الكلمة تروعكم وتنكرونها وتقولون: ما هٰذه؟ فاحذروا زيغته، ولا يصدَّنَّكم عنه؛ فإنه يوشك أن يفيء

وأن يراجع الحق، وإن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة، فمن ابتغاهما وجدهما».

أخبرنا سعيد بن نصر؛ قال: حدثنا قاسم بن أصبغ؛ قال: حدثنا محمد ابن وضاح؛ قال: حدثنا موسى؛ قال: حدثنا ابن مهدي عن شعبة عن عمرو ابن مرة عن عبد الله بن سلمة؛ قال: قال معاذ بن جبل: «يا معشر العرب، كيف تصنعون بثلاث: دنيا تقطع أعناقكم، وزلة عالم، وجدال منافق بالقرآن»، فسكتوا، فقال: «أما العالم؛ فإن اهتدى؛ فلا تقلدوه دينكم، وإن افتتن؛ فلا تقطعوا منه أناتكم، فإن المؤمن يفتتن ثم يتوب، وأما القرآن؛ فله منار كمنار الطريق، لا تخفى على أحد، فما عرفتم منه؛ فلا تسألوا عنه، وما شككتم؛ فكلوه إلى عالمه، وأما الدنيا؛ فمن جعل الله الغنى في قلبه؛ فقد أفلح، ومن لا؛ فليس بنافعته دنياه».

أخبرنا محمد بن إبراهيم؛ قال: حدثنا محمد بن أحمد بن يحيى؛ قال: حدثنا أبو سعيد البصري بمكة؛ قال: حدثنا الحسن بن عفان العامري؛ قال: حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن عطاء بن السائب عن أبي البختري؛ قال: قال سلمان: «كيف أنتم عند ثلاث: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم: فأما زلة العالم؛ فإن اهتدى؛ فلا تقلدوه دينكم، وأما مجادلة منافق بالقرآن؛ فإن للقرآن مناراً كمنار الطريق، فما عرفتم منه؛ فخذوه، وما لم تعرفوه؛ فكلوه إلى الله، وأما دنيا تقطع أعناقكم؛ فانظروا إلى من هو دونكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم».

وشبه الحكماء زلة العالم بانكسار السفينة؛ لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير.

وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطىء؛ لم يجز لأحد أن يفتي ويدين

بقول لا يعرف وجهه.

حدثنا عبد الرحمٰن بن يحيى؛ قال: حدثنا علي بن محمد؛ قال: حدثنا أحمد بن داود؛ قال: حدثنا سحنون؛ قال: حدثنا ابن وهب؛ قال: سمعت سفيان ـ يعني: ابن عيينة ـ يحدث عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود أنه كان يقول: «اغد عالماً أو متعلماً، ولا تغد إمعة فيما بين ذٰلك». قال ابن وهب: فسألت سفيان عن الإمعة، فحدثني عن أبي الزعراء عن أبي الأحوص عن ابن مسعود؛ قال: «كنا ندعو الإمعة في الجاهلية الذي يدعى إلى الطعام فيذهب معه بغيره، وهو فيكم اليوم المحقب دينه الرجال».

وحدثنا محمد بن إبراهيم؛ قال: حدثنا سعيد بن أحمد؛ قال: حدثنا أسلم بن عبد العزيز؛ قال: حدثنا يونس؛ قال: حدثنا سفيان عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود: أنه كان يقول: «اغد عالماً أو متعلماً، ولا تغد إمعة فيما بين ذٰلك».

وبه عن يونس: أخبرنا سفيان؛ قال: وحدثني أبو الزعراء عن أبي الأحوص عن ابن مسعود: أنه قال: «كنا ندعو الإمعة في الجاهلية الذي يدعى إلى الطعام، فيذهب معه بآخر، وهو فيكم اليوم المحقب دينه الرجال».

وحدثنا محمد؛ قال: حدثنا أحمد بن مطرف؛ قال: حدثنا سعيد وسعيد؛ قالا: حدثنا يونس فذكر الخبرين جميعاً بإسنادهما سواء.

أخبرنا أحمد بن عبد الله بن محمد؛ قال: حدثنا أبي؛ قال: حدثنا محمد بن قاسم؛ قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن يونس البغدادي؛ قال:

حدثنا[1] اليمن الأسدي؛ قال: حدثنا حماد بن زيد عن المثنى بن سعيد عن أبي العالية الرياحي؛ قال: سمعت ابن عباس يقول: «ويل للأتباع من عثرات العالم». قيل: كيف ذٰلك؟ قال: «يقول العالم شيئاً برأيه، ثم يجد من هو أعلم برسول الله ﷺ منه، فيترك قوله ذٰلك، ثم تمضي الأتباع».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد النخعي ـ وهو حديث مشهور عند أهل العلم يستغني عن الإسناد لشهرته عندهم ـ: «يا كميل! إن هٰذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق». ثم قال: «أن ها هنا لعلماً ـ وأشار بيده إلى صدره ـ لو أصبت له حملة لقد أصبت لقناً[2] غير مأمون، يستعمل الدين للدنيا، ويستظهر بحجج الله على كتابه، وبنعمه على معاصيه، أف لحامل حق لا بصيرة له، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا يدري أين الحق، إن قال أخطأ، وإن أخطأ لم يدر مشغوف بما لا يدرى حقيقته، فهو فتنة لمن افتتن به، وإن من الخير كله من عرفه الله دينه، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف دينه».

أخبرنا أبو نصر هارون بن موسى؛ قال: حدثنا أبو علي إسماعيل بن القاسم؛ قال: حدثنا أبو بكر بن الأنباري؛ قال: حدثنا محمد بن علي المديني؛ قال: حدثنا أبو الفضل الربعي الهاشمي؛ قال: حدثنا نهشل بن دارم عن أبيه عن جده عن الحارث الأعور؛ قال: سئل علي بن أبي طالب

---

(١) هنا بياض بالأصل قدر كلمة.

(٢) اللقن: بفتح فكسر، من يفهم بسرعة؛ إلا أن العلم لم يطبع أخلاقه على الفضائل، فهو يستعمل وسائل الدين لجلب الدنيا، ويستعين بنعم الله على إيذاء عباده.

عن مسألة، فدخل مبادراً، ثم خرج في حذاء ورداء وهو متبسم، فقيل له: يا أمير المؤمنين! إنك كنت إذا سئلت عن المسألة تكون فيها كالمسلة المحماة. قال: «إني كنت حاقناً، ولا رأي لحاقن، ثم أنشأ يقول:

إذا المُشْكلاتُ تَصَدَّينَ لي ... كَشَفْتُ حَقَائقها بالنظر
فإن بَرَقَتْ في مخيلِ الصوابِ ... عَمياء لا يَجْتَليها البَصر
مقنعةٌ بغُيوبِ الأمورِ ... وضعتُ عليها صَحيحَ الفكر
لساناً كشقشقة الأرْحَبي ... أو كالحُسام اليماني الذكر
وقلباً إذا اسْتَنطَقتهُ الفنو ... نُ أبر عليها بواه درر
ولست بإمعةٍ في الرِّجا ... ل يسائل هٰذا وذا ما الخبر
ولكنني مذرب الأصغرين ... أبين مع ما مضى ما غبر»

قال أبو علي: المخيل: السحاب يخال فيه المطر، والشقشقة: ما يخرجه الفحل من فيه عند هياجه، ومنه قيل لخطباء الرجال شقاشق، وأبر: زاد على ما تستنطقه، والإمعة: الأحمق الذي لا يثبت على رأي، والمذرب: الحاد، وأصغراه: قلبه ولسانه.

قال أبو عمر: من الشقاشق ما حدثنا عبد الله بن محمد بن يوسف؛ قال: حدثنا محمد بن محمد؛ قال: حدثنا عمر بن حفص؛ قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم؛ قال: حدثنا أبو ضمرة أنس بن عياض؛ قال: حدثنا حميد عن أنس: أن عمر رأى رجلاً يخطب، فأكثر، فقال عمر: «إن كثيراً من الخطب من شقاشق الشيطان».

حدثنا عبد الوارث بن سفيان ويعيش بن سعيد؛ قالا: حدثنا قاسم بن أصبغ؛ قال: حدثنا بكر بن حماد؛ قال: حدثنا بشر بن حجر؛ قال: حدثنا

خالد بن عبد الله الواسطي عن عطاء ـ يعني: ابن السائب ـ عن أبي البختري عن علي؛ قال: «إياكم والاستنان بالرجال؛ فإن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة، ثم ينقلب لعلم الله فيه، فيعمل بعمل أهل النار، فيموت وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، فينقلب لعلم الله، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيموت وهو من أهل الجنة، فإن كنتم لا بد فاعلين؛ فبالأموات لا بالأحياء».

وقال ابن مسعود: «ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً: إن آمن آمن، وإن كفر كفر؛ فإنه لا أسوة في الشر».

وأنشد الصولي عن المراغي؛ قال: أنشدني أبو العباس الطبري عن أبي سعيد الطبري؛ قال: أنشدني الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن عمر بن علي رضي الله عنه لنفسه وكان أفضل أهل زمانه:

تريد تنام على ذي الشبه ... وعلك إن نمت لم تنتبه
فجاهد وقلِّد كتاب الإلٰه ... لتلقى الإلٰه إذا مت به
فقد قلد الناس رهبانهم ... وكل يجادل عن راهبه
وللحق مستنبط واحد ... وكل يرى الحق في مذهبه
ففيما أرى عجب غير أن ... بيان التفرق من أعجبه

وثبت عن النبي ﷺ مما قد ذكرناه في كتابنا هٰذا: أنه قال: «تذهب العلماء، ثم تتخذ الناس رؤوساً جهالاً، يسألون، فيفتون بغير علم، فيضلون ويضلون».

وهٰذا كله نفي للتقليد، وإبطال له لمن فهمه وهدي لرشده.

وحدثنا محمد بن إبراهيم؛ قال: حدثنا أحمد بن مطرف؛ قال: حدثنا

سعيد بن عثمان وسعيد بن حمير؛ قالا: حدثنا يونس بن عبد الأعلى؛ قال: حدثنا سفيان بن عيينة؛ قال: «اضطجع ربيعة مقنعاً رأسه وبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: رياء ظاهر، وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كالصبيان في حجور أمهاتهم: ما نهوهم عنه؛ انتهوا، وما أمروهم به؛ ائتمروا».

وقال أيوب رحمه الله: «ليس تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره».

وقال عبيد الله بن المعتز: «لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد».

وهٰذا كله لغير العامة؛ فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها؛ لأنها لا تتبين موقع الحجة، ولا تصل بعدم الفهم إلى علم ذٰلك؛ لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها، وهٰذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة. والله أعلم.

ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المرادون بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾، وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا استشكلت عليه؛ فكذٰلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه، وكذٰلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا، وذٰلك والله أعلم لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم والقول في العلم.

وقد نظمت في التقليد وموضعه أبياتاً رجوت في ذٰلك جزيل الأجر لما علمت أن من الناس من يسرع إليه حفظ المنظوم ويتعذر عليه المنثور، وهي من قصيدة لي:

يا سائلي عن موضع التقليد خذْ ... عني الجواب بفهم لبٍّ حاضر

واصغِ إلى قولي ودن بنصيحتي ... واحفظ عليَّ بوادري ونوادري

لا فرق بين مقلِّد وبهيمة ... تنقاد بين جنادل ودعاثر
تبّاً لقاض أو لمفت لا يرى ... عللاً ومعنى للمقال السائر
فإذا اقتديت فبالكتاب وسنة الـ ... ـمبعوثِ بالدين الحنيف الطاهر
ثم الصحابة عند عُدمك سنة ... فأولاك أهل نهى وأهل بصائر
وكذاك إجماع الذين يلونهم ... من تابعيهم كابراً عن كابر
إجماع أمتنا وقول نبينا ... مثل النصوص لدى الكتاب الزاهر
وكذا المدينة حجة إن أجمعوا ... متتابعين أوائلاً بأواخر
وإذا الخلاف أتى فدونك فاجتهد ... ومع الدليل فمل بفهم وافر
وعلى الأصول فقس فروعك لاتقس ... فرعاً بفرع كالجهول الحائر
والشر ما فيه فديتك أسوة ... فانظر ولا تحفل بزلة ماهر»[1]

وللإمام العلامة الحافظ ابن القيم رحمة الله عليه فضل كبير في كتابه القيم «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، ذكر فيه من الحجج الدامغة والبراهين القاطعة والوجوه النيرة الطيبة ما فيه قناعة لمن أراد أن يقتنع ويعرف ضلال هٰؤلاء وبعدهم عن الإسلام وأصوله، وسأقتطف بعض الثمرات التي أراها منورة لهٰذا البحث المبارك، وإلا؛ فكلام الإمام ابن القيم في كتابه لا يغني أوله عن آخره، وأعتقد أن كل طالب علم يملك هٰذا الكتاب ويقرأه المرات والكرات؛ لما له من حلاوة يجدها القارىء عند قراءته لنفائس الإمام ابن القيم، وهو ومثله مفخرة لكل سلفي.

قال الإمام رحمه الله:

«ويقال **ثامناً**: تقليدك لمتبوعك يحرم عليك تقليده؛ فإنه نهاك عن

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (ص ١١٥).

ذٰلك، وقال: لا يحل لك أن تقول بقوله حتى تعلم من أين قاله، ونهاك عن تقليده وتقليد غيره من العلماء، فإن كنت مقلداً له في جميع مذهبه؛ فهٰذا من مذهبه؛ فهلا اتبعته فيه.

ويقال **تاسعاً**: هل أنت على بصيرة في أن من قلدته أولى بالصواب من سائر من رغبت عن قوله من الأولين والآخرين أم لست على بصيرة؟ فإن قال: أنا على بصيرة. قال ما يعلم بطلانه. وإن قال: لست على بصيرة، وهو الحق. قيل له: فما عذرك غداً بين يدي الله حين لا ينفعك من قلدته بحسنة واحدة، ولا يحمل عنك سيئة واحدة إذا حكمت وأفتيت بين خلقه بما لست على بصيرة منه هل هو صواب أم خطأ؟

ويقال **عاشراً**: هل تدعي عصمة متبوعك أو تجوز عليه الخطأ؟ والأول لا سبيل إليه، بل تقر ببطلانه، فتعين الثاني، إذا جوزت عليه الخطأ؛ فكيف تحلل وتحرم وتوجب وتريق الدماء وتبيح الدماء وتبيح الفروج وتنقل الأموال وتضرب الأبشار بقول من أنت مُقر بجواز كونه مخطئاً.

ويقال **حادي عشر**: هل تقول إذا أفتيت أو حكمت بقول من قلدته: إن هٰذا هو دين الله الذي أرسل به رسوله وأنزل به كتابه وشرعه لعباده ولا دين له سواه، أو تقول: إن دين الله الذي شرعه لعباده خلافه، أو تقول: لا أدري؟ ولا بد لك من قول من هٰذه الأقوال، ولا سبيل لك إلى الأول قطعاً؛ فإن دين الله الذي لا دين له سواه لا تسوغ مخالفته، وأقل درجات مخالفه أن يكون من الآثمين، والثاني لا تدعيه، فليس لك ملجأ؛ إلا الثالث، فيالله العجب! كيف تستباح الفروج والدماء والأموال والحقوق وتحلل وتحرم بأمر أحسن أحواله وأفضلها لا أدري؟!

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

ويقال ثاني عشر: على أي شيء كان الناس قبل أن يولد فلان وفلان وفلان الذين قلدتموهم وجعلتم أقوالهم بمنزلة نصوص الشارع، وليتكم اقتصرتم على ذٰلك، بل جعلتموها أولى بالاتباع من نصوص الشارع، أفكان الناس قبل وجود هٰؤلاء على هدى أو على ضلالة، فلا بد من أن تقروا بأنهم كانوا على هدى، فيقال لهم: فما الذي كانوا عليه غير اتباع القرآن والسنن والآثار وتقديم قول الله ورسوله وآثار الصحابة على ما يخالفها والتحاكم إليها دون قول فلان أو رأي فلان؟ وإذا كان هٰذا هو الهدى؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ فأنَّى تؤفكون؟ فإن قالت كل فرقة من المقلدين ـ وكذٰلك يقولون ـ: صاحبنا هو الذي ثبت على ما مضى عليه السلف، واقتفى منهاجهم، وسلك سبيلهم. قيل هم: فمن سواه من الأئمة: هل شارك صاحبكم في ذٰلك أو انفرد صاحبكم بالاتباع وحُرِمه من عداه؟ فلا بد من واحد من الأمرين. فإن قالوا بالثاني؛ فهم أضل سبيلاً من الأنعام، وإن قالوا بالأول؛ فيقال: فكيف وقفتم لقبول قول صاحبكم كله، ورد قول من هو مثله أو أعلم منه كله، فلا يُرد لهٰذا قول، ولا يقبل لهٰذا قول، حتى كان الصواب وقفاً على صاحبكم، والخطأ وقفاً على من خالفه، ولهٰذا أنتم موكَّلون بنُصرته في كل ما قاله، وبالرد على من خالفه في كل ما قاله؟! وهٰذه حال الفرقة الأخرى معكم.

ويقال ثالث عشر: فمن قلدتموه من الأئمة قد نهوكم عن تقليدهم، فأنتم أول مخالف لهم.

قال الشافعي: «مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل يحمل حُزمَة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري».

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف: «لا يحل لأحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه».

وقال أحمد: «لا تقلد دينك أحداً».

ويقال **رابع عشر**: هل أنتم موقنون بأنكم غداً موقوفون بين يدي الله، وتسألون عما قضيتم به في دماء عباده وفروجهم وأبشارهم وأموالهم، وعما أفتيتم به في دينه محرمين ومحللين وموجبين؟ فمن قولهم: نحن موقنون بذٰلك. فيقال لهم: فإذا سألكم: من أين قلتم ذٰلك؛ فماذا جوابكم؟ فإن قلتم: جوابنا أنا حللنا وحرمنا وقضينا بما في كتاب الأصل لمحمد بن الحسن مما رواه عن أبي حنيفة، فاتبعناهم في ذٰلك، وقلدناهم فيه، إذ أمرتنا أنت وأمرنا رسولك بأن نسمع منهم ونقبل ما بلغوه عنك وعن رسولك؛ فسمعاً لك ولرسولك وطاعة، ولم نتخذهم أرباباً نتحاكم إلى أقوالهم، ونخاصم بها، ونوالي ونعادي عليها، بل عرضنا أقوالهم على كتابك وسنة رسولك، فما وافقهما؛ قبلناه، وما خالفهما؛ أعرضنا عنه وتركناه، وإن كانوا أعلم منا بك وبرسولك، فمن وافق قوله قول رسولك؛ كان أعلم منهم في تلك المسألة؛ فهٰذا جوابنا، ونحن نناشدكم الله: هل أنتم كذٰلك حتى يمكنكم هٰذا الجواب بين يدي من لا يبدَّل القول لديه ولا يروج الباطل عليه؟

ويقال **سادس عشر**: كل طائفة منكم معاشر طوائف المقلدين قد أنزلت جميع الصحابة من أولهم إلى آخرهم، وجميع التابعين من أولهم إلى آخرهم، وجميع علماء الأمة من أولهم إلى آخرهم؛ إلا من قلدتموه في مكان من لا يعتد بقوله، ولا ينظر في فتاواه، ولا يشتغل بها، ولا يعتد بها، ولا وجه للنظر فيها؛ إلا للتمحُّل وإعمال الفكر وكده في الرد عليهم إذا خالف قولهم قول متبوعهم، وهٰذا هو المسوغ للرد عليهم عندهم، فإذا خالف قول متبوعهم نصّاً عن الله ورسوله؛ فالواجب التمحُّل والتكلُّف في إخراج ذٰلك النص عن دلالته، والتحيل لدفعه بكل طريق، حتى يصح قول متبوعهم،

فيا لله لدينه وكتابه وسنة رسوله، ولبدعة كادت تثل عرش الإيمان وتهد ركنه، لولا أن الله ضمن لهٰذا الدين أن لا يزال فيه من يتكلم بأعلامه ويذب عنه، فمن أسوأ ثناء على الصحابة والتابعين وسائر علماء المسلمين، وأشد استخفافاً بحقوقهم، وأقل رعاية لواجبهم، وأعظم استهانة بهم، ممن لا يلتفت إلى قول رجل واحد منهم، ولا إلى فتواه، غير صاحبه الذي اتخذه وليجة من دون الله ورسوله؟

ويقال **سابع عشر**: من أعجب أمركم أيها المقلدون أنكم اعترفتم وأقررتم على أنفسكم بالعجز عن معرفة الحق بدليله من كلام الله وكلام رسوله، مع سهولته حقّاً وجب الانقياد لها والأخذ بما فيها، وإن لم تكن صحيحة؛ لم يؤخذ بشيء مما فيها، فإما أن تصحح ويؤخذ بها فيما وافق قول المتبوع، وتضعف أو ترد إذا خالفت قوله أو تؤول، فهٰذا من أعظم الخطأ والتناقض.

فإن قلتم: عارض ما خالفناه منها ما هو أقوى منه، ولم يعارض ما وافقناه منها ما يوجب العدول عنه واطراحه.

قيل: لا تخلوا هٰذه الأحاديث وأمثالها أن تكون منسوخة أو مُحكمَة، فإن كانت منسوخة؛ لم يحتج بمنسوخ ألبتة، وإن كانت مُحكمة؛ لم يجز مخالفة شيء منها ألبتة.

فإن قيل: هي منسوخة فيما خالفناها فيه، ومحكمة فيما وافقناها فيه.

قيل: هٰذا مع أنه ظاهر البطلان، يتضمن ما لا علم لمدعيه به، فهو قائل ما لا دليل له عليه، فأقل ما فيه أن معارضاً لو قلب عليه هٰذه الدعوى بمثلها، سواء كانت دعواه من جنس دعواه، ولم يكن بينهما فرق، ولا فرق،

وكلاهما مدع ما لا يمكنه إثباته.

فالواجب اتباع سنن رسول الله ﷺ وتحكيمها والتحاكم إليها حتى يقوم الدليل القاطع على نسخ المنسوخ منها أو تجمع الأمة على العمل بخلاف شيء منها، وهٰذا الثاني محال قطعاً؛ فإن الأمة ولله الحمد لم تجمع على ترك العمل بسنة واحدة؛ إلا سنة ظاهرة النسخ معلوم للأمة ناسخها، وحينئذ يتعين العمل بالناسخ دون المنسوخ، وأما أن تترك السنن لقول أحد من الناس؛ فلا؛ كائناً من كان. وبالله التوفيق.

الوجه العشرون: أن فرقة التقليد قد ارتكبت مخالفة أمر الله وأمر رسوله وهدي أصحابه وأحوال أئمتهم، وسلكوا ضد طريق أهل العلم:

أما أمر الله؛ فإنه أمر بردِّ ما تنازع فيه المسلمون إليه وإلى رسوله، والمقلدون قالوا: إنما نرده إلى من قلدناه.

وأما أمر رسوله؛ فإنه ﷺ أمر عند الاختلاف بالأخذ بسنته وسنة خلفائه الراشدين المهديين، وأمر أن يتمسك بها، ويُعضَّ عليها بالنَّواجذ، وقال المقلدون: بل عند الاختلاف نتمسك بقول من قلدناه، ونقدمه على كل ما عداه.

وأما هَديُ الصحابة؛ فمن المعلوم بالضرورة أنه لم يكن فيهم شخص واحد يقلد رجلاً واحداً في جميع أقواله، ويخالف من عداه من الصحابة بحيث لا يردُّ من أقواله شيئاً ولا يقبل من أقوالهم شيئاً، وهٰذا من أعظم البدع وأقبح الحوادث.

وأما مخالفتهم لأئمتهم؛ فإن الأئمة نَهوْا عن تقليدهم، وحذروا منه؛ كما تقدم ذكر بعض ذٰلك عنهم.

وأما سلوكهم ضد طريق أهل العلم؛ فإن طريقهم طلب أقوال العلماء وضبطها والنظر فيها وعرضها على القرآن والسنن الثابتة عن رسول الله ﷺ وأقوال خلفائه الراشدين، فما وافق ذٰلك منهم؛ قبلوه، ودانوا الله به، وقضوا به، وأفتوا به، وما خالف ذٰلك منها؛ لم يلتفتوا إليه، وردوه، وما لم يتبين لهم؛ كان عندهم من مسائل الاجتهاد التي غايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبة الاتباع، من غير أن يلزموا بها أحداً، ولا يقولوا: إنها الحق دون ما خالفها. هٰذه طريقة أهل العلم سلفاً وخلفاً.

وأما هٰؤلاء الخلف؛ فعكسوا الطريق، وقلبوا أوضاع الدين، فزيَّفوا كتاب الله وسنة رسوله وأقوال خلفائه وأصحابه، فعرضوها على أقوال من قلدوه، فما وافقها منها؛ قالوا: لنا، وانقادوا له مُذعِنين، وما خالف أقوال متبوعهم منها؛ قالوا: احتج الخصم بكذا وكذا، ولم يقبلوه، ولم يدينوا به، واحتال فضلاؤهم في ردها بكل ممكن، وتطلبوا لها وجوه الحيل التي تردها، حتى إذا كانت موافقة لمذاهبهم، وكانت تلك الوجوه بعينها قائمة فيها؛ شَنَّعوا على منازعهم، وأنكروا عليه ردها بتلك الوجوه بعينها، وقالوا: لا تُرد النصوص بمثل هٰذا، ومن له همة تسمو إلى الله ومرضاته ونصر الحق الذي بعث الله به رسوله أين كان ومع من كان لا يرضى لنفسه بمثل هٰذا المسلك الوخيم والخلق الذميم.

الوجه الحادي والعشرون: أن الله سبحانه ذم الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون، وهٰؤلاء هم أهل التقليد بأعيانهم؛ بخلاف أهل العلم؛ فإنهم وإن اختلفوا لم يفرقوا دينهم ولم يكونوا شيعاً، بل شيعة واحدة، متفقة على طلب الحق، وإيثاره عند ظهوره، وتقديمه على كل ما سواه؛ فهم طائفة واحدة، قد اتفقت مقاصدهم وطريقهم، فالطريق واحد،

والقصد واحد، والمقلدون بالعكس: مقاصدهم شتى، وطرقهم مختلفة، فليسوا مع الأئمة في القصد ولا في الطريق.

الوجه الثاني والعشرون: أن الله سبحانه ذم الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون، والزبر: الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله، وما بعث الله به رسوله.

فقال تعالى: **﴿يَاأَيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحاً إنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وإِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأَنا رَبُّكُمْ فاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾**.

فأمر تعالى الرسل بما أمر به أممهم: أن يأكلوا من الطيبات، وأن يعملوا صالحاً، وأن يعبدوه وحده، وأن يطيعوا أمره وحده، وأن لا يتفرقوا في الدين، فمضت الرسل وأتباعهم على ذٰلك، ممتثلين لأمر الله، قابلين لرحمته، حتى نشأت خلوف، قطعوا أمرهم زبراً، كل حزب بما لديهم فرحون، فمن تدبر هٰذه الآيات ونزلها على الواقع؛ تبين له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو. والله المستعان.

الوجه الثالث والعشرون: أن الله سبحانه؛ قال: **﴿ولْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الخَيرِ ويأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وأُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾**، فخص هٰؤلاء بالفلاح دون من عداهم، والداعون إلى الخير هم الداعون إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا الداعون إلى رأي فلان وفلان.

الوجه الرابع والعشرون: أن الله سبحانه ذم من إذا دُعِيَ إلى الله ورسوله أعرض ورضي بالتحاكم إلى غيره، وهٰذا شأن أهل التقليد.

قال تعالى: **﴿وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ رَأَيْتَ**

المُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدوداً﴾، فكل من أعرض عن الداعي إلى ما أنزل الله على رسوله إلى غيره؛ فله نصيب من هٰذا الذم، فمستكثر ومستقل.

الوجه الخامس والعشرون: أن يقال لفرقة التقليد: دين الله عندكم واحـد، وهـو في القول وضده، فدينه هو الأقوال المختلفة المتضادة التي يناقض بعضها بعضاً، ويبطل بعضها بعضاً، كلها دين الله. فإن قالوا: بلى، هٰذه الأقوال المتضادة المتعارضة التي يناقض بعضها بعضاً كلها دين الله؛ خرجـوا عن نصـوص أئمتهم؛ فإن جميعهم على أن الحق في واحـد من الأقوال، كما أن القبلة في جهة من الجهات، وخرجوا عن نصوص القرآن والسنة والمعقول الصريح، وجعلوا دين الله تابعاً لآراء الرجال. وإن قالوا: الصواب الذي لا صواب غيره أن دين الله واحد، وهو ما أنزل الله به كتابه، وأرسـل به رسوله، وارتضاه لعباده، كما أن نبيه واحد، وقبلته واحدة، فمن وافقه؛ فهو المصيب وله أجران، ومن أخطأه؛ فله أجر واحد على اجتهاده لا على خطئه.

أبِنْ وجه قول الحق في قلب سامع ... ودَعْـه فنـور الحق يسـري ويشرق
سيؤنسـه رُشْـداً وينسى نفـاره ... كمـا نسي التـوثيق من هو مُطْلَق

ففطرة الله وشرعه من أكبر الحجج على فرقة التقليد.

الـوجـه الثـامن والستـون: قولكم: إن الله سبحانه فاوت بين قوى الأذهان كما فاوت بين قوى الأبدان، فلا يليق بحكمته وعدله أن يفرض على كل أحد معرفة الحق بدليله في كل مسألة... إلى آخره.

فنحن لا ننكر ذٰلك، ولا ندعي أن الله فرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله في كل مسألة من مسائل الدين دِقِّه وجله، وإنما أنكرنا ما أنكره

الأئمـة ومن تقـدمهم من الصحـابة والتابعين، وما حدث في الإسلام بعد انقضاء القرون الفاضلة في القرن الرابع المذموم على لسان رسول الله ﷺ، من نصب رجـل واحد، وجعل فتاويه بمنزلة نصوص الشارع، بل تقديمها عليه، وتقديم قوله على أقوال من بعد رسول الله ﷺ من جميع علماء أمته، والاكتفـاء بتقليده عن تلقي الأحكـام من كتـاب الله وسنـة رسـولـه وأقوال الصحابة، وأن يضم إلى ذٰلك أنه لا يقول إلا بما في كتاب الله وسنة رسوله، وهٰذا مع تضمنه للشهادة بما لا يعلم الشاهد، والقول على الله بلا علم، والإخبار عمن خالفه، وإن كان أعلم منه: أنه غير مصيب للكتاب يكون متبعاً لهم، وأما مع إعراضه عن الأصل الذي قامت عليه إمامتهم، ويسلك غير سبيلهم، ثم يدعي أنـه مؤتم بهم؛ فتلك أمـانيهم، ويقـال لهم: ﴿هَـاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

الوجه الثاني والسبعون: قولكم: إن أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا البلاد، وكان الناس حديثي عهد بالإسلام، وكانو يُفتُونهم، ولم يقولوا لأحد منهم عليك أن تطلب معرفة الحق في هٰذه الفتوى بالدليل.

جوابه: أنهم لم يُفتُوهم بآرائهم، وإنما بلغوهم ما قاله نبيهم وفعله وأمر به فكان ما أفْتَوْهم به هو الحكم وهو الحجة وقالوا لهم: هٰذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم، فكان ما يخبرونهم به هو نفس الدليل وهو الحكم؛ فإن كلام رسـول الله ﷺ هو الحكم وهو دليل الحكم، وكذٰلك القرآن، وكان الناس إذ ذاك إنما يحرصون على معرفة ما قاله نبيهم وفعله وأمر به، وإنما تبلغهم الصحابة ذٰلك، فأين هٰذا من زمان إنما يحرص أشباه الناس فيه على ما قالـه الآخـر فالآخر، وكلما تأخر الرجل؛ أخذوا كلامه وهجروا أو كادوا يهجرون كلام من فوقه، حتى تجد أتباع الأئمة أشدّ الناس هجراً لكلامهم،

وأهل كل عصر إنما يقضون ويفتون بقول الأدنى فالأدنى إليهم، وكلما بعد العهد؛ ازداد كلام المتقدم هجراً ورغبة عنه، حتى إن كتبه لا تكاد تجد عندهم منها شيئاً بحسب تقدم زمانه.

لكن أين قال أصحاب رسول الله ﷺ للتابعين: لينصب كل منكم لنفسه رجلاً يختاره، ويقلده دينه، ولا يلتفت إلى غيره، ولا يتلقَّ الأحكام من الكتاب والسنة، بل من تقليد الرجال، فإذا جاءكم عن الله ورسوله شيء وعمن نصبتموه إماماً تقلدونه؛ فخذوا بقوله، ودعوا ما بلغكم عن الله ورسوله، فوالله لو كشف الغطاء لكم، وحقت الحقائق؛ لرأيتم نفوسكم وطريقكم مع الصحابة كما قال الأول:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ... ونَزَلت بالبيداء أبعد منزِل

وكما قال الثاني:

سارت مُشرِّقَةً وسرتُ مغرباً ... شتانَ بين مشرِّقٍ ومغرِّبِ

وكما قال الثالث:

أيها المُنكِح الثريا سُهيلاً ... عَمْرك الله كيف يلتقيان
هي شاميَّةٌ إذا ما استقلَّت ... وسُهَيْلٌ إذا استقلَّ يماني

الوجه الثالث والسبعون: قولكم: إن التقليد من لوازم الشرع والقَدَر، والمنكرون له مضطرون إليه ولا بد؛ كما تقدم بيانه من الأحكام.

جوابه: أن التقليد المنكر المذموم ليس من لوازم الشرع، وإن كان من لوازم القدر، بل بطلانه وفساده من لوازم الشرع، كما عرف بهذه الوجوه التي ذكرناها وأضعافها، وإنما الذي من لوازم الشرع المُتابعة، وهذه المسائل التي ذكرتم أنها من لوازم الشرع ليست تقليداً، وإنما هي متابعة وامتثال للأمر، فإن

أبيتم إلا تسميتها تقليداً؛ فالتقليد بهٰذا الاعتبار حق، وهو من الشرع، ولا يلزم من ذٰلك أن يكون التقليد الذي وقع النزاع فيه من الشرع، ولا من لوازمه، وإنما بطلانه من لوازمه يوضحه الوجه الرابع والسبعون.

الوجه الرابع والسبعون: أن ما كان من لوازم الشرع؛ فبطلان ضده من لوازم الشرع، فلو كان التقليد الذي وقع فيه النزاع من لوازم الشرع؛ لكان بطلان الاستدلال واتباع الحجة في موضع التقليد من لوازم الشرع؛ فإن ثبوت أحد النقيضين يقتضي انتفاء الآخر، وصحة أحد الضدين يوجب بطلان الآخر وتحرره دليلاً.

فنقـول: لو كان التقليد من الدين لم يجز العدول عنه إلى الاجتهاد والاستدلال لأنه يتضمن. . .

فإن قيل: كلاهمـا من الدين، أو أحدهما أكمل من الآخر، فيجوز العدول عن المفضول إلى الفاضل».

وقد ذكر العلامة أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه فصلاً مفيداً في كتابه القيم «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» بين فيه أسباب الضلال والشبه التي استدل بها هٰؤلاء الضلال قال رحمه الله:

«**فصل**

ومما ينبغي أن يعلم أن سبب ضلال النصارى وأمثالهم من الغالية كغالية العباد والشيعة وغيرهم ثلاثة أشياء:

الأول: ألفاظ متشابهة مجملة مشكلة منقولة عن الأنبياء وعدلوا عن الألفـاظ الصريحة المحكمة وتمسكوا بها، وهم كلما سمعوا لفظاً لهم فيه شبهـة؛ تمسكوا به وحملوه على مذهبهم، وإن لم يكن دليلاً على ذٰلك،

والألفاظ الصريحة المخالفة لذٰلك: إما أن يفوضوها، وإما أن يتأولوها كما يصنع أهل الضلال، يتبعون المتشابه من الأدلة العقلية والسمعية، ويعدلون عن المحكم الصريح من القسمين.

والثاني: خوارق ظنوها من الآيات، وهي من أحوال الشياطين، وهٰذا ممَّا ضل به كثير من الضلال المشركين وغيرهم؛ مثل دخول الشياطين في الأصنام، وتكليمهم للناس، ومثل إخبار الشياطين للكهان بأمور غائبة، ولا بد لهم مع ذٰلك من كذب، ومثل تصرفات تقع من الشياطين.

الثالث: أخبار منقولة إليهم ظنوها صدقاً وهي كذب، وإلا فليس مع النصارى ولا غيرهم من أهل الضلال على باطلهم لا معقول صريح، ولا منقول صحيح، ولا آية من آيات الأنبياء، إن تكلموا بمعقول تكلموا بألفاظ متشابهة مجملة، فإذا استفسروا عن معاني تلك الكلمات، وفرق بين حقها وباطلها، تبين ما فيها من التلبيس والاشتباه، وإن تكلموا بمنقول، فإما أن يكون صحيحاً لا يدل على باطلهم، وإما أن يكون غير ثابت بل مكذوب، وكذٰلك ما يذكرونه من خوارق العادات: إما أن يكون صحيحاً قد ظهر على يد نبي كمعجزات المسيح ومن قبله إلياس واليسع وغيرهما من الأنبياء، وكمعجزات موسى عليه السلام؛ فهٰذه حق، وإما أن تكون قد ظهرت على يد بعض الصالحين؛ كالحواريين، وذٰلك لا يستلزم أن يكونوا معصومين كالأنبياء؛ فإن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه، لا يتصور أن يقولوا على الله؛ إلا الحق، ولا يستقر في كلامهم باطل، لا عمداً ولا خطأ.

وأما الصالحون؛ فقد يغلط أحدهم ويخطىء مع ظهور الخوارق على يديه، وذٰلك لا يخرجه عن كونه رجلاً صالحاً، ولا يوجب أن يكون معصوماً إذا كان هو لم يدع العصمة، ولم يأت بالآيات دالة على ذٰلك، ولو ادعى

العصمة وليس بنبي ؛ لكان كاذباً، لا بد أن يظهر كذبه، فتقترن به الشياطين، فتضله، ويدخل في قوله تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ . تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢].

والنصارى عندهم منقول في الأناجيل أن الذي صلب ودفن في القبر رآه بعض الحواريين وغيرهم بعد أن دفن قام من قبره مرتين أو ثلاثاً، وأراهم موضع المسامير، وقال: لا تظنوا أني شيطان، وهٰذا إذا كان صحيحاً؛ فذاك شيطان ادعى أنه المسيح، والتبس على أولٰئك.

ومثل هٰذا قد جرى لخلق كثير في زماننا وقبل زماننا، كناس كانوا بـ (تدمر)، فرأوا شخصاً عظيماً طائراً في الهواء، وظهر لهم مرات بأنواع من اللباس، وقال لهم: أنا المسيح بن مريم، وأمرهم بأمور يمتنع أن يأمر بها المسيح، وحضروا إلى عند الناس، وبينوا أن ذٰلك هو شيطان أراد أن يضلهم.

وآخرون يأتي أحدهم إلى قبر من يعظمه ويحسن به الظن من الصالحين وغيرهم:

فتارة يرى القبر انشق وخرج منه إنسان على صورة ذٰلك الرجل.

وتارة يرى ذٰلك الإنسان قد دخل في القبر.

وتارة يراه إما راكباً وإما ماشياً داخلاً إلى مكان ذلك الميت كالقبة المبنية على القبر.

وتارة يراه خارجاً من ذٰلك المكان، ويظن أن ذٰلك هو ذٰلك الرجل الصالح، وقد يظن أن قوماً استغاثوا به، فذهب إليهم، ويكون ذٰلك شيطاناً تصور بصورته، وهٰذا جرى لغير واحد ممن أعرفهم.

وتارة يستغيث أقوام بشخص يحسنون به الظن، إما ميت غائب، فيرونه بعيونهم قد جاء، وقد يكلمهم، وقد يقضي بعض حوائجهم، فيظنونه ذٰلك الشخص الميت، وإنما هو شيطان زعم أنه هو وليس هو إياه.

وكثيراً ما يأتي الشخص بعد الموت في صورة الميت، فيحدثهم، ويقضي ديوناً، ويرد ودائع، ويخبرهم عن الموتى، ويظنون أنه هو الميت نفسه قد جاء إليهم، وإنما هو شيطان تصور بصورته.

وهٰذا كثير جدّاً، لا سيما في بلاد الشرك، كبلاد الهند ونحوها.

ومن هٰؤلاء من تراه أنت تحت سريره، آخذاً بيد ابنه في الجنازة.

ومنهم من يقول: إذا مت؛ فلا تدعوا أحداً يغسلني، فأنا آتي من هٰذه الناحية أغسل نفسي، فيأتي بعد الموت شخص في الهواء على صورته يغسله هو، والذي أوصاه يظن ذٰلك أنه جاء، وإنما هو شيطان تصور بصورته.

وتارة يرى أحدهم شخصاً: إما طائراً في الهواء، وإما عظيم الخلقة، وإما أن يخبره بأشياء غائبة ونحو ذٰلك، ويقول له: أنا الخضر، ويكون ذٰلك شيطاناً، كذب على ذٰلك الشخص، وقد يكون الرائي من أهل الدين والزهد والعبادة، وقد جرى هٰذا لغير واحد.

وتارة يرى عند قبر نبي أو غيره أن الميت قد خرج إما من حجرته وإما من قبره، وعانق ذٰلك الزائر، وسلم عليه، ويكون شيطاناً تصور بصورته.

وتارة يجيء من يجيء إلى عند قبر ذٰلك الشخص، فيستأذنه في أشياء، يسأله عن أمور، فيخاطبه شخص يراه أو يسمع صوتاً أويرى شخصاً ويكون ذٰلك شيطاناً أضله.

وقد يرى أشخاصاً في اليقظة: إما ركباناً وإما غير ركبان، ويقولون:

هٰذا فلان النبي: إما إبراهيم، وإما المسيح، وإما محمد، وهٰذا فلان الصديق: إما أبا بكر، وإما بعض الحواريين، وهٰذا فلان لبعض من يعتقد فيه الصلاح: إما جرجس، وإما غيره ممن تعظمه النصارى، وإما بعض شيوخ المسلمين، ويكون ذٰلك شيطاناً ادعى أنه ذٰلك النبي، أو ذٰلك الشيخ، أو الصديق، أو القديس.

ومثل هٰذا يجري كثيراً لكثير من المشركين والنصارى وكثير من المسلمين، ويرى أحدهم شيخاً يحسن به الظن، ويقول: أنا الشيخ فلان، ويكون شيطاناً، وأعرف من هٰذا شيئاً كثيراً، وأعرف غير واحد ممن يستغيث ببعض الشيوخ الغائبين الموتى، يراه قد أتاه في اليقظة وأعانه.

وقد جرى مثل هٰذا لي ولغيري ممن أعرفه، ذكر غير واحد أنه استغاث بي من بلاد بعيدة، وأنه رآني قد جئته، ومنهم من قال: رأيتك راكباً بثيابك وصورتك، ومنهم من قال: رأيتك على جبل، ومنهم من قال: غير ذٰلك، فأخبرتهم أني لم أغثهم، وإنما ذٰلك شيطان تصور بصورتي ليضلهم لما أشركوا بالله ودعوا غير الله.

وكذٰلك غير واحد ممن أعرفه من أصحابنا استغاث به بعض من يحسن به الظن، فرآه قد جاء وقضى حاجته، قال صاحبي: وأنا لا أعلم بذٰلك، ومن هٰؤلاء الشيوخ من يقول: إنه يسمع صوت ذٰلك الشخص المستغيث به ويجيبه، وتكون الشياطين أسمعته صوتاً يشبه صوت المستغيث به، فأجابه الشيخ بصوته، فأسمعت المستغيث صوتاً يشبه صوت الشيخ، فيظن أنه صوت الشيخ.

وهٰذا جرى لمن أعرفه، فأخبر بذٰلك عن نفسه، وقال: بقي الجني الذي يحدثني يبلغني مثل صوت المستغيثين بي ويبلغهم مثل صوتي ويريني

في شيء أبيض نظير ما أسأل عنه، فأخبر به الناس أني رأيته، وأنه سيأتي، ولا أكون قد رأيته، وإنما رأيت شبهه، وهٰكذا تفعل الجن بمن يعزم عليهم ويقسم عليهم.

وكذٰلك ما رآه قسطنطين من الصليب الذي رآه من نجوم، والصليب الذي رآه مرة أخرى، وهو ما مثله الشياطين، وأراهم ذٰلك ليضلهم به، كما فعلت الشياطين ما هو أعظم من ذٰلك لعباد الأوثان.

وكذٰلك من ذكر أن المسيح جاءه في اليقظة، وقال: إنه المسيح؛ إنما هو شيطان من الشياطين، كما جرى مثل ذٰلك لغير واحد.

والشيطان إنما يضل الناس ويغويهم بما يظن أنهم يطيعونه فيه، فيخاطب النصارى بما يوافق دينهم، ويخاطب من يخاطب من ضلال المسلمين بما يوافق اعتقاده، وينقله إلى ما يستحب لهم فيه بحسب اعتقادهم.

ولهٰذا يتمثل لمن يستغيث من النصارى بجرجس في صورة جرجس، أو بصورة من يستغيث به من النصارى من أكابر دينهم: إما بعض البتاركة، وإما بعض المطارنة، وإما بعض الرهبان، ويتمثل لمن يستغيث به من ضلال المسلمين بشيخ من الشيوخ في صورة ذٰلك الشيخ ما يتمثل لجماعة ممن أعرفه في صورتي، وفي صورة جماعة من الشيوخ الذين ذكروا في ذٰلك، ويتمثل كثيراً في صورة بعض الموتى، تارة يقول: أنا الشيخ عبد القادر، وتارة يقول: أنا الشيخ أبو الحجاج الأقصري، وتارة يقول: أنا الشيخ عدي، وتارة يقول: أنا أحمد بن الرفاعي، وتارة يقول: أنا أبو مدين المغربي، وإذا كان يقول: أنا المسيح، أو إبراهيم، أو محمد؛ فغيرهم بطريق الأولى، والنبي ﷺ قال: «من رآني في المنام فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل في

صورتي»، وفي رواية: «في صور الأنبياء»؛ فرؤيا الأنبياء في المنام حق، وأما رؤية الميت في اليقظة؛ فهٰذا جني تمثل في صورته.

وبعض الناس يسمي هٰذا روحانية الشيخ، وبعض الناس يقول: هي رفيقه، وكثير من هٰؤلاء من يقوم من مكانه ويدع في مكانه صورة مثل صورته، وكثير من هٰؤلاء ومن هٰؤلاء يرى في مكانين، ويرى واقفاً بعرفات، وهو في بلده لم يذهب، فيبقى الناس الذين لا يعرفون حائرين.

فإن العقل الصريح يعلم أن الجسم الواحد لا يكون في الوقت الواحد في مكانين.

والصادقون قد رأوا ذٰلك عياناً، لا يشكون فيه، ولهٰذا يقع النزاع كثيراً بين هٰؤلاء؛ كما قد جرى ذٰلك غير مرة، وهٰذا صادق فيما رأى وشاهد، وهٰذا صادق فيما دل عليه الصريح.

لكن ذٰلك المرئيّ كان جنيّاً تمثل في صورة الإنسان، والحسيات إن لم يكن معها عقليات تكشف حقائقها، وإلا؛ وقع فيها غلط كثير.

وهٰذا القسم المشهود في الخارج غير ما يتخيله الإنسان في نفسه؛ فإن هٰذا يعرفه جميع الناس، ويعرفه جميع العقلاء، ويتخيلون أشياء في أنفسهم؛ كما يتخيله النائم في منامه، وتكون تلك الصورة موجودة في الخيال لا في الخارج.

والفلاسفة وجميع العقلاء يعترفون بهٰذا، لكن كثيراً من الفلاسفة يظن أن ما رأته الأنبياء من الملائكة، وما سمعته من الكلام؛ كان من هٰذا النوع، ويظنون أن ما يرى من الجن هو من هٰذا النوع، وهٰؤلاء جهال غالطون في هٰذا، كما جهلوا وغلطوا في ظنهم أن خوارق العادات سببها قوى نفسانية أو

طبيعية أو قوى فلكية، وأن الفرق بين النبي والساحر إنما هو حسن قصد هٰذا وفساد قصد ظن الآخر، وإلا؛ فكلاهما خوارق سببها قوى نفسانية أو فلكية، وهٰذا النفي باطل، كما قد بسطنا الكلام عليه، وبينا جهل هٰؤلاء وضلالهم في غير هٰذا الموضع.

والذين شاهدوا ذٰلك في الخارج وثبت عندهم بالأخبار الصادقة المتواترة وجود ذٰلك في الخارج، يعلمون أن هٰؤلاء جاهلون وضالون، ويعلمون أن الملائكة تظهر في صورة البشر؛ كما ظهرت لإبراهيم ولوط ومريم في صورة البشر، وكما كان جبريل يظهر للنبي ﷺ تارة في صورة دحية الكلبي وتارة في صورة أعرابي، ويراه كثير من الناس عياناً، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره، وكذٰلك لما ظهر الشيطان للمشركين في صورة الشيخ النجدي وغيره، وظهر لهم يوم بدر في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فلما رأى الملائكة؛ هرب.

قال تعالى: ﴿وإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ أَعْمالَهُمْ وقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وإِنِّي جَارٌ لكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ على عَقِبَيْهِ وقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ واللهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وروي عن ابن عباس وغيره؛ قال: «تبدَّى إبليس في جند من الشياطين، ومعه راية، في صورة رجال من مدلج، والشيطان في صورة سراقة ابن مالك بن جعشم، فقال: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، وأقبل جبريل عليه السلام على إبليس، فلما رآه، وكانت يده في يد رجل من المشركين؛ نزع إبليس يده وولى مدبراً هو وشعبه، فقال الرجل: يا سراقة! أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد

العقاب».

قال ابن عباس: «وذٰلك لما رأى الملائكة».

قال الضحاك: «سار الشيطان معهم برايته وجنوده، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم وأنتم تقاتلون على دينكم ودين آبائكم».

وكثير من الناس تحمله الجن إلى مكان بعيد، فتنقل كثيراً من الناس إلى عرفات وغير عرفات، وإذا رُئي واحد من هٰؤلاء في غير بلده؛ يكون تارة محمولاً، تارة قد حملته الجن، وتارة قد تصورت على صورته، ولا يكون هٰذا من أولياء الله المتقين، الذين لهم كرامات، بل قد يكون من الكافرين أو الفاسقين، وأعرف من ذٰلك قصصاً كثيرة ليس تفصيلها في هٰذا الموضع.

وعند المشركين والنصارى من ذٰلك شيء كثير، يظنونه من جنس الآيات التي للأنبياء، وإنما هي من جنس ما للسحرة والكهان، ومن لم يفرق بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان، ويفرق بين معجزات الأنبياء وكرامات الصالحين، وبين خوارق السحرة والكهان ومن يقترن بهم الشياطين، وإلا؛ التبس عليه الحق بالباطل: فإما أن يكذب بالحق الذي جاء به الأنبياء الصادقون، وإما أن يصدق بالباطل الذي يقوله الكافرون والغالطون.

وهٰذه الأمور مبسوطة في موضع آخر، والمقصود هنا التنبيه على هٰذا الأصل، وعلماء النصارى يسلمون هٰذا، وعندهم من ذٰلك أخبار كثيرة من حكايات أولياء الشيطان الذين عارضهم أولياء الرحمٰن وأبطلوا أحوالهم كما أبطل موسى ما عارضه به السحرة من الخوارق كما ذكر في التوراة، وكما يذكرونه عن فلان وفلان، ومثل حكاية سيمون الساحر مع الحواريين، وغير ذٰلك.

فإذا كان هٰذا معلوماً؛ كان ما يذكرونه من هٰذا الجنس إذا كان مخالفاً لما ثبت عن الأنبياء من الشيطان؛ فلا يجوز أن يحتج على ما يخالف شرائع الأنبياء الثـابتة عنهم، بل هٰؤلاء من جنس الدجال الكبير، الذي أنذرت به الأنبياء كلهم، حتى نوح أنذر قومه.

وقال خاتم الرسل ﷺ: «ما من نبي إلا قد أنذر أمته، حتى نوح أنذر قومه، وسأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لأمته: إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه: كافر (ك. ف. ر)، يقرؤه كل مؤمن قارىء وغير قارىء».

وقال: «واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت».

وقد أخبر أن المسيح عيسى بن مريم مسيح الهدى ينزل إلى الأرض على المنارة البيضاء شرقي دمشق، فيقتل مسيح الضلالة، وهٰذا هو الذي تنتظره اليهود، ويجحدون المسيح عيسى بن مريم، ويقولون: هٰذا هو الذي بشرت به الأنبياء، ويتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفاً مطيلسين، ويقتلهم المسلمـون مع عيسى بن مريم شر قتلة، حتى يقـول الشجـر والحجر: يا مسلم! هٰذا يهودي ورائي، تعال اقتله.

وكـل هٰذا ثابت في «الصحيح» عن النبي ﷺ، ولهٰـذا أمـر أمته أن يستعيذوا بالله من فتنته، فقال: «إذا قعد أحدكم في التشهد في الصلاة؛ فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جنهم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال».

والأنبياء كلهم أنـذروا بالكـذابين الذين يتشبهون بالأنبياء، لكن من الناس من يتعمد الكذب، وكثير منهم لا يتعمد، بل يلتبس عليه، فيغلط،

فيخبر بما يظنه حقاً، ولا يكون كذلك، ويرى في اليقظة ما يظنه فلاناً الولي أو النبي أو الخضر ولا يكون كذلك.

والغلط جائز على كل أحد؛ إلا الأنبياء عليهم السلام؛ فإنهم معصومون لا يقرون على خطأ، فمن لم يزن علومه وأعماله وأقواله وأفعاله بالمعلوم عن الأنبياء، وإلا؛ كان ضالاً، نسأل الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

فصل

والخوارق التي يضل بها الشياطين لبني آدم، مثل تصور الشيطان بصورة شخص غائب أوميت، ونحو ذلك، ضل بها كثير من الناس من المنتسبين إلى المسلمين، أو إلى أهل الكتاب وغيرهم، وهم بنوا ذلك على مقدمتين:

أحدهما: أن من ظهرت هذه على يديه؛ فهو ولي لله، وبلغة النصارى: هو قديس عظيم.

الثاني: أن من يكون كذلك؛ فهو معصوم، وكل ما يخبر به حق، وكل ما يأمر به؛ فهو عدل، وقد لا يكون ظهرت على يديه خوارق، لا رحمانية ولا شيطانية، ولكن صنع حيلة من حيل أهل الكذب والفجور، وحيل أهل الكذب والفجور كثيرة جدّاً، فيظن أن ذلك من العجائب الخارقة للعادة، ولا يكون كذلك مثل الحيل المذكورة عن الرهبان.

وقد صنف بعض الناس مصنفاً في حيل الرهبان:

مثل الحيلة المحكية عن أحدهم في جعل الماء زيتاً: بأن يكون الزيت

في جوف منارة، فإذا نقص؛ صب فيها ماء، فيطفو الزيت على الماء، فيظن الحاضرون أن نفس الماء انقلب زيتاً.

ومثل الحيلة المحكية عنهم في ارتفاع النخلة، وهو أن بعضهم مر بدير راهب وأسفل منه نخلة، فأراه النخلة صعدت شيئاً حتى حاذت الدير، فأخذ من رطبها، ثم نزلت حتى عادت كما كانت، فكشف الرجل الحيلة فوجد النخلة في سفينة في مكان منخفض، إذا أرسل عليه الماء؛ امتلأ حتى تصعد السفينة، وإذا صرف الماء إلى موضع آخر؛ هبطت السفينة.

ومثل الحيلة المحكية عنهم في التكحل بدموع السيدة، وهو أنهم يضعون كحلاً في ماء متحرك حركة لطيفة، فيسيل حتى ينزل من تلك الصورة، فيخرج من عينها، فيظن أنه دموع.

ومثل الحيلة التي صنعوها بالصورة التي يسمونها القونة بصيدنايا، وهي أعظم مزاراتهم بعد القيامة وبيت لحم، حيث ولد المسيح، وحيث قبر، فإن هٰذه هي صورة السيدة مريم، وأصلها حشة نخلة سقيت بالأدهان حتى سمنت وصار الدهن يخرج منها مصنوعاً، يظن أنه من بركة الصورة.

ومن حيلهم الكثيرة النار التي يظن عوامهم أنها تنزل من السماء في عيدهم في قمامة، وهي حيلة قد شهدها غير واحد من المسلمين والنصارى، ورأوها بعيونهم أنها نار مصنوعة يصلون بها عوامهم، يظنون أنها نزلت من السماء، ويتبركون بها، وإنما هي صنعة صاحب محال وتلبيس.

ومثل ذٰلك كثير من حيل النصارى، فجميع ما عند النصارى المبدلين لدين المسيح من الخوارق: إما حال شيطاني، وإما محال بهتاني، ليس فيه شيء من كرامات الصالحين.

وكذٰلك أهل الإلحاد المبدلين لدين محمد ﷺ، الذين يتخذون ديناً لم يشرعه الله ورسوله ويجعلونه طريقاً إلى الله، وقد يختارونه على الطريق الذي شرعه الله ورسوله، مثل أن يختاروا سماع الدفوف والشبابات على سماع كتاب الله تعالى؛ فقد يحصل لأحدهم من الوجد والغرام الشيطاني ما يلبسه معه الشيطان، حتى يتكلم على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه ذٰلك الشخص إذا أفاق، كما يتكلم الجني على لسان المصروع، وقد يخبر بعض الحاضرين بما في نفسه، ويكون ذٰلك من الشيطان، فإذا فارق الشيطان ذٰلك الشخص؛ لم يدر ما قال.

ومنهم مِن يحمله الشيطان ويصعد به قدام الناس في الهواء.

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيموت أو يمرض أو يصير مثل الخشبة.

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين، فيلبسه الشيطان، ويزول عقله، حتى يبقى دائراً زماناً طويلاً بغير اختياره.

ومنهم من يدخل النار ويأكلها ويبقي لهبها في بدنه وشعره.

ومنهم من تحضر له الشياطين طعاماً أو شيئاً من لادن أو سكر أو زعفران أو ماء ورد.

ومنهم من تأتيه بدراهم تسرقها الشياطين من بعض المواضع.

ثم من هٰؤلاء إذا فرق الدارهم على الحاضرين؛ أخذت منهم، فلا يمكنون من التصرف فيها، إلى أمور يطول وصفها، وآخرون ليس لهم من يعينهم على ذٰلك من الشياطين، فيصنعون حيلاً ومخاريق.

فالملحدون المبدلون لدين الرسل ـ دين المسيح أو دين محمد ﷺ ـ

كأمثالهم من أهل الإلحاد والضلال والكفار المرتدين المشركين وغيرهم؛ كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والحارث الدمشقي، وبابا الرومي، وغيرهم ممن لهم خوارق شيطانية.

وأما أهل الحيل؛ فيكثرون، وهٰؤلاء ليسوا أولياء الله، بل خوارقهم إذا كانت شيطانية من جنس خوارق الكهنة والسحرة؛ لم يكن لهم حال شيطاني بل محال بهتاني؛ فهم متعمدون الكذب والتلبيس، بخلاف من يقترن به الشياطين، فإن فيهم من يلبس عليه، فيظن أن هٰذا من جنس كرامات الصالحين، كما أن فيهم من يعرف أن ذٰلك من الشياطين، ويفعله لتحصيل أغراضه.

فالمقصود أنه كثير من الخوارق ما يكون من الشياطين، أو يكون حيلاً ومخاريق، ويظن أنها من كرامات الصالحين، فإن ما يكون سببه الشرك أو الفجور إنما يكون من الشياطين، مثل أن يشرك الرجل بالله، فيدعو الكواكب، أو يدعو مخلوقاً من البشر ميتاً أو غائباً، أو يعزم أو يقسم بأسماء مجهولة لا يعرف معناها، أو يعرف أنها أسماء الشياطين، أو يستعين بالفواحش والظلم؛ فإن ما كان هٰذا سببه من الخوارق؛ فهو من الشيطان؛ كما قد بسط الكلام على ذٰلك في غير هٰذا الموضع.

والصالحون لهم كرامات مثل كرامات صالحي هٰذه الأمة، ومثل كرامات الحواريين وغيرهم ممن كان على دين المسيح، لكن وجود الكرامات على أيدي الصالحين لا توجب أن يكونوا معصومين كالأنبياء، بل يكون الرجل صالحاً وليّاً لله وله كرامات، ومع هٰذا؛ فقد يغلط ويخطىء فيما يظنه أو فيما يسمعه ويرويه، أو فيما يراه، أو فيما يفهمه من الكتب، ولهٰذا كان كل من سوى الأنبياء يؤخذ من قولهم ويترك؛ بخلاف الأنبياء صلوات الله عليهم

أجمعين؛ فإنه يجب تصديقهم في كل ما أخبروا به من الغيب، وطاعتهم في كل ما أمـروا به، ولهٰذا أوجب الله الإيمان بكل ما أتوا به ولم يوجب الإيمان بجميع ما يأتي به غيرهم.

قال تعـالى: ﴿قُـولُـوا آمَنَّـا باللهِ ومَا أُنْزِلَ إليْنا ومَا أُنْزِلَ إلى إبْراهِيمَ وإسْمـاعِيـلَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ والأسْباط وما أُوتِيَ مُوسى وعيسى ومَا أُوتيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بينَ أَحدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسْلمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقـال تعالى: ﴿ليسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْربِ ولكنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والمَلائِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولهٰذا اتفق المسلمون على أن من كذَّب نبيّاً معلوم النبوة؛ فهو كافر مرتد، ومن سب نبيّاً؛ وجب قتله، بل يجب الإيمان بجميع ما أوتيه النبيون كلهم، وأن لا يفرق بين أحد منهم، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض.

قال تعالى: ﴿إنَّ الذين يَكْفُرُونَ باللهِ ورُسُلِهِ ويُريدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بينَ اللهِ ورُسُلِهِ ويقولونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ ونَكْفُرُ بِبَعْضٍ ويُريدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلكَ سَبِيلاً . أُولٰئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً وأَعْتَدْنا للكَافِرِينَ عَذاباً مُهيناً﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

وليس هٰذا لأحـد غير الأنبياء، ولو كان من رسل الأنبياء، وكانوا من أعظم الصديقين المقدمين.

فصل

فضلال الضلال من هٰؤلاء مبني على مقدمتين:

أحدهما: أن هٰذا له كرامة، فيكون وليّاً لله.

الثاني: أن ولي الله لا يجوز أن يخطىء، بل يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليس لأحد من البشر أن يصدق في كل ما أخبر به ويطاع في كل أمر إلا أن يكون نبيّاً.

والمقدمتان المذكورتان، قد تكون إحداهما باطلة، وقد يكون كلاهما باطلاً؛ فالرجل المعين قد لا يكون من أولياء الله، وتكون خوارقه من الشياطين، وقد يكون من أولياء الله، ولكن ليس بمعصوم، بل يجوز عليه الخطأ، وقد لا يكون من أولياء الله، ولا يكون له خوارق، ولكن له محالات وأكاذيب»[1].



---

(١) (٤ / ٣٦٠).